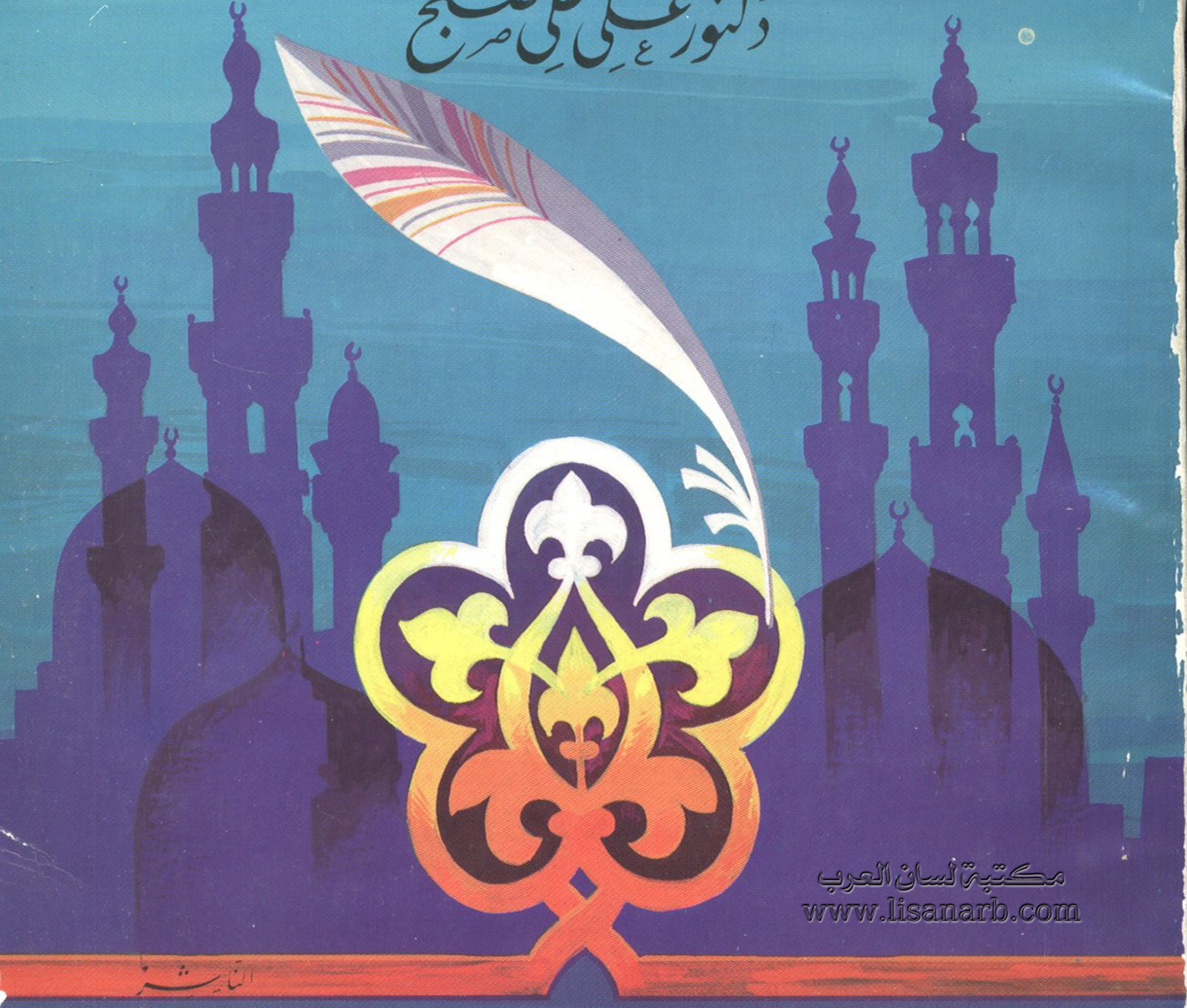
الأدب الإسلامي الصوفي

حتى نهاية القرن الرابع الهجري

دكتور علي علي صبح



الناشر
المكتبة الأزهرية للتراث
٩ درب الأتراك خلف جامع الأزهر الشريف

الأدب الإسلامي الصوفي

حتى نهاية القرن الرابع الهجري

دكتور علي علي صبح

١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

الناشر

المكتبة الأزهرية للتراث

٩ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر الشريف ت : ٥١٢٠٨٤٧

الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــــدمة

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله ﷺ ، خاتم النبيين والمرسلين ، وإمام المتقين ، ورحمة للناس أجمعين ، وعلى آله وصحبه والتابعين ، رضى الله عنهم أجمعين .

قال الله تعالى : ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا** ﴾ ؛ فقد اصطفى الله عز وجل هذه الأمة من بين الأمم ؛ فجعلها أمة وسطا ، واختار لها خير خلقه ، جاء بأتم الشرائع وأكمل الأخلاق ؛ فكان الرسول شهيدا عليها ، وكانت أمته شهيدة على الأمم ﴿ **وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير** ﴾ .

لذلك اختصها الله تعالى من بين الأمم بشريعة اتسمت بالتوسط فى كل شىء ، وميزها عن الأمم بالتوسط فى التشريع والحياة ؛والتعامل مع مظاهر الكون وأسرار الوجود ، وبالتوازن بين الجوانب الروحية والجوانب المادية ، فتعاليمها السمحة الميسورة تتنافى مع الفتور والمبالغة ، وتتناقض مع التدنى والغلو ؛ لذلك كانت خير أمة أخرجت للناس : « يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكرويؤمنون بالله » .

فكانت أعظم مرحلة من مراحل الأدب الإسلامى الصوفى هى مرحلة الأدب الزاهد فى عصر الرسول ﷺ ، والصحابة رضي الله عنهم ، ثم من تبعهم

بإحسان إلى يوم الدين ؛ فالأدب الزاهد فى هذه المرحلة هو الأدب الإسلامى حقا وهو الشطر الأول من عنوان هذا الكتاب « الأدب الاسلامى » ؛ لأنه أدب الوسطية لا المبالغة فى الزهد ، وأدب التوازن لا الغلو ، وأدب الاعتدال والعدل لا الإسراف والعزوف عن المشاركة فى بناء الحياة وتقدمها ، فهو لا يتفق مع أدب الذين تفانوا فى الزهد مروقًا من حال « الفناء » إلى حال «الاتحاد والحلول » ؛ فقد أسرفوا على أنفسهم فى « الأدب الصوفى » وهو الشطر الثانى من العنوان كالشبلى والجنيد والبسطامى والحلاج وغيرهم ·

وكان أعظم مصادر الأدب الإسلامى الزاهد هو « القرآن الكريم » و«الحديث الشريف » ثم « المأثور » من أدب الصحابة ﷺ أجمعين ، كما كانت هذه الأصول والمصادر الثلاثة هى أكثر الروافد القوية فى بناء « الأدب الصوفى» وإن تداخلت معها بعد ذلك التيارات الفكرية والفلسفية التى تمخضت عنها الحضارة العربية الإسلامية فى العصر العباسى ، فانحرف بعضها فى الأدب الصوفى عن بنائه الزاهد المتوازن ، وانتهى إلى ما انتهى إليه من المبالغة الشديدة فى التصوير الأدبى ، وإلى الإسراف والتطرف فى التعبير ، إلى حد تصوير «الحلول والاتحاد » و « وحدة الوجود » مما يتنافى مع شريعة الإسلام ، وحقيقته ! من التوسط والتوازن والاعتدال ، وهو جوهر ما دعا إليه الإسلام فى بناء أمة متحضرة متفوقة فى فكرها وثقافتها وعلومها ومخترعاتها وقوية فى سياستها واقتصادها وعتادها وأسلحتها وميزانها التجارى والتقنى« التكنولوجى» لتسمو وتتميز عن كل الأمم والشعوب فى شتى المواقع والعصور ؛ **﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾** وفى الحديث : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف » ·

وكذلك تبنى أمة عزيزة الجانب ، لا تخضع ولا تذل ، ولا تمد يدها ، ولا تحتاج إلى عدوها ، لأن العزة لابد أن تكون لله ولرسوله وللمؤمنين :

﴿ يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾ ·

لذلك كله كان عنوان هذا الكتاب على النحو التالى من الترتيب المتنامى المتطور : « الأدب الإسلامى الصوفى حتى نهاية القرن الرابع الهجرى » .

أدعو الله عز وجل أن ينفع به ابتغاء مرضاة الله تعالى الذين استجابوا لربهم الحسنى كما وعد سبحانه وتعالى :

﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون ﴾ .

على على مصطفى صبح

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ الصادق الأمين ، خاتم النبيين ، وسيد المرسلين ، وإمام المتقين .

حفل الأدب العربى بفنون أدبية ، ارتقت حينا فى ظل الحضارة العربية الإسلامية ، ونشأت أحيانًا أخرى فنون جديدة من ثقافتها المتنوعة وتألفت من تياراتها الفكرية المتدفقة ، وكان من بين هذه الفنون الأدبية ما نحن بصدد الحديث عنه وهو « الأدب الإسلامى الصوفى » نثرًا وشعرا .

وقد أجمع النقاد قديما وحديثًا على أن الغزل بنوعيه، والهجاء ، بل أدب الزندقة كانت ولا تزال كلها من الأغراض الأدبية في تاريخ الأدب العربى ، ولن يكون بدعًا حين ندرس هذا اللون من الأدب الإسلامى المشدود بعقيدة المسلمين وبأدبهم فى ظل الإسلام .

ومن المعلوم أن هذا الفن الأدبى - قبل أن يصطلح رواده فى القرن الثانى الهجرى على تسميته « الأدب الصوفى » - قد شب أواره قبل ذلك فى أسمى صوره ، التى بلغت الغاية فى التعرف على المعبود الحق سبحانه وتعالى، والتى انتهت إلى الإعجاز فى القرآن الكريم للسمو الروحى ، فارتضاه الله فى صفوة من عباده الذين اجتباهم وهداهم ، فهم يخشونه ولا يخشون أحدًا إلا الله .

وإمام المتقين سيدنا محمد ﷺ هو خير من عرف ربه ، فكان المثل الأعلى فى ذلك سلوكا وحديثًا وإرشادًا ، وكذلك أصحابه ﷺ فى سلوكهم وأعمالهم وأدبهم .

فالقرآن الكريم ، والحديث الشريف ، ثم أدب الصحابة رضوان الله

عليهم قد بلغ الغاية ، وانتهى إلى السمو ، فمهما بلغ المعتدلون من الصوفية فى القرن الثانى الهجرى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فلن يبلغوا مد أحدهم ولا نصيفه .

ولعل إهمال الدراسات التفصيلية للصدر الأول شكلا وموضوعًا فى هذا الجانب الروحى ، والاستغراق فيما بعده ، من مرحلة الزهد إلى مرحلة التصوف دفع بعض الدارسين إلى قطع الصلة بينهما ، والحكم على الأدب الصوفى بأنه غريب عن الحضارة العربية الإسلامية .

والدراسة التفصيلية لبعض النماذج فى الصدر الأول لا تمتاز بالموازنة بينها وبين أطوارها فقط ،التى كانت دونه أو جاوزت حد الاعتدال ، فخرجت عن إطاره ، لكنها مشحونة فى ذاتها بطاقات تتفجر فى وجه الطاعنين على هذا الفن الأدبى والمتشيعين له ، ولن نشغل بالنا كثيرًا فى الرد عليهم ودحض دعاواهم حتى نتجه بكل طاقاتنا إلى الدراسة الموضوعية للأدب ذاته وفى هذه أبلغ الرد عليهم جميعًا .

والأدب الإسلامى الصوفى لا يحتاج من الباحث أن يكون فقيها ؛ ليقيم ميزان التشريع ، فيحكم على الأديب الصوفى بالإيمان أو الفكر ، فهذا من شأن القاضى الفقيه ، عند ذلك يكون موضوع البحث: « منازل الصوفية من الإسلام » ، ولا يحتاج كذلك أن يكون الباحث فيلسوفًا ليبحث عن مصادره الفلسفية ، ومضاربها فى أعماق القدم ؛ فهذا من عمل الفيلسوف ، الذى يبحث عن علم « فلسفة التصوف الإسلامى » ؛ ولا يحتاج أيضًا أن يكون الباحث هنا مؤرخا حتى يكون بحثه فى « طبقات الصوفية » ؛ ولن يكون كل ذلك إلا بقدر ما يعين على الدراسة التخصصية الموضوعية ، التى تكشف فى ذاتها عن الصدق الفنى للعواطف الدينية وتوضيح النزعة الوجدانية الروحية ، فنقف على شرف النسبة إلى نبعه الإسلامى الصافى : وتتحدد معالمه فى النثر والشعر ، لتبرز الخصائص الفنية من مكامن البيئة الإسلامية .

وفى هذه الدراسة نحاول :

أولا : أن ندرس نصوصًا قرآنية ، لنقف على روعة الإعجاز فى التصوير القرآنى للسمو الروحى ، ونوضح بلاغة الحديث النبوى الشريف فى هذا الجانب ، ثم بلاغة القول فى بعض ما أثر عن الصحابة رضوان الله عليهم أيضًا ، ويكفينا هنا جلال النبوة والرسالة وشرف الصحبة ، والنهل من معين النبوة ، كما يكفينا هذا أيضًا عن التعلق بما طرأ بعدُ من مصطلحات للعلوم الإسلامية ، وخاصة ما اصطلح عليه علماء القرن الثانى الهجرى من شعار «التصوف والصوفية » ·

ثانيا : دراسة الزهد وأدبه بعد الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ؛ لنحدد معناه ،وما اشتهر فيه من الأدباء فيه ، ونحدد خصائصه الفنية فى هذه المرحلة ·

وفى النهاية تسير الدراسة حتى نهاية القرن الرابع الهجرى؛ لنرى أن أدب الزهد ينتقل إلى طور آخر متمثلا فى أدب يحمل سمات الصدق الفنى ؛ فيصدر عن عاطفة مشبوبة حارة ، ويكشف عن مشاعر رقيقة ، وينم عن إحساس صادق، وهو ما اصطلح عليه الصوفية آنذاك باسم « الأدب الصوفى » ·

والله أسأل سبحانه وتعالى أن يلهمنا الصواب والله وحده ولى التوفيق ·

« على على صبح »

الفصل الأول

الإسلام هو التشريع السماوى
للإيمان الخالص بالله عز وجل

(١)

الإسلام دين الفطرة

كرم الله الإنسان من بين خلقه عما سواه من الكائنات بالعقل ، وشرفه بالفكر والإرادة ، وشاء له أن يظل كذلك ممتازًا يحظى بالفضل ، فشرع له من التكاليف ما يحفظ له هذا الشرف ، ويظل موضع العجب من بين المخلوقات جميعًا ، لأنه أهل للتكليف ، وموطن للتشريع ، ينهض بتحمل الأمانة ، ويحاول الوفاء بها ، ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسَانُ ﴾ (١) .

وحينما ينمو الوعى فى الإنسان ، ويستطيع أن يعبر عن خواطره ، يشعر أول ما يشعر أنه كائن تصدر عنه أقوال وأفعال ، تلبى مطالبه ، وتقضى حوائجه ، وأنها تقع عن إرادة وعزم ، وهو فى كل ذلك موقن تماما أن الجميع صدر عن نفسه ، ووقع منه مختاراً أو مضطراً ، لكنه فى نفس الوقت لا يشك أدنى شك فى وجوده ، فهو أثر لمؤثر خارجى أوجده ، ومخلوق لخالق مبدع أبدعه ، خلقه فى أحسن تقويم ؛ ويستمر كذلك ، تلح فى أعماقه أصوات خفية تناديه ، ويتردد صداها فى جوانب النفس ، تسأل عن قضية الوجود ، وعن الخالق والمخلوق ، وعما وراء ذلك من أسرار ومقاصد ؛ وتنتظر الإجابة من النفس ذاتها .

تساؤلات كثيرة ، كلها تبحث عن حقيقة الوجود ، عن السموات والأرض ، وعما بينهما من مخلوقات ، وعن الإنسان وكيف خلق ؟ ومن أين جاء ؟ ومن خلقه ؟ ودبر أمره وتكفل برزقه ، ومن الذى يميته بعد حياته ؟ ومتى نهايته ؟ وما السر وراء ذلك كله ؟

فتتجاوب الأصداء فى النفس ، ويلهج اللسان بالدعاء ، معبراً عن إسلام الفطرة لفاطر السموات والأرض وما بينهما ، وتسليم الخلق والإبداع لله الواحد القهار ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ ، مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

(١) الأحزاب : ٧٢ .
(٢) الدخان : ٣٨ ، ٣٩ .

﴿ أَمْ خُلِقُــواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ، أَمْ خَلَقُواْ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [١] .

فتوقن النفس عن فطرة بأن وراء هذا العالم والحياة غاية أخرى ، يسعى الإنسان من أجلها ، هى الحياة الآخرة ، حيث يلقى جزاءه إن خيرًا فخيرٌ ، وإن شرًا فشرٌ .

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ﴾ [٢] . ﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّا أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ ، قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّمَوَاتِ ، أَئْتُونِى بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [٣] .

تلك هى الفطرة التى فطرها الله فى الإنسان ، بها يتعرف على خالقه معرفة خالصة من معانى الشرك .

﴿ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ، كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُواْ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ ، اللهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ، وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [٤] .

هذه الفطرة فى النفس ، التى اهتدت إلى الخالــــق هى الدين نفسه ؛ ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [٥] ، والدين هو الإســـلام : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلاَمُ ﴾ [٦] .

وهى إبداع من آياته ، وصبغ من تصويره ؛ ﴿ صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ [٧] .

---

(١) الطور : ٢٥ ، ٢٦ . (٢) المؤمنون : ١١٥ .
(٣) الأحقاف : ٢ ، ٣ . (٤) غافر: ٦٢ ، ٦٥ . (٥) الروم : ٣٠.
(٦) البقرة : ١٩ . (٧) البقرة : ١٢٨ .

والفطرة الإنسانية لا تستقر على حال حتى تسلم لله ، ولا تهدأ حتى تؤمن به ، ولا تصفو حتى تجده وتتوجه إليه ، ولا تسعد حتى يملؤها الإيمان بالله . ولا تطمئن حتى تتغذى بمعرفته حق المعرفة .

بذلك تستقر بعد تيه ، وتستريح بعد تعب ، وتسكن بعد قلق ، وتهتدى بعد ضلال . وتأمن بعد خوف ، وتسعد بعد شقاء . وتتأنى بعد ثورة .

ويصور ابن القيم تسابيح الفطرة خاشعة فى محاريب الجلال والتقديس ، بعد أن كانت تهدر فى بحر لجى يغشاه موج ، من فوقه موج ، من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض :

« فى القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله .

وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس بالله .

وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته .

وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه والفرار إليه .

وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضى بأمره .

ونهيه وقضائه ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه .

وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه .

ودوام ذكره ، وصدق الإخلاص له

ولو أعطى الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة أبدًا » (١) .

الفطرة لا تموت أبدًا فى الإنسان ، لكن قد تنحرف باتباع الهوى ، وتتدنس بالشبهات والشهوات ، وتضل بالتقليد الأعمى لما تمكن فى نفس الآباء والأجداد، وتحتجب فى تضاعيف النفس لمؤثرات وافدة ، ويغشيها ما فى البيئات والعقائد من زيف أو تلفيق ، أو بهتان مفترى ، وفى الحديث الصحيح ، الذى رواه أبو هريرة رضى الله عنه ؛ عن النبى ﷺ أنه قال :

---

(١) مدارج السالكين : ابن القيم الجوزى .

« ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟ ثم يتلو أبو هريرة قول الله تعالى : ﴿ فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ (١) .

والفطرة الأصيلة هى التى اضطرت ألسنة المشركين أن تلهج اعترافًا بالله الذى خلقهم ، على الرغم من عنادهم وصلفهم :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ ، فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (٢) .

(٢)

فى الغار اهتدى سيدنا محمد ﷺ إلى الله بفطرته :

اهتدت الفطرة الإنسانية إلى التفكير فى ملكوت السموات والأرض ، فقد اهتدى إليها كثير حتى فى عصور الجهل والظلام ، منهم رجال فى العصر الجاهلى قد أبعدتهم الفطرة عن التقاليد الموروثة فى العقائد الموهومة ، وانتهت بهم إلى معرفة المحرمات ، وهجروا الحياة التى فاضت بالمآثم والشرور ، فمنهم ورقة بن نوفل الأسدى ، وعثمان بن الحويرث بن خزيمة ، وبعد الحيرة اعتنقا النصرانية وقرآ كتابها ، ومنهم زيد بن عمر بن نفيل العدوى ، فقد أنكر العقائد الباطلة لمن حوله . واعتنق الحنيفية التى بقيت آثارها من دين إبراهيم عليه السلام ، ومنهم عبيد الله بن جحش الأسدى ، الذى ظل فى حيرته من أمر الأديان حتى جاء الإسلام ، فصادف هوى من نفسه وأسلم وهاجر إلى الحبشة ولكنه تنصر هناك (٣) .

ومنهم قس بن ساعدة الإيادى ، الذى اعتنق النصرانية فآمن بها ، ونفر

---

(١) جاء فى الصحيحين للبخارى ومسلم وفى الجامع الصحيح : للزبيدى : انظر الإحياء للغزالى ١ / ٤٥ - ٤٧ .

(٢) العنكبوت : ٦١ .

(٣) سير أعلام النبلاء : الذهبى (٧٤٨ هـ) ١ / ٩٣٩ .

من عبادة الأصنام والأوثان ، وروى عنه رسول الله ﷺ كلامه بعكاظ وقال فيه « رحم الله قسًا ، إني لأرجو أن يبعثه الله أمة وحده » (١) .

وكان سيدنا رسول الله ﷺ قبل البعثة ، يخلو بغار حراء ، يتعبد فيه الليالي ، ويتأمل فى ملكوت السموات والأرض ، ويشفق على أهل مكة الذين غرقوا فيما ورثوه من الضلال عن أسلافهم ؛ فانغمسوا فى عبادة أوثان من دون الله لا تضر ولا تنفع ، حتى قالت العرب : إن محمدًا قد عشق ربه .

ويتردد رسول الله بين مكة والغار بالليل والنهار ، وهو يدعو الخالق الذى فطره ، أن يبدد هذا الظلام ، وأن يحطم الأوثان ، ويرجو من الله رحمة من عنده ، أو قبسًا من نور ، أو أثارة من علم ، أو هدى لقومه ، ورشادًا لأهله .

يقول ﷺ :

« لما نشأت بغضت إلى الأوثان ، وبغض إلى الشعر ، ولم أهم بشىء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين ، فعصمنى الله منهما ، ثم لم أعد » (٢) .

وسأل على بن أبى طالب ﷺ رسول الله ﷺ عن سنته فقال :

« المعرفة رأس مالى ، والعقل أصل دينى ، والحب أساسى ، والشوق مركبى ، وذكر الله أنيسى ، والثقة كنزى ، والحزن رفيقى ، والعلم سلاحى ، والصبر ردائى ، والرضا غنيمتى ، والعجز فخرى ، والزهد حرفتى ، واليقين قوتى ، والصدق شفيعى والطاعة حسبى ، والجهاد خلقى ، وقرة عينى فى الصلاة ، وثمرة فؤادى فى ذكره وغمى لأجل أمتى ، وشوقى إلى ربى عز وجل » (٣) .

---

(١) الأمالى : أبو على القالى ١ / ١٢٦ ، ١٤٢ ، ١٧٨ - ٣٧,٢ ، ٣٨٩ والعقد الفريد : ابن عبد ربه ١ / ١٧٨ ، ٢ / ٣٨٥ - طبعة ١٩٢٨ والبيان والتبيين : الجاحظ تحقيق السندوبى ١ / ٥١ : ٥٦ . ٢٠٣ .

(٢) الشفا فى تعريف حقوق المصطفى : القاضى عياض ٥٤٤ هـ ٥٨ مطبعة الحلبى بالقاهرة ١٩٥٠ م .

(١) المرجع السابق : ٨٦ .

كان الرسول الكريم مهاجرا فى الغار إلى ربه فى كل وقت ، لا يغفل عنه طرفة عين فى أى وقت ، ويذكره فى كل همسة ، ويملك عليه وجوده ، ويخشع له ، ويتذلل إليه ، ويجدد الأمل والرجاء فى كل حين ، ويضاعف الخشوع الفينة بعد الفينة ويزداد خضوعا يومًا بعد يوم ، ويراقبه بعقله فى السر والعلن .

لذلك صفت نفسه فى صفاء ، واستنار قلبه فى نور ؛ وذات ليلة من شهر رمضان المبارك وهو مع الله وحده فى غار حراء ، معتكف فى خلوته ، التى أحبها من نفسه وقلبه ، بينما هو كذلك إذ جاءه جبريل عليه السلام :

قال رسول الله ﷺ : فجاءنى جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال :

اقرأ :

قلت . ما أنا بقارئ .

فغطنى حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلنى .

فقال . اقرأ .

قلت . ما أنا بقارئ .

فغطنى حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلنى .

فقال : اقرأ :

فقلت : ماذا أقرأ ؟

فغطنى حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلنى .

فقال : اقرأ :

قلت : ماذا أقرأ ؟

فقال : ﴿ **اقْرَأْ باسْمِ ربِّكَ الَّذى خَلَقَ ، خَلَقَ الإنسانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأكْرَمُ ، الَّذى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ .

فقرأتها ، ثم انتهى ، فانصرف عنى .

وهببت من نومى ، فكأنما كتبت فى قلبى ، فخرجت حتى إذا كنت فى وسط الجبل سمعت صوتًا من السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل .

فرفعت رأسى إلى السماء أنظر :

فإذا جبريل فى صورة رجل ضاف قدميه فى أفق السماء ، يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل ·

فوقفت أنظر إليه ، فما أتقدم ولا أتأخر ، وجعلت أصرف وجهى عنه فى آفاق السماء ، فلا أنظر فى ناحية منها إلا رأيته كذلك ، فما زلت واقفًا ، ما أتقدم أمامى ، ولا أرجع ورائى ، حتى بعثت خديجة رسلها فى طلبى ، فبلغوا أعلى مكة ، ورجعوا إليها ، وأنا واقف فى مكانى ذلك ، ثم انصرف عنى ، فانصرفت راجعًا إلى أعلى ، حتى أتيت خديجة فجلست إلى فخذها ·

فقالت يا أبا القاسم : أين كنت فوالله لقد بعثت رسلى فى طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا ·

ثم حدثتها بالذى رأيت ·

فقالت أبشر يا بن عم ، واثبت ، فوالذى نفس خديجة بيده ، إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة ·

ثم قامت فجمعت عليها ثيابها ، ثم انطلقت إلى ورقة ، وهو ابن عمها، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله ﷺ أنه رأى وسمع ·

فقال : ورقة : قدوس ، قدوس ، والذى نفس ورقة بيده ، لئن كنت صدقتنى يا خديجة ، لقد جاءه الناموس الأكبر ، الذى كان يأتى موسى · وإنه لنبى هذه الأمة ، فقولى له فليثبت ·

فرجعت خديجة إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بقول ورقة (١) وبالفطرة السليمة اهتدى سيد الخلق إلى معرفة الخالق ، فأناب إليه ، يتأمل فى ملكوته، يناجيه فيلبى نداءه بوحى من عنده ، يثبت به عقيدته و،يصدق فطرته ·

﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ، وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ، عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ (٢) .

---

(١) سيرة ابن هشام – والطبرى : ٢ / ٤٢ ، ٤٤ مطبعة الاستقامة ·

(٢) النجم : ٢ – ٥ ·

وبالوحى نزل الدين ، يكمل الفطرة ، ويحرس العقل ، ويقود الإنسان إلى معرفة ربه ، فخاطب الإسلام العقل والفطرة معًا ، وأرشد الفكر والشعور جميعًا - وإن صدقت الفطرة أحيانا - فهى مقيدة بالطاقة البشرية ، وأرشد العقل - وإن كان ذكيا - فهو قاصر محدود بالزمان والمكان ،والمجتمع البشرى الذى يغتدى منه .

لذلك فكلاهما محتاج إلى معين ، يبصره الإنسان إن عمى ، ويهديه إذا ضل . فالوحى هو الذى يرده إلى الصواب إن أخطأ ، والدين يضىء له الطريق إذا أظلم عليه ، والإسلام يبدد الظلمات ، ويزيل الشكوك والأوهام ، ومثل صاحب الفطرة فى تيهه ﴿ **كَظُلُمَاتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ، ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ ، لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ، وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ** ﴾ (١) .

وتعاليم السماء التى يتنزل بها الوحى هى السبيل المستقيم إلى اليقين بالحياة والموت ، وبالوجود كله ، وبالوحى يكون اليقين ، وباليقين يكون الإيمان ، وبالإيمان تكون السعادة فى الدارين .

﴿ **فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِى أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ (٢) .

يقول الفخر الرازى بعد أن عرك علوم الفلسفة والكلام .

«لقد تأملت الكتب الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تروى غليلا ولا تشفى عليلا ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن . . . ومن جرب مثل تجربتى ، عرف مثل معرفتى » (٣) .

ومن ضل عن رسالة السماء ، ابتعد عن الحق المبين ، فهو ﴿ **كَالَّذِى اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِى الأَرْضِ حَيْرَانَ ، لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى** ﴾ (٤) .

وعن طريق الوحى كان التشريع الإسلامى فى آدابه وعباداته ومعاملاته

---

(١) النور : ٤٠ .
(٢) الزخرف : ٤٣ .
(٣) أقسام اللذات : الفخر الرازى .
(٤) الأنعام : ٧١ .

لينمى بها الفطرة الإنسانية ويزكيها ، ويقوى الإيمان بالله ، ويمكنه من النفس ، ويسمو بها مع أسرار الوجود .

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوه وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِه ﴾ (١) .

والنفس المؤمنة تعيش فى نور الله ، يكشف لها ما حولها .

﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِهِ ﴾ (٢) .

(٣)

التشريع الإسلامى فى العبادات والمعاملات هو الطريق للتعرف على الله:

الفطرة الإنسانية - وإن صدقت فى التعرف على الله ، والإيمان به - مرهونة دائمًا بما يحفظ عليها كيانها ووجودها ، وسلامتها وصحتها ، حتى لا تغيب عن الصواب ، فيضعف الإيمان فى النفس ، وهذا الارتباط بما يحفظ على الإنسان الحياة ، يجعله موصولا بمطالبها ، مشدودًا إلى بنى جنسه ، ويظل كذلك فى موضع الاختبار والفتنة :

﴿ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ، وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (٣) وفى وسط زحام الحياة ، ومطالبها والافتتان بها ، تتحدد منزلة الفطرة ، من حيث أصالتها أو زيفها ، وسلامتها أو نقصها ، وزوالها أو ذبولها . وصدقها أو كذبها .

﴿ آلم ، أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُواْ أَن يَقُولُواْ آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ (٤) .

وصونًا للفطرة السليمة عن الزيغ والضلال ، وللعقل الخالى من الهوى

---

(١) الأنعام : ١٥٣ .
(٢) الزمر : ٢٢ .
(٣) آل عمران : ١٥٤ .
(٤) العنكبوت : ١ - ٢ .

والطيش، أنزل الله تشريعًا ، يحفظ على الإنسان إيمانه بربه ، وجعل الشريعة هى الطريق الحقيقى ، يعرف بمبادئها حقيقة الوجود وأسرار الحياة ·

كانت الشريعة الإسلامية ختام الشرائع كلها ، والغاية التى انتهت إليها الرسالات جميعها ، حتى تتناسب مع اكتمال العقل البشرى لخاتمة الأمم ، خير أمة أخرجت للناس ، ذلك الإنسان الذى يحتاج إلى الروحية المهذبة : التى تنسجم مع طبيعة تكوينه الخلقى من مادة وروح ، فلا تطغى المادية على الروحية ، ولا تذوب المادية فى الروحية الخالصة ·

أما طغيان المادية ، فقد كانت فى اليهودية التى جاء من أجلها موسى عليه السلام بشريعة فيها ما يتناسب مع طبيعة الشعب اليهودى المسرف فى ماديته فأخذت تعالج فيهم التكالب فى الجمع والادخار ، وتسخير القوى العقلية فى خدمة الوجود المادى ، غير مكترثين كثيرًا بالجانب الروحى ، فالمادية أولا ثم الروحية ثانيًا ·

لذلك كانت مطالب اليهود مادية صرفة ، فى كل ما يقع منها من أقوال وأفعال ، حتى فيما تعتمد عليه الفطرة ، وما يحتاج إلى فكر وعقل ، كالعقائد ومعرفة أسرار الوجود ، فلم يؤمنوا بموسى عليه السلام وهو منهم ولهم ولا برب موسى إلا إذا أراهم نبيهم الله جهرة ، يرونه بأعينهم :

﴿ وإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ (١) .

ولهذه المادية الطاغية ، اشتغلوا بجمع الذهب منذ القدم ، وجمعوه من الشعب المصرى أثناء إقامتهم فى مصر القديمة ، وصنعوا منه عجلا يعبدونه ، حتى يرونه بأعينهم ويلمسونه بأيديهم ·

﴿ واتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى منْ بَعْده منْ حُلِيِّهِمْ عجْلاً جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ ، أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ (٢) .

---

(١) البقرة : ٥٥ · (٢) الأعراف : ١٤٨

لهذا الاستغراق فى الوجود المادى ، أخذ الله قارون وخسف به الأرض حين نسى حق الله فى نفسه وماله :

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وابْتَغِ فِيمَا أَتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الفَسَادَ فِى الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ المُفْسِدِينَ ... إلى قوله تعالى ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ المُنْتَصِرِينَ ، وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلاَ أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الكَافِرُونَ ، تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١) .

ونهى الله فى شريعة الإسلام عن هذه المادية الصرفة التى تقطع الأواصر بين الأناسى ، بين الأخ وأخيه ، وتقطع الصلة الروحية بين العبد وربه ، ثم تكون العاقبة هى الخسران المبين فى الدنيا والآخرة .

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

وأنكر الإسلام أيضًا أن تذوب الماديه فى الروحية الخالصة ، فيعزف الإنسان عن الدنيا ، ويسلك سبيل التبتل والانقطاع ، ويعطل ما سخره الله فيه من قوى التفكير والإرادة ، والعمل والتعمير لإسعاد الخلق بنعم الله عليهم ، ورفاهية المجتمع البشرى بما أسبغه عليهم من فضل ، وعمارة الكون ليتبصروا فى آياته .

﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ (٣) ﴿ وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا

---

(١) القصص : ٧٦ - ٨٣ . (٢) هود : ١٥ ، ١٦ . (٣) الملك : ١٥

مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١) .

والروحية الخالصة التى أنكرها الإسلام هى طبيعة الشعب النصرانى ، الذى نظر إلى الدنيا نظرة احتقار ويأس ، ليعتكف عن العالم وحيدا فى عزلته، يزهد فى الحياة فلا يشتهى ولا يتزوج ، ويصوم ولا يفطر ، ويقوم ولا ينام ، ويظل كذلك مسجونًا فى صومعته ، أو مترهبا فى معبده ، أو مختليا فى كهف، إلى أن يفارق الحياة ، ويأتيه الموت ·

تلك هى الرهبانية التى ابتدعتها الطوائف المسيحية المختلفة ، فكانوا موضع اللوم والتحذير من رسالة الإسلام ·

﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيهِمْ إلاَّ إبْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ (٢) .

أنكر الإسلام الرهبانية ؛ لأنها تتنافى مع مبادئه السامية التى تتفق وطبيعة الإنسان فى أمة هى ختام الأمم ، وخير الأمم ، فقال ﷺ : لا رهبانية فى الإسلام ·

لذلك كانت الشريعة الإسلامية هى الطريق الأمثل للإيمان بالله ، والتعرف عليه : فى ذاته وصفاته وأفعاله وملكوته ، وقامت على أساس الروحية المهذبة ، على أساس من الموازنة بين المادية والروحية معًا · فالشريعة الإسلامية مزيج منهما معًا، لا تنفك إحداهما عن الأخرى ، فهى عمل للدنيا، وعمل للآخرة · تحويل العمل الدنيوى بنية الإنســـان وإرادته إلى عمل أخروى ، يتقرب به إلى الله ،وينفعه فى الدارين ، وإلا لما خلق الدنيا لو كان الدين هو الروحية الخالصة، وكذلك الأمر لو كانت الحياة مادية خالصة ، فلا حاجة للبعث والحياة الباقية الآخرة ، لكن الله أرادها أن تكون دار تكليف وعمل وجهاد وبناء وتعمير · كل ذلك ابتغاء وجه الله وحده ومرضاته ؛ لا لذات هذه الأمور كلها طمعًا فيها ،وتكاثرًا لها وتفاخرًا بها ·

---

(١) النحل : ١٤ · (١) الحديد : ٢٧ ·

﴿ وابْتَغِ فيمَا آتَاكَ اللهُ الدَارَ الآخرَةَ ولاَ تنْسَ نَصيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إلَيْكَ ولاَ تَبْغِ الفَسَادَ فِى الأَرْضِ ﴾ (١) .

وقال الرسول الكريم : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا .

وبهذا المزيج بين المادية والروحية تتحقق سعادة الإنسان فى الدنيا والآخرة .

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتنَا فِى الدُّنيَا حَسَنَةً وَفِى الآخرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ، أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ سَرِيعُ الحِسَابِ ﴾ (٢) .

فالقصد والاعتدال فى كل ما يتعلق بالإنسان هو روح الإسلام وجوهره الحقيقى من غير مبالغة فى الروحية وحدها ، أو مبالغة فى المادية وحدها .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَىَّ أَنَّما إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ (٣) .

والسعى فى الدنيا والعمل فيها - وإن كان لها - عمل للآخرة ، إذا تحرى العامل فيه الحق ، واتفق مع أصول التشريع ، وأحكام العبادات وقواعد المعاملات ، وابتغى بذلك كله وجه الله والدار الآخرة ، قال الرسول الكريم :

إن لربك عليك حقًا ، ولنفسك عليك حقًا ، ولأهلك عليك حقًا ، فأعط كل ذى حق حقه .

وبجانب هذا يأمر الإسلام العباد بالتفكير فى السموات والأرض خشية لله وخوفًا منه ، وقد قال الرسول ﷺ عندما نزلت الآيات فى آخر سورة آل عمران : ويل لمن لاكها بين لحييه ولم يتفكر فيها :

« روى عطاء رضي الله عنه قال: انطلقت يومًا أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة رضي الله عنها، فكلمتنا وبيننا وبينها حجاب ، فقالت : يا عبيد ما يمنعك من

---

(١) القصص : ٧٧ .

(٢) البقرة : ٢٠١ ، ٢٠٢ . (٣) الكهف : ١١٠ .

زيارتنا قال : قول رسول الله ﷺ :« زر غبا تزدد حبا » قال ابن عمير فأخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ ، قال : فبكت وقالت : كل أمره كان عجبا ، أتانى فى ليلتى حتى مس جلدى ، ثم قال ذرينى أتعبد لربى عز وجل ، فقام إلى القربة وتوضأ منها ، ثم قام يصلى ، فبكى حتى بل لحيته، ثم سجد حتى بل الأرض ، ثم اضطجع على جنبه حتى أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح فقال : يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال . ويحك يا بلال وما يمنعنى أن أبكى ، وقد أنزل الله تعالى علىَّ فى هذه الليلة : ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمٰوات والأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيلِ والنَّهَارِ لآيَات لأولِى الألْبَابِ ... ﴾ الخ الآيات ، ثم قال : ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر فيها [1] .

قال الله تعالى :

﴿ وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا واتَّبعَ هَوَاهُ وكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ [2]

وحين أكد الإسلام الجانب الروحى فى الإنسان ، حض على العمل والكسب بما يحفظ للإنسان حياته فقال تعالى :

﴿ يَا بنى آدمَ خُذُوا زينَتَكُمْ عندَ كُلِّ مَسْجد وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المسْرِفينَ ، قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ الله الَّتى أَخْرَجَ لعبَاده وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ للَّذينَ آمَنُوا فى الحَيَاة الدُّنْيَا خَالصَةً يَوْمَ القيَامَة ﴾ [3] .

﴿ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فيها دفءٌ وَمنَافِعُ وَمِنهَا تَأكُلونَ . وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ [4] .

﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذينَ آمَنُوا وَعَملُوا الصَّالحَات جُنَاحٌ فيمَا طَعمُوا إذَا مَا اتَّقَوْا وآمَنُوا وَعَملُوا الصَّالحَاتِ ، ثُمَّ اتَّقَوا وآمَنَوا ، ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَالله يُحِبُّ المُحْسنِينَ ﴾ [5] .

---

(١) إحياء علوم الدين : الغزالى ٤ / ٤١٠ - الحلبى ١٩٥٧ تحقيق الدكتور بدوى طبانة .
(٢) الكهف : ٢٨ .
(٣) الأعراف : ٣١ . ٣٢ .
(٤) النحل : ٥ ، ٦ .
(٥) المائدة : ٩٣ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ (١) .

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ (٢) .

﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ (٣) .

ويقول الرسول ﷺ : «من سعى على عياله من حله فهو كالمجاهد فى سبيل الله ، ومن طلب الدنيا حلالا فى عفاف كان فى درجة الشهداء » (٤) .

وعن أنس رضي الله عنه أن أناسا جاءوا إلى زوجات النبى ﷺ يسألون عن عبادته فيما بينه وبين الله ، التى غفر له بها ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وإن أحدهم قال : إنى لا آكل اللحم أبدًا وقال آخر : وأنا لا أتزوج النساء أبدًا ، وقال ثالث : وأنا لا أنام على فراشى ؛ فبلغ أمرهم النبى ﷺ ، فخرج إليهم غاضبًا وقال : « ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا ، وإنى لأخشاكم لله وأتقاكم ، ولكنى أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وآكل اللحم وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » (٥) .

وروت عائشة رضي الله عنها أن النبى ﷺ صنع شيئًا ترخص فيه ، وتنزه عنه قوم ، فبلغه ذلك فحمد الله ثم قال : ما بال أقوام يتنزهون عن الشىء أصنعه، فوالله إنى أعلمهم بالله وأشدهم له خشية » وقال أيضًا : أرادوا رفض الدنيا والترهب ، إنما هلك من قبلكم بالتشديد ، شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ، فأولئك بقاياهم فى الديار والصوامع ، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا ، واستقيموا يستقم بكم .

وحين أنزل الله التشريع الإسلامى لهذه الأمة ، نظم فيها علاقة الإنسان بغيره وحارب المادية البحتة ، كما حارب الروحية البحتة ، لأن دمار الإنسان فى كل منهما على حدة .

فالترهب قضى على الأمم السابقة ، وأصبحت بقايا شاحبة فى الصوامع

---

(١) البقرة : ١٧٢ . (٢) المؤمنون : ٥٤ . (٣) الحديد : ٢٥ .

(٤) الإحياء : الغزالى ٢ / ٦٣ (٥) ورد فى الصحيحين : للبخارى ومسلم .

والمعابد ، لا تصلح لقيام دوله ، ولا تقوى على بناء مجد ، أو تعمير حياة ؛ ولولا الثورة الدينية فى أوربا على الترهيب فى الكنيسة ، ثورة الرهبان على أنفسهم ، لما خرجت من جمودها ،ولما انطلقت بهذه الثورة الفكريه والعلمية ، وإن كان مصدر هذه الثورة ، لا من قلب الكنيسة ولا من وحى الرهبنة ، ولكن كانت من وحى تعاليم الإسلام ومبادئه السامية ، التى هزت عروش أوربا وهم فى أحلك عصورهم التاريخية .

فالروحية الخالصة هى سبيل الإهمال للقوى العاملة فى الإنسان ، وتعطيل للطاقات المودعة فيه التى خلقها الله ، لكى يقود بها الحياة دائما . بالعلم والعرفان ، وينهض بها ، فيكتشف أسرار الكون ، أسرار البديع الخالق وآياته ، فيزداد إيمانا على إيمانه .

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ ، أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَىءٍ شَهِيدٌ ﴾ (١) .

وحارب الإسلام المادية الصرفة ، لأنها قتل للمثل الرفيعة التى ينشدها وقضاء على المعانى الفاضلة ، وطغيان على النفس والروح ، تفسد الحياة ، وتنزل بالإنسان كله إلى الأرض ، وتفنى روحه فيها ، فيفقد إنسانيته ، وينزل إلى التراب كما كان قبل أن يشرف بالإنسانية حين خلق ، وفاخر الله به الملائكة، وحينئذ يطغى الإنسان ويتجبر قال تعالى:

﴿ اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ، خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ، الَّذِى عَلَّمَ بِالقَلَمِ ، عَلَّمَ الإنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ، كَلاَّ إِنَّ الإنْسَانَ لَيَطْغَى، أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴾ (٢) .

عند ذلك يتحول الإنسان إلى شرير لا يبغى إلا الشر ، وقد صور لنا المصطفى ﷺ هذا الجانب المادى أروع تصوير ، فى أبلغ معنى يخطر على العقل البشرى .

« عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال : جلس رسول الله ﷺ على المنبر

(١) الشورى : ٥٣ . (٢) العلق : ١ - ٦ .

وجلسنا حوله فقال : إن مما أخاف عليكم بعدى ما يفتح من زهرة الدنيا وزينتها؛ فقال ، أو يأتى الخير بالشر يا رســول الله ؟ قال : فسكت عنه رسول الله ﷺ ، فقيل : ما شأنك تكلم رسول الله ولا يكلمك ؟ قال إنه ينزل [1] عليه ، فأفاق يمسح عنه الرحضاء [2] . وقال : أين السائل ؟ وكأنه حمده : إن الخير لا يأتى إلا بالخير . . . وإن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا [3] أو يلم إلا آكلة الخضر فإنها أكلت ، حتى إذا امتدت خاصرتاها [4] ، استقبلت عين الشمس فثبطت [5] وبالت ثم رتعت [6] . . . وإن هذا المال خضر حلو ونعم صاحب المسلم هو لمن أعطى منه المسكين وابن السبيل ، وإنه من يأخذه بغير حقه كالذى يأكل ولا يشبع ويكون عليه شاهدا يوم القيامة)[7] .

وحينما يقبل الإنسان على الدنيا وتأخذه مفاتنها وشهواتها ، ويستغرق فى كل ذلك يكون فى هذا الاستغراق هلاكه ، وحاله هذا أشبه بحال البهيمة السائمة فى فصل الربيع فتغريها السوائم فتقبل عليه بغير حساب ، وتخر صريعة البطنة والإغراء ويكون طعامها - وهو قوام حياتها - سبب هلاكها وموتها .

ولكن المسلم لا تغريه ملذات الحياة ، فلا ينسى ربه مهما أحاطت به المغريات من كل جانب ، فيجمع الأموال من وجوه الحق ، ويصرفه ابتغاء مرضاته من غير تقتير أو إسراف . ويعطى منه حقوق الآخرين كما أمر الله .

لذلك كان من الضرورة أن يدعو الإسلام إلى المزاوجة بين المادية والروحية ، فليس هو روحية خالصة ولا هو مادية طاغية ، فقد عارض الروحية المطلقة لأنها تعزل الإنسان عن طيبات الحياة التى خلقت من أجله ، وعارض الإسراف فى المادية ؛ لأنه يدفع إلى الجريمة والمنكر ، والكذب والعدوان .

---

(١) يوحى إليه . (٢) الرحضاء : العرق .

(٣) داء تنتفخ البطن به من كثرة الأكل .

(٤) الخاصرة : الوسط والمراد البطن .

(٥) نضجت واكتملت . (٦) كثر لبنها

(٧) جاء فى الصحيحين البخارى ومسلم .

وتتناسب المزاوجة فى الإسلام مع الواقع الطبيعى فى الإنسان ، حيث يلتزم حد الوسط من غير إفراط أو تفريط ؛ لأنه يتكون من جسد وروح ، فأعطى للروح حقه ومتعته بما يحقق له السعادة ، وأعطى للجسد حقه ومتعته بما يحقق له الرفاهية والمتعة . فتجد الروح سعادتها بالعبادة والقراءة ، والعلم والعرفان ، والنظر والفكر ، ويجد الجسم سعادته فى التسخير لمطالب الحياة ، والعمل فيما به ملاذه وقوامه من طيباتها فى المأكل والمشرب والملبس والمسكن .

﴿ يَا بَنِى آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المُسْرِفِينَ ﴾ (١) .

حض الإسلام على السعى والعمل ، ثم الانتفاع بالسعى حقا ؛ حيث كانت الزينة من أجل العبادة والشكر ، وكذلك كان الأكل والشرب ؛ ليقوى الإنسان بجسده وعقله وقلبه وروحه على العبادة فيثنى على الله ويشكره . ثم وضع حدًّا للزينة والملبس والمشرب والمأكل لا يتجاوزه المسلم ، وهو عدم الإسراف فى اكتنازه والحرص عليه ، وعدم الإسراف فى استعماله ، وتعاطيه . فالله لا يحب المسرف فى كل ذلك ، ولكن يريد حد الاعتدال بين هذا وذاك ابتغاء وجهه ومرضاته وحينئذ لا يحرم الله عليه متع الحياة .

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ، قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِى الحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ القِيَامَةِ ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

(٤)

مبادئ التربية الإسلامية أيقظت الجانب الروحى فى نفس المؤمن :

وقف الإسلام بتشريعاته إزاء الفطرة الإنسانية حتى لا تضل ولا تغوى وانتهى بها إلى حد الاعتدال والتوسط .

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ

---

(١) الأعراف : ٣١ . (٢) الأعراف : ٣٢ .

عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا القِبْلَةَ الَّتِى كُنْتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْه ، وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً لاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) .

وكان الغرض من المبادئ الإسلامية وأصول التشريع حراسه الفطرة وتهذيب النفس ، والتسامى بها عما يثقلها فى ناحية واحدة من الجانب المادى ، ليربى الإنسان تربية إسلامية خالصة ، ويعده خليفة له فى أرضه :

﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ ﴾ (٢) .

والمؤمن الذى أراده الإسلام وأعده إعدادًا صالحا فى استقامة وخلق ، هو الذى سيمكنه الله من الخلافة فى الأرض .

﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ ﴾ .

فهؤلاء القوم هم الجديرون بالإسلام ، وينطبق عليهم قول الله تعالى :

﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِى الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ المُنْكَرِ ﴾ (٣) .

فالدين الإسلامى ليس نظامًا تلتزم به البشرية فقط ، وليس أصولاً فى العبادات والمعاملات يسلكها الإنسان فحسب ، لكنه نظام وأصول أحكمها الإله الخالق ، الذى تنزه فى صفاته وأفعاله عن أوضاع البشر ، فهو الكمال المطلق فى ذاته ، والإسلام على هذا صار حقيقة كاملة مطلقة دونها كل عقل بشرى . لأنه فوق مستوى الكائنات ، مما يجعل الإنسان ملتزما بتعاليمه دون جدل ، متبعا أصوله وتشريعاته من غير مبالغة أو تزييف ، يفعل ما أمر الله به كما بلغه الرسول فى القرآن الكريم والحديث الشريف ، لا يحيد عنه قيد أنملة ، وقد وضع نصب عينيه ميزان العدل ، ليقيم الأمور فى نصابها ، ويردها إلى حقيقتها ، كما أرادها الله ورسوله ، قال تعالى :

---

(١) البقرة : ١٤٣ . (٢) الأنعام : ١٦٥ (٣) الحج : ٤١

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ (١) .

وإذا كان الدين المنزل من عند الله هو الحقيقة الخالدة الكاملة كمالا مطلقًا ، فلا يكون إلا صورة من صور هذا الكمال ، لا يشوبها نقص ولا يعتريها باطل ، ولا ينفذ إليها غرض ، يميز فريقًا عن فريق ، ويفصل بين جيل وجيل » (٢) .

والرسول الكريم حين يبرهن على سمو الشريعة الإسلامية ، وأنها بلغت الغاية فى الكمال ، وكانت هى الحقيقة والكمال ، فلا يقول أنه بعث لتثبيت دعائم الأخلاق فى النفوس ، كما كان الأمر فى الرسالات السابقة ، أو ليحافظ عليها فقط ، لكن رسالته إنما جاءت ليتمم بها مكارم الأخلاق ، وليصل إلى الغاية بالصفات الحميدة ، وليرتفع بالمسلم فى إيمانه إلى الكمال .

« إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » (٣) .

لذلك كان النبى محمد ﷺ سيد المرسلين ، وكانت رسالته هى تمام الرسالات السماوية والغاية منها يقول الرسول الكريم :

« إنما مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتًا فأكمله وجمله إلا موضع لبنة منه فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون منه ، ويقولون ما أحسن هذا البيت لولا موضع هذه اللبنة وهذه الزاوية ،فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين »(٤).

بهذا التشريع الإسلامى الكامل فى عباداته ومعاملاته ، وفى آدابه

---

(١) النساء : ٩٥ .

(٢) الدين والحضارة الإسلامية : دكتور محمد البهى ٧٦ عدد ١٥٧ الهلال ١٩٦٤ .

(٣) رواه البخارى والحاكم والبيهقى والطبرانى .

(٤) الجامع الصحيح : الزبيدى .

وفضائله ، يسمو بالجانب الروحى فى نفس المؤمن ، وتصفو روحه ويعرف ربه حق المعرفة .

وما العبادات والمعاملات فى التشريع الإسلامى إلا لتثبيت القواعد الأساسية التى تقوم عليها صلة العبد بربه ، والإحسان فى علاقة الإنسان بأخيه الإنسان ، وبلوغ الغاية عنده فى مكارم الأخلاق ، ليكون المجتمع البشرى مجتمعًا قويًا متماسكًا ، يحفظ حقوق الإنسان ، فيحقق له السعادة فى الدنيا والآخرة .

فالعبادات تكون فى طهارة الإنسان من الحدث والخبث ، لينسلخ من أوساخ الحياة ، ويغتسل من أدرانها فيتهيأ للقاء مع ربه نشيطًا يقظًا ، ويقدسه بالثناء والشكر وهو فى أتم زينة وأكمل صورة .

وكذلك يطهر الإنسان جوارحه من الآثام والجرائم ، ويطهر قلبه من الرذائل المذمومة ، والنقائض الممقوتة ، ويطهر الضمير من التلوث والشرك .

وفى الصلاة يناجى الإنسان ربه فى خشوع وجلال . وخضوع وإعظام ، فيدرك أن الله هو الوجود كله ، وأن ما سواه يتضاءل أمام جبروته ، ويطلب من الله العون والحفظ ، والقبول والرضا ، والصلاة تطبع الإنسان على دوام الاتصال بالله ، فهى من الصلة لا الانقطاع ، لذلك فهى تتنافى مع الغفلة ، وتضاد الانقطاع عن الله عز وجل [1] .

ولكى يكون العبد دائم الصلة ، لتتجلى حكمة مشروعية الصلاة وهو أن الله فرضها فى أوقات مفصولة متباعدة خمس مرات، منثورة فى اليوم والليلة ، فيكون المصلى متصلا بربه ما دام مستيقظًا ، حتى فى أوقات عمله ، فإذا خرج من صلاة الصبح ، ظل على ذكر من الله ، حتى صلاة الظهر ، وكذلك الأمر فى بقية الصلوات حتى ينام .

وبذلك يظل الإنسان موصولا بربه طول اليوم ، وكل يوم ما دام مؤمنًا ، وذلك سر من أسرار الصلاة .

وفى الصيام امتثال لله عز وجل ، وحرمان لما أنعم الله به على الصائم من متع الحياة وفى الحرمان إجلال لله سبحانه وتعالى ، وتنزيه له عن الشبيه والنظير ، فالله إن شاء أعطى ، وإن شاء منع .

(1) إحياء علوم الدين . للغزالى ١ / ١٦٧ .

والصائم لابد أن يبذل مما أعطاه من متاع، سواء أكان البذل من نفسه فيخلص فى صومه ، ويصدق فى أركانه وفضائله ، أو كان مما جمعه من مال ومتاع ، فيتصدق به على الفقراء والمحتاجين ليزكى صومه ، ويطهر عمله .

وفى الزكاة توحيد لله وتعظيم له ، إذ له الإرادة المطلقة فى المنع والعطاء، أما العبد فلابد أن يعطى من المال الذى يحبه ، وفى التهوين من شأن المال المحبوب ، يهون على النفس ، ويتحول الحب لله عز وجل ؛ ليتفرد بالحب الخالص من عباده ، الذين امتحنهم الله به فعافوا المال ، وباعوا أنفسهم وأموالهم لله إخلاصًا فى تقديسه ، إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة (١) .

وفى الحج يعود الإنسان إلى ضعفه أمام خالقه ، وحداثته أمام قدرته وقوته ، فيزهد فى مطايب الحياة ونعيمها ، ويترك وراءه أحسن ما جمعه فيها، ويبذل من نفسه فى أداء مناسك الحج وسننه ما شاء أن يبذل ، ويقدم القربات والأضاحى قربانا إلى الله ، ليشعر فى نفسه أن الله هو الذى . يعطى، وهو الذى يمنع ، لأنه الواحد الأحد ، لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك ، لا شريك لك .

وفى المعاملات من أداب البيع ، وأداب الشركة والإجارة والهبة والقرض والشفعة وآداب الكسب الحلال والحرام ، وآداب النكاح ، وآداب القضاء ، وآداب الميراث ، وآداب السفر ، وآداب الصحبة ، وآداب العهود والمواثيق ، وآداب الحكم وأصول الجهاد ، وآداب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وآداب المدارسة والعلم وغير ذلك كثير من آداب المعاملات بين الإنسان وأخيه الإنسان وبين الفرد وأسرته وبين الفرد ومجتمعه .

فى كل ذلك ينظم الله به علاقة الإنسان مع نفسه أولا ، ومع الإنسان ثانيًا : مع والديه ، ومع زوجه ، ومع أولاده ، ومع ذوى رحمه ، ومع جيرانه . ومع مجتمعه ووطنه ثالثًا ، ومع كل المجتمعات البشرية .

تلك العلاقة - التى شرعها الله - بين الإنسان وأخيه ، تقوم على أساس العدل والرحمة والحق :

---

(١) الإحياء للغزالى ١ / ٢٢٠ .

الراحمون يرحمهم الرحمن · ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه » ·

فيأخذ الضعيف حقه من القوى ، ويبر المسلم أخاه ويواسى الغنى الفقير، ويأخذ كل ذى حق حقه ، فتظل صفوف الأمة قوية متماسكة ، وصدورها نظيفة من الحقد والكراهية والغل والحسد :

﴿ لَيْسَ البِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المشْرِقِ وَالمَغْرِبِ وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ والملائكَةِ وَالْكِتَابِ والنَّبِيِّينَ وَآتَى المَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِى القُرْبَى واليَتَامَى وَالمسَاكِينَ وابْنَ السَّبِيلِ والسَّائلينَ وَفِى الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِى البَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ وَحِينَ البَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وأُولَئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ ﴾ (١) .

وحينئذ تقوم المعاملات على تقدير العدل الحق ، والمساواة بين الناس ، مهما اختلفت أجناسهم ودرجاتهم وطبقاتهم؛ فالكل سواء « الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لأبيض على أسود إلا بالتقوى كلكم لآدم وآدم من تراب »

وقال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لله شُهَدَاءَ بِالقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أن لاَّ تَعْدِلُوا · اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا الله إِنَّ الله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

فالتعامل منوط بالحل والتحريم ، بعيد كل البعد فى تحصيله عن معصية الله تعالى · ليكون العمل حلالاً طيبًا ·

قال النبى ﷺ : إنى لا أعلم شيئًا يقربكم من الجنة ، ويبعدكم عن النار ، إلا أمرتكم به ، وإنى لا أعلم شيئًا يبعدكم من الجنة ويقربكم من النار، إلا نهيتكم عنه ، وإن الروح نفث فى روعى : إن نفسًا لن تموت حتى تستوفى

---

(١) البقرة : ١٧٧ ·　　(٢) المائدة : ٨ ·

رزقها وإن أبطأ عنها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب ، ولا يحملنكم استبطاء شىء من الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله تعالى فإن الله لا ينال ما عنده بمعصية [1] .

فالهدف السامى من الآداب الإسلامية فى المعاملات ، إنما تقف بجانب العبادات لتربية النفس وتهذيبها ، فتصل عن طريق هذه وتلك إلى الدرجة التى ينبغى أن تصعد إليها من السمو الروحى ، ومراقبة الله فى السر والعلن ، وتطهير القلب وإخلاصه لوجه الله ٠

والمعاملات تقوم على الحل والتحريم والتقييد فى تداولها وإحاطتها بحدود تقصرها على ما يرضى الله عز وجل ٠ فحينما يتمتع الإنسان بما أنعم الله عليه ، لا ينسى حق الله فيها ، واتباع ما أمر به ، واجتناب ما نهى عنه ، كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به [2] .

والالتزام بأصول المعاملات ، يقف بجانب العبادات ، لتعملا معًا على تطهير النفس وتزكيتها ، فتشرف بما يليق بها من العبودية لله عز وجل ، وبذلك يقوم الجانب الروحى فى النفس على أصول التربية الإسلامية وقواعد التشريع السماوى ٠

(٥)

كان سيدنا محمد ﷺ المثل الأعلى فى الجانب الروحى سلوكًا وحديثًا وإرشادًا

لا يتم صفاء النفس من مكدرات الحياة إلا بالسمو الروحى ، الذى ينتهى إليها عن طريق المجاهدات المختلفة والرياضات المتواصلة ، فتسبر أعماق النفس أعمال كثيرة تتعاقب عليها الواحد بعد الآخر ، وهذا العمل يختلف حسب ما تقتضيه مطالب الحياة من أجل الآخرة ، أو يتطلبه التزود للآخرة من أجل الآخرة ، وما دام العمل - أى عمل - فى سبيل الله ، وابتغاء مرضاته فلا فرق

---

(١) الإحياء : للغزالى ٢ / ٦٤ ٠ (٢) الإحياء : للغزالى ٢ / ٩٠ ٠

بين أن يكون سعيًا يعود عليه بالكسب ليقتات هو ، ويحفظ على نفسه حياتها ، أو يحفظ حياة من تلزمه نفقتهم ، أو كان العمل جهادًا فى سبيل الدعوة ، واحتمالا لأذى الصادين عنها ، أو ما يجب على المسلم من حسن آداب الصحبة للمؤمنين عامة ، ولذوى الرحم منهم خاصة ، أو كان جهادًا فى سبيل الله للدفاع عن العقيدة ؛ والقتال من أجل الدين والعرض والوطن وحفظ المال قوام الحياة ، أو كان العمل عبادات للواحد الأحد ، تختلف فى أشكالها وهيئتها ؛ ولكنها تلتقى جميعها ؛ لتقديس الله عز وجل ، بالثناء عليه ، وترديد آيات الشكر ، والحمد على نعمائه ومزيد فضله .

بهذا السلوك الإنسانى المتنوع - كما رأيت - تصفو النفس ، وتسمو الروح، ويعرف الإنسان ربه حق المعرفة ، فإخلاص النية لله فى أى عمل مهما اختلف نوعه ، يجعل السلوك الإنسانى عبادة خالصة ، ولو كان العمل للدنيا طلبًا للرزق أو حفظًا لمال ، ويكون شأنه فى تهذيب النفس كالشأن فى الصلاة والصوم وغيرهما من سائر العبادات .

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَىءٍ فِى سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ ﴾ (١) .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (٢) .

فالإنسان بالسعى والعمل يعد نفسه للعبادة والتقوى ، ويحسن التزود من الصالحات ، وذلك إذا كان العمل ابتغاء مرضاة الله ، قال الرسول ﷺ :

« إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى امرأة ينكحها ، أو دنيا يصيبها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه » (٣) .

(١) الأنفال : ٦٠ . (٢) الأنفال : ٥٣ .

(٣) رواه الشيخان ، وجاء فى الموطأ : للإمام مالك رضي الله عنه الإحياء : الغزالى .

وكل ما صدر عن سيد الخلق وإمام المتقين محمد ﷺ كان عبادة لله وابتغاء مرضاته ، وطاعة لربه ، وتنفيذًا لتعاليم الإسلام ، وتطبيقًا لتشريعاته ، وسلوكا يقربه من رضوان الله عز وجل .

وكل ما كان منه ﷺ عملا ، وسلوكا ، وجهادًا ، وقتالا ، وتوجيهًا، وقولا ، وتعليما ، وقيادة ، وحكما ، وقضاء ، وسياسة ، وسعيًا ، وإنفاقًا ، وإنصافًا ، وإخوة ، وغير ذلك : كله منه طاعة لربه ، وخشية لجلاله ، وجهادًا فى سبيله .

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَومَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا ﴾ (١) .

وعلى ذلك فلم تكن العبادات وحدها من صلاة وصوم وزكاة وغير ذلك هى التى سمت بروحه وعرف عن طريقها ربه حق المعرفة ، ولكن كان يقف بجانبها المعاملات ابتغاء رضوان الله . بهذه وتلك بلغ الرسول ﷺ الغاية ، وانتهى إلى الكمال فى السمو الروحى ، والصفاء النفسى ؛ فرأى ربه فى كل ما وقع منه « أن تعبد الله كأنك تراه » .

ولهذا اتخذ الرسول الكريم مسجده منطلقًا للدين والدولة معًا فى وقت واحد ، يسوس منه العالم ، ويدير شئون المسلمين ، ويحضهم على العمل ويؤاخى بين المهاجرين والأنصار ، ليكون منهم الزارع ، والتاجر ، والصانع ، ويدبر معاشهم ، ويضع الخطط العسكرية ، ويتحرك الجيش منه ، ويفصل بينهم ، ويقضى بالحق ، وسوى ذلك مما جاء به التشريع الإسلامى فى القرآن الكريم ، والذى وقع من نفسه موقعًا ، فكان عنده عقيدة وإيمانًا ، وسلوكا وعملا ، وحديثًا وإرشادًا ، يتقرب إلى الله بكل ذلك ، فكان خير من عبد الله من الخلق ، وخير من زهد فى الدنيا وعزف عنها ، وخير من عمل للآخرة وأعد لها من الزاد ، وأولى الخلق بروضات الجنات التى رغب فيها كل مؤمن ، وأبعدهم عن النار، التى نفر الناس منها .

---

(١) الأحزاب : ٣١ .

وعن طريق العمل والإرشاد الإلهى بلغ الرسول الكريم المثل الأعلى فى الجانب الروحى والصفاء النفسى .

فقد أدبه ربه فأحسن تأديبه ، واتخذه صفيه وحبيبه ، وكان عمله يعلن عن مكنون باطنه ، وعبادته تشخيص صادق لأخلاقه الكريمة وآدابه الربانية ، فكان خلقه القرآن :

« دخل سعد بن أبى وقاص على عائشة رضي الله عنها ، فسألها عن أخلاق رسول الله ﷺ ، فقالت أما تقرأ القرآن ، قلت بلى ، قالت : كان خلق رسول الله ﷺ القرآن »[1] .

ومن خلقه فى القرآن حسن المعاشرة ، وبذل المعروف ، وإفشاء السلام وكظم الغيظ ، والعفو عن الناس قال تعالى :

﴿ خُذِ العَفْوَ وأْمُرْ بِالعُرْفِ وَأعْرِضْ عَنِ الجَاهِلينَ ﴾[2] .

﴿ ولَمنَ صَبَرَ وَغفَرَ إنَّ ذَلكَ لَمنْ عزْمِ الأمُور ﴾[3] .

﴿ ولَيعفُو ولَيصْفَحُوا ألاَ تُحبُّونَ أنْ يَغْفرَ اللهُ لَكُمْ ﴾[4] .

﴿ وَالكَاظمِينَ الغَيْظَ وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحبُّ المحْسنينَ ﴾[5] .

﴿ إدْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أحْسَنُ ، فَإذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾[5] .

وكان من خلقه السماحة والكرم ، وحسن الجوار ، ولين الجانب وحسن الظن وإطعام الطعام .

﴿ فَبِمَا رَحْمَةَ منَ اللهِ لنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ القَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حولْكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى الأمْرِ ﴾[7] .

---

(١) رواه مسلم فى صحيحة   (٢) الأعراف : ١٩٩ .
(٣) الشورى : ٤٣ .   (٤) النور : ٢٢ .   (٥) آل عمران : ١٣٤ .
(٦) فصلت : ٣٤ .   (٧) آل عمران : ١٥٦ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ﴾ (١) .

﴿ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لله وَرَسُولِه وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ ﴾(٢) .

﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى القُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ ﴾ (٣) .

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا ﴾ (٤) .

﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (٥) .

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ ﴾ (٦) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ (٧) .

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ﴾(٨) .

وكان من أخلاقه ﷺ التفكر فى ملكوت الله والتفكر فى خلق الله ، والاشتغال بآياته فى الكون ، والتدبر فى كتابه الكريم ، وبالتفكر يتسع العقل ويزداد العلم ، وتكثر المعارف ، فيطهر القلب ، وتصفو النفس .

« أعطوا أعينكم حظها من العبادة ، فقالوا يا رسول الله وما حظها من العبادة : قال النظر فى المصحف والتفكر فيه والاعتبار عند عجائبه »(٩) .

﴿ قُلِ انظرُوا مَاذَا فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ (١٠) .

---

(١) الحجرات : ١٢ . (٢) الأحزاب : ٣١ . (٣) النحل : ٩٠ .
(٤) الفرقان : ٦٣ . (٥) الكهف : ٢٨ . (٦) فاطر : ٢٨ .
(٧) فصلت : ٣٠ . (٨) الحديد : ١٦ .
(٩) الإحياء : الغزالى ٤ / ٤١١ . (١٠) يس : ٧٧ .

﴿ الَّذى خَلَقَ سَبعَ سَمَوات طِبَاقًا مَّا تَرَى فِى خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوت فَارْجِعِ البَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ، ثُمَّ ارْجِعِ البَصرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ البَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ (١) .

﴿ والسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأيدٍ وَإنَّا لَموسِعُونَ ، والأرْضَ فَرشْنَاهَا فَنِعْمَ المَاهِدُونَ﴾ (٢).

﴿ أأنْتُمْ أشَدُّ خَلْقًا أمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ، رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴾ (٣) .

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وإنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ (٤) .

ومن خلقه ﷺ تقوى الله فهو على ذكر منه دائمًا موصول الخشية ، لا يصدر عنه عمل أو قول إلا فى طاعة الله .

قال ﷺ :

« أنا أعلمكم بالله ، وأخشاكم لله » (٥) .

« نحن معشر الأنبياء أشد الناس بلاء ، ثم الأمثل فالأمثل ، ويبتلى الرجل على قدر دينه ، فإن كان فى دينه صلابة فهو أشد بلاء » (٦) « وكان لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر الله » (٧) .

« قال معاذ بن جبل : أوصانى رسول الله ﷺ فقال : يا معاذ أوصيك بتقوى الله ، وصدق الحديث ، والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة ، وترك الخيانة وحفظ الجار ، ورحمة اليتيم ولين الكلام ، وبذل السلام وحسن العمل ، وقصر الأمل ، ولزوم الإيمان ، والتفقه فى القرآن، وحب الآخرة ، والجزع من الحساب ، وخفض الجناح ؛ وأنهاك أن تسب حكيما ، أو تكذب صادقا ، أو تطيع آثما ، أو تعصى إماما عادلا ، أو تفسد أرضا ؛ وأوصيك باتقاء الله عند كل حجر وشجر ومدر، وأن تحدث لكل ذنب توبة ، السر بالسر ، والعلانية بالعلانية » (٨) .

---

(١) الملك : ٣ ، ٤ . (٢) الذاريات : ٤٧ ، ٤٨ . (٣) النازعات : ٢٧ ، ٢٨ .
(٤) الواقعة : ٧٥ ، ٧٦ . (٥) رواه البخارى عن أنس .
(٦) رواه الترمذى وابن ماجه وابن حيان والحاكم .
(٧) من حديث الإمام على رضي الله عنه فى صفة رسول الله : نهج البلاغة .
(٨) الاحياء : الغزالى ٢ / ٣٥٣ .

روى الترمذى : « لم يكن رسول الله ﷺ صخابًا ولا فحاشًا ، ولا متفحشًا » .

وصف أبو سعيد الخدرى رسول الله ﷺ كما روى عنه : كان رسول الله ﷺ يعقل البعير ، ويعلف الناضح ، ويقم البيت ، ويخصف النعل ، ويرفع الثوب « ويحلب الشاة، ويأكل مع الخادم،ويطحن معها إذا هى أعيت ، وكان لا يمنعه الحياء أن يحمل بضاعته من السوق إلى أهله ، وكان يصافح الغنى والفقير ، ويسلم مبتدئا،وكان لا يرد من دعاه ، ولا يحقر ما دعى إليه ، ولو إلى حشف التمر ، وكان لين الخلق ، كريم الطبع ، جميل المعاشرة ، طلق الوجه ، بساما من غير ضحك ، محزونا من غير عبوس ، متواضعا من غير ذلة ، جوادًا من غير سرف ، رقيق القلب ، دائم الإطراق ، رحيما بكل مسلم ، لم يتجشأ قط من شبع ، ولا مد يده إلى طمع [1] .

﴿ قُلْ إنَّ صَلاَتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لله رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [2] .

﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإنَّكَ بِأعْيُنِنَا ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ وَمِنَ اللَّيلِ فَسبِّحْهُ وَإدْبَارَ النُّجُومِ ﴾ [3] .

﴿ أقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إلَى غَسَقِ اللَّيلِ ، وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ، وَمِنَ اللَّيلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ، وَقُلْ رَبِّ أدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّى مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴾ [4] . ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأتِيكَ الْيَقِينُ ﴾ [5] .

﴿يَا أيُّهَا الْمُزَّمِلُ ، قُمِ اللَّيلَ إلاَّ قَلِيلاً ، نِصْفَهُ أوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ، أوْ زِدْ عَلَيهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً .. إنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أنَّكَ تَقُومُ أدْنَى مِنْ ثُلُثَىِ اللَّيلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ ﴾ [6] .

---

(١) اللمع لأبى نصر الطوسى ١٣٦ د . عبد الحليم محمود وآخر - دار الكتب الحديثة بمصر ١٩٦٠ . (٢) الأنعام : ١٦٢ . (٣) الطور : ٤٨ ، ٤٩ .
(٤) الإسراء : ٨٧ ، ٨٠ . (٥) الحجر : ٩٩ .
(٦) المزمل : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٢٠ .

وعن السيدة عائشة رضي الله عنها : أن النبى ﷺ كان يقوم من الليل حتى تنفطر قدماه ، فقلت له · لماذا تصنع هذا يا رسول الله ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟! قال أفلا أحب أن أكون عبدًا شكورًا ؟! [1] .

وعنها أيضًا : كان النبى ﷺ : يصلى من الليل إحدى عشرة ركعة فإذا طلع الفجر صلى ركعتين خفيفتين ثم اضطجع على شقه الأيمن حتى يجىء المؤذن فيؤذنه ·

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ ، وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ ﴾ ·

وعن عبد الله بن مسعود قال : صليت مع النبى ﷺ ليلة فأطال القيام حتى هممت بأمر سوء ؛ قيل وما هممت به ؟ قال : هممت أن أجلس · ·

وعن أنس رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يتوضأ لكل صلاة ، قيل له: كيف كنتم تصنعون ؟ قال : يجزئ أحدنا الوضوء ما لم يحدث ·

وكان الرسول ﷺ يستغرق فى صلاته الليلية ويبكى ·وفى كمال الإيمان يقول النبى ﷺ

« من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان » وحين عرف الصحابى الجليل حارثة بن مالك رضي الله عنه الإيمان وتذوق حلاوته صدقه الرسول ﷺ حين سأله فقال له كيف أصبحت يا حارثة ؟

قال : أصبحت مؤمنا حقًا ، قال : « انظر ماذا تقول ، فإن لكل شىء حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟

قال : عزفت نفسى عن الدنيا ، فأسهرت ليلى ، وأظمأت نهارى ، وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزا ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة ، يتزاورون فيها، وكأنى أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها ، فقال ﷺ : عرفت يا حارثة فالزم[2] .

---

(١)رواه الشيخان والترمذى والنسائى ·

(٢) اللمع : الطوسى : ٣٠ ·

وفى الحديث الشريف : من تقرب منى شبرا ، تقربت منه ذراعا ، ومن تقرب منى ذراعا ، تقربت منه باعا . ومن أتانى يمشى أتيته هرولة .

ويقول ﷺ :

لى وقت مع الله لا يسعنى فيه إنس ولا جن ولا ملك ولا شيطان .

ويقول أيضًا : « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » قال تعالى « وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيمًا » وقال تعالى : «والَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا » .

وسئل الرسول ﷺ : كيف عرفت ربك ؟ فأجاب قائلا : نور أنى أراه . ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (١) .

﴿لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهْوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ ﴾(٢) .

وكان من خلق الرسول ﷺ عزوفه عن الدنيا وزهده فى متاعها؛ فكان يبذل فى سبيل الله ما يملكه ، ولا يستقر فى بيته مال ولا طعام ، فهى عنده معبر للآخرة، وكل ما فى القرآن الكريم والحديث الشريف قد صور هذا الخلق ومنزلة النبى ﷺ فيه قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ، الْمَالُ والبَنُونَ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا والبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾ (٣) .

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ والأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٤) .

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى

---

(١) الشورى : ١٠٣ . (٢) الأنعام : ١٠٣

(٣) الكهف : ٤٥ ، ٤٦ . (٤) يونس : ٢٤ .

الأَمْوَال والأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ﴾ (١) .

﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ، فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ ، إِنْ تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (٢) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ، تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

وقال الرسول الكريم يصور نفسه وموقفه من الدنيا أولا ، ويعلم أمته ، ويشرع لها ثانيا :

روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال : هل تدرون من المفلس ؟ قلنا : المفلس فينا يا رسول الله من لا درهم له ، ولا دينار ، ولا متاع . قال:

« المفلس من أمتى ، من يأتى يوم القيامة بصلاة وصوم وزكاة ويأتى وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته ؛ فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه ، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار » .

« خيرت بين أن أكون نبيا ملكا ، أو أكون نبيا عبدا ؛ فأشار إلىّ جبريل عليه السلام أن تواضع ، فقلت : بل أكون نبيًا عبدًا أشبع يوما ، وأجوع يوما » (٣) .

وعن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ أكل خشنا ولبس الصوف : واحتذى المخصوف » (٤) .

---

(١) الحديد : ٢٠ .
(٢) التغابن : ١٥ ، ١٧ .
(٣) الصف : ١٠ ، ١١ .
(٤) الإحياء : للغزالى ٤ / ١٩٠ .

وكان من دعائه : اللهم أحينى مسكينا ، وأمتنى مسكينا ، واحشرنى فى زمرة المساكين »[1] .

« ودخل عمر بن الخطاب ﷺ على النبى صلوات الله عليه فرآه يضطجع على حصير خشن ترك آثاره على جنبه ، فبكى عمر ، فقال له الرسول ما يبكيك ؟ قال : أرى كسرى وقيصر على الحرير والإستبرق ، وأراك على هذا الحصير ؟ فغضب الرسول وقال : أتريدها كسروية يا عمر ؟

وقالت عائشة ﵂ : كان النبى ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة .

ووهب النبى ﷺ ما بين جبلين من الغنم لرجل واحد ، فرجع ذلك الرجل إلى قبيلته ، وقال : إن محمدا عليه الصلاة والسلام يعطى عطاء من لا يخشى الفقر[2] .

وفيما رواه الترمذى عن جابر من حديث أبى طلحة ﵁ قال شكونا إلى النبى ﷺ الجوع ورفعنا ثيابنا عن حجر إلى بطوننا ، فرفع رسول الله ﷺ عن حجرين .

وفيما رواه الترمذى وابن ماجه : أن رسول الله ﷺ قال : « مالى وللدنيا » ، وقال أيضًا : ليكن بلغة أحـــدكم كزاد الراكب . وروى عن النبى ﷺ : حبب إلى من دنياكم ثلاث : وقال أنتم أعلم بشئون دنياكم . قال الطوسى : فاضاف الدنيا إليهم وأخرج نفسه منها[3] .

وروى عن الدنيا أن النبى ﷺ قال : يا أبا هريرة ألا أريك الدنيا جميعها بما فيها ؟ قال بلى يا رسول الله . فأخذ بيدى وأتى بى واديًا من أودية المدينة ؛ فإذا مزبلة فيها رؤوس ، وعذرات ، وخرق ، وعظام . ثم قال : يا أبا هريرة . هذه الرؤوس كانت تحرص كحرصكم ، وتأمل كأملكم ، ثم ، هى اليوم عظام بلا جلد ، ثم هى صائرة رمادًا ، وهذه العذرات هى ألوان أطعمتهم

---

(١) رواه ابن ماجه والحاكم .

(٢) رواه الترمذى والحاكم والطبرانى .

(٣) رواه مسلم وابن حنبل عن أنس .

اكتسبوها من حيث اكتسبوها ، ثم قذفوها فى بطونهم ، فأصبحت والناس يتحامونها ، وهذه الخرق البالية كانت رياشهم ولباسهم ، فأصبحت والرياح تعصفها ، وهذه العظام عظام دوابهم التى كانوا ينتجعون عليها أطراف البلاد ؛ فمن كان باكيا على الدنيا فليبك ؟ .

قال أبو هريرة : فما برحنا حتى اشتد بكاؤنا (١) .

وسواء صح هذا الحديث من وجهة نظر المحدثين أو لم يصح فهو عند المتصوفة تصوير صحيح لحقيقة الدنيا ، أو لحقيقة الإنسان فى هذه الدنيا (٢) .

وروى عن عائشة رضي الله عنها : أنها قالت : ذبحنا شاة فتصدقنا بها حتى لم يبق إلا كتفها ، قالت : فقلت : يا رسول الله ذهب كلها إلا كتفها ؟! فقال النبى عليه الصلاة والسلام : بقيت كلها إلا كتفها (٣) .

قال موسى بن يسار قال النبى صلى الله عليه وسلم : إن الله عز وجل لم يخلق خلقًا أبغض إليه من الدنيا ، وأنه منذ خلقها لم ينظر إليها (٤) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ألهاكم التكاثر يقول ابن آدم : مالى مالى وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأبقيت » (٥) .

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» .

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ على شاة ميتة فقال : أترون هذه الشاة هينة على أهلها ؟ قالوا من هوانها ألقوها ، قال والذى نفسى بيده للدنيا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها ، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء (٦) .

« الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله منها » وقال أيضًا : حب الدنيا رأس كل خطيئة » (٧) .

---

(١) اللمع : الطوسى : ١٤٨ .
(٢) الإحياء : الغزالى ٣ / ١٩٩ .
(٣) مفهوم التصوف : دكتور سليمان دنيا ص ٩ .
(٤) رواه الترمذى .
(٥) حديث مرسل رواه البيهقى .
(٦) رواه مسلم فى صحيحه .
(٧) الإحياء : الغزالى ٣ / ١٩٧ .

وقال زيد بن أرقم : كنا مع أبى بكر الصديق ﵁ ، فدعا بشراب فأتى بماء وعسل ، فلما أدناه من فيه بكى حتى أبكى أصحابه وسكتوا وما سكت ، ثم عاد وبكى ، حتى ظنوا أنهم لا يقدرون على مسألته ، قال . ثم مسح عينيه، فقالوا : يا خليفة رسول الله ما أبكاك . قال: كنت مع رسول الله ﷺ ، فرأيته يدفع عن نفسه شيئًا ، ولم أر معه أحدا ، فقلت : يا رسول الله ماذا تدفع عن نفسك ، قال :

« هذه الدنيا مثلت لى فقلت لها إليك عنى ، ثم رجعت فقالت : إنك إن أفلت منى ، لم يفلت منى من بعدك » (١) .

وقال ﷺ فى بعض خطبه : المؤمن بين مخافتين ، بين أجل قد مضى لا يدرى ما الله صانع فيه ، وبين أجل قد بقى لا يدرى ما الله قاض فيه ، فليتزود العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن حياته لموته ، ومن شبابه لهرمه ، فإن الدنيا خلقت لكم وأنتم خلقتم للآخرة ، والذى نفسى بيده ما بعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار » (٢) .

وروى أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح فجاء بمال من البحرين ، فسمعت الأنصار بقدوم أبى عبيدة ، فوافوا صلاة الفـــجر مع رسول الله ﷺ فلما صلى رسول الله ﷺ انصرف ، فتعرضوا له ، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم ثم قال :

أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشىء ، قالوا أجل يا رسول الله ، قال: فأبشروا وأملوا ما يسركم ، فوالله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكنى أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا ، كما بسطت على من كان قبلكم ، فتُنافسوها كما تَنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم » (٣) .

وعن الحسن قال : خرج رسول الله ﷺ ذات يوم على أصحابه فقال:

---

(١) رواه الحاكم وابن أبى الدنيا والبيهقى .

(٢) الاحياء : الغزالى ٤ / ٢٠٠

(٣) حديث متفق عليه .

« هل منكم من يريد أن يذهب الله عنه العمى ويجعله بصيرًا ؟ ألا إنه من رغب في الدنيا ، وطال أمله فيها ، أعمى الله قلبه على قدر ذلك ، ومن زهد فى الدنيا وقصر فيها أمله ، أعطاه الله علمًا بغير تعلم وهدًى بغير هداية ، ألا إنه سيكون بعدكم قوم ، لا يستقيم لهم الملك إلا بالقتل والتجبر، ولا الغنى إلا بالفخر والبخل ، ولا المحبة إلا باتباع الهوى ، ألا فمن أدرك ذلك الزمان منكم ، فصبر على الفقر ، وهو يقدر على الغنى ، وصبر على البغضاء وهو يقدر على المحبة ، وصبر على الذل وهو يقدر على العز، لا يريد بذلك إلا وجه الله تعالى ، أعطاه الله ثواب خمسين صديقًا » [1] .

تلك هى أخلاق المصطفى ﷺ كما شرعها الله فى الدين الإسلامى ، أخلاق يهدف منها الإسلام تربية النفس وتهذيب الروح ، ومعرفة الخالق ، والإيمان به على أساس من هذه المعرفة .

وقد سجل القرآن الكريم والحديث الشريف الخلق الكريم فى التعرف على الله والإيمان به ، وذكرنا آنفًا بعضًا من آيات القرآن الكريم، وبعضًا من أحاديث الرسول ﷺ ، وخاصة ما يتصل بإحياء الجانب الروحى فى النفس اتصالاً وثيقًا ، وجاءت فى صورة إرشاد وتوجيه للنبى ﷺ أولاً ، وتشريع لأمته ثانيًا؛ فكان سلوكه صورة حية لتعاليم السماء ،وأفعاله مثلا أعلى لتطبيق التشريع والعمل به ، وكان العمل به ترجمة صادقة للإسلام .

وبهذا السلوك يكون النبى ﷺ المثل الأعلى للمؤمنين والقدوة الصادقة الحسنة للمسلمين ، وكل من تبعه . فهو دونه فى درجة الإيمان والمعرفة ، ينهل من معين النبوة الذى لا ينضب ؛ لذلك قال له ربه سبحانه وتعالى وهو يعلم أنه كذلك :

« **فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ ، وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ، وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ، وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ**

---

(١) الاحياء : الغزالى ٣ / ٢٠٠

لاَ تُنْصَرُونَ ، أَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ، وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١) .

فالله سبحانه وتعالى يحكم ابتداء باستقامة الرسول الكريم وعصمته ، فإذا ما خاطب الله بعد ذلك غيره ، عبر بالطغيان ، وباتخاذ الذين ظلموا أولياء من دون الله ، ثم يخاطب النبى ﷺ بما هو أهله ، ويربط على قلبه بالصبر ، وتحمل الشدائد فى سبيل الدعوة ، ومن كان كذلك فجزاؤه أعظم الجزاء ، وهو جزاء المحسنين لأنه صادق فى نشر الدعوة ، ومخلص فى الالتزام بها ، وإحكام العمل بها :

﴿ قُلْ لاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزَائِنُ اللهِ ، وَلاَ أَعْلَمُ الغَيْبَ ، وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَىَّ ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢) .

هذا شىء من خلق النبى محمد ﷺ الذى كان جديرًا بثناء الله عز وجل عليه فى محكم آياته وهو الذى أدبه وأتم خلقه ، وصنعه على عينه ، لأن هذا الخلق هو التشريع الإسلامى حيث كان فيه سلوكًا ومنهجًا ، قال تعالى:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (٣) .

وبعث محمد ﷺ من أجل هذا الخلق فقال : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

« إن الله يحب معالى الأخلاق ويبغض سفاسفها » (٤) .

وعن معاذ بن جبل عن النبى ﷺ قال : « إن الله حف الإسلام بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال » .

---

(١) هود : ١١٢ - ١١٥ .

(٢) الأنعام : ٥٠ .

(٣) القلم : ٤ .

(٤) الإحياء : الغزالى ٢ / ٢٥٢ .

ومن ذلك كان النبى ﷺ يدعو الله سبحانه وتعالى أن يجمله بحسن الخلق كما أتم عليه الخلق : « اللهم حسن خُلقى وخَلقى » .

« اللهم جنبنى منكرات الأخلاق » .

قال على رضي الله عنه ؛ يا عجبًا لرجل مسلم يجيئه أخوه المسلم فى حاجة فلا يرى نفسه للخير أهلا ، فلو كان لا يرجو ثوابًا ، ولا يخشى عقابا ، لقد كان ينبغى له أن يسارع إلى مكارم الأخلاق ، فإنها مما تدل على سبيل النجاة ، فقال له رجل أسمعته من رسول الله ﷺ ؟ فقال : نعم : وما هو خير منه ، لما أتى بسبايا طىء وقفت جارية فى السبى فقالت يا محمد تخل عنى ، ولا تشمت بى أحياء العرب ، فإنى بنت سيد قومى وإن أبى كان يحمى الذمار ، ويفك العانى ، ويشبع الجائع . فقال ﷺ : يا جارية هذه صفة المؤمنين حقا، لو كان أبوك مسلمًا لترحمنا عليه ، خلوا عنها ، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق وإن الله يحب مكارم الأخلاق ، فقال أبو بردة بن نيار ، فقال يا رسول الله : الله يحب مكارم الأخلاق ، فقال والذى نفسى بيده لا يدخل الجنة إلا حسن الأخلاق . (١) .

فالقرآن الكريم نزل على النبى ﷺ لإنقاذ البشرية من الشرك والضلال وللإيمان بالله وحده ، ولتحريك الجانب الروحى فى الخلق ؛ ليعرفوا الخالق حق المعرفة ، سواء اكتمل هذا السلوك عن طريق التوجيه والإرشاد المباشر كما رأينا فى الآيات والأحاديث التى عرضناها ، أو تم عن طريق القصص القرآنى للأنبياء السابقين والأمم الغابرة أو لبعض الصالحين الذين تولاهم الله وهداهم واجتباهم ، لكن القصص فى القرآن حين يأخذ دوره أيضًا فى إحيا الجانب الروحى فى السلوك الإنسانى يكون دوره غير مباشر فى إرشاده .

ونحن نعلم أن كل ما ورد فى القرآن الكريم قصصًا للأمم السابقة أو غير ذلك إنما جاء من أجل هذه الأمة ومن أجل إصلاحها واستقامة أمرها ، فكل ما فيه ،وما يضمه بين دفتيه ، بل كل حرف فيه ، يمثل عقيدة الإسلام ، وتشريع السماء لأمة محمد ﷺ .

---

(١) المرجع السابق : ٢ / ٣٥٣ .

ولهذا كان لزامًا علينا أن نقف قليلا مع بعض الآيات القرآنية وبعض أحاديث محمد ﷺ التى تصور الجانب الروحى فى الإنسان ، وتحض المسلم أن يكون على مثاله من غير مبالغة أو انحراف ، وندرس ذلك دراسة تفصيلية موضوعية نعتمد فيها على خصائص الإعجاز فى التصوير القرآنى ، لنشخص الجانب الروحى من وراء هذا الإعجاز ونحدد معالمه من خصائص التعبير ، فنرى أن أدب الزهد وأدب التصوف بعد ذلك موصول بالقرآن الكريم وبالحديث الشريف ، بل أسمى ما عرفته البشرية فى هذا الجانب ، وإنهما المصدران الأوليان والحقيقيان لكل أدب إسلامى ·

والدراسة على هذا النهج سترد بالفعل والتحليل كل الطعون التى وجهت إلى التصوف الإسلامى والأدب الصوفى ، وتصله بأصله وبأسمى مراحله ، وترد كل كيد يوجه إلى الإسلام وإلى رجاله وإلى علومه وآدابه ·

ولكى نقف على خصائص أدب الزهد فى القرن الثانى وخصائص أدب التصوف فى القرن الثالث مثلاً ، والفرق بينهما ، كان من الضرورى أن نقف أولا على الإعجاز فى التصوير القرآنى للسمو الروحى وعلى خصائص جوامع الكلم فيه للنبى ﷺ ، وحين نصل الفرع بأصله تبرز الخصائص ، وحين ننتقل من طور إلى طور تتميز السمات الأدبية فى كل طور ، وحينما ننهل من المنبع العذب الصافى ، نشعر بحلاوته ومزاجه فى فروعه وروافده ·

ولكى يكون الحكم صادقًا ، أو قريبًا من الصدق فى عقد الشبه بين الأصل وفرعه ، وبين الإبن وأبيه ، لابد أن يجعل أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله ، ليجمع بين السمات المتشابهة ، وتنسجم الخصائص المتلاقية ، وتتلاحم عروق النسب ؛ فيظهر بعد ذلك ما اندس على الفرع من عروق ، وما طرأ عليه من جديد بسبب اختلاف الأعصر وتباين البيئات عند ذلك يصح الحكم ، وتسلم النتائج ·

أما إذا تخلف الأب عن جلسة الحكم والقضاء ، فمهما ادعى الفرد ، وتداعى من ينوب عن الأصل ، فلن يكون الحكم صادقًا ولا النتائج موثقة محققة · وكيف يبنى القاضى حكمه من طرف واحد ·

كذلك ما نحن بصدده من الدراسة لخصائص الأدب الإسلامى الصوفى،

ذلك الوليد الذى نشأ بعد الصحابه فى أول أطواره متمثلا فى أدب الزهد ثم شب متمثلا فى أدب التصوف ، نشأ هذا الوليد فرعا من فروع الثقافة العربية الإسلامية وعلمًا من علوم الفكر الإسلامى العربى ولونًا من ألوان التعبير الدينى الإسلامى مستمدًا أصوله ومعالمه ، وقواعده وآدابه من النبع الأصيل من التشريع الإسلامى ، متأثرًا فى كل ذلك بجلال التعبير فى القرآن الكريم ، وبروعة التصوير فى الحديث الشريف ، ومتصلا بآداب الصحابة رضوان الله عليهم الذين عاشوا هذه الحياة يتلقون فيها الدروس والعظات من قائد البشرية النبى محمد ﷺ .

لذلك وجدت من الضرورى فى هذه الدراسة قبل أن أحدد خصائص أدب الزهد الإسلامى فى القرن الثانى وبالتالى قبل أن أميز بينها وبين سمات الطور الثانى لأدب الزهد وهى سمات الأدب الصوفى بعد ذلك ، كان من الواجب فى هذه الدراسة أن نعرف أسمى ما عرفته الإنسانية من التعبير فى هذا الجانب فى القرآن الكريم أولا وفى حديث الرسول ﷺ ثانيًا ، وفى نماذج من أدب بعض الصحابة ﷺ ثالثًا ، وذلك فى نماذج تكون دليلا على نظائرها، وأمثلة معدودة تكون شاهدة على أشباهها .

على هذا النهج نصل ما انقطع بين الفرع وأصله ، وتتمايز السمات فى كل عصر ، وتبرز الخصائص فى كل طور ، ونفصل بين ما ينبض فى الآداب الإسلامية بالأصالة وبين الوافد عليها من الحضارات الطارئة فى دولة الإسلام، وبين الجديد فيها من الثقافات المختلفة فى ظل الحضارة الإسلامية العربية العباسية .

(٦)

فتية آمنوا بربهم

قال الله سبحانه وتعالى فى محكم آياته :

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الكَهْفِ والرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ، إِذْ أَوَى الفِتْيَةُ إِلَى الكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّىء لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ،

فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِى الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ، ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ، نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ، وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ، هَؤُلاَءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلاَ يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا ، وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا ، وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ، وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ، وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ، إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ، وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لاَ رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ، سَيَقُولُونَ ثَلاَثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ، وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِى رَبِّى لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ، وَلَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثَلاَثَ مِائَةٍ سِنِينَ ، وَازْدَادُوا تِسْعًا ، قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِىٍّ وَلاَ يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِ أَحَدًا،وَاتْلُ مَا أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا،وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ

بالغَدَاة وَالعَشىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الحَيَاة الدُّنْيَا وَلاَ تُطعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ، وَقُلِ الحَقُّ من ربِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤمنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا للظَّالمينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا • وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ (١) .

من معانى الكلمات:

آثرت التعبير بالبعضية فى تفسير المفردات مع القرآن الكريم استشعارا بقدسيته ، فهو تنزيل من لدن حكيم عليم ، فالله سبحانه وتعالى اختار ألفاظه بلطفه ومبلغ علمه ، وسلكها فى نظم عجيب ، لا يدرك ما وراءها من أسرار إلا الله .

واستشعارًا أيضًا بجلاله ، لأن الألفاظ فى مواقعها منه سرى فيها الجلال والحلاوة ، التى تخر لها جباه أبلغ البلغاء ، لعجزهم عن تفسير ما وراءها من حقيقة وأسرار ، كالشأن عندهم فى التعرف على أسرار الجمال فى غير القرآن الكريم ؛ لذلك فرّق النقاد القدامى بين الجلال والحلاوة وبين الجمال (٢) ، فأدركوا أسباب الجمال ، ولم يدركوها فى الجلال كالشأن فى القرآن الكريم .

واستشعارًا كذلك بالإعجاز فى نظمه ، الذى أعطى لكل كلمة على حدة معانى لا يعلمها إلا الله ، ومغازى لا يدركها إلا الخبير سبحانه وتعالى ، قد يقف على بعضها القليل ؛ ولكن من العسير أن يقفوا على جميعها ، فاللفظ فى معاجم اللغة له معنى محدد وإن تعدد واقعه الحسى يوم أن نشأ هذا اللفظ ، واستكمل هيئته من مراحل النحت التى مر بها عبر التاريخ ، لكنه فى موقعه من التركيب البديع، ومكانه من النظم القرآنى ، يرسل معانيًا لا حصر

---

(١) الكهف : ٩ ـ ٢٩

(٢) الوساطة : القاضى بن عبد العزيز الجرجانى ٣٧ - ٣٩ مطبعة صبيح - والموازنة للآمدى ص ١٨٣ وما بعدها .

لها تشع منه عند التأمل ، لتفسر حقيقة يعلمها الله ، على الرغم من التعدد فى المعنى .

وقد تنبه أحد النقاد القدامى عبد القاهر الجرجانى إلى ما يشبه ذلك ، فى باب معنى المعنى أو المعنى الثانى [1] .

لهذا كله آثرت العنوان السابق لبذل ما يمكن بذله مجتهداً فى فهم اللفظ، تقريباً لفهم معناه ، الذى أوحى به موقعه من التركيب ، ومن الخطأ أن نجزم فى التفسير بمعنى واحد أو معنيين ،وهو ما آخذه على بعض المفسرين ، الذين أوقفوا اللفظ على معنى ، ظنا منهم أنه هو ، وجميل منهم أن ينسبوا المعنى الحقيقى إلى الله آخر المطاف ، بقولهم : « والله أعلم بمراده » .

وينبغى فى تفسير ألفاظ القرآن الكريم أن نجند كل المعانى المستوحاة من اللفظ لخدمته ، حتى يقرب من الأفهام ، فالأقوال المختلفة حول اللفظ ، لا يصح أن تكون على سبيل التخير ، بل لابد أن تكون كلها وأكثر منها داخلة فى إطار اللفظ ، ما دامت الصلة قائمة ؛ وسنرى أن اللفظ الواحد يحمل فى ذاته شحنات من المعانى ، كلها تفسر المغزى الذى يهدف إليه موقع اللفظ من التعبير؛ ويظهر أثر هذه المعانى المختلفة للفظ الواحد فى حديثنا عن الإعجاز فى التصوير القرآنى .

وعلى سبيل المثال فالمعانى الكثيرة فى لفظ « حسبت » من قوله تعالى : « أم حسبت » وهى الحساب ، والتقدير ، والعلم ، واليقين ، والظن ، والتخمين ، وغير ذلك مما يوحيه اللفظ فى مكانه من الآية ، فهذه المعانى كلها واردة فى تحديد الواقع الحسى للفظ ، وخاصة بعد اتصاله بحرف « أم » الذى لا يظهر معناه إلا فى غيره ؛ فالظن والتخمين يتناسب مع تصوير واقع النبى ﷺ ، هو ومن على شاكلته فى صدق الإيمان ، فالظن هنا يتفق ومقام النبوة فربما - وهو بشر - قد تسرب الظن إلى نفسه فى أن أصحاب الكهف هم

(١) دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجانى ٢٦٢ : ٢٦٤ تحقيق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى القاهرة ١٩٦٩ م .

الآية العجيبة الوحيدة ، لا توجد غيرها عند الله ، وهذا الظن عنده لا يغنى من الحق شيئًا ، من الحق الذى وقر فى نفسه ، وهو كثرة آيات الله العجيبة بما فيها آية أصحاب الكهف ، وكان هذا الحسبان عارض بشرى لابد أن يكون ، ولكنه زال مع إلهام الله أولياءه القول الحق .

وغير النبى ﷺ يرى - وهو صادق مع نفسه - فى الحسبان يقينًا وحسابًا دقيقا ، وعند ذلك يعتقد أن أصحاب الكهف هم وحدهم الآية العجيبة، ولا توجد غيرها عند الله وهذا المعنى - والله أعلم - غير المراد مع أنه صحيح ومقبول من وجهة نظر الغير .

وسوى ذلك من معانى اللفظ ، التى تصور واقعه الحسى عند الأفهام المختلفة فى التصور ، حينما صيغ اللفظ أول ما صيغ من الواقع الحسى ، الذى اختلف من فهم إلى آخر ، حسب اختلاف مراحله فى التاريخ .

أم : وتشمل معانى منها : أداة عطف توصل بين شيئين على سبيل التسوية أو التعيين ؛ ومضمنة معنى الاستفهام الحقيقى ، أو غير الحقيقى بمعنى النفى والتقدير : أم ، أصحاب : جمع صاحب بمعنى التلازم ، والاقتران ، والثقة ، والاعتصام ، والإيثار والحفظ . الكهف : غار فى الجبل ، ومأوى الرقيم : كلبهم فهو علم عليه ، ولأن شعره مرقوم أى منقوش ، وجانب فى الجبل ، والكتاب المرقوم الذى كان معهم . الآية : العلامة ، والدلالة ، والقدرة ، والعظة . عجبا : الغرابة والعجز ، والإعجاز ، والبيان ، والإفصاح إذ : حين ، وقت ، لحظة ، أوى : لجأ ، ونزل ، وأسرع ، واحتمى ، وانضم . الفتية : جمع فتى بمعنى الشباب ؛ والقوة ، والكرم ، والطراوة ، والاندفاع . إلى : الانتهاء فليست داخلة لأن أصحاب الكهف ما زالوا فى الطريق لم يدخلوا فيه . لدنك : قبلك وعندك ، ولدن يغلب استعمالها فى جانب الله (ربنا آتنا من لدنك رحمة) أما عند فشائع فى الاستعمال عامة . ضربنا : ألقى ، وثبت ، وكافأ ، وعاقب ، وشد ، وأحكم. على : بمعنى القدرة ، والاستعلاء ، والملاصقة ، والمجاوزة ،

والانفصال · عددا : الكثرة ، ومتصلة · بعثناهم ، أيقظناهم ، وأحييناهم ، وخلقناهم ، وكرمناهم · الحزبين : الفريقين ، الرأيين الاتجاهين ، المتضادين · أحصى : أعلم ، وأدق ، وأكثر ، وأظفر · لبث : غاب ، ومكث ، ومات ، ونام ، أمدا : العدد ، والغاية ، والقدر المعين · نقص : من القص بمعنى التتبع ، والقطع ، والحكم ، والفصل ، والجزم ، واليقين ·

نبأهم : النبأ هو الخبر ، والظهور ، والوضوح ، والغيب ، بالحق : بالصدق ، الثبوت ، الدليل ، القطع · هدى : الدلالة ، والصواب ، والحق، واللطف ، والرعاية · ربطنا : شددنا ، وجمعنا ، وثبتنا ، وقوينا · قاموا : ثبتوا ، ونهضوا وخرجوا ، وأشرفوا ، واعتزوا · الشطط : الغلو ، والإسراف ، ومجاوزة الحد ، والباطل ، والكذب ، والبهتان · اتخذوا : صنعوا ، وعبدوا ، وصبروا وضلوا · سلطان : الوضوح ، والدليل ، والحجة ، والبيان · افترى : من الافتراء بمعنى الكذب ، والبهتان ، والتحدى بغير دليل · اعتزلتموهم : من الاعتزال بمعنى الترك ،والاعتصام ، والتمسك بالعقيدة ، والهرب ، واللجوء ، والمخالفة · ينشر : من النشر بمعنى الرحمة ، والحفظ ، والحياة والبعث ، والقطع · مرفقا : معينا ، ومصلحا، ترى : تبصر، وتعلم ، وتتيقن · إذا : تفيد التحقيق من الزمن الذى تطلع فيه الشمس وتفيد أيضًا طلوع الشمس طول مدة لبثهم فى الكهف، تزاور : تتزاور : تميل ، وتنزل وتحيد ، وتحجب ، وتراوغ ، وتنافق · تقرضهم : تتركهم ، وتمنعهم وتنقطع عندهم · وتغطيهم ، وتقطع عنهم الضوء والحرارة · فجوة : متسع ، ومنأى ، وناحية وجزء ، وهم متفرقون فى مضاجعهم · أيقاظًا : أحياء ومنتبهين ، وعيونهم مفتوحة، الوصيد : الباب ، والمدخل ، والتراب والإطباق ، والفناء ، والضيق ، اطلعت : أشرفت ، ورأيت ، وعلمت وعاينت رعبًا : خوفا ، وفزعا ، واضطرابا ورقكم : من الورق وهى الفضة المضروبة ، والرقيقة · أزكى : أطيب ، وأحسن ، وأحل ، وأكثر ، وأرخص وأكثر فائدة· التلطف : الخفاء ، والرحمة ، والتستر ، وحسن التعامل والتباسط يظهروا : يعلموا ويشرفوا ، ويظفروا ، وينتصروا ، ويغلبوا

يرجموكم : يقتلوكم رميا بالحجارة · يهينوكم · الملة : العقيدة · والدين · والكتاب ·

أعثرنا : من الإعثار بمعنى الطلوع · والنظر · والإشراف · والوقوف والثبات يتنازعون : يختلفون ويأخذ بعضهم من البعض الآخر · تمار : تجادل · وتشك ، وتأخذ · ظاهرًا : سهلاً · وهينًا · وواضحًا ، يقوم على الدليل والحجة · تستفت : تطلب · وتعلم · وتسأل · وتسترشد · أبصر بهم وأسمع : فلا أحد أبصر بعباده من الله عز وجل ، ولا أسمع بهم منه · وهو البصير بأعمالهم السميع بأقوالهم · واتل : واقرأ · واذكر · واعمل · الوحى: القرآن والعلم وجبريل عليه السلام ، والكتاب· مبدل : من التبديل بمعنى الإزالة ، والتحريف ، والتغيير · ملتحدًا : ملجأ · ومهربًا · ووليًا · وناصرًا· ومعينًا ·

واصبر · واثبت ، واجلس ، وكابد ، وجاهد نفسك ، واربط على قلبك ،بالغداة والعشى : فى الصباح والمساء ، والمراد ، اليوم كله · تعد: تعدل، وتترك ، وتجاوز ، وتستبدل ، وتطلب غيرهم · أغفل : انشغل وظلم وهلك ، وضل ، ونسى · فرطًا : من التفريط بمعنى الإسراف ، والغلو ، والضياع ، والمجاوزة ، والعقاب · أعتدنا : أرصدنا ، وهيأنا ، وعاقبنا · سرادقها : السرادق بمعنى السور ، والإحاطة ، والإطباق ، وشده البلاء ، المهل : ماء غليظ ، أسود ، وحارق ، ومذاب ومنتن ، وجار · يشوى يحرق ويشوه ، ويسقط جلد الوجه· مرتفقًا : رفيقًا، ومكانًا ، ومنزلا ، ومجتمعًا ، ومقيلاً وجزاء [١] ·

* * *

(١) انظر لسان لعرب ، والقاموس المحيط ، وتفسير القرآن العظيم : ابن كثير ٣/ ٧٢ : ٨١ ، وبدائع الفوائد : ابن الجوزى الجزء الأول ، نظم الدر فى تناسب الآيات والسور : للبقاعى ، والكشاف للزمخشرى ، وسيرة ابن هشام : ١ / ٣٠٠ · ٣٠٨ وغيرها ·

القرآن والتاريخ

كشف القرآن الكريم عن وقائع تاريخية تضرب فى أعماق القدم ، وخاصة فى قصصه ، وكان فى هذا الكشف إعلام بالنبوة ، وتأييد للرسالة ، وردع للمشركين ، وإعجاز لهم عن مجاراته ، والإتيان بمثل هذه الحقائق التاريخية الصادقة فى وقوعها ، قد سماه القدامى إعجاز فى المضمون والمعنى ، أى إعجاز بإظهار حقيقة ما غاب عن الإنسان فى التاريخ البعيد .

وكيف يكون إظهار التاريخ معجزة النبى ؟ فقصة أصحاب الكهف كانت معلومة عند أحبار اليهود فى المدينة ، وإن كانت مجهولة عند غيرهم ، فلا يدرى الجاهل أن وقائعها صادقة أم كاذبة ، وفى كلتا الحالتين لا تكون معجزة للنبى ؛ لأنها خلت من دعوى التحدى والمجاراة .

والحق أن وجه الإعجاز فيها يرجع لأمور كثيرة ؛

منها : أن نزول هذه القصة على النبى ﷺ يدل على أن الله سبحانه وتعالى مطلع على عباده يعلم السر وأخفى ، رأى ما وقع من تساؤلات ومحاورات حول تكذيب أمر الرسالة ، فأراد الله أن يخبرهم عن طريق القصة بأن من يعلم هذا لهو جدير بالتسليم له والإيمان به وبرسوله .

ومنها أن النبى ﷺ كان **أميًّا** لا يقرأ ولا يكتب ، وكان فى مكة ، لا يعلم شيئًا عن الوقائع الدقيقة فى القصة ، وحينما يتحدث بها الرسول ﷺ ويخبر عن أحداثها بدقة وصدق كما أنزلها الله عز وجل ؛ فإن ذلك يدل على صدق الرسول وتحديه للكفر .

ومنها أن الوقائع التى كان يعلمها اليهود وهم فى المدينة لم تكن كاملة وصادقة فى مجموعها لعوامل الزمن والزيف من ناحية ، ولغموض أحداث القصة حتى على أهل زمانهم أثناء بعثهم حيث قال الملك وأعوانه : « قالوا ابنوا عليهم بنيانًا ربهم أعلم بهم » من ناحية أخرى ، وحينما تنزل القصة على

الرسول الكريم بأحداثها كاملة صادقة تصل ما انقطع فى القصة من أحداث عند أحبار اليهود · وفى هذا يظهر التحدى مؤيدًا صدق الرسالة ·

والتاريخ فى القرآن الكريم عامة ، وفى القصة التى معنا خاصة ، لا يشوب ما وقع منه أدنى شك ، فكل ما وقع فيها حقائق صادقة ، وأحداث صورها الله كما وقعت فى زمنها البعيد ، ولكن ربما يثير الحيرة ، ويدفع إلى الشك ما غاب عن القصة من مشاهد اختفت وراء التصوير القرآنى مما يوهم عدم الدقة والنقص عند البعض ، مثل حال الفتية بعد اعتزالهم القوم ، حين انتقل القرآن فجأة إلى وصف حالهم وهم نيام فى الكهف واختفى المشهد الذى وقع بين نهاية الحوار وبين النوم ، وهو خروجهم وقطعهم الطريق ، وبحثهم عن الكهف ، وحوارهم أثناء ذلك ، ودخولهم فى الكهف إلى آخره ·

﴿ وإذ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدونَ إلاَّ اللهَ فأوُوا إلَى الكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أمْرِكُمْ مِرْفَقًا ، وَتَرَى الشَّمْسَ إذَا طَلَعَت ﴾ الآية ·

والواقع أن المشهد لم يختف لحظة واحدة عن الخاطر ، فهو شاخص فيه غير غائب عنه ، لأن أجزاء المشهد المحذوف فى الظاهر أمور عادية لا تحتاج إلى التنصيص عليها ، لقربها ، والاتفاق عليها ، وعدم غرابتها ؛ لكن الذى يتأمل فى التصوير يرى أن المشهد مذكور لا فى الخاطر ولكن فى النظم العجيب :

تأمل موقع الفاء بعد الاعتزال مباشرة وما تدل عليه من التلاحق والسرعة التى تصور بدقة - وهى حرف واحد - ما يجول فى أنفسهم من الخوف والفزع والحذر ، مما يدفعهم إلى السرعة فى الطريق والدقة فى البحث حتى لا يضيع الوقت سدى ، وهذه المعانى التى دلت على السرعة والتوفيق إلى المأوى والعثور على الكهف تأتى من مبنى الفعل ، ومعناه « فأووا » فمعناه اللجوء فعلا إلى الكهف وأنهم وفقوا إليه بسرعة ومبناه يدل بإيقاعه الموسيقى (الحركة فالسكون فالضم) الصادر من الحركة والسكون ، يدل على حالتهم أثناء البحث من السرعة فى الحركة فالوقوف عند الكهف ، الذى احتواهم وضمهم إليه ·

أما نومهم فقد دل عليه من الآية (ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيىء

لكم من أمركم مرفقا) فنشر الرحمة عليهم واحتواؤهم تحتها هو النوم نفسه الذى تكفل بحفظهم من الأعداء ، والنوم كان استجابة لدعائهم قبل ذلك فى مطلع القصة الموجز (ربنا آتنا من لدنك رحمة) ، فإعادة الدعاء هنا تكرار لا يخل بنسق القصة ، تعالى الله عما يصفون .

إذن فالوقائع التاريخية هنا كاملة ، والمشاهد واقعة ، والعجز فى الفهم لا فى التصوير القرآنى ، وكيف لا ؟ وهو معجزة الله الخالدة .

والقصة التى معنا جاءت فى سياق سورة الكهف التى كان مطلعها إثبات نبوة محمد ﷺ وصدق رسالته ثم تكذيب النضر بن الحارث ومن وراءه من المشركين واليهود ، ثم انتصار الدعوة إلى التوحيد فى شخص النبى الكريم وأصحابه وهم قلة ، كالشأن فى انتصار أصحاب الكهف وهم قلة على الدنيا من حولهم [١] ليذهبوا فى التاريخ مثلا للإيمان الخالص لله ، وفى الدين الإسلامى نموذجًا صادقًا لمن يخلص فى الإيمان من أمة محمد ﷺ .

أرسلت قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط إلى أحبار اليهود فى المدينة ، ليأخذوا عنهم ما يحاربون به الإسلام ، ويكذبون محمدًا ﷺ ، وهم واليهود سواء فى الكيد له ، فدفعوا إليهم تحديات يعرضونها على الرسول الكريم فى مكة ، وقالوا لهم سلوه عن فتية مضوا فى الدهر ، وكان أمرهم عجبًا وهم أصحاب الكهف وعن رجل طواف شهد العالم وهو ذو القرنين ؛ وعن الروح فإن أجاب عنها كلها أو سكت عنها كلها ، فهو مدع النبوة ، وإن أجاب عن بعضها وسكت عن البعض فهو نبى هذه الأمة :

قال ابن هشام :

« وكان النضر بن الحارث من شـــياطين قريش ، وممن كان يؤذى رسول الله ﷺ ، وينصب له العداوة ، وكان قد قدم الحيرة ، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس ، وأحاديث رستم واسبنديار ، فكان إذا جلس رسول

---

(١) الكهف : من أول السورة إلى الآية ٨ .

الله ﷺ مجلسا فذكَّر فيه بالله ، وحذَّر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله ؛ خلفه فى مجلسه إذا قام ؛ ثم قال : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثا منه ، فهلم إلى ، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه . ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسبنديار ، ثم يقول : بماذا محمد أحسن حديثا منى ؟

فلما قال لهم النضر بن الحارث : بعثوه ، وبعثوا معه عقبة بن أبى معيط إلى أحبار يهود بالمدينة ، وقالوا لهما : سلاهم عن محمد ، وصفا لهم صفته، وأخبراهم بقوله ، فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء ، فخرجا حتى قدما المدينة ، فسألا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ، ووصفا لهم أمره ، وأخبراهم ببعض قوله ، وقالا لهم : إنكم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا فقالت لهما أحبار يهود : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبى مرسل ، وإن لم يفعل فالرجل متقول ، فروْا فيه رأيكم .

سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان أمرهم ، فإنه قد كان لهم حديث عجب .

وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ؟

وسلوه عن الروح ما هى ؟

فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه ، فإنه نبى ، وإن لم يفعل فهو رجل متقول ، فاصنعوا فى أمره ما بدا لكم ، فأقبل النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبى معيط . . . حتى قدما مكة على قريش ، فقالا : يا معشر قريش ، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ، قد أخبرنا أحبار يهود أن نسأله عن أشياء أمرونا بها ، فإن أخبركم عنها فهو نبى وإن لم يفعل فالرجل متقول فروْا فيه رأيكم .

فجاءوا رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا محمد ، أخبرنا عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ، قد كانت لهم قصة عجب ، وعن رجل كان طوافًا قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ؛ وأخبرنا عن الروح وما هى ؟ قال : فقال لهم رسول الله ﷺ ، أخبركم بما سألتم عنه غدًا ، ولم يستثن ، فانصرفوا

فمكث رسول الله ﷺ - فيما يذكرون - خمس عشرة ليلة ، لا يحدث الله إليه فى ذلك وحيا ، ولا يأتيه جبريل ، حتى أرجف أهل مكة ، وقالوا وعدنا محمد غداً ، واليوم خمس عشرة ليلة ، قد أصبحنا منها ، لا يخبرنا بشىء مما سألناه عنه ، وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكثُ الوحى ، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة ، ثم جاءه جبريل من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم ، وخبر ما سألوه عنه من أمر الله فى الفتية ، والرجل الطواف ، والروح ·

قال ابن إسحاق : فذكر لى أن رسول الله ﷺ قال لجبريل حين جاءه: لقد احتبست عنى يا جبريل حتى سؤت ظنًا ، فقال له جبريل :(وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا ،وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيًا)[1] ·

ونزلت سورة الكهف تحمل إجابة سؤالين فقط فى أحدهما عتـاب للنبى ﷺ يحمله على التخلق بأخلاق القرآن ، وهو أن يربط المؤمن كل ما يقع منه بمشيئة الله ، إن شاء فعل وإن شاء ترك « ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدا، إلا أن يشاء الله » وهذا العتاب هو سر تأخير الوحى عنه خمس عشرة ليلة ·

وجاءت قصة أصحاب الكهف وقصة ذى القرنين ، فى موقع التلاؤم بين بقية القصص فى سورة الكهف،ليكون الاتجاه واحدًا فى القص والنسق القرآنى وما فيه الإجابة الشافية يلتقى مع نظيره ، ليدل على أن هذا القصص فى الأزمان الغابرة يعد من آيات الله العجيبة وما أكثرها فليست آية أصحاب الكهف وذى القرنين وحدهما ، ولكن قد اجتمع معهما فى السورة آيتان عجيبتان : فى قصة الرجلين :

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَــــا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ الآيات [2] وفى قصة موسى والعبد الصالح عليهما السلام ·

---

(١) السيرة النبوية ابن هشام ٢١٨ هـ تحقيق مصطفى السقا وآخرين طبعة ثانية الحلبى ١٩٥٥ ·

(٢) الكهف : ٣٢ :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لاَ أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ [1] لتكون هذه الآيات العجيبة كلها أبلغ فى الدلالة على الإيمان بالله وحده ، ليتخذ الله من عباده فى هذا القصص أولياء له ، يدعونه فيكرمهم بالاستجابة السريعة ويخشونه فيلهمهم الحق ؛ ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون ، وهذا ما أقصده من الخلق الكريم فى القرآن عامة وفى قصة أصحاب الكهف خاصة ، فى جانب التعرف على الله والإيمان به وهو ذاته ما تحييه قصة القرآن فى نفوس المسلمين ليكونوا على مثاله ، وهو أسمى ما عرفه الإنسان من تصوير للجانب الروحى .

أما الرد على السؤال الثالث ، فكان من غير إجابة تكشف عن حقيقة الروح وماهيتها ، وفى عدم الإجابة عن الروح اختصاص الله عز وجل بعلم ليس من شأن البشر أن يعلموه تنزيهًا له عن خلقه ، وإثباتًا لعجز الإنسان أمام ربه : فيؤمن به ويسلم الأمر إليه فى كل الأحوال ، ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [2] .

وجاءت الآية فى سورة الإسراء ، تنويها بأن الإسراء والمعراج أمر خارق يخفى على البشر ؛ ومهما أوتى العلماء من العلم لا ينهضون بتفسيره ومعرفة حقيقته ؛ كالشأن فى ماهية الروح تماما ؛ فتلاءم موقع الروح مع مواقع الإسراء والمعراج ؛ كما تلاءمت القصص فى سورة الكهف ؛ وفى كلتا السورتين عجائب من علم الله ؛ وإن كانت فى الكهف واضحة من الأحداث والمشاهد الواقعة ؛ ومثار العجب فى الإسراء هو الغموض والإبهام فلا يعلم ذلك إلا الله وفيه ما فيه من العجب حتى يعجز البشر .

وتأمل هذا التلاؤم العجيب حيث جاءت المناسبة التى تجمع أصحاب الكهف بأهل الصفة فى عهد رسول الله ﷺ فى الاتجاه والمغزى فهؤلاء وهؤلاء صادقون فى إيمانهم ، وكأن أهل الصفة هم أصحاب الكهف ، وكما كان الله مع أصحاب الكهف فنصرهم واستجاب دعاءهم ، فكذلك سيكون مع

---

(1) الكهف : ٦٠ : ٨٢ .　　(2) الإسراء : ٨٥ .

الرسول ﷺ الذى يألف أهل الصفة ، ويعطف عليهم ، ويجلس إليهم . ويترك مجالس الكفر من أشراف قريش فى الجاهلية الذين أنفوا فى النبى أن يجالس أهل الصفة وكرهوا منه ذلك ، فإذا أراد أن يجالسهم ، فلا عليه أن يجلس مع الفقراء من المؤمنين « أهل الصفة » ، فأنزل الله ليخبره بأنه لا يحزن على عناد أشراف قريش ولا يأسف لكفرهم؛ فعنده من المؤمنين على فقرهم من هم أقرب إلى الله وأعظم من أهل مكة : منهم أهل الصفة الذين خلدهم الله، وأنزل فيهم قرآنا :

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الحَدِيث أَسَفًا﴾[1] .

وللالتقاء فى الهدف والغاية والاتجاه أعقبت آية أهل الصفة قصة أصحاب الكهف،ومنزلتهما واحدة عند الله لذلك أمر الله رسوله برعايتهم والأنس بهم :

﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَدَاةِ وَالعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ الآية .

« إنها نزلت فى أشراف قريش حين طلبوا من النبى ﷺ أن يجلس معهم وحده ، ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه كبلال وعمار وصهيب وخباب وابن مسعود ، وليفرد أولئك بمجلس على حدة فنهاه الله عن ذلك فقال : ﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَدَاةِ وَالعَشِيِّ ﴾ الآية ، وأمره أن يصبر نفسه فى الجلوس مع هؤلاء فقال : ﴿ واصبر نفسك ... الآية ﴾[2] .

وقيل : نزلت على رسول الله ﷺ وهو فى بعض أبياته ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ ﴾ الآية فخرج يلتمسهم فوجد قوما يذكرون الله تعالى ، منهم ثائر الرأس ، وجاف الجلد ، وذو الثوب الواحد ، فلما رآهم جلس معهم وقال : الحمد لله الذى جعل فى أمتى من أمرنى أن أصبر نفسى معهم »[3] .

---

(١) الكهف : ٦ .

(٢ و ٣) تفسير القرآن العظيم : ابن كثير (٧٧٤ هـ) ٣ / ٨٠ : ٨ وكتاب عوارف المعارف : السهروردى ١ / ٣٣٢ : ٣٣٣ - هامش إحياء علوم الدين: الغزالى .

الإعجاز فى التصوير القرآنى :

نزل القرآن الكريم بلغة العرب ، بعد أن بلغوا فيها غاية الفصاحة والبلاغة؛ ولذلك كانت معجزة الرسول الكريم فى لغة العرب : فى القرآن الكريم وكان إعجازه فى جميعه ، وفى كل ما يتصل به ، سواء أكان ذلك من حيث موضوعاته المختلفة التى تتصل بالإخبار عن المغيبات كالشأن فى قصة أهل الكهف وغيرها ، أو ما يتصل بما يقع فى المستقبل كهزيمة الروم أمام المسلمين وغير ذلك ، أو ما يتصل بوضع التشريع الإلهى لهذه الأمة مما يتناسب مع الأجيال والأزمان إلى قيام الساعة . أو من حيث أنه وحى أنزله الله على عبده ورسوله تصديقا لرسالته إلى البشر ، وفى الوحى ما يجعل الإنسان يخر ساجدًا لله معبرًا عن عجزه البشرى [1] .

أو من حيث اختيارألفاظه ، وتحديد موقعها من النظم البديع ، وتصويره للمعانى تصويرًا تلتقى فيه كل عناصر الإعجاز فى التصوير الرفيع [2] .

ورأينا الإعجاز فى الإخبار عن أصحاب الكهف ، وما كان من أمرهم فى أعماق التاريخ ، أما الإعجاز هنا فى التصوير ، فقد التقت فيه كل عناصر الإبداع ، فى اللفظ ، وفى تركيبه واختيار حروفه ، وفى موقع اللفظ من النظم القرآنى وما يوحيه كل ذلك من الإيقاع الموسيقى ، ثم ملائمة كل ذلك مع المقام والمعنى والغاية فى التصوير .

ومن العسير أن نقف على كل ذلك ، فهذا يحتاج إلى مطولات من ناحية ولن نصل إلى نهايته من ناحية أخرى ، لأن الذى يعلم الحقيقة فى ذلك الله وحده .

ولذلك سنقتصر فى التحليل على بعض نماذج من التصوير القرآنى هنا ، ليكون فى ذلك دلالة فى الإبداع على نظائرها فى القصة .

---

(١) إعجاز القرآن : أبو بكر الباقلانى .

(٢) دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجانى .

وآثرت التعبير أيضًا فى جانب القرآن بالتصوير القرآنى لتفرده بالإعجاز ، ولأنه أسمى ما عرفه وسيعرفه أبلغ الأدباء إلى قيام الساعة ، فكان ما آثرته من نسبة الشىء إلى أصله أولى بجلال القرآن وقدسيته - من حيث مصدره الإلهى- دون غيره من التعبيرات ، ومن الوصف بما وصف به غيره من المصطلحات فى باب الأدب مثل التصوير الفنى ، والتصوير البيانى ، والتصوير الأدبى ، وغير ذلك [١] .

والقرآن الكريم حين خاطب العقل والشعور · والروح والقلب جميعًا ، خاطبها بأجل الوسائل فى التعبير ، بالتصوير القرآنى ، الذى تتجمع فيه كل روافد الإعجاز ليكشف عنها أروع كشف « فهو المركز الذى تلتقى عنده خطوط الدائرة ، والبحر الواسع العميق المتدفق الزاخر فى مكنونه بما لا يعلمه أحد إلا الله ، فالتصوير القرآنى فيما أعتقد هو إعجاز الإعجاز ، ومن ألهمه الله بعض الصواب أبصر من خلال التصوير بعض مصادر الإعجاز فيه ، لأن الصورة بمعناها الواسع الحى تنبض بكل ذلك · فهى جسد وروح معًا لا ينفك أحدهما عن الآخر ، ولا نقصد بها المعانى التقليديه والجزئية التى اقتصرت على بعض ألوان البيان كالتشبيه والاستعارة والكناية وغيرها واقتصرت على اللفظ والعبارة، أو اقتصرت على النظم فى علاقة اللفظ بالمعنى دون الأبعاد النفسية والشعورية ، التى يعلمها خالق النفس والشعور سبحانه وتعالى · أو اقتصرت على الشكل دون المضمون من دعاة النزعة التأثيرية عند المحدثين [٢] لا نقصد كل ذلك بالصورة بل هى أعمق من كل ذلك ، وأرحب أفقا ، إنها كائن حى يتجمع فيها ما يتجمع فى الإنسان من كل وسائل الحياة ، فى ارتباط شكل الإنسان بمضمونه جملة ، وما وراء ذلك من مشاعر النفس وخوالجها

---

(١) التصوير الفنى فى القرآن الكريم : المرحوم سيد قطب ، والفن القصصى فى القرآن الكريم : د · محمد خلف الله ، والبيان القرآنى : د / رجب البيومى وغيره ، والمرحوم مصطفى صادق الرافعى فى إعجاز القرآن الكريم وغيرهم ·

(٢) معظم النقاد القدامى ومن تبعهم من المحدثين ، المذهب التأثرى من المذاهب الأدبية والنقدية الحديثة فى النقد الأدبى الحديث

وعواطفها والصدق فيها ، وغير ذلك من الوسائل فى الصورة التى تملك زمام الاقناع والتأثير فى النفس(١) .

والاقناع والتأثير هما الغاية من الإعجاز فى التصوير القرآنى ، وبهما تحول زعيم العناد الوليد بن المغيرة من مفتر قاتل إلى مهزوم ضعيف يسترحم محمدا ﷺ ويضع يده على فمه الشريف رحمة به ويقول له : أمسك عليك يا ابن أخى (٢).

والتصوير القرآنى لأصحاب الكهف يعد حلقة من حلقات السورة جميعها، التى تعد وحدة تامة متكاملة ، يلتقى فى إطارها قصص آخر ، تتعاون كلها ، فى وحدة تامة ، لتصور الواحد الأحد ، المعبود الحق ، الذى خلق الكون ، وهو القادر على بعثه ، وكل من قصة أصحاب الكهف ، وأهل الصفة ، وصاحب الجنة ، وقصة العبد الصالح وموسى عليه السلام ، وقصة ذى القرنين ، على الرغم من روابط الوصل بين القصص جميعا ، فكل من ذلك قصة يمثل فى ذاته وحدة تصويرية تامة ، تدخل فى إطار الصورة العامة للسورة، وصوره أصحاب الكهف واحدة منها ، وهذه القصة من القصص القرآنى ، الذى لا يخضع لمقاييس القصة عند النقاد فى أى عصر سابق أو لاحق ، لأنها تتبدل بين وقت وآخر ، وتختلف فى نظر الأدباء والنقاد ، فقد يهتم النقاد بعنصر دون آخر ، فالحل من مقاييس القصة عند بعضهم ، ولا يهتم به عند بعضهم . لتذهب النفس فيه كل مذهب ، وهكذا فى بقية المقاييس(٣).

أما القصة فى القرآن الكريم ، فلها طابع متميز ، يسمو بها عن كل المقاييس التى تعلو حينا وتهبط أحيانا ، ومن يتأملها ويلهمه الله الصواب ، يجد

---

(١) الصورة الأدبية فى شعر ابن الرومى ، بسطنا القول فى ذلك لتراجع هذا البحث هناك .

(٢) سيرة ابن هشام : القسم ٢٧٠ وما بعدها .

(٣) الفن القصصى فى القرآن الكريم د / محمد خلف الله ، وغيره .

فيها كل الأسس لبناء القصة الطويلة أو القصيرة ، وفوق ما يتصوره الإنسان من مقاييس لأروع القصص وذلك ما نشعر به إزاء أى قصة منه ، حين نتأملها ونقرؤها على مهل ؛ « إن هذا لهو القصص الحق » ، « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب » ، ﴿ لاَ يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (١) .

والصورة القرآنية فى قصة أصحاب الكهف تمثل فى ذاتها وحدة كاملة ، لكنها تضم فى إطارها العام صوراً جزئية تسير جميعها نحو الغاية منها ، وليس المقصود عندى من الصورة الجزئية ما تعارف عليه فى النقد - وخاصة القديم منه - من تشبيه واستعارة ومجاز مرسل وغيرها ، بل هى أعم من ذلك ، فأحيانا تضم بعض وسائل البيان السابقة مع غيرها من عناصر الصورة الجزئية ، وتعد عندى صورة جزئية ، وقد تخلو بعضها منها مع وجود عناصر الصورة الجزئية كلها أحيانا ، وتعد صورة جزئية كذلك ، وليس المقصود بها النظم الذى انتهى إليه عبد القاهر الجرجانى فى النقد القديم (٢) ، بل أعم من ذلك ، فهناك عناصر أخرى تكون مع النظم فى تكوين الصورة الجزئية كاللون والحركة والموقع وغيرها (٣) .

هذا ما نقصد به من الصورة الجزئية ، التى تتكون من تشخيص الفكرة فى الحرف والكلمة فى ذاتها ، وفى موقعها من التركيب ذاته ، وما وراء ذلك من إيقاع وموسيقى وظلال وألوان ، وما تموج به من حياة نابضة ، وحركة وامضة .

تأمل : فى قوله تعالى : إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا : ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا ، فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددًا ، فترى أنها تصور : فرار أصحاب الكهف فى سبيل الله ، من الملك وأعوانه الذين جدوا فى القضاء عليهم وقد فاضت قلوبهم عن الرعب

---

(١) فصلت : ٤٢ .

(٢) دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجانى .

(٣) انظر كتابى بحثى فى الصورة الأدبية : الفصل الأول .

والخوف، والسرعة فى البحث عن المأوى تقتضى وسائل فى التعبير تتواءم معها، فإيثار « إذ » على « حين » أنسب ، مع أنهما فى الظاهر بمعنى واحد ، لأن الأولى أدق من الثانية من حيث المعنى ؛ فتدل على قصر الوقت والتحقيق منه ، بينما يوهم « الحين » طول الوقت ، وعدم التحقق من القصر فيه ؛ ومن حيث المبنى : فموسيقى الأولى سريعة حيث يتبع السكون الحركة مباشرة ، بينما تجتمع فى الثانية حركتان بينهما حرف لين ممتد يطول معه النفس ، وكذلك الأمر بالنسبة للفعل « أوى » بمعنى « لجأ » والأول أنسب لأنه يدل على السرعة، من حيث المعنى : فتدل على الوصول فى تلاحق بينما « لجأ » تدل عليه فى تؤدة ، ومن حيث المبنى : فإيقاع الكلمة فى الحركات الثلاثة المتتابعة يدل على التلكؤ فى الوصول بالإضافة إلى حشرجة الجيم المعطشة المعجمة التى ينوء الفم بثقلها امتلاء بها أثناء النطق ، وكفى بذلك بطئًا ، بينما الإيقاع فى «أوى » شبيه بكلمة « هوى » معنى ومبنى حيث تتابعت حركتان فقط مع اختفاء الحرف الثالث - وهو حرف لين - فى وصل الفعل بما بعده « أوى الفتية» مع سيولة الحرفين (أ - و) من مخارجهما ؛ وهذا أدل على السرعة من غيره ، وفوق ما تومض به « الفتية » من معنى الشباب والنضارة ، وتدفق البذل والكرم فى سبيل نصرة الحق ، وطراوة شبابهم فى سرعة الاستجابة لربهم ، والصلابة والقوة فى جانب الباطل ، فوق هذا تخلع عليهم صفة الولاية التى امتن الله بها عليهم ، فالشباب هو موضع العجب منهم ، مع أنه موطن الانطلاق والغواية والتهور ، لكن عقيدتهم راسخة ، وإيمانهم لا يتزحزح ، وليس هذا غريبا عند الشيخ إذ بلغ مرحلة التعقل والرزانة والتجربة والطعن فى الشيخوخة؛ لذلك جاء فى الحديث :« يعجب ربك من شاب ليس له صبوة » ، وأيضا من السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : «وشاب نشأ فى عبادة الله »، ثم ما يوحى به اللفظ من عدد أبطال القصة ، فهم دون العشرة، لأن العرب استعملت « فعله » فى جمع القلة ، والقرآن نزل بلغة العرب : ثم تأمل الانصباب فى إيقاع الدفقات المتتابعة ، فى كل دفقة حركة فسكون ، مثل سكون ألف الوصل بعد حركة الواو فى « أوى الفتية » ،

وسكون التاء بعد حركة الفاء ، ثم تتابع حركتين على الياء والتاء المربوطة فى سرعة لوصول الفتية إلى الكهف فى آخر دفقة ، وهذا الإيقاع الموسيقى يدل على سرعة توفيق الله لهم فى تهيئة الكهف ، الذى سيحفظهم فيه ، وما أروع التعبير بالفاء « فقالوا » بعد سرعة الوصول ، فإنها تدل على أن الرعب ما زال يملأ صدورهم، وأن الخوف ما زال يخيم عليهم حتى فى الكهف، وذلك لأنهم حين نزولهم فيه دعوا الله مباشرة من غير تريث ، فالمأوى الحقيقى عندهم هو الله لا الكهف، وهو ما يومئ به الترتيب والتعقيب من السرعة فى معنى الفاء ، وما إن التفتوا إلى الله بالدعاء إذا بأنفاسهم المتلاحقة تهدأ خاشعة فى الطلب ، وقلوبهم خاضعة للنجدة والاستجابة ، ونرى هذا الهدوء وتلك الخشية ، فى بطء الشدة على الباء ومد النون بالألف، والزيادة فى مد الألف إلى ست حركات لوقوعها قبل الهمزة ثم المد الطويل فى الهمزة أيضًا ، ثم المد فى النونين بالألف فى « ربنا آتنا » وكذلك التشديد على اللام ، ثم ما توحى به الغنة النابعة من التنوين لوقوع حرف الواو بعده الذى يقتضى غنة يمتد معها النفس ويهدأ إليها القلب فى : «من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدًا » وامتداد النونين بالألف بعدهما؛هذا كله يدل على كمال التضرع والخشية لله وحده ، وخاصة إذا أعان على ذلك معانى الكلمتين : رحمة ، ورشدًا ، وكلاهما من عند الله . وما أكرم عطاءه الواسع ، الذى يتجدد فى كل حين ، وهو ما يدل عليه التنكير والتنوين فيهما معًا .

فالاتساع والشمول فى التنكير ، والعظم والتكرار فى التنوين .

ومما ساعد على التكثير والتعظيم والتجدد ، نسبة الرحمة لله « من لدنك» والتنصيص على تخصيص ذلك بالله ، وذلك فى « لدن » حيث غلب استعمالها فى جانب الله على عكس « عند » فقد شاعت فى الاستعمال فى شتى الأحوال على السواء ، قال تعالى : ﴿ **وعلمناه من لدنا علمًا** ﴾ ؛ ثم فى تقديم الجار والمجرور على الرحمة والرشد ما يوحى بشدة حاجة الفتية إلى ذلك ؛ وبمدى سعادة النفس بنعمة امتن الله عليهم بها بعد لأى ، لتتمكن فى أنفسهم أيما تمكن ، وبعد تمكن النوم منهم وهو رحمة بهم ، فهل ينتظرون نعمة بعد ذلك ؟ « فضربنا » ، الفاء بعد التضرع فى الدعاء تدل على منزلتهم عند الله

من الولاية ، حيث استجاب لهم بسرعة ، يدل عليها معنى الترتيب فى الفاء .

ولكن هذه الولاية دون درجة النبوة ، بدليل التعبير بالضرب لما فيه من معنى الإيذاء ونوعا من العقاب ، لأن درجة النبوة لا تدفع صاحبها إلى الهروب فى الكهف ، إنما يصر فى دفاعه عن عقيدته إما أن ينتصر وإما أن يموت شهيدًا وكلاهما أعظم مرتبة من الولاية التى يسعى إليها الصوفية فى اتجاههم الروحى .

وسلط الضرب هنا على السمع ، لكونه أبلغ فى النوم من الضرب على العين ، فقد تتناوم العينان وصاحبهما يقظان ، ولا يتأتى ذلك بحال فى حجب الأذن عن السمع ، اللهم إذا كان صاحبهما أصمًا ، ثم ما يوحى به الضرب فى معناه :من حيث الشدة والإحكام والتمكن والعقاب أو فى مبناه : حيث يوحى الإيقاع فى الحركة والسكون فقط وقض الضاد ، بالسرعة وقوة التمكن والتحكم ، وما أروع تصوير النوم بحرف « على » الذى يدل على أن نومهم - على الرغم من طول المدة - ليس موتًا ، لدفع الإيهام ، فحرف واحد يدل على الاستعلاء والمجاوزة ، بمعنى عدم التمكن الذى يشبه الموت ، وبجانب ذلك يدل على قدرة الله عز وجل وهو القاهر فوق عباده وإذا كان الموت لم يتمكن منهم ، فقد تمكنوا هم - وكأنهم أحياء - من الكهف أيما تمكن ، كتمكن الظرف من المظروف ، ولذلك حسن التعبير بحرف « فى » هنا كما حسن التعبير بالحرف السابق هناك لتصوير نومهم فى الكهف تصويرًا دقيقًا .

ثم ما أعظم الدلالة على الكثرة والعظم بالنسبة لكلمة « سنين » التى أفادت ذلك عن طريق الصيغة وعن طريق الجمع ، وعن طريق المعنى ، وعن طريق الإيقاع من حيث الامتـــــداد الناشىء عن حرف المد « الياء » ، ولكلمة « عددًا » التى لا يعبر بها إلا عن الكثرة فى السنين ، ثم ما يوحى به الإيقاع فى تتابع الحركات الثلاث وتكرار حرف « الدال » من كثرة السنوات ثم سرعتها فى جانب الله عز وجل ، وإن كانت بطيئة فى جانب البشر .

هذه بعض جوانب التصوير ، ورأيتنا لم نتحدث حتى الآن عن تشبيه أو استعارة أو ما شابهها حتى الآن ، ومع ذلك فالصورة هنا أدق ما يكون فى نقل الواقع كما هو بإيحائها وأبعادها ، وتأمل الاستعارة هنا فقد شاركت فى بناء

الصورة حيث شبه النوم بالحجاب ، ثم حذف ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الضرب على سبيل الاستعارة بالكناية ، أو كانت كناية عن النوم الثقيل ، فكلاهما يشخص النوم وهو حالة غامضة - فى محسوس تدركه النفس من منافذ الإدراك المختلفة عن طريق الوجدان والإحساس والعقل وسائر الحواس المختلفة ليكون أشد تمكنًا فى النفس ، لأن المحسوس أوثق اتصالا بها وأسرع من المعنى المجرد ، الذى يستقر فيها بعد لأى ، ثم لا يخفى علينا من اللون والحركة والتجسيد والشكل فى الحجاب المضروب على الوجه ·

وتأن قليلا مع قول الله تعالى : وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم فى فجوة منه ذلك من آيات الله من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليًا مرشدًا » ترى نفسك تستحضر بالصورة المشهد الرائع فى الكهف يتعاقب عليه الجديدان الليل والنهار ، أو تنقلك هذه الصورة إلى مكان المشهد وزمنه إلى الموقع هناك لتشاهد ذلك عن قرب ، لفظ واحد « ترى » يصنع هذا الإعجاز ، فهو يستحضر المُشَاهَد لينقله إلى المُشَاهِد ، حيث يبصر بعينيه موقع الكهف من سطح الأرض ومكانه من خطوط العرض والطول · وموضع الباب منه ، فى أى جهة من الجهات الأصلية ، ومدى اتساع الكهف أو ضيقه ، وموقع الفتية منه ، وتحدد مضاجعهم فيه ، ثم برج الحراسة وموقعه من الكهف ثم عوامل التدفئة التى تساعد على النوم الهادئ الثقيل ونوع ذلك الغذاء الربانى ، ثم حركة التوفيق فى هذا الموقع الدقيق الذى حفظ عليهم أجسادهم وأرواحهم ، وماء الحياة التى كانت تجرى فى عروقهم :

فالرؤية البصرية ، وظهور الشمس ، وشروقها ، وغروبها والتحقق من كل ذلك وهو المفاد من لفظ « إذا » التى تفيد تحقق الوقوع ، كل هذه الأجزاء تؤكد صفاء الجو ، وبروز الشمس طول اليوم فى مدار السنة ، وفى هذا تحديد لموقع الكهف من سطح الأرض حيث يقع فى منطقة لا تغيب عنها الشمس طول العام غالبا ، ولا يحدث مثل هذا فى القطبين الشمالى والجنوبى ، ولا فى خط الاستواء لكثرة الأمطار طول العام واحتجاب الشمس خلف غمامها ، ولن

يكون حول مدار الجدى لتواتر الأخبار فى أن هذه المنطقة لم تكن موطنًا للرسالات السماوية ، ولم يبق إلا موقعًا واحدًا حول مدار السرطان وهو الموقع الجغرافى الذى يغلب فيه صفاء الجو وظهور الشمس ، وهو موقع الكهف الدقيق من الأرض .

ولا يضير كثيرا فى موقعه أن يتحرك قليلا نحو الشرق فى طرسوس الشام أو الغرب فى طنجة المغرب ، على خلافات بين المفسرين .

أما موقع الباب من الكهف فهو فى شماله مائلا إلى الشرق قليلا وليس مائلا إلى الغرب كما يقول بعضهم (١) ، لأن الشمس تصيب موقعا من الباب أثناء الشروق ، فالميل فى « تزاور » وخاصة فى قراءة التشديد على الزاى ، يدل على تسرب بعض أشعة الشمس نحو الباب لفترة غير قصيرة حتى تتجه الشمس ناحية الجنوب فتمتنع تماما عن الباب ، فالميل رجراج يتأرجح بين المنع وعدمه ، حيث لا تدخل الأشعة الكهف ، ولا يحرم بابه منها ، بل يصيب منها قطعا ، لأن القطع والترك فى « تقرضهم » يؤكد عدم الوصول إذ يكون ظل الكهف من ناحية الغرب قد كسا باب الكهف من بعد الزوال ولو قليلا ، وكلما مالت الشمس نحو الغرب زاد الظل وعم الباب وما حوله ، ولا تتسلل إليه أشعة الشمس بحال .

وليس من الممكن أن يكون القرض هنا بمعنى العطاء لأن الله سبحانه وتعالى نفى ذلك بذكر حالهم وقت الغروب مباشرة لا الشروق ، حيث قال تعالى : وهم فى فجوة منه ، بعد الغروب مباشرة ، أى فى بعد عنها وكيف يلتقى البعد والمنأى مع العطاء والوصول .

ثم انظر إلى التشخيص الحى فى استعارة الشمس فى أفعالها الثلاثة الذى ساعد على إبراز العناصر فى التصوير القرآنى من لون وحركة ، والظلال الباهتة حول الباب ، والأضواء المنكسرة فيه ، وموقع الكهف وسعته ، وصفاء الجو ، ونسيم الحياة ولطف الطبيعة وسحرها ، وروائحتها التى تفوح ، فتعطر

---

(١) المنهج الحديث : الدكتور عبد الغنى الراجحى فيرى أستاذنا أن الباب يميل نحو الغرب ، وتبع فى ذلك الرازى فى تفسيره الكبير .

الكهف ، وتشم منه رائحة طيبة من الفتية الأحياء ، وغير ذلك من عناصر التصوير التى انبعثت من كل حرف وكلمة مضت ثم التشخيص فى الاستعارات بالكناية فى (طلعت - تزاور - تقرضهم) حيث جند الله من الشمس كائنًا حيًّا يحمى أولياءه من عوامل الفناء فى الطبيعة ويحفظهم من عاديات الزمان وأهله ، فقد كان ذلك القدر الذى وصل إلى الباب من أشعة الشمس يكفيهم لتدفئة الجسم ، ويغنيهم عن الغطاء ، ويساعد على إمدادهم بالطاقة الحرارية ، التى تمكنهم من التقلب ذات اليمين وذات الشمال ، لتنأى يد البلى عنهم ، ويهدأوا فى نومهم · ولو تمكنت الأشعة من الوصول إليهم وهم نائمون ، لأقضهم برق الضوء فى مضاجعهم ولقضت عليهم الحمى من وهج الشمس ، ولأبصرهم العادون بكشافاتها المضيئة ·

ولذلك كان توفيق الله لهم فى هذا الكهف بمعالمه السابقة دليل على قرب منزلتهم من الله ورضاه عنهم ، « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » وهذا الصنيع آية من آيات الله العجيبة · وما أكثرها ، وويل لمن يتخل الله عنه فلن يجد له من دون الله ناصرًا يسدد خطاه ، ويوفقه للحق والصواب ، فالفتية كانوا فى متسع من الكهف ، وفى جانب منه فقط ، ومع ذلك فكل واحد منهم فى مضجعه على سعة بحيث يتمكن من الحركة والتقلب من غير أن يضايق جاره فى منامه ، إذ يوحى قوله تعالى : ﴿ **وهم فى فجوة منه** ﴾ بذلك ، فهم فى منأى عن الباب ، وفى متسع من الكهف ، وعلى سعة فى المضاجع ، وبعد عن الأنظار ؛ وعود الضمير فى الجار والمجرور على الكهف لا على الباب دليل على السعة والامتداد فيه ؛ فما أدق هذا التصوير فى تحديد المواقع والمكان والزمان والأحوال ، وما أروع الإعجاز فى التصوير القرآنى ، « نحن نقص عليك نبأهم بالحق » ·

فمهما بلغ العباقرة فى فن التصوير والرسم حين يخلدون لوحاتهم الفنية باستغلال وسائل التعبير ، ومواد التصوير ؛ فلن يبلغوا ما أبدعه الحرف الواحد من دقة التصوير القرآنى، وتمام عناصره هنا، مع أن الكلمة ليست لونًا ولا

ريشة ولا لوحة ، ولا مقاييس هندسية لكنها وسيلة من وسائل الإفصاح باللسان . إنه القرآن الكريم ، الذى خلد أصحاب الكهف ، وجعلهم أحياء :

« وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارًا ولملئت منهم رعبًا » .

إنهم بهذا التصوير أحياء لا أموات ، وفى ملامحهم أيقاظ لا رقود ، والحسبان هنا يدل على الترجيح بين النوم واليقظة ، وتغليب أحدهما على الآخر ، لا كالحسبان هناك وقد أوضحناه ، إن كل مظاهر الحياة فيهم تدل على اليقظة ، وتتابع الحركة تدل على الانتباه وتقلبهم يمينًا وشمالا يدل على تمام الوعى عندهم وافتراش كلبهم على باب الكهف يحرسهم ويؤكد فيهم الحذر والترقب من وراء الحارس ، فالدم الذى يسرى فى عروقهم ، ودقات القلب التى تسمع صداها يتردد فى جنبات الكهف ، حيث لا صوت هناك إلا دقات قلوبهم ، وعيونهم تسبح خلف الأجفان فى ملكوت النفس ؛ وشعورهم تبرق بوميض الحياة ، وثيابهم مازالت كما كانت وقت الدخول ، وكتابهم ينتظر دون من يطالعه ، وفضتهم أخذت بينهم موضع الملاحظة والمراقبة منهم ، كل ذلك يدفع الناظر إلى الجزم بأنهم فى حالة بين اليقظة والنوم ، لا هم نائمون ، ولا هم يقظون .

ويؤكد الأمر أن الكلب آنس بهم ، والكلب لا يأنس بصاحبه إلا إذا أحس بأنه يقظان، عند ذلك يجلس بجواره ليداعبه حينا ،ويغفو أحيانًا ، أما إذا أحس الكلب بنوم صاحبه ، فإنه يتركه ليحرسه خارج الكهف ، وهو يجرى هنا وهناك ، مرة ينبح ، ومرة يتخيل إنسانا يهجم عليه .

وهكذا يكون الكلب فى يقظة تامة، وحركة دائبة خارج البيت، حتى يستيقظ صاحبه؛ فيأنس إليه ويداعبه من جديد ، ولكن الكلب هنا يجلس داخل الكهف، وعلى قرب من بابه ، لا فى الخارج ، وفوق هذا فهو ليس بنائم، فقد فتح عينيه ، وليس بمضطجع ، فهو باسط ذراعيه نحو الباب ، يأنس إلى أصحابه من جهة ، ويراقب من هو خارج الكهف من جهة أخرى ، فى توفز وحذر ، ويقظة واستغراق فى أمر فريسته .

منظر رهيب ، أضفى على الكهف هيبة وجلالا ، وريبة وبلاء ، بحيث لو أشرف عليه إنسان عن بعد لولى هاربا ، وإنه لا يستطيع أن يشرف عليهم من قرب ، فالمنظر مريع ، وهذا المعنى يوحيه لفظ « اطلعت » ويوحيه أيضًا معنى التعليق والشرط فى « لو » حيث يترتب وجود الجواب على تحقيق الشرط ، وتحقيق الشرط بعيد ، مثل الاطلاع .

والإشراف عن بعد ، والدقة فى تصوير الكلب هنا تدل على ضخامته وعظم هامته ، وامتداد ذراعيه ورحابة افتراشه ، وهذا ما توحيه كثرة المدات وحروف اللين فى تصويره مثل الألف والغنة الناشئة عن التنوين فى « باسط » والألف وكسر الهاء فى « ذراعيه » ، والياء وجودة الوقف فى « الوصيد » ؛ من يرى ذلك ؟ يتسابق الخوف والفرار إلى نفسه ، وكلما أمعن فى الجرى ازداد الخوف ، وهكذا حتى يمتلىء القلب خوفا ، فكأن أول الخوف قد وقع عند الرؤية ، ثم أعقبه الفرار ، وفى أثناء ذلك يتضاعف الخوف ويزداد ،حتى يملأ القلب ، وهذا يدل على أن المنظر رهيب : فلو كان دون ذلك ؛ لحدث الخوف من غير مصاحبة الفرار ، أو حدث الفرار من غير امتلاء القلب بالفزع والحذر، وتقديم منهم على « الفرار والرعب » دليل على أن الرهبة فى ذاتهم ، وأن الخوف من منظرهم لملامسة التصوير فى الواقع ، لا أن الله ينزل الخوف حينذاك ، وهذا أدل على قدرة الله حيث يوائم بين مناظر الطبيعة ، وهى أمر عادى بالنسبة للإنسان ، ويجعل من هذه المواءمة بين ما هو عادى معجزة أو كرامة تحفظ الأولياء من عاديات الزمن ؛ وكذلك فإن تأخير الفرار والرعب فى نهاية التعبير ، يدل على أنهما بلغا من النفس مبلغا لا مطمع وراءه ، ولا نهاية بعده ، ثم ما أدراك بحدوث التولى والامتلاء بعد حصول الخوف ابتداء فيعقبه الهروب والتولى ثم يمتلأ القلب بالخوف وهما يؤكدان بلوغ الغاية فى الفرار والرعب ، ما أبدع الإعجاز فى التصوير القرآنى ؟

هذه بعض نماذج من الصور الجزئية عرضناها بنوع من التفصيل؛ ليكون فى ذلك دلالة واضحة على الإبداع فى بقية الصور، التى تتكامل معها فى تكوين الصورة الكبرى لأصحاب الكهف ؛ لكى ينم النظير عن نظائره ،

والجميع قد أدى دوره فى الكشف عن أصحاب الكهف، الذين وقفوا وحدهم لإيمانهم بالله فى وجه الملك ومملكته ، حين أراد منهم أن يكفروا بربهم، ويعبدوا أوثانا من دونه ، فرفضوا ذلك وخرجوا من مجلسه، يبحثون عن مأوى يحفظهم من كيد الملك دقيانوس · الذى جد فى البحث عنهم ليقتلهم ، لكن الله استجاب لدعائهم وحفظهم وأيدهم بنصره ؛ فنزلوا فى الكهف وناموا فيه ثلاثمائة سنة وتسع سنين، ثم بعثهم الله؛ ليسجلوا آية أخرى لأهل المدينة التى بعثوا فيهـا ، حين أنكر بعضهم البعث أمام ملكهم الصالح ؛ فدعا الله أن يريه آية فى الإحياء والبعث يرد بها كفر هؤلاء ؛ فاستجاب الله دعاءه ·

وبعث الله أصحاب الكهف ليكونوا لهم آية ، وحين عرف الملك الصالح وقومه أمر الفتية لما خرج أحدهم إلى المدينة؛ ليشترى طعاما لهم بعملة زمانهم حمدوا الله جميعًا على ذهاب دولة الشرك ، وحلول دولة الإيمان بعدها ؛ فكان ذلك آية ثالثة للفتية؛ لتأكيد صدق إيمانهم ، وإخلاصهم فيه ، عند ذلك دخلوا الكهف فماتوا جميعا ، فاختلف القوم بين من يسد عليهم باب الكهف - بحاجز من بناء - وبين من يتخذ عليهم مسجدا يليق بولايتهم ، والله أعلم بما صنعوا ذلك ؛ إذ لم يذكر فى القرآن نصًا صريحًا يؤكد ما صنعوا وما تدل عليه الآية هو مجرد الحوار والنقاش فى أمر البناء ·

وقد اختلف القوم فى عددهم فهم دون العشرة فذكر ابن عباس رضي الله عنهما أنهم سبعة وثامنهم كلبهم، وهو ما انتهت إليه الآية فى العدد ، وفى نهاية ذلك عاتب الله سبحانه وتعالى نبيه الكريم على عدم تعليق إجابة القوم بمشيئة الله ، وعاتبه كذلك على شدة حرصه لإسلام زعماء الكفر المعاندين من أشراف مكة، الذين طلبوا منه ﷺ أن يكون لفقراء المسلمين مثل بلال وصهيب وابن مسعود رضي الله عنهم وغيرهم مجلسا على حدة ، ويعقد لهم أنفة منهم مجلسا على حدة · فقال تعالى : « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » وأوصاه بهؤلاء الفقراء أهل الصفة · ليجالسهم فى كل وقت ، ويترك مجالسة زعماء الكفار · فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ·

وشاءت المناسبة أن يأتى ما نزل فى أهل الصفة عقب قصة أصحاب

الكهف لاتفاقهم فى الحرص على الإيمان بالله وحده . ونبذ ما عداه ، والتقائهم فى الجانب الروحى ؛ فهم يخشون الله ولا يخشون أحدًا ســـواه ، وأصحاب الكهف وأهل الصفة هم جميعـــا فتية آمنوا بربهم ، وزادهم الله هدى (١) :

﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبِعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ .

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم : ابن كثير ٣ / ٧٤ ، ٨٠ نقلا عن محمد بن إسحاق.

موسى عليه السلام والعبد الصالح

قال تعالى(١) : ﴿ وَإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا، فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله فى البحر سربا، فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ، قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت ، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجبا ، قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على أثارهما قصصا ، فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما ، قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا ، قال إنك لن تستطيع معى صبرا ، وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا ، قال ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمرًا ، قال فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرًا ، فانطلقا حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئًا إمرا ، قال ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا ، قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرًا ، فانطلقا حتى إذ لقيا غلاما فقتله قال أقتلت نفسًا زكية بغير نفس لقد جئت شيئًا نكرًا ، قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا ، قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرًا ، فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا ، قال هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا . أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبًا ، وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا ، فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرًا منه زكاة وأقرب رحمًا ، وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحًا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما

---

(١) سورة الكهف : ٦٠ : ٨٢ .

ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمرى ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً ﴾[1] .

قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح :

قال سعيد بن جبير لابن عباس ﷺ : إن نوفا البكالى يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى بنى إسرائيل ، فقال ابن عباس : كذب عدو الله . حدثنى أبى بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : إن موسى قام خطيبا فى بنى إسرائيل فسئل : أى الناس أعلم ؟ فقال : أنا ، فعتب الله عليه، إذ لم يرد العلم إليه ، فأوحى الله إليه أن لى عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك ، قال موسى : يا ربى كيف لى به ؟ قال : تأخذ معك حوتا فتجعله فى مكتل ، فحيثما فقدت الحوت فهو ثم ، فأخذ حوتا فجعله فى مكتل ثم انطلق ، وانطلق معه بفتاه يوشع بن نون ، حتى أتيا الصخرة ، ووضعا رؤوسهما فناما ، واضطرب الحوت فى المكتل فخرج منه ، فسقط فى البحر ، فاتخذ سبيله فى البحر سربا ، وأمسك الله عن الحوت جريه فى الماء ، فصار عليه مثل الطلق ، فلما استيقظ نسى صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلق بقية يومهما وليلتهما ، حتى إذا كانا من الغد ، قال موسى لفتاه : آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ، قال : ولم يجد موسى النصب حتى جاوزا المكان الذى أمره الله به ، فقال له فتاه : أرأيت إذا أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجبا ، قال : فكان للحوت سربا ، ولموسى وفتاه عجبا ، فقال موسى : ذلك ما كنا نبغى فارتدا على آثارهما قصصا .

قال : رجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة ، فإذا رجل مسجى ثوبا ، فسلم عليه موسى ، فقال الخضر : وأنى بأرضك السلام قال : أنا موسى ، قال : موسى بنى إسرائيل ؛ قال : نعم أتيتك لتعلمنى مما علمت رشدا ، قال . إنك لن تستطيع معى صبرًا يا موسى إنى على علم من علم

---

(١) سورة الكهف : ٦٠ : ٨٢ .

الله علمنيه لا تعلمه أنت ، وأنت على علم من علم الله لا أعلمه ، فقال موسى : ستجدنى إن شاء الله صابرا ، ولا أعصى لك أمرًا ، فقال له الخضر؛ فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرًا ، فانطلقا يمشيان على ساحل البحر ، فمرت سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر ، فحملوه بغير نول فلما ركبا فى السفينة ، لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم؛ فقال له موسى قوم حملونا بغير نول، عمدت إلى سفينتهم فخرقتها ؛لتغرق أهلها لقد جئت شيئًا إمرًا .

قال : ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرًا ، قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرًا ، قال : وقال رسول الله ﷺ : وكانت الأولى من موسى نسيانًا ، قال : وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر فى البحر نقرة ، فقال له الخضر : ما علمى وعلمك من علم الله ، إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر ، ثم خرجا من السفينة ، فبينما هما يمشيان على الساحل ، إذ أبصر الخضر غلامًا يلعب مع الغلمان ، فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه فقتله ، قال له موسى : أقتلت نفسًا زكية بغير نفس؟ لقد جئت شيئًا نكرًا، قال : ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا ، قال : وهذا أشد من الأولى : قال : إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرًا فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارًا يريد أن ينقض قال: ماءل: فقام الخضر فأقامه بيده ، فقال موسى : قوم أتيناهم فلم يطعمونا ، ولم يضيفونا ،لو شئت لاتخذت عليه أجرا ، قال : هذا فراق بينى وبينك إلى قوله : ذلك تأويل ما لم تسطِع عليه صبرًا ، فقال رسول الله ﷺ : وددنا أن موسى كان صبر ، حتى يقص الله علينا من خبرهما (١) .

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم : ابن كثير ٣ / ٩٢ : ٩٤ ذكره البخارى فى صحيحه: باب العلم .

من معانى الكلمات :

لا أبرح : ألزم ، ولا أزال سائرًا ، ولا أفارق السير · وأواصل مجمع البحرين: ملتقى البحرين قيل هما : بحر القلزم والروم : أى الأحمر والأبيض ، أو بحر فارس والروم وقيل غير ذلك أمضى : أقطع ، وأسير ، وأمشى ، وأبلغ · حقبًا : الدهر ، وزمنًا غير معين · الحوت أحياه الله عند الصخرة ليذكر موسى بالخضر وإحياؤه معجزة له · سربًا : سبوحًا ، وسلوكًا ، وانحدارًا فى البحر · النصب : التعب ، والجهد · عجبًا : أعجب عجبًا ، فالعجب بالنسبة لموسى ، وفتاه ، والسرب بالنسبة للحوت فى البحر · نبغ : نريد ، ونطلب ونتمنى ، ونهدف · ارتدا : رجعا ، وفكرا ، وتابعا سيرهما · لدنا : أى من عند الله وخاص به ، علم يعطيه الله لمن يشاء ، لذلك قال الله فى الرحمة من عندنا ، وقال فى جانب العلم : من لدنا علمًا · له: الضمير يعود على الخضر · تحط : تدرك وتعلم وتشمل ، وتضم ، خبرًا : علمًا ومعرفة · أحدث : أذكر ، وأعرف · فانطلقا: مشيا وسارا على البحر· خرقها: خلع منها لوحًا ، ثقبها ، عطبها وشوه منظرها · شيئًا إمرًا :فعلت شيئًا داهية ، من قولهم : أمر الإمر إذا اشتد وادلهم، ترهقنى؛ حمله مالا يطيق ، وشق عليه ، كلفه أمرا صعبًا، عسرًا : صعبًا ، وشديدًا ·

الغلام : الصبى ، والبالغ ، والشاب · فهو من الغلمة : أى الشبق ، والحاجة إلى النساء، والمقصود به غير البالغ بدليل الوصف « نفسًا زكية » أى طاهرة من الذنوب · بغير نفس: لا قصاص عليه ، أو بغير دليل يبرر القتل · شيئًا نكرا · ظاهر النكر ، ومحرمًا وخارجًا عن المعروف ، وفظيعًا ، وينكره العقل والشرع · بلغت : حصلت ، وعملت ، واستحققت · من لدنى : منى مباشرة ، من ذاتى ونفسى ، يخصنى، عذرًا : مبررًا للمفارقة ، ودليلاً ، وحقًا ، ومثقلة ·

استطعما : طلبا الطعام ، وظهرا عليهما أمارات الجوع ، ألحا فى الطلب· يضيفوهما : من استضاف ، وأضاف ، وضم ، وجعلوهما ضيفين ·

ينقض : يميل ، ويقع ويسقط ويقرب · أقامه : رفعه ، وثبته ، وبناه · اتخذت : أخذت ، وصنعت وطلبت ، واستحققت ، تسطع: تقدر، وتصبر ، وتنهض به وتعلم · المساكين : والمسكين : ضعيف الجسم ، وقليل المال ، وساكن الحركة ، لا يقوم بشيء · غصبًا: ظلمًا ، وقسوة ، وعنفا · طغيانًا : من الطغيان وهو الغلو ، والفساد ، والكفر · أقرب: أجدر بالرحمة ، وأولى بها : كنزًا : من الاكتناز ، والتجمع ، والذهب ، والفضة ، والمال والكتاب والحكمة · يبلغ أشدهما : بلوغ الحلم · ونضوج العقل · وإصابة الرأى ؛ والقوة ؛ وما بين الثامنة عشرة إلى الثلاثين · عن أمرى : رأيى ؛ وحالى ؛ واجتهاد منى ؛ بل تكليف من الله ؛ وأمر منه ·

الإعجاز فى التصوير القرآنى :

وقعت هذه القصة بعد قصة الرجلين التى دار الحوار فيها حول الاغترار بالمال والولد · فهما زينة الحياة الدنيا ، وإنما يكون بالعلم والمعرفة والإيمان بالله تعالى ·

وفى قصة الخضر وموسى عليه السـلام كان الحوار فى الباقيات الصالحات : وفى العلم الذى يعمق الإيمان بالله علام الغيوب ؛ وفى الرحلة العلمية أخلص فيها التابع والمتبوع الطاعة لله ؛ وابتغى فيها الأستاذ عن تلميذه الأجر من الله ؛ فى هذه الرحلة يصور القرآن الكريم رجلين من بنى آدم الأول هو سيدنا الخضر عليه السلام ، رجل آمن بربه فأعطاه علمًا من لدنه؛ ليعلمه لمن هو أعظم منزلة منه، وأقرب إلى ربه ؛ موسى عليه السلام الذى أرسله ربه بشريعة لبنى إسرائيل؛ والقرآن حين يصور هذه الرحلة يبدأ التلميذ فى البحث عن أستاذه :

« إذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبًا »

والرحلة فى طلب العلم تقتضى أمورًا لابد من مراعاتها ، وتستوجب آدابًا لابد من التخلق بها ، وتستلزم أصولا فى التربية وحسن السلوك ؛ ليكون الإنسان أهلا للتعليم : وخليقًا بالتأدب ، ومحلا للثقة ، وجديرًا بالأمانة، ومن أصوله وآدابه :

تحمل المشقة فى تحصيله ؛ واستعذاب ما يلاقيه الإنسان فى سبيل ذلك مهما كانت المشقة ، والصبر على المكاره ، وتذليل كل الصعوبات التى تعترض الإنسان فى التحصيل ·

إن وقت التعلم شامل قد يمتد فيشمل عمر الإنسان كله ·

يستدر طالب العلم السماح من أستاذه ليدخل فى تبعيته ، ويلح فى ذلك حتى يأذن له بحسن الصحبة ·

أن يتجمل بالتواضع وحسن الاستجابة : مستخدمًا فى ذلك كل منافذ الإدراك فيه للتزود بالعلم خير خلق لشرف الصحبة وحسن الاتباع ·

من الأجدر بالمتعلم أن يكون منصتًا ؛ لا متحدثًا ؛ ولا ثرثارًا ·

أن يسترشد بنصائح أستاذه ، ويلتزم ما أمره به ·

ألا يبادئه بالحديث والسؤال ما دام المجلس قائمًا والرحلة فى العلم مستمرة ·

ألا ينكر على أستاذه أمرا فى هجوم سافر ؛ ولو كان الطالب على صواب لكنه يعرض رأيه فى هدوء مدعمًا بالحجة والبرهان ، من غير أن يشعره بلفظ يدل على التهجم والإنكار صراحة ·

أن يسارع بالاعتذار حين يشعر أنه قصر فيما يجب عليه نحوه ؛ ويلح فى ذلك إذا أحس أنه فرط فى تلك الآداب وأصول التربية فى التعليم ·

كما يجب على الأستاذ أن يُبَصِّر مريديه بآداب التعلم ؛ وأن يُرَوِّض نفوسهم على الصواب ويرد الصواب فى كل خطأ يقعوا فيه لساعته · وألا يفارقهم وهم على جهل بمسائل الدرس ، وإذا رأى الإفادة تقتضى منه أن يدفعهم فى مواكب الشدة والعنف ؛فعليه أن يفعل ذلك ليختبر نواياهم، ويجند استعدادهم للتحصيل والاستيعاب ، ويكرر الاختبار ثلاث مرات ؛ليثبت الطاعة فيه، وإلا كان الفراق أولى ، وقطع التبعية أفضل حرصًا على الوقت واستخدامه فيما ينفع ، وأن ينسب العلم إلى الله ، ويرجع الفضل إليه ، وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيمًا ·

ومن خلال التصوير القرآنى لرحلة موسى عليه السلام فى التعليم تظهر فيها هذه الآداب ، وتتحدد تلك الأصول فى التربية والتهذيب؛ فنرى موسى عليه السلام، قد تجمل على أحسن ما يكون بآدابه وأصوله؛ فرافقه فى الرحلة خادمه وعبده يوشع بن نون، وأضفى عليه أدب العلم أجمل لباس، يتحلى به وهو لباس الفتى والفتوة والشباب ، فكان يناديه بالفتى موطن الإعزاز فى الإنسان ، وأنضر حلقات العمر ، وهو متلائم تماما - ولو كان شيخا - مع ما يعهد إليه من عمل ، حيث كانت له مهمة فى الرحلة، لا ينهض بأعبائها إلا من هو فى قوة الفتى ، وعنفوان الشباب ، وهو بهذه الصفة يستطيع أن يواصل السير مع رسول من أولى العزم، أخذ على نفسه - ومعه فتاه - أن يظل سائرًا، حتى يلتقى بأستاذه، ولو أمضى العمر كله فى سبيل ذلك ، فما أروع التعبير بالفتى فى جانب تلك الرحلة الشاقة الطويلة ؟ وما أشق رحلة العلم وأطولها ؟ وإنك لتعانى هذه المشقة ، فيما رسمته الحروف .

فما أكثر حروف المدات واللين فى هذه القصة ؟ وما أكثر المدات نفسها التى قد تصل إلى ست حركات حين تقع الهمزة بعد حرف اللين ؟ وما أكثر الغنات حين تلحق الحرف غنة على نحو ما جاء فى علم القراءات ؟ ولا يشكل علينا أن الألف ما جاءت لتصوير المشقة ؛ ولكن لضرورة الإثنينية فى المرافقة لأن التعبير بالمتبوع وهو الخضر يغنى عن التابع، ويمضى وراءه سائرا فى ظله أو ينفرد كل منهما على حدة فى التصوير، الذى يخصه أو يعبر عنهما بنون المعظم نفسه مثل « ما كنا نبغ » ، وعند ذلك فلا داعى لألف الاثنين ، ولكن الأمر على عكس ذلك حيث يلزم التعبير بها قصدًا لتصوير المشقة ، تأمل هذه المدات والشدات والغنات الكثيرة لتصور لك ما ينبغى أن يعانيه المتعلم فى تحصيل العلم:

(قال - موسى - فتاه - لا - حتى - فلما - بلغا - بينهما - نسيا - حوتهما - فاتخذ - سبيله - فى - سربا) .

وامض على هذا النحو ستجد الكثير من ذلك ، حتى لتضطر أحيانا أن تستعجل القراءة خوفا من انقطاع النفس .

وإنك لتجاهد أيضا هذا الطول فيما صورته الكلمات من حيث المعانى والمبانى، أما المعانى الضخمة التى صورتها الألفاظ فهى كثيرة فى القصة، وعلى سبيل المثال نرى ذلك فى « لا أبرح » بمعنى الملازمة والمتابعة من غير توقف ، وما أشق ذلك على النفس « حتى أبلغ » والبلوغ : هو نهاية الشىء ، وتمام النضج : والتعبير بالحرف « حتى » يجعل البلوغ يشرف على الغاية فيه ، وهذه مشقة فوق مشقة · « مجمع البحرين » والبحر الواحد بعمقه واتساعه ومواجهة المخاطر فيه يضل فيه الإنسان فوق ما نعانيه من مشقة فما بالك بالبحرين ؟ والبحث عن موطن التقائهما ، وقد يلتقيان من جميع أطرافهما من ذلك لا يعرف النبى أى المجامع يبغى ؟ لولا أن الله حدد له ذلك بعودة الحياة فى الحوت ، ثم ما أنسب البحرين للعلم ؟ والعلم بحر لا ساحل له ، ولا منتهى لقراره ·

« أمضى » بمعنى أنه سيقضى العمر كله فى تحصيل ذلك ، وأشق شىء على النفس أن تجمع ما مضى فى الزمن الماضى ، وأن تحقق ما خفى فى طيات الزمن المستقبل ، وما أيسر ذلك للساعة التى هى فيها ؟ لكنها تمر كلمح البصر، على عكس ما مضى وما هو آت ·

« حقبا » زمن لا حد له ، والعمر كله ، بل الدهر الذى طوى وسيطوى كل الناس ·

« سفرنا » والسفر قطعة من العذاب ، يفنى العمر والجسد كما يطوى الإنسان الأرض بخطواته الوئيدة وهو لا يدرى ما تقبره الأرجل من عمره فى باطنها يوما بعد يوم ·

« نصبا » التعب الشديد ، والجهد العنيف ؛ والمتابعة فى ذلك لتتصل المشقة من انقطاع كالشأن فى « النُصُب » وهو الجسم المتصل الأجزاء ·

« أوينا إلى الصخرة » ولم يكن اللجوء إلى السهل من الأرض ، وكان ذلك فى الإمكان حتى لا يتجشم موسى عليه السلام وفتاه المتاعب : لكنها رحلة العلم ، التى يركب فيها الإنسان أشق المراكب ، ويصعد إليها أوعر

الصخور ، لأنه يقدر فى ذلك أن ثواب العلم على قدر المشقة ، والأوى الذى كان بمعنى السرعة فى قصة أصحاب الكهف أصبح هنا ثقيلا صعبا أشد من اللجوء ، لأنه كان طريقهما للصعود إلى الصخرة وما أشد المعاناة فى ذلك ، إنه الإعجاز الذى يجعل السهل صخراء ويحيل السرعة بطأ ·

ولو تأملت فى بقية الألفاظ من حيث المعانى لوجدت العجب العجاب وإليك بعض الكلمات لتنظر فيها على النحو السابق :

(أنسانيه - الشيطان - نبغ - فارتدا - لدنا - لن - تستطيع - صبرا - أعصى - لتغرق - إمرًا - ترهقنى - عسرا - قتلت - فأبوا - جدارا - غصبا - طغيانا - كفرا - تحته - كنز - أشدهما - أمرى)

وأما المبانى الضخمة التى صورت رحلة العلم الشاقة، فهى كثيرة على امتداد القصة منها : تأمل البناء الموسيقى للتصوير القرآنى فى مطلع القصة : لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا ، فالمعاناة فى الرحلة من معانى الكلمات هنا يؤازرها معاناة أشد من مبانى الكلمات فى مخارج الحروف من حيث موسيقاها وتثاقل الحركات والسكنات عليها ومن حيث إيقاعها ، وتلاحم الأصوات فى المدات والشدات فى ذلك، ثم النسق الموسيقى للنظم كله فى الآية ·

أما صوت الموسيقى الثقيل فى مخارج الحروف فيتجسم الثقل والمعانى فى حروف الحلق ؛ وما أشقها على النفس فى النطق ؟ وخاصة فى أول الأمر ، وهى كثيرة فى الآية الأولى : فتجمع من الحاء أربع ، ومن الهمزة أربع ، والعين ، والغين ومن الحروف الثقيلة فى النطق : الضاد ، والقاف ، ثم المد إلى ست حركات فى « لا » وفى « حتى » مع التضعيف فى التاء · وأما الثقل الموسيقى فى الحركات والسكنات فيلتقى فى اجتماع ثلاث حركات متوالية وسطها ضمة « أبرح حتى » وما أثقل صوت الضمة بين فتحتين ؟ وكذلك فى اجتماع ثلاث حركات أولها ضمة « أبلغ مجمع » والأشد من كل ذلك فى الثقل ما جاء فى ختام الآية ، كأنه يبلغ الغاية فى النهاية وذلك فى خمس

حركات بينها ضمتان متتاليتان ، وفى ذلك من الصــوت الموسيقى الثقيل ما فيه ؟ ؛ « أمضى حُقُبًا » ٠

وأما من حيث النسق الموسيقى فى التركيب كله ، فترى نفسك تمشى الهوينى فى القراءة وكأنك تعانى ثقلا بين الكلمات ، ولا تستطيع أن تعجل به حين تحرك لسانك، حتى المدات الست فى الألف قبل الهمزة، لا تستطيع اختزالها أو الإسراع فيها ، وحتى الألف واللام التى تختفى أحيانا فى الوصل، نراها شاخصة هنا لا تتفلت من اللسان : « مجمع البحرين » وكذلك الأمر فى همزة أو أمضى ، فهى شاخصة فى التعبير مع وقوعها بعد همزة بينهما واوًا ، وعاود القراءة فى الآية المرة بعد المرة تزداد ثقلا على ثقل ٠

وعندما أخذ التعب منهما مأخذًا كبيرا، وأقعدهما الجوع عن الحركة، ترى الثقل فى الصوت الموسيقى، حتى تكاد منه أن تتوقف عن القراءة، وينقطع النفس وتأمل معى الآية على النحو السابق فى التحليل الموسيقى :

﴿ فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ﴾ ٠

ولما ذكر موسى عليه السلام فتاه بالغداء ، اعتراهما ما يشبه النسيان من الإبهام، ويقتضى الإبهام الامتداد وطول النفس ما شاء للإنسان أن يفكر بعد نسيان مضى عليه يوم وليلة ؛ بعد التحرك من الصخرة ، قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت إلى ٠ ٠ ٠ ٠ آخر الآية ٠

وتأمل أثناء القراءة ما حدث من التحليل فى موسيقى الآية الأولى وحين تومض بارقة أمل أثناء ذلك استدعاها الموقف ، تجد الإيقاع الموسيقى يسرع كالبرق ، على قدر ما وقع فى نفس موسى من كشف السر ،الذى استغرق منه لحظة من الزمن حين علم أن الحوت أحياه الله ، تلاحقت الموسيقى بقدر هذه اللمحة فقال : « ما كنا نبغ » بل حذفت الياء هنا فى الفعل من غير داع نحوى فى الحرف ، إلا لداع التلاؤم الموسيقى بين صورة العبارة وبين اللمحة السريعة فى نفسه ،حين تعرَّف على السر من حكاية فتاه، وبعد أن انقضت اللمحة، عاد الثقل الموسيقى، يجر أذياله مرة أخرى فيما بعد ذلك من آيات، وخاصة فى

الحوار الذى وقع بين موسى والعبد الصالح عليهما السلام ، وهكذا فى بقية آيات القصة « فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجرًا » .

فما أروع التصوير القرآني فى هذه الآية وفى كل آية ؟ الذى جمع من آى الإعجاز ما يعجز أمامه البليغ حتى يحيط بأسراره ، ومكنون جلاله . مزق موسى عليه السلام وثيقة أستاذه مرتين حين أنكر عليه صنيعه ، مرة فى السفينة وكانت نسيانا ، وحينئذ لم ينكر عليه الخضر النسيان ، وإنما أراد أن يقرر له ما سبق من عهد ، ويذكره بذلك فى قوله « ألم أقل إنك » فالأولى بالاستفهام هنا أن يكون للتقرير لا للإنكار والتعجب ؛ ومرة حين قتل الغلام ، وكانت اندفاعا لا نسيانا ، وحينئذ يكون الاستفهام للإنكار أو التعجب على السواء ، لذلك حدد موسى عليه السلام نهاية الرحلة بقوله : « إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبنى الآية » فقال محمد ﷺ : وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما » ، ومع هذا الخروج عن العهد فى كل مرة كان يخطو بخطى أستاذه خطوة بخطوة ، ويرافقه فى السير على قدم وساق . ويمشيا معا وكأنه لم يحدث من قبل تمزيق ولا نسيان ولا عتاب ، وهذا ما يفيده معنى الانطلاق والتسوية فى همزة التثنية ، وخاصة فى المرتين الأخيرتين ، وهو ما ينبغى أن يكون عليه الأستاذ مع تلميذه، ينزل إليه، ويسوى بينه وبينه ما دام فى حلقة الدرس ، تتكسر الحواجز فى منافذ الإدراك ، فتصل إليه المعلومات زاكية من غير تهيب أو خوف .

وفى القرية دفعهما ألم الجوع إلى طلب الطعام من أهلها ، وكما كان جوع موسى فى البداية سببا فى تذكر الحوت ، وفى نهاية البحث عن الخضر ، كان الجوع أيضًا مصاحبا لنهاية الرحلة العلمية معه ، فما أنسب الجوع هنا وهناك فى البداية والنهاية ؟ للدلالة على تعطش الإنسان للعلم ، ومبلغ الحاجة إليه فهو لا يقل عن الطعام فى حفظ الحياة ، وجاء ذكر القرية بجانب الضيافة، وذكر المدينة بجانب تفسير الجدار فى الآية الأخيرة من القصة ، للدلالة على الشأن فى القرى من كرم الضيافة ، والشأن فى المدينة من التعمير والبناء

والصناعة والتشييد ، لكن أهل القرية كانوا فى غاية البخل ، ونهاية الحرص ، وهذا ما يدل عليه ذكر لفظ الأهل دون ضميره فى « استطعما أهلها » وكان يكفى هنا الإضمار : « استطعماها » لئلا يعود الضمير على القرية ، وهى لا تستطعم إلا حين التأويل فقط فى الأهل ، أو يعود الضمير على الأهل ، وفى عودته إبهام قد ينصرف البخل فيه إلى بعض أهلها دون البعض ، على عكس ذكر الأهل؛ فإنه يدل بذاته على حرص الجميع وبخلهم ؛ولذلك صور الفعل « فأبوا » الحرص فى أنفسهم ينازعهم حياتهم ، وفى الإباء من معانى الشد والأخذ والنزع والنكر ما فيه .

والحرص فى القرية هو من دواعى إهمال الجدار حتى كاد أن يسقط ، وهو أيضًا من دواعى الخوف على ما تحت الجدار عندما يسقط وينكشف الكنز، وكأن هذا حجة من الواقع فى بناء الجدار ، الذى يشعر ويحس ويحفظ العهد لأصحابه ، ليجود بما يحويه من أمانة لليتيمين ، نزعت الحياة من بخلاء القرية فهم لا يستحقونها لشحهم ، وسرت فى الجدار حتى أصبح شخصا، يجود بما فى باطنه من الكنز للخضر ، فهـو أولى بالحياة والبناء من أهل القرية لأمانته وجوده ، « وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » فما أروع التشخيص فى تصوير الجدار ، فأصبح ذا إرادة ينم بها عن مكنونه ، وذا فعل يريد أن يسقط؛ ليدفع الغير إلى أن يعينه فى بنائه وقوام حياته ، كل هذه الحياة التى سرت فى الجدار ، والتشخيص الذى جعل الجماد إنسانا يشخص فيه قعودا وقياما، كل هذا جاء من اختيار الكلمات ونبضت الحياة فيها متدفقة من الاستعارة بالكناية فى « يريد »وفى « ينقض » .

وفى المرة الثالثة يتحول الإنكار إلى عتاب رقيق فى ظاهره نوعا من الإشفاق على أستاذ موسى ، ونوعا من صنع المعروف فى غير أهله ، فأهل القرية بخلاء لا يستحقون الصنيعة ، ولا يمنحون عليها أجرا ، يسد رمق الجوع فيهما ، وفى باطنه إنكار وخروج عن المألوف ، وهذا ما دعا الخضر إلى إعلان الفراق ، وقطع المواصلة فى الرحلة العلمية : « لو شئت لتخذت عليه أجرا » وهو تصوير يختلف عن سابقيه فى الإنكار ، فإنكار الصنيع فى السفينة جدير

بحدوث العيب فيها، وما يترتب على ذلك من الغرق لأهلها وهو إفساد ظاهر، وإنكار الصنيع فى قتل الغلام إفساد ظاهر أيضا، أما بناء الجدار فهو إصلاح لا فساد فى الظاهر والباطن، وإن كان فى غير محله عند موسى عليه السلام.

وما أروع التصوير القرآنى فى « فأردت أن أعيبها » حيث نسبت إرادة الخرق إلى الخضر، كراهة نسبة العيب إلى الله سبحانه وتعالى وتنزيها، فهو يريد الخير لعباده، وإن كان شرا فى الظاهر عندهم، وفى « فخشينا »، وفى « فأردنا » حيث نسبت الخشية والإرادة إلى الخضر دون الإبدال فى « أن يبدلهما ربهما » ودون إرادة البلوغ وفعله واستخراج الكنز فى « فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما » حيث نسبت إلى الله سبحانه وتعالى مباشرة، وذلك للدلالة على تنزيه الله مما كان سيحدث للوالدين من الإرهاق بسبب طغيان الغلام وكفره إذا كان حيا، وذلك الإرهاق لم يحدث؛ لأن الله قضى بقتله رحمة، ونسبة ما لم يحدث من الخشية لله باطل، فناسبت النسبة فيها إلى الخضر، كما صحت النسبة فى الإرادة إليه للدلالة على أنه دعا الله أن يرزق الوالدين خيرا منه، فاستجاب الله دعاءه - وهو نبى - وأبدله بخير منه زكاة وأقرب رحما، ولذلك صح نسبة الإبدال إلى الله كما صحت النسبة إلى الله فى رعاية اليتيمين حتى يبلغا سن الرشد، وفى استخراج الكنز لهما بعد ذلك؛ لأن الخضر لا علاقة له بهما ولا باستخراج الكنز لهما، فمهمته بناء الجدار فقط ثم ينصرف.

وفى النهاية يعود الخضر بموسى إلى عتاب ربه له فى البداية حين اغتر بعلمه ولم ينسبه لله فى قوله: « وما فعلته عن أمرى » حيث يرد الخضر علمه بهذه الأسرار الإلهية والتى يجهلها موسى إلى الله سبحانه وتعالى، ليعاتبه هو مرة أخرى، وليوضح له أن علمه وعلم موسى وعلم الناس لا ينقص من علم الله « إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر »، وليعلم موسى أن الله قد يخص بعلمه من يشاء من عباده كالخضر عليه السلام - وهو نبى فقط كما هو مفهوم من قوله وما فعلته عن أمرى - ولا يعلم به موسى عليه السلام وهو نبى الله ورسوله، وأفضل عند الله من هذا العبد الصالح، الذى خصه الله

بهذا العلم الإلهى ، فما أبدع التصوير القرآنى فى جانب علم الله باللدنية « من لدنى علمًا » وفى جانب الرحمة بالعندية « رحمة من عندنا » لأن استعمال «لدن » خاص بالله تعالى غالبا واستعماله « عند » شائع بين الله وخلقه ، ولأن الرحمة قد تكون من عند الله وقد تكون فى نفس المؤمن فيرحم أخاه ، أما العلم الإلهى فلا يتحقق إلا لله وحده ، وكذلك حسن التصوير باللدنية فى جانب الله .

وكان هذا منطلقًا لبعض المبالغين من رجال الصوفية؛ حيث يدعون أن علمهم لدنى انكشف لهم عند الله عن طريق رياضة النفس وصفاء الروح ، فيعلمون من الغيب ما يجهله غيرهم ، ولعل ما اتضح من علم الخضر وأمره ، ما يرد هذا الزعم ويبطله ، والخضر نبى مأمور من قبل الله، ولا هى فى الصوفية لأنه لا نبى بعد محمد ﷺ ، وإن جازت الولاية فى بعض المعتدلين منهم . على مثال أصحاب الكهف الذين لم يدعوا علما ربانيا . بل كانت الغاية من العبادة والجهاد فى سبيلها هى معرفة الله والإيمان به لا الادعاء بسر من أسراره .

ولو تأملت الفاءات فى قصة موسى هذه ، لرأيت الإعجاز فى تصويرهما للمعانى التى تخفى وراءها وهى نفسها فاءات أصحاب الكهف ، لكنها على النقيض منها هناك ، فأصحاب الكهف يتعجلون الخطا جريًا ، ويسرعون إلى الكهف خوفًا من قبضة الملك الظالم ، الذى أراد أن يقتلهم لأنهم على غير دينه ، لذلك أوحت الفاءات هناك بالسرعة والحذر والخوف ، والجميع يقتضى الترتيب والتعقيب والمتابعة وعدم الفصل ،وهذا هو معناها فى التصوير هناك .

أما رحلة العلم عند موسى فما أشقها ؟ وما أطولها ؟ « أو أمضى حقبًا» وما أصعب التحصيل فيه ؟ وفهم أسراره ، ثم ما أشد البحث عن المجهول سواء أكان العلم أو كان الخضر ، وفى هذا من الامتداد والاتساع ، واختفاء الأحداث ، وتنوع المشاهد ، ما فيه ، وهكذا كانت الفاءات هنا ، طوت فى حواشيها أحداثا ، واحتجبت خلفها مشاهد ، وطلت من مخرجها أسرار ومجاهل، وفى هذا كله من المشقة والعناء ما يتناسب معهما فى رحلة العلم ،

وعلى سبيل المثال : فالفاء فى قوله تعالى : « فلما بلغا » حيث أعلم موسى فتاه بالرحلة ووصفها بالطول ولكنه فجأة بعد الإعلان بلغا مجمع البحرين ، فانطوى خلف الفاء الاستعداد للرحلة وإعداد الزاد ، وتكليف الفتى بحمله وحفظه ، ووضع الحوت فى المكتل ، وخروجهما من البلد ، وقطعهما أشواطا فى السفر وما دار بينهما من حوار ، وسوى ذلك حتى بلغا مجمع البحرين ، وهكذا احتجبت أحداث ومشاهد كثيرة · وما أكثر هذه الفاءات ؛ منها :

(فاتخذ سبيله - فلما جاوزا - فإنى نسيت الحوت - فارتدا على آثارهما- فوجدا عبدًا - فإن اتبعتنى - فانطلقا - فقتله - فأبوا - فوجدا فيها جداراً - فأقامه - فأردت أن أعيبها - فخشينا) وسواها كثير ·

بين أصحاب الكهف وأهل الصفة والعبد الصالح وبين الصوفية:

جمعت سورة الكهف بين القصص السابقة لاتفاقها جميعًا فى الغاية والهدف ، فالأشخاص فيها عباد مكرمون ، آمنوا بتعاليم السماء ، وأقاموا معالم التشريع سلوكا ومنهجًا ، عرفوا ذلك واستقاموا ، وكانت هذه الاستقامة سببًا فى تهذيب نفوسهم ، وصفاء أرواحهم ، واستواء الجانب الروحى فيهم ، فازدادوا إيمانا على إيمانهم وعرفوا أنفسهم ·

فأصحاب الكهف فتية آمنوا بربهم ، جمعهم الإيمان على الحق فى قوم يعبدون الأصنام والطواغيت ويذبحون لها الذبائح ومن ورائهم ملك عنيد يقال له : دقيانوس من ملوك الروم وكان يدعوهم إلى ذلك ويخرج معهم ، فأنكر الفتية السجود لغير الله ، وتفلتوا واحدًا بعد الآخر حتى التقوا جميعًا تحت شجرة من غير معرفة سابقة ، أو تواعد بينهم لذلك تربص كل بالآخر خشية أن يكون على دين القوم غير مؤمن ، حتى أفصح أحدهم عن مكنونه ، فانطلق الجميع يهتفون بلسان واحد مخلصين له الدين ، وصدق الرسول الكريم حين يقول : الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف [1] واعتصموا بالله على غير ميعاد ليقفوا فى وجه الطاغوت والملك والدنيا كلها

---

(١) تفسير القرآن العظيم : ابن كثير ٣ / ٧٤ ·

وباعوا أنفسهم وأرواحهم فى سبيل الله ورفعوا أكفهم بالدعاء له لينقذهم من الغدر؛ فاستجاب الله لهم، وأيدهم بنصره ،وجعلهم مثلا رائعًا يضرب للتقوى والتضحية فى سبيله .

أما أهل الصفة فعلى دربهم يسيرون معتنقين رسالة سيد الخلق وخاتم المرسلين فزهدوا فى الدنيا ، وأخلصوا حياتهم لله ، وكفاهم فخرًا أنهم أهل الصفة فى مسجد رسول الله على قرب منه ، وحسبهم شرفًا ولقبًا أنهم أصحاب رسول الله ، ومهما بلغ الإيمان فى الإنسان بعد الصحابة ، فلن يبلغ درجة الإيمان فى صحابة رسول الله وأهل الصفة هم الذين أنفوا منهم أشراف قريش من الكفار حيث طلبوا من النبى ﷺ أن يجلس معهم وحده ، ولا يجالسهم بضعفاءأصحابه كبلال وعمار وصهيب وخباب وابن مسعود ، وليفرد أولئك بمجلس على حدة فنهاه الله عن ذلك؛ فقال ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ؛ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه(١) .

كفار ومؤمنون هنا وهناك ، أهل الصفة مع كفار مكة ، وأصحاب الكهف مع دقيانوس وقومه لينتصر الإيمان بوحى السماء .

وأما العبد الصالح فى قصة موسى عليه السلام ، فليس الأمر هنا قضية الإيمان والكفر فيها، بل الأمر أسمى من ذلك ، إنها الزيادة فى الإيمان ، وأن العبد مهما بلغ منه فلن يخرج عن كونه عبدًا لربه ، ومهما بلغ الإنسان من علم فهو بإذن الله ، ولن ينقص من علم الله شيئًا ، موسى عليه السلام نبى مرسل جاء بشريعة من الله ، لكنه حين أبكى العيون ، سأله أحد الباكين عن علمه . فقال موسى : لا يوجد أحد على الأرض أعلم منى ، عند ذلك أرسله ربه إلى من هو أقل منه فى المنزلة : الخضر عليه السلام ؛ليأخذ عنه علم الله؛ فيزداد إيمانًا على إيمانه ، فموسى عليه السلام يريد أن يقطع العمر كله لزيادة الإيمان فى رحلة العلم إلى العبد الصالح ، والخضر عليه السلام يعلمه مما علمه الله ، وألهمه إياه مفصحًا عنه أنه من عند الله .

---

(١) المرجع السابق ٣ / ٨٠ .

والقصص كله جاء في كتاب هذه الأمة في القرآن الكريم ، وكل ما فيه جاء من أجل الإسلام ومن أجل المسلم ، فصبغته إسلامية محضة ، وإن كانت أحداثها وقعت لموسى أو في بني إسرائيل أو غير ذلك أو في عصر النبي ﷺ ، وعلى الصوفية في اتجاههم الروحي أن يجدوا هنا في النبي قدوة ومعلمًا ، وفي أصحاب رسول الله سلوكا ومنهاجا ، وفي أصحاب الكهف وهم أولياء نبراسًا ومصباحًا ، من غير مبالغة أو ادعاء ، ليكون غايتهم الإيمان بالله عن طريق استقامتهم على الشريعة الغراء لا أكثر من رجم بالغيب ، وافتئات على الواقع وما يقبله العقل ، ومنطق السماء .

الجميع في السورة يلتقون في الاتجاه الروحي ، ويسيرون مع الروحية المهذبة، من غير مبالغة أو ادعاء ، فهم يلتزمون بالتشريع السماوى ، ويعملون بنبراسه ، وجاء الاتفاق في المناسبة تبعًا لالتقائهم في الاتجاه الروحي ، فقد جمعهم العتاب على اختلاف صفاتهم وأحداثهم وأزمانهم ، فترى ذلك بعد أن أثنى الله تعالى على نزول القرآن وجعله قيما لا عوج فيه ، ولا يعلم من ذلك أحد إلا الله ، ثم عاتب الله نبيه محمدًا ﷺ عتابًا عامًا في حزنه الشديد على كفر زعماء مكة ، حين أحب أن يسارعوا إلى الدين الإسلامي ، وذلك في أول السورة :

﴿ الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا ،قيمًا ﴾ ، إلى قوله تعالى : **﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾** (١) ثم عاتبه عتابًا رقيقًا بتأخير الوحي عنه - أيامًا وليالي - حين سأله قومه عن فتية مضوا في الدهر ، فقال لهم سآتيكم بخبرهم غدًا من غير أن يعلق قوله بمشيئة الله عز وجل ، في قوله تعالى **﴿ ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدًا إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشدًا ﴾** .

ويعاتبه الله سبحانه وتعالى عتابا آخر بالنسبة لأهل الصفة ، لأنه أسف

(١) الكهف : ١ : ٨ .

كثيرًا على كفر شرفاء مكة ، الذين أبوا أن يجالسوا أهل الصفة مع النبى ﷺ فعاتبه مرة ثانية مبينًا له : أن الواحد من فقراء الصحابة خير من ملء الأرض من زعماء مكة فى الكفر : واصبر نفسك الآية :

وكان العتاب أيضًا لموسى عليه السلام حين ظن أنه أعلم أهل الأرض فعاتبه الله بالخضر عليه السلام الذى أعطاه الله علمًا من لدنه ، لا يعلمه موسى صاحب الشريعة ، وأمره أن يذهب إليه ، ليتعلم منه ، وعاتبه الخضر مرات ، حين ذكر له أمر العصفور الذى نقر فى البحر ، فما أخذه من البحر ، لا ينقص من علم الله إلا بمقدار ما أخذ وحين قال له فى النهاية : وما فعلته عن أمرى .

وإن اتفق الجميع فى الاتجاه الروحى ، لكنهم يختلفون فى الصفة ، فأصحاب الكهف أولياء ، وأولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وقد ظهرت على أيديهم الكرامة تأييدًا لولايتهم حينما طلبوا من الله النجاة ، فاستجاب لهم دعاءهم وأنامهم فى الكهف ليخلصوا من غدر الملك ، وليكونوا مثلا أعلى يضرب فى كل عصر لمن يسير فى ركب الأولياء الصالحين .

والولاية دون منزلة النبوة بلا شك، وهى صفة العبد الصالح الخضر عليه السلام ، والنبوة دون منزلة الرسالة ، فالنبى الرسول أفضل عند الله من النبى فقط، وتلك صفات المرسلين الذين بعثهم الله لأداء رسالته ، وتبعًا لاختلاف هذه الصفات، تختلف درجاتهم عند الله، وتتفاوت منازلهم لديه ، حتى بين الرسل أنفسهم : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ (١) .

وأما صفة أهل الصفة فهى وسام الصحبة لرسول الله ﷺ ، وشرف النهل من معينه الشريف عن لقاء وتجاوب ، ومكانتهم من الرسول الكريم تلى مكانته مباشرة ،مع اختلاف درجاتهم بينهم وبين أنفسهم حسب سبقهم وأعمالهم، ومنزلتهم فى أمته تفوق كل المنازل ، وترتفع فوق كل الدرجات ، فمهما بلغ البشر بعد الصحابة ، فلن يبلغوا مد أحدهم ولا نصيفه ، هؤلاء هم أصحاب رسول الله ﷺ وجند الإسلام فى الأرض .

---

(١) سورة البقرة : ٢٥٣ .

وجاء فى قصة العبد الصالح ما يوهم العلم اللدنى كما يدعى بعض الصوفيين ، وفلاسفتهم ، فوصفوا علم الخضر بأنه علم لدنى، عرفه عن طريق الرياضة النفسية ومواصلة العبادة عن طريق الإلهام والمكاشفة ، واستناداً لهذا فقد رأوه فى بعض زعمائهم فى التصوف ، كان لهم من العلم اللدنى ، الذى وقع لهم عن طريق المكاشفة ، لأنهم فرقوا بين الشريعة والحقيقة ، والعلم اللدنى من قبيل العلم بالحقيقة لا بالشريعة (١) .

وليس هذا صحيحاً فليس هناك عند الصوفيين علم لدنى كما يدعى بعضهم ، وأما ما وقع للخضر عليه السلام ، فهو من عند الله لأنه نبى كما ورد فى القصة : وما فعلته عن أمرى ، فهو أمر من الله ، أعطاه إياه ، وأمره بالكشف عنه لموسى عليه السلام ، وليس هناك فرق بين الشريعة والحقيقة ، فالشريعة هى أساس الوصول إلى الحقيقة ، والغاية من الشريعة هى الحقيقة وهما متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر ، فبالعبادات ، وباتباع المعروف والنهى عن المنكر والتخلق بتعاليم الشريعة ، يصل الإنسان عن طريق ذلك إلى معرفة الله والإيمان به والوقوف على حقيقة الإيمان فى النفس ، ولن يكون ذلك سبباً فى ادعاء علم لدنى من الله ، ونحن نعلم بأنه لا نبى بعد خاتم النبيين وتبعاً لذلك انقطع الوحى من بعده ، ولا اختص الله واحداً من أتباعه من لدنه بعلم وإنما العلم لا يأتى إلا عن طريق الكسب والاستدلال ، وعن طريق التعلم ، وإقامة الدليل والبرهان من واقع الحياة ، ولن يبلغ بهذا العلم درجة الصحة واليقين إلا بعد العزوف عن الدنيا ، والمجاهدة والرياضة النفسية،حيث تزداد القوة العقلية وتصفو الروح البشرية ، وتضعف القوى الحسية ، وتتلاشى الأثقال المادية فى الإنسان ، عند ذلك يتصف العلم بالصحة واليقين ، والفكر بالحقيقة والحكمة (٢) ، وقد شهد بذلك المعتدلون والمحققون من أهل التصوف الإسلامى .

وما وقع من الخضر عليه السلام فهو من قبيل الشريعة حين ارتكب أخف

---

(١) بين الشريعة والحقيقة : العز بن عبد السلام ٣٥ سلسلة الثقافة الإسلامية .

(٢) الفقه والتصوف : عبد الحميد الزهراوى ٢٤ سلسلة الثقافة الإسلامية ١٩٦٠ .

الضررين؛ فالخرق أخف من ضياع السفينة ، والقتل أخف من إرهاق الوالدين بالطغيان والكفر ، وإقامة الجدار أخف من ضياع الكنز وحق اليتيمين(١) .

وبعد أن وقفنا بعض الشيء على خصائص الإعجاز فى التصوير القرآنى للجانب الروحى عند المؤمن . سنقف بعد ذلك مباشرة على خصائص بعض أحاديث النبى ﷺ فى هذا الجانب ، وقد أعطاه الله عز وجل جوامع الكلم التى بلغت غاية الفصاحة والبلاغة فى كلام البشر .

* * *

(٧)

بين الإسلام والإيمان والإحسان :

عن عمر بن الخطاب (٢) رضى الله عنه قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ،لا يرى عليه أثر السفر ،ولا يعرفه منا أحد ،حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفه على فخذيه . وقال : يا محمد أخبرنى عن الإسلام فقال رسول الله ﷺ : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا ؛ قال : صدقت . قال : فعجبنا له يسأله ويصدقه . قال فأخبرنى عن الإيمان قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال : صدقت . قال : فأخبرنى عن الساعة ، قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، قال : فأخبرنى عن أمارتها ، قال : أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان ، قال ثم انطلق ، فلبثت مليًا ، ثم قال لى : يا عمر

---

(١) حل الرموز ومفاتيح الكنوز : العز بن عبد السلام ، وتفسير الألوسى .

(٢) الإسلام : من أسلم إذا انقاد وصار مسلما ، والإيمان : التصديق وإظهار الخضوع وقبول الشريعة ، والثقة والأمن والأمانة .

أتدرى من السائل ، قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم [١] .

حقيقة الإيمان بالله تعالى ومعرفته عز وجل :

فى هذا الحديث الجامع لتعاليم الشريعة الإسلامية تحددت مراتب التعاليم الإلهية ، ودرجات المعرفة التى يمر بها المؤمن مرحلة بعد مرحلة، حتى يصل إلى الغاية من الإسلام ، والهدف من التشريعات السماوية للبشر ، وهى التى تقود المسلم إلى معرفة ربه ، والإيمان به عن يقين وصدق ، بحيث لا يرى فى الوجود غير الله .

والحديث بمضمونه وبترتيب أجزائه ، وبطريقة عرضه كالشأن فيما ينزل عليه ﷺ من قرآن ، بلغ الغاية بعد القرآن ،وأشرف على النهاية بعد الفرقان فقد اشتمل كل سؤال بإجابته على مرحلة من المراحل، التى يمر بها المؤمن الحق فى إسلامه حتى يصل إلى المرحلة التى يكتمل بها الإيمان فى النفس ،فلا يصح أن يوصف بالزيادة ، أو النقصان ، وإن صح هذا الوصف فى المراحل السابقة؛ لأن الحديث من جوامع الكلم .

جاء جبريل عليه السلام بأمر من ربه ، ليعلم المسلمين كيف يسألون رسول الله ﷺ ؟ وفيم يسألون ؟ وكيف يرتبون الأسئلة ترتيبًا منطقيا ؟ من الأدنى إلى الأعلى ، ثم يعلمهم المراحل التى يمر بها المسلم فى إيمانه ، حتى يصل إلى درجة الإحسان فى الإيمان ، وهى الغاية التى ينتهى بها المؤمن إلى معرفة الله حق المعرفة ، والرسول ﷺ يوضح فى إجابته هذه المراحل ، وهو يكشف النقاب عن كل مرحلة بوحى من عند الله، وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى ، وجبريل يصدقه فى كل مرة ، حتى تعجب الحاضرون منه ، كيف يسأل ويصدق فى وقت واحد ؟ وهو يتصاعد معه فى كل مرحلة .

أما المرحلة الأولى : فهى الانقياد والتسليم بما جاء به الرسول الكريم ،

---

(١) رواه مسلم ، وأصحاب السنن ، وجاء فى مسند أحمد عن ابن عباس وجاء فى الصحيحين وعند ابن ماجه والجامع الصحيح عن أبى هريرة .

ليدخل الإنسان بها الإسلام ، وتكون له حرمة المسلمين وحقوقهم ، وإذا صح التقليد فى الإسلام فإنما يصح فى هذه المرحلة فقط ، إذ معنى الانقياد والتسليم، هو الطاعة ، وتنفيذ الأمر بالمعروف واجتناب المنكر ولو على سبيل التقليد ، حيث لم يتغلغل الإيمان فى قلب المسلم ، ولم يهز أعماقه ، ولذلك فالذين ارتدوا فى حركة الردة كانوا من عرب البوادى . فلم ينعموا بمصاحبة الرسول الكريم كأصحابه فى المدينة فى معظم أوقاتهم ، فهم بعيدون عنه ، ولو اتصل الإسلام بأعماقهم لما ارتدوا عنه ، فقد ينطق المسلم بالشهادتين ، ويقف بين يدى ربه مصليًا ، ويصوم رمضان ، ويؤدى زكاة أمواله ، ويحج البيت ، قد يقوم بهذه العبادات فى الظاهر ، ليكون من جملة المسلمين رهبة أو خوفا أو صونا ، وفى هذه الحالة يحرم نفسه من نعمة الإخلاص فى العبادة ، ويبتعد عن العروة الوثقى فى إيمانه ، حيث لا تتحقق له إلا بالإحسان فيه ، فالمؤمن : هو الذى يرتقى مرحلة بعد الإسلام ، وهى إسلام الوجه لله ، بمعنى الاعتقاد الكامل فيما يقوم به من أركان الإسلام ودعائمه ، فإذا ارتقى بعد ذلك إلى المرحلة الثالثة كان هو الإحسان فى الإيمان قال تعالى : ﴿ **وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الْوُثْقَى** ﴾ .

فاشتملت الآية على مرحلة الإيمان ، وهى إسلام الوجه لله ، ومرحلة الإحسان فى قوله وهو محسن ، أما الإسلام فهى مرحلة سابقة عليهما ، لذلك كانت الإجابة عنه فى قول الرسول الكريم بيانًا لأركانه ، وتوضيحًا لتعاليمه ، ليهذب المسلم بها نفسه ، وتصفو روحه ، ويستقيم بأمرها ، وكان رد القرآن على الأعراب صريحا بأنهم مسلمون ، ولما يتجاوزوا مرحلة الإيمان قال تعالى ﴿ **قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ** ﴾ (١) .

وإجابة الرسول ﷺ عن الإسلام تؤكد ذلك ، فالنطق بالشهادتين قد يكون باللسان فقط وهو الإسلام ، وهو ما عليه المسلم أول الأمر فى الواقع ؛ فإذا ما صدق بها القلب ، وامتزجت بنفسه فذلك هو الإيمان .

---

(١) الحجرات : ١٤ .

فالشهادة فى « أن تشهد » تكون باللسان أولاً وفى الظاهر ، وكذلك الأمر فى التعبير بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت ، وما أروع التعبير بالمضارع فى كل ذلك إيماء إلى وقوعه فى المستقبل ، لكى يروض المسلم نفسه عليها ، حتى تصير العبادات عقيدة فى نفسه ، والتأكد من ذلك فى علم الله ، فربما يصدق المسلم أو لا يصدق ، ولذلك لم يأت النبى بالماضى لتحقق الوقوع فيه ، ولا ينبغى التعبير به إلا فى جانب الإيمان . وكذلك لم يعبر بمشتقات الأفعال أو مصادرها فلم يقل إقامة الصلاة ، وإيتاء ، وصوم ، وحج ، لأن الإسمية تفيد اللزوم والثبوت ، وهذا لا يتلاءم مع ضيف جديد على الإسلام الذى يزداد فيه يوما بعد يوم ، كلما أمعن فى المستقبل .

والاستطاعة فى الحج لا توجد عند كل مسلم ، وهو مفاد حرف « إن » الذى يصور الاستطاعة وعدمها فى لمحة ، وبالشك الذى يفيده ، لتأرجح الناس بين الفقر والغنى فيفضل بعضهم البعض الآخر ، لذلك كان الحج معلقا بالاستطاعة ، وفى الشرط معنى التعليق إن جعلت « إن » شرطية وجوابها محذوف يدل عليه ما قبلها وهو « إن استطعت إليه سبيلا تحج البيت » .

وأما المرحلة الثانية التى تتبع مرحلة الإسلام وهى مرحلة الإيمان فى السؤال الثانى . والإيمان هو الصدق ، وكمال الثقة ، وظهور الخضوع الصادق لله وحده فى كل شىء ، وقبول الشريعة عن حب وعقيدة ، وما توحيه هذه المعانى فى نفس المؤمن من الأمن والأمانة والطمأنينة والقوة والإخلاص والشرف .

كل هذه المعانى وما توحيها داخل فى مفهوم الإيمان ، ولذلك حسن التعبير بلفظ « أن تؤمن » لأن الفعل هنا يدل على المعانى السابقة للإيمان ، وصيغة المضارعة فيه تدل على المزايدة يومًا بعد يوم ، حتى يصل إلى المرحلة الثالثة وهى الإحسان فيه ، ولم يتكرر الفعل هنا مع الملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر ، كما لازمت هناك الأركان الخمس أفعال تتناسب مع كل ركن ، كتلاؤم القيام مع الصلاة ، والصوم فى رمضان وهكذا ، لضرورة هذا التلاؤم، ولأن المسلم فى المرحلة الأولى يحتاج إلى التنصيص على الفعل فى كل مرة ،

ولأن الزيادة فى إيمانه أصبحت قائمة على التصديق والثقة فيما سبق ، ولا يمنع هذا من تكرار الفعل مع القدر فى « وتؤمن بالقدر خيره وشره » لأن نوازل القضاء تهز أعماق المؤمن ، وتأخذ به ، ولو لفترة قصيرة ، فالقدر أمر خارج عن إرادته ، لذلك كان تكرار الفعل معه أبلغ وأنسب .

وهذا الصدق فى الإيمان هو ما نفاه الله سبحانه وتعالى عن الأعراب الذين أسلموا فى الآية السابقة ، وهو نفسه ما أثبته للمؤمنين بعد إسلامهم فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾[١] .

وأما المرحلة الثالثة : وهى الإحسان فى الإيمان ، التى يبلغ فيها المؤمن الغاية فى إيمانه ، حيث تتخلص النفس شيئًا فشيئًا عن طريق ترويضها بالعبادة وتهذيبها بتعاليم الإسلام ، وتصفو الروح بمجاهدة النفس فى التشريع ، وإعتاقها من مادية الجسد بالإيمان الخالص لله ، واليقين الصادق بالملائكة والكتب السماوية والرسل واليوم الآخر والقضاء والقدر ، لذلك تتصل الروح بربها كما كانت فى الأزل حين خلقها الله وشهدت له بالربوبية قبل تمكنها من جسد صاحبها المحدث وقت خلقه . قال تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾[٢]

وحين تسمو الروح إلى هذه المنزلة عن طريق التشريع الإسلامى ترى ربها سبحانه وتعالى فى كل شىء : تراه فى الصلاة ،وفى الصوم ، وفى سائر العبادات ، وتراه فى خلق الإنسان وخلقه ، وفى حسن التعامل معه ، وتراه فى كل ما خلقه الله فى السماء والأرض ، ترى كل هذا عن يقين وحقيقة ، وهذه الرؤية هى رؤية القلب والروح ورؤية البصيرة ، لا رؤية العينين ، ولا عن طريق الحواس الأخرى :

---

(١) الحجرات : ١٥ .   (٢) الأعراف : ١٧٢ .

﴿ لاَ تُدْرِكُهُ الأبصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ ﴾ (١) .

وقد يغفل الإنسان عن ربه لعوارض الحياة ؛فهو بشر مهما بلغ من صفاء الروح، وحينئذ يعتقد المحسن فى إيمانه أن الله يراه وقت الغفلة ، وأنه يعلم منه كل صغيرة وكبيرة، حتى لا يستمر فى غفلته ، ويعود الصفاء والرشد إلى الروح كما كانت؛ لتتصل بربها ، وتراه كما كانت ، ومن هنا يكون المؤمن دائم الصلة بربه، حتى فى الساعة التى يستجيب فيها لبشريته ، فيظل معتقدًا أن الرؤية ما زالت موصولة فى جانب الله ، وإن انقطعت منه حينًا ، وهذا معنى الإحسان فى الإيمان : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، وحين يصل الإنسان إلى هذه الدرجة من الرؤية لله؛ فإنه يؤمن بما هو غائب فى الظاهر، أو ما سيحدث فى المستقبل كيوم القيامة، ويرى ما فيها من نعيم وعذاب ، وهو ما جاء فى السؤال الأخير ؛ حين أخذ موقعه من المراحل السابقة ؛ فسأل جبريل النبى ﷺ عن الساعة بعد أن بلغ المؤمن أعلى درجات التصديق فى مرحلة الإحسان .

ورؤية البصيرة فى القلب والروح لا تحدث إلا للصفوة من خلق الله ، ولقلة من المؤمنين الذين انتصروا على أنفسهم :

﴿ إنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ ﴾ ، وسموا بروحهم عن شياطين الهوى ، وأثقال المادة فى الحياة الدنيا إيمانًا وزهدًا عنها ، وإخلاصًا وحبًا لله ، والدار الآخرة ، والرسل والأنبياء هم فى المنزلة الأولى منها على تفاوت بينهم فى هذه المنزلة ، لينال سيد الخلق وخاتم النبيين الدرجة الرفيعة ، وأصحاب محمدﷺ على تفاوت بينهم هم أولى بالمنزلة الثانية .

سئل رسول الله ﷺ : كيف عرفت ربك ؟ فأجاب قائلا :

« نور أنَّى أراه ؟! » .

وسئل أبو بكر رضي الله عنه : بم عرفت ربك ؟ فقال : عرفت ربى بربى ، ولولا ربى ما عرفت ربى !! قيل فكيف عرفته ؟ فقال : العجز عن الإدراك إدراك والبحث فى ذات الله إشراك .

---

(١) الأنعام : ١٠٣ .

وقيل لعلى رضي الله عنه بما عرفت ربك ؟ قال : بما عرفنى نفسه ، لا تشبهه صورة ولا يدرك بالحواس ، وفى خبر آخر قال : سبحان ربى : لا يدرك بالحواس ، ولا يقاس بالناس ، فوق كل شىء ، وليس تحته شىء، وهو فى كل شىء، لا كشىء فى شىء، ليس كمثله شىءوهو السميع البصير . . . !!(١) .

ويفسر عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قول الله سبحانه : وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون بقوله : يعنى إلا ليعرفونى ، فإذا عرفونى عبدونى عبادة معرفة ، لا عبادة تشريع فقط ، ودعا له الرسول صلى الله عليه وسلم : اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل (٢) .

ويقول الله عز وجل : ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ ﴾ فهؤلاء اتقوا ربهم، وبالتقوى علموا بأنفسهم أنهم عبيد لله ، وبالعبودية عرفوا الله معرفة حقيقية من غير حدود أو مقياس .

وهذه المعرفة التى يعلمها الله للمتقين هى ما أشار إليها الرسول الكريم فى قوله : « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » والمقصود به العلم الباطن فى القلب كما قال الرسول الكريم فالعلم علمان : فعلم باطن فى القلب فذلك هو العلم النافع . وهو النور الذى يشرح به صدر المؤمن : فمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ، ولذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو ربه بالنور فيقول : « اللهم اعطنى نورا ، وزدنى نورًا ، واجعل لى فى قلبى نورًا ، وفى قبرى نورًا ، وفى سمعى نورًا ، وفى بصرى نورًا » وبه يرى المؤمن برؤى البصيرة قال الرسول الكريم : « اتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله تعالى » وعلم ظاهر وهو العلم المكتسب بالدراسة والتحصيل (٣) .

وحديث الحارث بن مالك ، الذى تكامل الإيمان فى نفسه إلى حد الرؤية حين سأله النبى صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال له : كيف أصبحت يا حارثة ؟ قال : أصبحت مؤمنا حقًا ، قال انظر ماذا تقول ، فإن لكل شىء حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟

---

(١) اللمع : الطوسى ص ٦٠٠ . (٢) الإحياء : الغزالى ٣ / ٢٣ .

(٣) المرجع السابق ٣ / ٢٢ ، ٢٣ .

قال : عزفت نفسى عن الدنيا ، فأسهرت ليلى ، وأظمأت نهارى ، وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزًا ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأنى أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها . « أى يصرخون فيها » .

فقال النبى ﷺ : عرفت يا حارثة فالزم » [١] .

ويبلغ المؤمن درجة الإحسان فى الإيمان بأداء ما عليه من فرائض فرضها الله عليه ، لا يبتغى فى ذلك إلا مرضاته ، فيزداد قربا ، ويرى ربه حقا بالبصيرة ، وكلما تقرب بالنوافل بعد ذلك ، عرف ربه أكثر ، والصحابى الجليل حارثة رضي الله عنه ، عفت نفسه عن الدنيا وشهواتها ، فكان ليله قائما ، ونهاره صائما ، حتى رأى عرش ربه ورأى أهل الجنة وأهل النار بعين بصيرته ، لأنه تقرب بالنوافل بعد أن أدى ما عليه من فرائض ، وكلاهما أحب الأعمال، التى يتقرب بها العبد إلى ربه يقول الله عز وجل فى حديث قدسى عن رسول الله ﷺ :

« ما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى عليها ، ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه » [٢] .

طاعة الله ورسوله هى أساس محبة الله ، فأعظم القربات التى ينال بها المؤمن محبته هى أداء ما فرضه الله عليه . واتباع ما أمر به نبيه الكريم قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ ﴾ [٣] ، ﴿ يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ [٤] .

ومحبة الله لا يحظى بها إلا من آمن به ، وأخلص قلبه إليه ، أما الدنيا

---

(١) رواه الطبرانى ، ورواه البزار عن أنس رضى الله عنه ، وقيل سنده ضعيف .

(٢) رواه البخارى ، والإمام أحمد بن حنبل والطبرانى وغيرهم وجاء فى الإحياء : للغزالى فى أكثر من موطن ٤ / ٢٩٨ .

(٣) آل عمران : ٣١ .　　　　(٤) البقرة : ١٦٥ .

فقد يعطيها الله للكافر والفاجر ، وقد يمنحها للمؤمن والمحسن ، وهى قاسم مشترك برحمته ، ولولا ذلك ما سقى الكافر منها شربة ماء يقول الرسول ﷺ .

« إن الله تعالى يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الإيمان إلا من يحب » (١) .

وإذا ما تقرب العبد بالنوافل فقام الليل ، وصام النهار ، وقرأ القرآن وتخلق بآدابه ، وتصدق بماله للفقراء والمساكين ، وفى وجوه الخير ، وأطعم الطعام ، وأفشى السلام ، وأحب أخاه لله وفى الله ، وكظم الغيظ ، وعفا عند المقدرة ، واستحيا من الله حق الحياء ، فحفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى ، وذكر الموت والبلى ، وكان سمحا إذا باع ، سهلا إذا اشترى يتعامل بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، طلق الوجه ، واسع الصدر ، عذب اللسان ، يعود المريض ، ويستر على المعيب، ويفرج كربة أخيه ، ويكرم ضيفه ، ويحفظ جاره ، وغير ذلك من النوافل التى جاء بها الرسول الكريم ، فإذا ما اكتملت فيه هذه الصفات كشف الله عن بصيرته وأصبح من أهل رحمته ، ورضى عنه ، قال ﷺ لابن عباس : اعمل لله باليقين فى الرضا ، فإن لم يكن فإن فى الصبر خيرًا كثيرًا ، وقال أيضا : من خير ما أعطى الرجل الرضا بما قسم الله تعالى له (٢) فإن رضى الله تعالى عنه أحبه ، وقد يبتليه ليختبر محبته وصدق إيمانه ، قال ﷺ .

« إذا أحب الله عبدًا ابتلاه ، فإذا أحبه الحب البالغ اقتناه ؟ قال : لم يترك له أهلا ولا ولدا » وقال أيضا : إذا أحب الله عبدًا ابتلاه ، فإن صبر اجتباه ، وإن رضى اصطفاه » (٣) .

وإذا أحب الله العبد واصطفاه ، صار العبد يمشى بنور الله : ﴿ **وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ** ﴾ فإن أبصر بعينيه فيما حوله لا يرى فى

(١) رواه الحاكم والبيهقى .

(٢) عوارف المعارف : السهروردى هامش الإحياء ٤ / ٣٢٠ .

(٣) روى الأول الطبرى والثانى صاحب الفردوس .

المخلوقات إلا الخالق سبحانه وتعالى ؛ فإذا سمع صوتا ينادى لا يكون إلا من مخلوق يدل على عظمة الله ولسان يوحده ، وإذا أحس بقلبه يخفق يرى فى نبضاته الشوق إلى الله ، وإذا بطش بيديه رأى قدرة الله وعجيب صنعه فى مخلوقاته ، وإذا مشى على رجليه : إنما يمشى فى سبيل الله وابتغاء مرضاته وهو فى كل أحواله موصول الذكر بربه ، مأخوذ بجلاله، ومن كان هذا حاله وتلك صفته ، إن استعاذ بالله أعاذه وحفظه ، وإن ناجاه وجده فى قلبه ورآه فى نفسه ، وإن دعاه استجاب دعاءه ، ولبى نداءه : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (١) : « رب أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره » (٢) وهذا هو معنى الحديث القدسى ، فتعالى الله عن المحسوسات والمدركات وتنزه عن المقامات والأحوال : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ ، وصدق رسول الله ﷺ :

إذا أحب الله عبدًا جعل له واعظا من نفسه ، وزاجرًا من قلبه يأمره ، وينهاه ويقول أيضًا : إذا أراد الله بعبد خيرًا بصره بعيوب نفسه (٣) .

ويقول أيضًا : من تواضع لله رفعه ؛ ومن تكبر وضعه الله ؛ ومن أكثر ذكر الله أحبه الله (٤) .

وطاعة الله ومحبة رسوله الكريم ، والعمل بما جاء به من التشريع الإسلامى الحنيف والتخلق بالنوافل والسنن ، هى أساس الإيمان بالله والتعرف عليه سبحانه وتعالى . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

* * *

---

(١) البقرة : آية : ١٨٦ .

(٢) الإحياء : الغزالى ٤ / ٣٤٧ .

(٣) الإحياء : الغزالى ٤ / ٣٢٠ .

(٤) رواه ابن ماجه والإمام أحمد فى مسنده .

(٨)

الصحابة رضوان الله عليهم :

والصحابة رضي الله عنهم هم : ﴿ **مِنَ المؤمنينَ رجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيه فَمنهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمنهُمْ مَن يَنْتَظرْ** ﴾ [(١)]، ﴿ **مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله وَالَّذينَ معَهُ أَشدَّاءُ عَلَى الكُفَّار رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً منَ الله وَرِضْوَانًا سيمَاهُمْ فِي وُجُوههم منْ أَثَر السُّجُود ، ذَلكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاة وَمَثَلُهُمْ فِي الإنْجيل كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقه يُعْجب الزُّرَّاعَ ليَغيظَ بهمُ الكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذينَ آمَنُوا وَعَملُوا الصَّالحَات منْهُمْ مَغْفرَةً وَأَجْرًا عَظيمًا** ﴾ [(٢)] .

ويقول الرسول ﷺ « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم »

ويقول أيضًا : من صحب النبى ﷺ أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه ، وقال أيضًا : لا تسبوا أصحابى فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه [(٣)] .

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه : عن النبى ﷺ قال : خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم [(٤)] .

وقال تعالى : ﴿ **وَالسَّابقُونَ الأَوَّلُونَ منَ المهَاجرينَ وَالأَنْصَار الَّذينَ اتَّبَعُوهُمْ بإحْسَانٍ رَضيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ** ﴾ [(٥)] .

وروى عن النبى ﷺ أنه قال : أرحم أمتى بأمتى أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، وأقواهم فى دين الله عمر رضي الله عنه ، وأصدقهم حياء عثمان رضي الله عنه ، وأفرضهم زيد رضي الله عنه ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل رضي الله عنه ، وأقرأهم

---

(١) الأحزاب : ٢٣ . (٢) الفتح ٢٩ .

(٣) الجامع الصحيح : الزبيدى وغيره .

(٤) رواه البخارى فى كتاب الأيمان والنذور ، وفى كتاب الشهادات .

(٥) التوبة : ١٠٠ .

أبى بن كعب رضي الله عنه ، وأقضاهم على رضي الله عنه ، وما أظلت الخضراء ، ولا أقلت الغبراء على ذى لهجة أصدق من أبى ذر رضي الله عنه »[1] .

وهم خير من عرفوا الله وآمنوا به ، بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأفضل خلق الله بعد نبيهم الكريم، وخير من عملوا للآخرة، وعرفوا الله حق المعرفة ، وأحبوه حبًّا ابتغاء مرضاته ، وتسارعوا إلى لقائه وتمنوا الشهادة فى سبيله ، ورفعوا راية الإسلام خفاقة فى كل البقاع، وصاروا مع الرسول الكريم ، مهاجرين تاركين أموالهم وديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، وأنصار يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، وزهدوا فى الدنيا فبذلوا كل ما يملكون من مال ومتاع ، وبذلوا أرواحهم ودماءهم فى سبيل نصرة العقيدة ، كل ذلك وأكثر من ذلك قاموا به خير قيام ابتغاء مرضاة الله ، ومحبة لرسوله ، فكانوا خير قدوة للمؤمنين العارفين ، وخير سلف للتابعين الواصلين ، فاستحقوا فى الدنيا كل ثناء من الله عز وجل ومن الرسول الكريم ، وأعلى الدرجات فى الجنات يوم القيامة مع نبيهم صلى الله عليه وسلم : حيث قال لأحد أصحابه وكلهم أصحابه بعد أن أعلن صراحة عن حبه له : ستكون مع من أحببت ، وكلهم يحبون رسول الله .

* * *

(١) رواه الإمام أحمد والترمذى والطبرانى ، اللمع : الطوسى ص ١٦٧ .

أبو بكر الصديق

خليفة رسول الله ﷺ الأول هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه [1] ، الذى ضحى بنفسه وماله وولده فى سبيل الله ، محبة لرسول الله ؛ فاتخذه الله صاحبًا لحبيبه يوم الهجرة إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، وضع جميع ماله أمام الرسول لتجهيز غزوة من الغزوات ؛ فقال له ماذا أبقيت لأبنائك ؛ فضحك أبو بكر وقال أبقيت لهم الله ورسوله ؛ وحين اضطربت قلوب الصحابة بموت رسول الله ﷺ وخشوا على ذهاب الإسلام بموته ﷺ ، وخروجه من بين ظهرانيهم ، فقال : من كان يعبد منكم محمدًا ﷺ فقد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت [2] .

وكان لأبى بكر غلام مملوك يغل عليه ، فأتاه ليلة بطعام؛ فتناول منه لقمة ، فقال له المملوك مالك كنت تسألنى كل ليلة، ولم تسألنى الليلة ، قال : حملنى على ذلك الجوع من أين جئت بهذا ؟ قال : مررت بقوم فى الجاهلية فرقيت لهم فوعدونى ، فلما أن كان اليوم مررت بهم ، فإذا عرس لهم فأعطونى ، فقال : أف لك كدت تهلكنى ، فأدخل يده فى حلقه فجعل يتقيأ ، وجعلت لا تخرج ، فقيل له : إن هذه لا تخرج إلا بالماء ، فدعا بعس من ماء فجعل يشرب ويتقيأ ، حتى رمى بها ، فقيل له : يرحمك الله ، كل هذا من أجل هذه اللقمة ، فقال لو لم تخرج إلا مع نفسى لأخرجتها ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به ، فخشيت أن ينبت شىء من جسدى من هذه اللقمة [3] .

وكان يقول : ما اشتهيت طعامًا إلا منعت نفسى منه ، فلا يتلف النفوس

---

(١) هو عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تميم بن مرة ابن كعب بن لؤى ويسمى عتيق لجمال وجه أو لعتقه من النار ، وصديق لأنه صدق ما جاء به الرسول الكريم وأبو بكر لتبكيره بالإسلام .

(٢) اللمع : الطوسى ١٦٩ .

(٣) صفة الصفوة : عبد الرحمن بن الجوزى م ٥٩٧ - ١ / ٩٥ مطبعة دائرة المعارف العثمانية ١٣٥٥ هـ .

إلا الشهوات، وكان يبيت على الطوى راضيًا قائلا : فى العبادة غنى لمن يريد ، وحين يتعبد لربه تشم منه رائحة الكبد المحترق من خشية الله ، قال أبو بكر ﷺ : لو نادى مناد من السماء ، أنه لن يلج الجنة إلا رجل واحد لرجوت أن أكون أنا ، ولو نادى منادٍ من السماء أنه لا يدخل النار إلا رجل واحد لخفت أن أكون أنا » قال : مطرف بن عبد الله رحمه الله : هذا والله أعظم الخوف ، وأعظم الرجاء (١) .

وعلى الرغم من الزاد الذى أعده للقاء ربه كان يقله فى جانب الله حتى قال عنه النبى ﷺ : لو وزن إيمان الأمة بإيمان أبى بكر لرجح إيمان أبى بكر وقال أيضًا : أبو بكر كالغيث ، أينما وقع نفع ، وهو الذى سلم عليه ربه على لسان جبريل عليه السلام إذ قال لرسول الله ﷺ · ربك يقرئك السلام ، ويقول لك : بلغ أبا بكر من ربه السلام وقل له : ربك راض عنك ، أأنت راض عنه فى فقرك هذا أم ساخط ، فقال أبو بكر · أسخط على ربى ؟ أنا عن ربى راض وكيف لا أرضى ؟ وأنا أتمنى رضاه ، والذى بعثك بالحق يا رسول الله إنى أخشى مكر الله ولو كانت إحدى قدماى فى الجنة (٢) .

وهو الذى وقف بثبات المؤمن فى غزوة بدر الكبرى ورسول الله ﷺ يقول : اللهم إن تهلك هذه العصابة لم تعبد فى الأرض ، فقال أبو بكر ﷺ : دع مناشدتك ربك ، فإن الله منجز لك ما وعدك ، أو كما قال : ﴿ **إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى الملاَئكَة أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذينَ آمَنُوا سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ واضربوا مَنهم كل بنان** ﴾ (٣) .

وحين دخل عليه سلمان الفارسى يعوده فى مرضه ﷺ فقال يا أبا بكر أوصنا ، فقال : إن الله فاتح عليكم الدنيا فلا تأخذن منها إلا بلاغك واعلم أن من صلى صلاة الصبح فهو فى ذمة الله ، فلا تحقرن الله فى ذمته ، فيكبك فى النار على وجهك (٤) .

---

(١) اللمع : الطوسى١٦٨ ·
(٢) صفوة الصفوة : الجوزى ١/ ٩٤ ١
(٣) سورة الأنفال : آية ١٢
(٤) الإحياء : الغزالى ٤ / ٤٦١ ·

ويوم أن بايعه المسلمون خليفة ، خطب فيهم بعد أن حمد الله وأثنى عليه قائلا : « أيها الناس إنى وليت عليكم؛ ولست بخيركم؛ ولكن قد نزل القرآن وسن النبى ﷺ السنن فعلمنا ، اعلموا أن أكيس الكيس التقوى ، وأن أحمق الحمق الفجور ، إن أقواكم عندى الضعيف، حتى آخذ له بحقه ، وإن أضعفكم عندى القوى حتى آخذ منه الحق ، أيها الناس إنما أنا متبع، ولست بمبتدع ؛ فإن أحسنت فأعينونى ، وإن زغت فقومونى » [1] وقال :

أوصيكم بتقوى الله ، وأن تثنوا عليه بما هو أهله ، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة ، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة .. اعلموا عباد الله أن الله قد ارتهن بحقه أنفسكم ، وأخذ على ذلك مواثيقكم ، واشترى منكم القليل الفانى بالكثير الباقى، وهذا كتاب من الله فيكم ، لا تفنى عجائبه ، ولا يطفأ نوره ، فصدقوا قوله ، وانتصحوا كتابه ، واستضيئوا منه يوم القيامة ، وإنما خلقكم لعبادته ، ووكل بكم الكرام الكاتبين يعلمون ما تفعلون، ثم اعلموا عباد الله أنكم تغدون وتروحون فى أجل قد غيب عنكم علمه ، وإن استطعتم أن تنقضى الآجال وأنتم فى عمل الله فافعلوا ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله [2] .

وفى شعر نسب إليه يقول فى ذم الدنيا والترفع عن زينتها :

يا مَنْ تَرَفَّعُ بالدنْيـا وزينَتِهـا ليس الترفُّعُ رَفْعَ الطِّينِ بالطِّـينِ
إذا أَردْتَ شـريفَ الناسِ كلِّهمُ فانْظرْ إلى مَلكٍ فى زِيِّ مسكين
ذاك الذى عَظُمتْ فى الناس رأفتهُ وذاك يصلح للدنيـا وللدين [3]

* * *

(١) عيون الأخبار : ابن قتيبة ٢ / ٢٣٤ .

(٢) عيون الأخبار : ابن قتيبة م ٢٧٦ ـ - ٢ / ٢٣٢ ، المؤسسة العامة .

(٣) اللمع : الطوسى ١٧٢

عمر بن الخطاب

وعمر بن الخطاب ﷺ [٢] الخليفة الثانى والفاروق الذى فرق الله به بين الحق والباطل ، فأعز به الإسلام ، وكان يحاسب نفسه ويقول : ماذا تقول لربك يا عمر ؟ لقد كنت ضالا فهداك الله وكنت ذليلا فأعزك الله ، وكنت وضيعا فرفعك الله ، وكان الشيطان يفر منه، روى سعد بن أبى وقاص ﷺ عن النبى ﷺ قال : والذى نفسى بيده ، ما لقيك الشيطان قط سالكا فجًّا إلا سلك فجا غير فجك [١] .

وقال له النبى ﷺ : لو عذبنا الله لم ينج منا إلا أنت يا عمر ، وكان يخطب ذات مرة فصاح ، وقال فى وسط خطبته : يا سارية الجبل ، الجبل ، وسارية فى عسكر على باب نهاوند ، فسمع صوت عمر ﷺ ، وأخذ نحو الجبل وظفر بالعدو .

وقيل لسارية : كيف علمت ذلك ؟ فقال سمعت صوت عمر ﷺ ، يقول يا ساريةُ الجبلَ الجبلَ [٢] .

ووافقه القرآن فى مسائل كثيرة فى أمر أسرى بدر ، وفى غيرها فعن أنس قال : قال عمر بن الخطاب ﷺ وافقت ربى عز وجل فى ثلاث ، قلت يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى ، فنزلت ﴿ **وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى** ﴾ وقلت يا رسول الله : إن نساءك يدخلنَ عليهن البر والفاجر ، فلو أمرتهن أن يحتجبن فنزلت آية الحجاب ، واجتمع على رسول الله ﷺ نساؤه فى الغيرة ، فقلت عسى ربى إن طلقكن أن يبدله أزواجا خير منكن فنزلت كذلك [٣] .

وحين يتمنى عمر ﷺ ما يحبه لا تخدعه الحياة؛ فلا يرجو أملا فى

---

(١) ابن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤى .

(٢) صفة الصفوة : ابن الجوزى ١ / ١٠٥ .

(٣) صفوة الصفوة : ابن الجوزى ١ / ١٠٤ .

(٤) اللمع : الطوسى ١٧٣

حياته ولا يبتغى متاعا فيها ، لكن أمنيته أن تمتلىء قلوب المسلمين بالحب فى الله مثل سالم مولى أبى حذيفة، وأن يكونوا مثل أبى عبيدة فى أمانته وإيمانه : مرّ عمر ابن الخطاب بقوم يتمنون فلما رأوه سكتوا ، قال : فيم كنتم ؟ قالوا كنا نتمنى، قال : فتمنوا وأنا أتمنى معكم ، قالوا : فتمن . قال : أتمنى رجالا ملء هذا البيت مثل أبى عبيدة الجراح وسالم مولى أبى حذيفة ، إن سالما كان شديد الحب لله ، لو لم يخف الله ما عصاه ، وقال رسول الله ﷺ : لكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح [(١)] .

وكان زاهدا فى الحياة ، شديد القسوة على نفسه ، يعيش فى شظف من العيش دون الرعية فى مطعمه ومشربه ، يلبس الثوب المرقع ، وينام على الغليظ الخشن وهو أمير المؤمنين ؛ فعن مصعب بن سعد قال : قالت حفصة لعمر يا أمير المؤمنين لو اكتسيت ثوبا هو ألين من ثوبك ، وأكلت طعاما هو أطيب من طعامك ، فقد وسع الله من الرزق ، وأكثر من الخير ، فقال : إنى سأخاصمك إلى نفسك ، أما كُنتِ تذكرين ما كان رسول الله ﷺ يلقى من شدة العيش وكذلك أبو بكر فما زال يذكرها حتى أبكاها ، أما والله لأشاركهما فى مثل عيشهما الشديد لعلى أدرك عيشهما الرخى [(٢)] .

* * *

---

(١) البيان والتبيين : الجاحظ ٣ / ٤٦١ .

(٢) صفة الصفوة : ابن الجوزى ١ / ١٠٨ .

عثمان بن عفان

وأما أبو عبد الله عثمان بن عفان ﷺ [1] فكان يصوم الدهر ، ويقوم الليل إلا هجعة من أوله ، ويحيى الليل كله بالقرآن ، قالت امرأة عثمان بن عفان حين طافوا يريدون قتله ، إن تقتلوه أو تتركوه ، فإنه يحيى الليل كله فى ركعة بجميع القرآن [2] .

وهو الذى جند نفسه وماله وتجارته لنصرة الإسلام ، إذ كان يجهز الجيش الإسلامى ، فقد جهز نصف جيش العسرة ، قال عبد الرحمن بن خباب السلمى : خطب النبى ﷺ ، فحث على جيش العسرة ، فقال عثمان علىَّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها ، ثم حث فقال عثمان : على مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها ، ثم نزل مرقاة من المنبر ، ثم حث فقال عثمان : على مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها ، فرأيت النبى ﷺ يقول : ما على عثمان من عمل بعد هذا [3] .

وحين اشتدت المسغبة فى أهل المدينة جاءت تجارته الموفورة ، فتزايد التجار فيها وهو يرفض ويقول قد أعطيت أكثر من هذا وهم يتعجبون من قوله إذ لا يوجد غيرهم فى المدينة ثم ألحوا فى طلب التجارة بثمن أعلى ، فقال لهم لقد أعطانى الله بكل حسنة عشر أمثالها . ودفعه إلى الرسول الكريم ليقسمه بين المسلمين جميعًا ، وهو الذى اشترى بئر رومة ، وأخمد الفتنة التى دبرها اليهود والمنافقون للإيقاع بين المسلمين فاشتراها ، وأباحها للمسلمين وابن السبيل ، وروى عن عثمان أنه قال : لولا أنى خشيت أن يكون فى الإسلام ثلمة أسدها بهذا المال ما جمعته [4] .

* * *

(١) ابن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، سمى : ذى النورين لجمعه بين بنتي رسول الله ﷺ .

(٢) صفة الصفوة : ابن الجوزى ١ / ١١٦ . (٣) رواه الإمام أحمد فى مسنده.

(٤) اللمع : الطوسى ١٧٦ .

على بن أبى طالب رضي الله عنه :

وأما أبو الحسن على بن أبى طالب رضي الله عنه [1] فقد فتح الله على يديه خيبر وأعطاه الرسول الكريم الراية بعد أن تفل فى عينيه فبرئت كأن لم يصبها وجع ·

روى سهل بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم الخيبر : لأعطين هذه الراية غدًا رجلاً يفتح الله عليه ، يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، قال : فبات الناس يذكرون أيهم يعطاها · فقال : أين على بن أبى طالب ، فقيل يا رسول الله يشتكى عينيه ، قال : فأرسلوا إليه ، فأتى به فبصق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عينيه ، ودعا له فبرئ حتى كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية فقال على : - عليه السلام - يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ، فقال أنفذ على رسلك ، حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فوالله لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم [2] .

وكان على علم غزير بالشريعة ، وبحقيقة الإيمان والمعرفة ، حكيم فى قوله ، مصيب فى حكمه ، قال سعيد بن المسيب : كان عمر يتعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو حسن ؛ دخل على بن أبى طالب كرم الله تعالى وجهه المقابر فقال : أما المنازل فقد سكنت ، وأما الأموال فقد قسمت ، وأما الأزواج فقد نكحت ، فهذا خبر ما عندنا ، فما خبر ما عندكم ؟ ثم قال : والذى نفسى بيده لو أذن لهم فى الكلام لأخبروا أن خير الزاد التقوى [3] ·

وقيل لأمير المؤمنين رضي الله عنه من أسلم الناس من سائر العيوب ؟ قال من جعل عقله أميره ، وحذره وزيره ، والموعظة زمامه ، والصبر قائده ، والاعتصام بالتقوى ظهيره ، وخوف الله جليسه ، وذكر الموت والبلى أنيسه ·

ويقول عن الإيمان : ما حكاه عنه عمرو بن هند قال : سمعت عليًّا رضي الله عنه يقول : الإيمان يبدو لمظة بيضاء فى القلب ، فكلما ازداد الإيمان ازداد القلب

(١) عبد مناف بن عبد المطلب ، أسلم صبيا وحضر المشاهد كلها ما عدا تبوك ·

(٢) رواه الإمام أحمد فى سنده · (٣) البيان والتبين : الجاحظ ٣ / ٤٦٤ ·

بياضًا ، فإذا استكمل الإيمان ابيض القلب ؟ وإن النفاق يبدو لمظة سوداء فى القلب ، فكلما ازداد النفاق ازداد القلب سوادًا ، فإذا استكمل النفاق اسود القلب [1] .

وحين يتحدث الإمام على ﷺ عن الزهد ، والزهاد ، يصدر حديثه عن تجربة ، ويصوره بصدق المعاناة والمجاهدة ، فكان زهده فى الحياة عن حب لله ورغبة فى محبته ، يشكر الله فيما أنعم عليه ، ويقصر الأمل فيما ليس تحت يديه ، ويصبر على الحرام ، ويبغى الحلال يقول فى الزهاد :

أيها الناس الزهادة قصر الأمل ، والشكر على النعم ، والورع عند المحارم فإن عزب ذلك عنكم ، فلا يغلب الحرام صبركم ، ولا تنسوا عند النعم شكركم؛ فقد أعذر الله إليكم بحجج مسفرة ظاهرة ، وكتب بارزة العــذر واضحة [2] .

فهو يعرض عن الدنيا ، وعلى حذر دائم منها ، فكم أفجعت آمنًا ، وأدبرت عن آمل ، سرورها ممزوج بالحزن ، تضحك وهى تضمر الكيد ، يشيب منها الولدان ويضعف أمامها الأبطال ، فلا ينجو منها إلا كل معتبر ، ولا يسلم فيها إلا كل من صبر على المكاره يقول الإمام فى التزهيد :

انظروا إلى الدنيا نظر الزاهدين فيها ، الصادفين عنها ، فإنها عما قليل تزيل الثاوى الساكن ، وتفجع المترف الآمن ... سرورها مشوب بالحزن ، وجلد الرجال فيها إلى الضعف والوهن ، فلا يغرنكم كثرة ما يعجبكم فيها ؛ لقلة ما يصحبكم منها ، ورحم الله امرأ تفكر فاعتبر ، واعتبر فأبصر ، فكان ما هو كائن من الدنيا عن قليل لم يكن، وكان ما هو كائن من الآخرة عما قليل لم يزل ، وكل معدود منقض ، وكل متوقع آت وكل آت ،قريب دان [3] .

---

(١) اللمع : الطوسى ١٨٠ .

(٢) نهج البلاغة : الشريف الرضى تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد الاستقامة القاهرة ١ / ١٢٦ .

(٣) المرجع السابق ١ / ١٩٧

ويقول أيضاً فى صفة الزهاد : كانوا قومًا من أهل الدنيا ، وليسوا من أهلها ، فكانوا فيها كمن ليس منها · عملوا فيها بما يبصرون ، وبادروا فيها ما يحذرون ، تقلب أبدانهم ظهرانى أهل الآخرة ، يرون أهل الدنيا، يعظمون موت أجسادهم ، وهم أشد إعظاما لموت قلوب أحيائهم (١) .

* * *

أبو ذر الغفارى ﷺ :

واشتهر أبو ذر الغفارى (٢) بعزوفه عن الدنيا ، وزهده فيها ، فقد كان يتعبد لله قبل بعثة الرسول ﷺ ، روى عبد الله بن عمر ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما أقلت الغبراء ، ولا أظلت الخضراء من رجل أصدق من أبى ذر (٣) .

وبلغ فى الزهد أنه ﷺ فضل الفقر على الغنى ، والسقم على الصحة، والموت على الحياة ، بعث حبيب بن مسلمة أمير الشام إلى أبى ذر بثلاث مائة دينار وقال : استعن بها على حاجتك ، فقال أبو ذر : ارجع بها إليه ، أو ما وجد أحدًا أغر بالله عز وجل منا ، ما لنا إلا ظل نتوارى به ، وثلة من غنم تروح علينا ، ومولاة تصدقت علينا بخدمتها ، ثم إنى لأتخوف الفضل ، وقال: لقد أصبحت وأن الفقر أحب إلىَّ من الغنى ، والسقم أحب إلىَّ من الصحة ، والموت أحب إلى من الحياة (٤) .

وبعزوفه عن الدنيا أصبح لا يرى غير الله ، ولا يشعر بأحد سواه ، فاختلى مع الله وحده ، دون الأصدقاء ، فضعف جسمه لتسمو روحه ، وخلا بيته يقينًا فى ثواب ربه يقول :

إن قيامى بالحق لله تعالى لم يترك لى صديقًا ، وإن خوفى من يوم الحساب ما ترك على بدنى لحمًا ، وإن يقينى بثواب الله تعالى ما ترك فى بيتى شيئًا (٥) .

(١) المرجع السابق ٢ / ٢٥٢ .

(٢) أبو ذر جندب بن جنادة من غفار (٣)صفة الصفوة : ابن الجوزى ١/ ٢٤٠ .

(٤) البيان والتبيين : الجاحظ ٣ / ٤٦٢ . (٥) اللمع : الطوسى ١٨٦ .

قام أبو ذر الغفارى عند الكعبة فقال : أيها الناس أنا جندب الغفارى هلموا إلى الأخ الناصح الشفيق ، فاكتنفه الناس ، فقال أرأيتم لو أن أحدكم أراد سفرًا ؟ أليس يتخذ من الزاد ما يصلحه ويبلغه ؟ قالوا بلى ، قال : فإن سفر طريق القيامة أبعد ما تريدون : فخذوا ما يصلحكم ، قالوا : وما يصلحنا، قال : حجوا حجة لعظائم الأمور وصوموا يومًا شديدًا حره لطول النشور ، وصلوا ركعتين فى سواد الليل لوحشة القبور ، كلمة خير تقولها ، أو كلمة شر تسكت عنها ؛ لوقوف يوم عظيم تصدق بمالك ، لعلك تنجو من عسيرها ، اجعل الدنيا مجلسين : مجلسا فى طلب الحلال، ومجلسا فى طلب الآخرة ، الثالث يضرك ولا ينفعك لا ترده ، اجعل المال درهمين : درهما تنفقه على عيالك من خله ، ودرهما تقدمه لآخرتك ، الثالث يضرك ولا ينفعك لا ترده، ثم نادى بأعلى صوته أيها الناس،قد قتلكم حرص لا تدركونه أبدًا (١) .

* * *

حذيفة بن اليمان رضي الله عنه :

وأدرك حذيفة بن اليمان رضي الله عنه(٢) أن الخير ظاهر لكل الناس لا يخفى على أحد ، أما الشر فقد يخفى على الكثير، ويلتبس الأمر فيه ،لذلك انصرف يسأل عنه دون الخير ، وأخذ يدرس الشر والأشرار قال حذيفة:كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير،وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركنى(٣).

ولذلك عرف المنافقين ووقف عليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأطلعه النبى على أسرار أخرى حتى « كان موضع سر رسول الله فى المنافقين لم يعلمهم أحد إلا حذيفة (٤) ، فكان عمر بن الخطاب يأخذ برأيه فى اختيار رجاله

(١) صفة الصفوة : ابن الجوزى ١ / ٢٤١ .

(٢) حذيفة بن حسل أو حسيل بن جابر بن عمرو العبعى ، سمى باليمان لاحتمائه بالأنصار وهم من اليمن : أُســـد الغابة فى معرفة الصحـــابة : ابن الأثير ١ / ٣٩٠ .

(٣) صفة الصفوة : ابن الجوزى ١ / ٢٤٩ .

(٤) أسد الغابة فى معرفة الصحابة : ابن الأثير ٢ / ١٦

خشية المنافقين، وإذا مات ميت يسأل عن حذيفة؛ فإذا حضر الصلاة عليه حضر عمر ، وإذا لم يحضر حذيفة لم يحضر عمر ، وسأله يوما أفى عمالى أحد من المنافقين قال حذيفة : نعم واحد. قال عمر من هو ؟ قال حذيفة : لا أذكره، قال حذيفة : فعرفه عمر فكأن دل عليه [١] .

وقال فيه رسول الله ﷺ فى غزوة الأحزاب : ألا رجل يأتينى بخبر القوم جعله الله معى يوم القيامة . وأعادها ثلاثا ثم قال . قم يا حذيفة فائتنا بخبر القوم » فلما أتى بخبرهم ونام فى بردة النبى أيقظه وقال له: قم يا نومان[٢] .

واستعمله أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه على المدائن وكتب إليهم ؛ أنى قد بعثت فلانا فأطيعوه ، هذا رجل له شأنه فركبوا ليتلقوه ، فلقوه على بغل تحته أكاف وهو معترض عليه (رجلاه من جانب واحد) فلم يعرفوه ، وأجازوه ، فلقيهم الناس فقالوا : أين الأمير فقال هو الذى لقيتم . . . فركضوا فى أثره فأدركوه وفى يده رغيف وفى الأخرى عرق وهو يأكل ؛ فسلموا عليه وقالوا : سلنا ما شئت ؟ فقال لهم : أسألكم طعاما آكله ، وعلف حمارى ما دمت فيكم . فقام فيهم مدة . . . ثم كتب إليه عمر ليقدم عليه ، فلما بلغ عمر قدومه ، كمن له على الطريق؛ فلما رآه على الحال التى خرج بها من عنده أتاه فالتزمه ، وقال له : أنت أخى وأنا أخوك [٣] .

تذاكر حذيفة وسلمان أمر الدنيا فقال سلمان ومن أعجب ما تذاكرنا صعود غنيمات الغامدى سرير كسرى ، وكان أعرابى من غامد يرعى شويهات له، فإذا كان الليل صيرها إلى عرصة إيوان كسرى وفى العرصة سرير رخام ، كان يجلس عليه كسرى ، فتصعد غنيمات الغامدى إلى ذلك السرير [٤] .

* * *

(١) المرجع السابق ١ / ٣٩١ . (٢) سيرة ابن كثير : ٣ / ٢١٩ .

(٣) أسد الغابة : ابن الأثير ١ /٣٥٢ ، صفة الصفوة : ابن الجوزى ١/ ٢٤٩ .

(٤) عيون الأخبار ، ابن قتيبة ٢ / ٣٧١ ، البيان والتبيين : الجاحظ ٣ / ٤٦٠.

أهل الصفة :

وأما أهل الصفة رضي الله عنهم أجمعين هم أصحاب رسول الله ﷺ الذين بنى لهم صفة فى مسجدة ، كان يأوى إليها من ليس له دار من المهاجرين والأنصار روى عن طلحة رضي الله عنه أنه قال : كان الرجل إذا قدم المدينة ، وكان له بها عريف ينزل على عريفه ، فإن لم يكن له بها عريف نزل الصفة ، وكنت فيمن نزل الصفة (١) .

وهم الذين زهدوا فى الحياة الدنيا، وأخلصوا عمرهم فى العبادة والقراءة والجهاد فى سبيل الله ، فأصبحوا إخوانا فى الله « ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين » لأن مثار الغل والحقد حب الدنيا ، وحب الدنيا رأس كل خطيئة ، وأهل الصفة عفوا عن الدنيا وزهدوا فى مطايبها ، قال عبد الله بن طلحة : صحبنا جماعة أهل الصفة يوما فقلنا : يا رسول الله أحرق بطوننا التمر ، وحرمت علينا الجيفة ، فسمع ذلك رسول الله ﷺ ، فصعد المنبر ثم قال : « ما بال أقوام يضحون ويقولون أحرقت بطوننا التمر أما علمتم أن هذا التمر إنما هو طعام أهل المدينة ، قد واسونا به ، فواسيناكم مما واسونا به ، والذى نفس محمد بيده ، أن منذ شهر أو شهرين لم ترتفع من بيت رسول الله دخان للخبز ، وليس لهم غير الأسودين التمر والماء (٢) .

وفى هذا يعتذر الرسول إليهم بأن حاله كحالهم فالطعام واحد،ولا يقصد بهذا رد شكايتهم ، وإنكار ما قالوه ، وقال لهم يبشرهم بحسن الصحبة فى الدنيا والرفقة فى الجنة أبشروا يا أصحاب الصفة ، فمن بقى منكم على النعت الذى أقمتم عليه اليوم راضيا بما هو فيه ، فإنه من رفقائى يوم القيامة ، وكيف لا ؟ وقد أنزل فيهم قرآنا قال تعالى : ﴿ **وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ، مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾(٣) . وعاتب الله نبيه فى سورة « عبس » من أجل عبد الله

---

(١) عوارف المعارف : السهروردى ٢ / ٧١ ، ٧٢ .

(٢) اللمع : الطوسى ١٨٤ . (٣) الأنعام : ٥٢ .

بن أم مكتوم وكان من أهل الصفة فى قوله تعالى : ﴿ **عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى** ﴾ فكان إذا رآه ﷺ بعد ذلك يقول : « يا من عاتبنى فيه ربى عز وجل » .

مر رسول الله ﷺ برجل يقرأ سورة الكهف ، فلما رأى النبى ﷺ سكت ، فقال النبى ﷺ : هذا المجلس الذى أمرت أن أصبر نفسى معهم وقال أيضًا : لأن أجالس قومًا يذكرون الله من صلاة الغداة إلى طلوع الشمس، أحب إلىَّ مما طلعت عليه الشمس ، ولأن أذكر الله من صلاة العصر إلى غروب الشمس أحب إلى من أن أعتق ثمانية من ولد إسماعيل دية كل واحد منهم اثنا عشر ألفاً (١) .

وأهل الصفة جمع من أصحاب رسول الله بلغ نيفًا وثلاثمائة ، كما جاء فى الخبر لا يرجعون إلى ندع ولا إلى ضرع ، ولا إلى تجارة : قال أبو هريرة ﷺ وكان منهم : رأيت سبعين من أهل الصفة يصلون فى ثوب ، منهم من لا يبلغ ركبتيه ؛ فإذا ركع أحدهم قبض بيديه مخافة أن تبدو عورته (٢) .

ومنهم : أبو ذر ،وسلمان الفارسى ، وحذيفة اليمان ، وعمار ، وصهيب وخباب ، وابن مسعود ؛ وأبو الدرداء ؛ وأبو موسى الأشعرى ، وبلال ، وعبد الله بن عباس ؛ وعثمان بن مظعون ، وعبد الله بن جحش ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وسعد بن أبى وقاص ، والبراء بن مالك ، والحارث ابن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وغيرهم من أصحاب رسول الله ﷺ ، وأصدق أنصاره ؛ المرابطون فى سبيل الله : منهم الجنود ، ورؤساء الوفود ، وقواد الجيوش ، ومعلموا الإسلام ومفسروا القرآن .

ومنهم أبطال الإسلام كخالد بن الوليد وأبو عبيدة وسعد بن أبى وقاص، فضلا عن الصديق أبى بكر ، والفاروق عمر ، وذى النورين عثمـــان . وباب الحكمة على بن أبى طالب وابنه الحسن ثم الحسين (٣) .

---

(١) تفسير القرآن العظيم . ابن كثير ٣ / ٨٠ .

(٢) اللمع : الطوسى .

(٣) دراسات فى التصوف الإسلامى . الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى ١ / ٧٤ .

وكان لأصحاب الرسول ﷺ أدب يصور الجانب الروحى ، تسرى فيه روحية الإسلام ، ويرجع إلى مصدرين أساسيين ؛ هما القرآن الكريم والسنة الشريفة ، ينهلون من معينهما ، ويتأدبون بفيض منهما، فلا تسمع منهم إلا ترتيلا للقرآن وترديدًا لآياته ، فقد وجدوا فيه غناء عن كل قول ، وشغلتهم حلاوته عن ابتداع نظم · لذلك هجر لبيد الشاعر الجاهلى الفحل قول الشعر فى الإسلام ، أو تسمع منهم من يتحدث بأدب الرسول ، ويهذب لسانه ونفسه بأحاديثه الشريفة ، وإذا كان لبعض كبار الصحابة أدب نثرى ، تراه يتمثل بالقرآن والحديث ، ويتآصر بألفاظه ومعانيه ، ويترابط بتعاليمه وحكمه ، ويشتمل على تشريعاته وروحيته السامية ، وهذا اللون من الأدب هو الغالب عندهم ، فالنثر أشد طواعية لاستقبال الدعوات الجديدة من الشعر ·

وهو أقدر على تصوير مراحل الانتقال · وأسرع استجابة لها بينما الشعر يحتاج من الروية والتأنى فى نظمه لكل جديد ، وخاصه أن الإسلام جاء بحياة جديدة وروح جديدة ، تنكر ما تعارف عليه الشعراء من التقاليد الشعرية فى الجاهليه ، لذلك ضعف الشعر ولان فى صدر الإسلام ، وانصرف الناس عنه لانشغالهم بالقرآن ، وانبهارهم بالإسلام ، يقول ابن سلام : فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد ، وغزو فارس والروم ، ولهيت عن الشعر وروايته (١) ·

وما كان من شعر فى هذه الفترة لقلة من الشعراء يتمثل فى الدفاع عن الإسلام ، ومعارضة شعراء الكفر فى مكة ، والحث على الجهاد ، وتصوير معارك المسلمين فى الغزوات ، ورثاء الشهداء فى المعارك ، ومدح النبى ﷺ وأصحابه ﷺ ، وكان الشاعر يسجل فى شعره فضائل الإسلام وخلق القرآن، وتعاليم الحديث النبوى ، التى تأصلت فى نفس الرسول وأصحابه ، واتصفوا بها عن إيمان ، وأخلصوا فيها عن عقيدة ، فتخلقوا بخلق القرآن ، وتأدبوا بأدب رسول الله ، فكان الشعر فى جميع أغراضه وصفًا لجند الإسلام وتسجيلا

(١) طبقات فحول الشعراء : ابن سلام ١٧ ·

لمآثرهم ، وبطولاتهم حتى أطلق عليه البعض شعر التدين [١] . والبعض الآخر شعر المدائح فى مولدها الأول [٢] ، والذى كان أساسًا للمدائح النبوية فى مرحلة متأخرة من مراحل الأدب الصوفى الإسلامى ، ومن أشهر الشعراء شاعر الرسول حسان بن ثابت ، الذى يقول فى فتح مكة منها :

عُدِمْنَا خَيْلَنَا إِنْ لَمْ تَرَوْها ... تُثِيرُ النَّقْعَ مَوْعِدُها كداءُ
يُنازِعْنَ الأَعِنَّةَ مُصْغِيَاتٍ ... عَلَى أكتافِها الأَسَلُ الظِّماءُ
تَظَلُّ جيادُنا متمطِّراتٍ ... يَلْطُمُهنَّ بالخمر النِّساء
فإمَّا تَعْرِضُوا عنَّا اعتمرْنا ... وكانَ الفَتْحُ وانْكَشَفَ الغطَاءُ
وإلاَّ فاصْبِروا لجلاد يَوْمٍ ... يُعِينُ اللهُ فيه مَنْ يَشَاء
وجبريلُ رسولُ اللهِ فينا ... وروحُ القُدُسِ لَيْسَ له كفَاء
وقال اللهُ قد أَرْسَلْتَ عبْدًا ... يقولُ الحقّ إنْ نَفَعَ البَلاءُ
شَهِدْتُ به فَقُومُوا صَدِّقوه ... فَقُلْتُمْ لاَ نَقُومُ ولاَ نَشَاءُ
وقالَ اللهُ قدْ سيَّرْتَ جُنْدًا ... هُمُ الأنصارُ عُرْضَتُها اللِّقاء
لنا فى كل يومٍ منْ مَعَدٍّ ... سِبابٌ أو قِتَالٌ أو هجَاء
فَنُحْكِمُ القوافِيَ فى مَنْ هجَانا ... ونَضْرِبُ حينَ تَخْتَلِفُ الدِّماء
أَلاَ أَبْلِغْ أبا سُفيانَ عَنِّى ... مُغَلْغلةً فَقَدْ بَرِحَ الخَفَاء
بأنْ سيُوفَنَا تَرَكَتْكَ عَبْدًا ... وعبدُ الدارِ سادتُها الإماء
هَجوتَ محمدًا فأَجَبْتُ عنه ... وعند اللهِ فى ذاكَ الجَزاء
أتَهْجوه ولَسْتَ لهُ بِكُفْءٍ ... فَشَرُّكُما لخيرِكُما الفِدَاء
هَجَوْتَ مُبَارَكًا بَرًّا حَنيفًا ... أَمينَ اللهِ شيمَتُهُ الوفاء
أَمَنْ يَهْجُو رسولَ اللهِ منْكم ... ويَمْدَحُهُ وينصرُهُ سَوَاء
فإنَّ أبِى ووَالدَه وعِرْضِى ... لعِرْضِ محمّدٍ منكم وِقَاء
لِسَانِى صارِمٌ لاَ عَيْبَ فيه ... وبَحْرِى لا تُكَدِّرُهُ الدِّلاء [٣]

وحين يمدح أصحاب رسول الله ﷺ الأطهار يمدحهم بالتقوى والسبق

---

(١) التصوف الإسلامى : الدكتور عبد الحكيم حسان ١٤٣ .

(٢) المدائح النبوية : الدكتور زكى مبارك .

(٣) السيرة النبوية : ابن هشام ٢ / ٤٢٣ ، ٤٢٤ .

إلى الإسلام ، والشجاعة ، والعلم ، والحلم، والعفة ، والطاعة ، والرزانة ، والوقار ، والعفو . وسواها من الشيم النبيلة التى سموا بها فى ظلال الإسلام يقول فى عينيته التى يفاخر بها بنى تميم حين فاخر شاعرهم الزبرقان بن بدر الرسول الكريم قال حسان :

إنَّ الذَّوائبَ مِنْ فِهْرٍ وَإخْوتِهمْ   قَدْ بَيَّنُوا سُنَّةً للنَّاسِ تُتْبَع
يَرْضَى بها كلُّ من كانَتَ سريرَتهُ   تَقْوَى الإله وبالأمْرِ الذى شَرَعوا
قومٌ إذا حَاربَوا ضَرُّوا عدوَّهُم   أو حَاولوا النَّفْعَ فى أشْياعهم نَفَعُوا
سَجِيَّةٌ تِلْكَ فِيهم غَيْر مُحْدَثَةٍ   إن الخلائقَ فَاعْلَمْ شرَّها البِدَع

إلى قوله :

أَكْرِمْ بِقَوْمِ رسولِ الله شيعَتَهم   إذا تَفَرَّقْتِ الأهواءُ والشِّيع
أَهْدى لَهم مَدْحِى قَلْبٌ يُؤازِرُه   فيما يُحبُّ لسانٌ حائكٌ صَنَعُ
فإنَّهم أفضلُ الأحياءِ كلِّهمُ   إنْ جَدَّ بالنَاسِ جَدُّ القولِ أوْ سَمَعوا(١)

ويقول كعب بن مالك فى يوم بدر الكبرى :

لَعَمْرُ أبيكُما يا بَنَىْ لُؤَىٍّ   عَلى زَهْوٍ لَدَيْكم وانْتِخاء
لما حَامَتْ فوارسُكم ببدْرٍ   وَلاَ صَبَروا به عند اللقاء
وَرَدْناه بنُــــور الله يَجلُو   دُجَى الظَّلْماءَ عَنَّا والغطَاء
رسول الله يَقدُمُنَا بأَمرٍ   مِنَ أمْرِ الله أَحْكم بالقضاء
فما ظَفَرَتْ فوارسُكم ببدرٍ   وما رَجَعُوا إليكم بالسَّواء
فلا تَعْجَلْ أبا سفيانَ وَارْقُبْ   جيادَ الخَيْلِ تَطْلُعُ من كدَاء
بَنْصرُ اللهُ روحَ القدْسِ فيها   ومِيكالَ فَيَا طِيبَ المَلاء (٢)

وهكذا يمضى شعراء الصدر الأول من الإسلام على هذا النحو من المدح

(١) المرجع السابق ٢ / ٥٦٤ .
(٢) المرجع السابق ٢ / ٥٢٦ .

لرسول الله وأصحابه الأطهار الذين اصطبغوا بصبغة الإسلام فى أسلوب قوى، ولفظ جزل ، وتصوير يرتبط بنظام القصيدة فى العصر الجاهلى من حيث اللفظ والأسلوب والمطلع وتعدد الأغراض ووحدة التصوير ، وقرب المعنى ، ودنو الخيال فى تشبيه مألوف واستعارة قريبة ، وكناية جرت مجرى الأمثال ، اللهم إلا فى القليل النادر من عذوبة اللفظ وسهولته ليس فى كل الأحيان .

أما النثر الأدبى بفنونه المختلفة فقد كان أحسن حظًا من الشعر ، ولم يصل إلينا إلا القليل كالشعر الجاهلى ، ولولا ارتباط النثر بالرسالة الإسلامية وبحديث الرسول الكريم ، وبالصحابة والخلفاء لاندثر وضاع كله ، لأن المسلمين رأوا فى الحفاظ عليه حفظ للإسلام، وحفظ لرجال الإسلام ، ولذلك وصل إلينا الكثير من خطبهم ووصاياهم وحكمهم ووعظهم ، وتفسيرهم ، ورثائهم ، ونثرهم بصفة عامة ، وأدب الصحابة فى ظلال حكم الخلفاء الراشدين يسير فى منهجه وروحه على نحو ما جاء به القرآن الكريم والحديث الشريف من الإحسان فى الإيمان والعمل ابتغاء مرضاة الله ، واتباع نبيهم فيما جاء به ، والاقتداء به فى طاعة الله والتعرف عليه ، مخلصين له الدين وظهر ذلك فى أدبهم الروحى الزاهد ، وحكمهم المأثورة الخالدة ، فصار تراثًا لمن بعدهم وذخرًا لمن تأدب بأدبهم للزهاد فى عصر بنى أمية ، وللصوفية فيما بعد ذلك من عصور، وكتب التصوف الإسلامى حافلة بالقرآن والحديث وبأدب الصحابة وزهدهم ، وحكمهم وخطبهم يستدل بها الصوفية على دعوتهم فى التصوف ، واتجاههم فى أدبهم؛ بأنه مستمد من أصول الكتاب والسنة وأقوال الصحابة ، واتخذ أدب الصحابة الروحى ألوانًا مختلفة وأجناسًا نثرية متعددة منها .

وحين يلبى النثر الأدبى بأنواعه الحياة الإسلامية أسرع من الشعر ، تبدو فيه ملامح السمو الروحى ، وتتشكل منه خصائصه الفنية المتميزة، وتبرز معالم جديدة فى شكله ومضمونه ، فأما الشكل فقد نأى النثر الأدبى كثيرًا عن الكلم الغريب ، واللفظ الوحشى ، والتركيب المعمى ، والأسلوب المحجب ، فكان سهلا عذبا ، قويًا فخما ، رقيقا جزلا ، قريبا إلى الفهم ، دانيا إلى النفس ،

لا يستعصى على النظر ، ولا يكد الخاطر ، أكسب بعض الألفاظ معانى لم تكن له فى العصر الجاهلى ، ونعمت بمصطلحات إسلامية ، كما شرف الإنسان بالسمو الروحى من الدعوة الإسلامية وذلك مثل ألفاظ : الصلاة ، والزكاة ، والحج ، والوضوء ، والإسلام ، والإيمان ، والإحسان فيه ، والزهد ، وسواها كثير . وأما المضمون فقد حفل بما جاء به الإسلام من مبادئ سامية ، وخلق كريم ، وتعاليم سمحة بناءة ، وتشريع سماوى صالح للبشرية ، وسمو روحى يكشف عن أصالة الفطرة فى النفس البشرية ، وحياة جديدة يعرف فيها الإنسان حقيقته أولا ، لكى يعرف ربه ثانيا ، فتكون له السعادة فى الدنيا والآخرة .

لذلك كان للسمو الروحى أثره النابض فى النثر الإسلامى ، وخصائصه الفنية الحية التى تفصح عن الحياة الروحية ، وظهر أثره أيضا فى أنواعه الأدبية، التى تحولت إلى فنون جديدة لبروز الخصائص الإسلامية فيها وغلبتها عليها ، وسنعرض بعضها لنقف على خصائصها الجديدة للاتجاه الروحى الذى جاء به الإسلام .

الخطب فى الحكم والخلافة :

اشتهر الصحابة رضي الله عنهم عامة ، والخلفاء الراشدون منهم خاصة بالخطابة ، فكانوا يخطبون فى المناسبات الدينية، والمحافل الإسلامية ، وعند لقاء الوفود ، وفى توجيه الجيوش ، وإعدادها للغزو الإسلامى ، كما كان القواد أيضًا والخطباء من غيرهم يخطبون فى فرق الجيش، ليذكروهم ويعظونهم ويحضونهم على النصر أو الشهادة ، كما حدث ذلك قبل المعركة الفاصلة بينهم وبين الروم وهى معركة اليرموك ، وكلها تحض المؤمن على التقوى والخوف من الله ، وهجر الآثام والزهد فى الدنيا ، والطمع فى لقاء الله ، والسعادة بنعيمه ، وبذل الروح والمال والولد فى سبيله ، وإعلاء كلمة الله ، والانتصار على النفس قبل الانتصار على العدو ، وسوى ذلك مما نراه فى هذه الخطبة ، التى توضح ما يجب أن يكون عليه الحاكم ، حين يتولى أمر المسلمين ، والدنيا تذوب فى يديه .

قال أبو بكر الصديق ﷺ فى خطبته بعد أن فرغ من الحمد والصلاة على النبى ﷺ .

إن أشقى الناس فى الدنيا والآخرة الملوك ، فرفع الناس رؤوسهم فقال : ما لكم أيها الناس : إنكم لطاعنون عجلون ، إن من الملوك من إذا ملك زهده الله فيما عنده ، ورغبه فيما فى يدى غيره ، وانتقصه شطر أجله ، وأشرب قلبه الإشفاق ، فهو يحسد على القليل ، ويتسخط الكثير ، ويسأم الرخاء ، وتنقطع عنه لذة الباء ، لا يستعمل العبرة، ولا يسكن إلى الثقة، فهو كالدرهم القسى ، والسراب الخادع، جذل الظاهر ، حزين الباطن ، فإذا وجبت نفسه ، ونضب عمره ، وضحى ظله ، حاسبه الله فأشد حسابه ، وأقل عفوه ، ألا إن الفقراء هم المرحومون ، وخير الملوك من آمن بالله، وحكم بكتابه وسنة نبيه ﷺ ، وإنكم اليوم على خلافة النبوة ، ومفرق المحجة ، وسترون بعدى ملكا عضوضًا ، وملكا عنودًا ، وأمة شعاعًا ،ودمًا مفاحًا ،فإن كانت للباطل نزوة ، ولأهل الحق جولة يعفو بها الأثر ، ويموت لها البشر ، فالزموا المساجد، واستشيروا القرآن ، والزموا الطاعة ،ولا تفارقوا الجماعة ، وليكن الإبرام بعد التشاور ، والصفقة بعد طول التناظر ، أى بلادكم خرسة ، إن الله سيفتح عليكم أقصاها ، كما فتح عليكم أدناها (١) .

الجانب الروحى :

فى هذه الخطبة الجامعة وضح الخليفة الأول منازل الملوك فى الدنيا ، وخطورة المسئولية الملقاة على عاتقهم ، فالملك ليس أمرًا سهلا ، والحكم ليس سراحًا مباحًا » وإنما الشقى فى الدنيا والآخرة من لم يتحمل أمانة الإمارة،

(١) البيان والتبيين : الجاحظ ١ / ٢٣٤ ، ٢٣٥ - الاشفاق : التقليل والشعور بالقلة والحرص والميل. الباء : من قولهم بأبى أنت ، أو وسط الشىء والمراد لذة التوسط . الدرهم القسى : الزائف . السراب : ما تراه وقت الظهيرة كأنه ماء . جذل: فرح ، نضب: جف والمراد انتهى، عضود: فيه عسف وظلم ، عنود : مائل، الشعاع : التفرق والانقسام ، مفاحًا : من فاح إذا شاع واتسع، نزوة : وثبة وتقلبًا ، خرسة : لا يسمع لها صوت ، أى خرسة : صمتت من كثرة الدروع ،الصفقة : الضرب والتصرف.

وينوء بأعبائها ، وما أشدها على النفس ؟ وما أصعب الصبر عليها ؟ لأن الدنيا تمكنت منه وتمكن منها ، وأصبحت تحت يديه ، تفتحت له أبوابها من كل جانب ، فإن مرق منها بغير حق، كان من أشد الناس حسابًا ، وإن زهد فيها ، وعف عما ليس من حقه ، فهو من خير الملوك ، مواصل السير على سنة الخلافة المحمدية ، والمحجة الإسلامية الواضحة؛ لذلك حدد الصديق ﵁ درجات الناس من المسئولية والإمارة ، وفرق بينها عن واقع فى نفسه ، وتجربة يعيشها فى خلافته للمسلمين بعد طول الصحبة لإمام المتقين محمد ﷺ ، وحسن الاقتداء به فى الحكم ، وتحمل المسئولية فى الخلافة ، كل ذلك عن وعى وبصر ، وإدراك وبصيرة ، وإيمان وتقوى ، وسوى ذلك مما أعطى لخطبته الخلود والبقاء فى أدب الملوك ، ومع ذلك فهو يكره الإمارة ، ويتقلدها راغبًا عنها ، وزاهدًا فيها ، والناس فى المسئولية ثلاثة :

فأما أشقى الثلاثة من الناس فى الدنيا والآخرة فهم الملوك الذين تقلدوا الحكم بغير الكتاب والسنة ، مستهينين بالإمارة ، فارين من المسئولية ، فلم يؤدوا حق الله فيها وحق الرعية فى الحكم ؛فيزهد الحاكم فيما هو خير له عند الله ، وينكب على وجهه راغبًا فيما تفجره الدنيا من مغريات ذاهبة ، ومتاع قليل ، ويمتلىء قلبه بالجشع والطمع ، فيحسد المقل على فقره ، ويسخط على المكثر طمعا فيما عنده ، وهو مع هذا يمل النعيم ويقتله الرخاء ، ويحرم لذة التوسط؛ فخير الأمور الوسط ، ويموت قلبه فلا يتعظ،ويجمد شعوره فلا يهدأ، فهو دائما مضطرب الفؤاد ، مزعزع الثقة ، لا يرجو خيرًا من نفسه ، ولا خير فيه لغيره ، فهو أبتر لا أرضا قطع ، ولا ظهرًا أبقى ، فهو كالدرهم الزائف ، والسراب الكاذب، ظاهره الرحمة وباطنه العذاب ، ومن كان هذا حاله فعمره قصير ، ودولته ذاهبة ، فإذا ما انقضى أجله ، وانقشع ظله ، لقى أحكم الحاكمين ، شديد العقاب؛ فحاسبه حسابًا عسيرًا ، وحرمه من عفوه ، لأنه لم يحاسب نفسه فى الدنيا ؛فلقى جزاءه فى الآخرة .

والفقراء أعظم عند الله من الملوك الأشقياء الذين أخذتهم الدنيا فى الصنف الأول؛ فالله أرحم بهم ، لأنهم عاشوا فى الدنيا على حذر منها ،

وخوف من الرغبة فيها ، ومن الزهد فيما عند الله ، فلم ينزلوا فى حماها ، بل لم يحوموا حول الحمى ، لذلك سلموا من شرها ، واتقوا مغبتها عن بعد منها ، ونفور عنها ، وهم - ولا شك - دون الحكام السعداء فى الدنيا والآخرة ، الذين نزلوا فى حمى الدنيا، وانصهروا فى معامعها . فهم الصنف الثالث وهم عند الله خير الثلاثة .

وخير الملوك ، بل خير الناس جميعا ، هم الذين آمنوا بالله ، وحكموا الدنيا وهم فيها بكتاب الله وسنة رسوله ، عن زهد فيها ، ورغبة فيما عند الله، فهذا خير وأبقى ، وهم بهذا يسيرون على خلافة النبوة ، ويحرصون على التمسك بتعاليم الإسلام فى الحكم والإمارة ، والأجدر بهم أن يكونوا فى حكمهم خلفاء ، لا ملوكا ؛ لأن الملوك يحرصون على الدنيا فى حكمهم ، ويملكونها طمعا فيها ، ولذلك حذر أبو بكر ﷺ من الملك وخاصة بعد أن يفتح الله على المسلمين أقصاها وأدناها ، فتزداد خيراتها ، ويزداد الحكام تمسكًا بها ، وانصرافًا إليها كما حدث ذلك فى ملك بنى أمية .

ويبرز الجانب الروحى من خلال التصوير الأدبى كما اتضح من العرض للنماذج الإنسانية الثلاثة :

١ - ابتدأ الصديق خطبته بالحمد لله وحده ، وبالثناء عليه ، والصلاة على نبيه خير خلقه وإمام الأئمة .

٢ - خير الملوك من حكم بكتاب الله وسنة رسوله ، لأنهم خلفاء الرسول الكريم .

٣ - وشر الملوك من لم يحكم بكتاب الله وسنة رسوله ، حبًا فى الدنيا وطمعًا فيها .

٤ - ينبغى الزهد فى الدنيا ، والرغبة فيما عند الله وإنما الشقاء فى الزهد فيما عند الله والرغبة فى الدنيا .

٥ - الرغبة فى الدنيا تنذر بزوال الملك ، وبقصر العمر ، فلا بركة فيه وإن طال الأجل ، فى قوله : وانتقصه شطر أجله .

٦ - الرغبة فى الدنيا تقتل القلب بالحرص ، والحسد ، والسخط ، وتقتل النفس بالشقاء فلا يستقر على حال ، ولا يطمئن له فؤاد ، فقد خلا من العظة ، وتجرد من العبرة ·

٧ - المفتون بالدنيا لا خير فيه لنفسه ولغيره ، فهو كالسراب الخادع حتى إذا جاء لم يجده شيئًا ·

٨ - الزهد فى الدنيا يقتضى معاناة الفقر واختياره ، رغبة فى الباقيات الصالحات ، وخوف الفتنة ·

٩ - من السمو الروحى الهروب من الدنيا إلى بيوت الله والتزام طاعته·

١٠ - تلاوة القرآن ، وتنصيبه حكما بين الناس والرجوع إليه إذا استحكم الأمر ·

١١ - الالتزام بأمر الجماعة ، وعدم الخروج عليهم ·

١٢ - إبرام الأمر بعد التشاور فيه ، وإحكامه بالتأمل والروية ، وطول النظر ·

١٣ - ألا يسعى الإنسان إلى الإمارة، ولا يطلبها إلا إن سعت إليه، وجاءته وهو لها كاره ، وأشقى الناس الملوك ، لأن ملكهم عضوض ، ومملكتهم عنود·

١٤ - التزام الرضا على أى حال ، سواء فى عدم السعى إلى الإمارة ، أو فى قبولها وهو كاره لها ، وفى كلتا الحالتين يبتلى الله عبده ·

١٥ - وبالرضا يتحقق الصبر ، والفقر ، والزهد ، والتوكل على الله ·

١٦ - وفى التوكل المراقبة لله ، والقرب منه ، والخوف من عذابه ، ورجاء عفوه ، وابتغاء مرضاته ومحبته ·

هذه هى معالم الاتجاه الروحى فى الخطبة ، ومنها انطلقت مبادئ التصوف وتشعبت أركانها وأصولها ، وصارت رافدا قويا فى اتجاههم الصوفى وجوهرا أصيلا فى أدبهم الروحى كما سيأتى فى مكانه ·

الخصائص الفنية :

هذه الخطبة صورة صادقة للخطابة فى صدر الإسلام ، التى تميزت بسمات جديدة جعلتها تمثل مرحلة تالية لأطوار الخطابة بعد العصر الجاهلى ، وأصبح لها من المقومات والعناصر بقدر ما تستمده من تعاليم الإسلام كما سبق أن وضحنا، ولها من الخصائص الفنية على قدر استجابة الذوق الأدبى للإعجاز فى القرآن الكريم وبلاغة الحديث الشريف ومن هذه السمات الأدبية للخطبة :

١ - صار للخطبة مقدمة تشتمل على الحمد لله والثناء عليه ، ثم الصلاة على رسول الله ﷺ ؛ وموضوعًا يلى المقدمة وهو الغرض منها ، حيث بين فيه حال الملوك من الخلفاء والأئمة وأمراء المؤمنين ، ومكانهم من المسئولية فى الحكم أمام الله والناس ، ثم خاتمة .

٢ - اشتملت على ركنى الخطبة الجيدة : من الإقناع ، والتأثير : فأما الإقناع الذى أسكت المستمعين حين رفعوا رؤوسهم من قول أبى بكر إن الملوك هم أشقى الناس ، فألزمهم الحكم بالدليل حينما يزهد الملك فيما عند الله ، ويرغب فى الدنيا ، ويستبد به الحرص؛ فيحسد المقل ويسخط على المكثر، ويحرم من حلاوة النعمة ، ويسأل الرخاء ، ويظل منغص العيش ، وكذلك حين يقيم الدليل على إزهاق الباطل وإحقاق الحق يقول : فالزموا المساجد ، واستشيروا القرآن إلى آخره ، وأيضًا أن الحكم الصحيح لا يكون إلا بعد المراجعة والتشاور ، وطول التأمل ، وغير ذلك من الأدلة والوسائل التى ساعدت على تشخيص عنصر الإقناع فيها .

وأما التأثير فيها فقد سار بجنب الإقناع لتأخذ الخطبة مكانها من الجودة والقوة ، ولا يظهر التأثير إلا فى القدرة على التعبير ، وجمال الأسلوب ، وروعة التصوير الأدبى ، فنرى ذلك فى اختيار اللفظ ، وسبك العبارة ، وجمال الصورة ، وروعة الكناية ، وقصر الفقرة ، وتناسب موسيقاها مع المعنى ، وملاءمة ذلك كله مع الغرض من الخطبة :

(أ) فالألفاظ مع جزالتها وقوتها فهى سهلة عذبة سلسلة تناسب مع

المعنى ، فى غزارة وتدفق ، فتأمل قوله : أشرب قلبه الإشفاق ، فى معنى الحرص ، فلفظ « أشرب » مع عذوبته وسهولته، تحس فيه معنى القوة؛ حيث يتمكن الحرص من النفس، ويسرى فيها كسريان الماء فى الجسد ، واختلاطه بالدم واللحم ، وعبر بالقلب وهو لفظ عذب سلس؛ لكنه جزل قوى ، لمكانته من الجسد فهو سيد الأعضاء،وعصب الجسد فإن صلح القلب صلح سائر الجسد ، وإن فسد القلب فسد سائر الجسد ، وكذلك الحرص حين يتمكن من النفس يفسد على الإنسان حياته ويضحى شقيا ، أما الإشفاق فسهل رقيق ، لكنه يتحول بالاستعمال فى الحرص إلى قوة دامغة ، فهو فى الظاهر بمعنى الرحمة والعطف ، لكنه فى الحقيقة المرادة بمعنى الحرص والميل والمعاندة وهى صفة الحاكم الذى غمرته الدنيا ، وهكذا فى كل ألفاظ الخطبة تسير على هذا النحو من الخصائص السابقة للفظ .

وما أروع التناسب بين الألفاظ فى تصويره للشخصيات الثلاثة ، فشخصية الملك الشقى تتحدد معالمها فى الكلمات : يحسد ، ويتسخط ، وانتقصه ، ويسأم ، وتنقطع ،السراب الخادع ، القسى ، والظاهر ، حزين ، نضب،حاسبه الله وغيرها .

وشخصية الفقير الجديرة بالرحمة والإشفاق ، فى : المرحومون ، ألا ، التى تفيد العرض وطلب الرحمة، أما شخصية الملك السعيد، فنراها من خلال الكلمات : خير ، آمن بالله ، كتابه ، سنة نبيه ، خلافة النبوة ، مفرق المحجة .

(ب) وجمال العبارات وقوة التركيب ، وروعة النظم فى الخطبة ، لا يكاد يفارقها حتى النهاية ، ونرى ذلك فى قصر الجمل ، وتأمل فيها ، فلن تجد جملة طويلة ، تضطر القارئ أن يستريح خلالها ، وجمال الخطبة فى القصر ؛ لأن امتداد الجملة ينيم السامع ويغفل معها القارئ ، على خلاف الإيقاع السريع فى القصر ؛ فإنه يشد الانتباه دائما ، ويجدد المتابعة فى النفس ، كمن يجد فى السير ،لا يعتريه الوهن أثناءه ، وإن تراخى فيه أثقلته الغفلة والتعب ، ومن روعة النظم على سبيل المثال قوله: « فإذا وجبت نفسه،ونضب عمره،وضحى ظله،حاسبه الله فأشد حسابه، وأقل عفوه » فعبر بإذا فى حتمية القضاء وحلول الأجل لا ريب فيه ، لأنها تفيد التحقيق ،

وخاصة حين يجيء بعدها مباشرة لفظ ، « وجبت » فمعنى الوجوب الحتم ويوحى فى جانب الحريص والشقى بالحزن والكآبة حين يدركه الموت ، وأسند فعل الموت هنا للنفس، والفاعل الحقيقى هو الله الذى يحيى ويميت، للدلالة على شدة النزع، وقسوة المعاناة حين تتخلص الروح من جسد الشقى، وذكر لفظ الجلالة يوحى بالرحمة واللطف وحسن الختام ولا يستحق الشقى شيئًا من ذلك ·

وكذلك الأمر فى إسناد « نضب وضحى » للعمر والظل ، لا لله ؛ على خلاف الجملة الأخيرة « حاسبه الله » لأن المحاسب هو الله ، والشقى أصبح من أهل الآخرة ، فلابد أن يلقى جزاءه ، وحين يلقاه من الله ، يكون أشد الجزاء وأنكى العذاب على ما فرط فى الدنيا ، ثم تأمل قوله : نضب عمره بمعنى جف عوده الطرى ، وانتهت أيامه فى الدنيا ، وتساقطت أوراقه فى نهاية الخريف ، وما أعظم التلاؤم فى استعارة لفظ « نضب » لانتهاء العمر ، حيث شبه حلول الأجل بجفاف الماء من عين جارية · ثم حذف العين وأثبت صفة من صفاتها وهى النضوب بمعنى الجفاف على سبيل الاستعارة بالكناية ، والاستعارة مع جمال التجسيم للأجل وهو شىء معنوى فى صورة محسة تألفها النفس إلا أنها توحى برقرقة الروح فى الجسد ، كرقرقة الماء فى العين وجفاف الروح من الجسم كجفاف الماء فى العين ، وفى الماء حياة وفى الجفاف موت ، وما أقساه على نفس الشقى ·

وكذلك الأمر فى استعارة زوال الظل لانتهاء العمر فى قوله : ضحى ظله فإنها تجرى على النحو السابق من التحليل ، وما أجمل إضافة العمر والظل إلى ضمير الشقى ، فهو الجانى على نفسه ، وأولى به من غيره ، لإفادة الاختصاص بهذه الصفات الذميمة ، وتأكيد المعانى المنفرة له ، وفى قوله : وأقل عفوه ، أعظم الدلالة ، على قوة إيمان أبى بكر ، لأن الظاهر ألا يعفو الله عن الشقى ، ولا يجب على الله شىء إن شاء عذبه وإن شاء غفر له ، لذلك قال : وأقل عفوه احتراسا من الزلل ، وإضافة العفو إلى ضمير الجلالة تؤكد هذا الاختصاص لله وحده ·

وروعة التصوير الأدبى تبدو فى سوى ذلك من العبارات؛ فترى التشبيهات فى قوله: فهو كالدرهم القسى ، والسراب الخادع ؛ والاستعارات فى قوله : انتقصه شطر أجله وأشرب قلبه الإشفاق ، ويسأم الرخاء ، لا يسكن إلى الثقة، وملكا عضوضا وأمة شعاعا ، للباطل نزوة ، ويعفو الأثر ، والكنايات فى قوله : وتنقطع عنه لذة الباء، كناية عن التوسط ، وألزموا المساجد، كناية عن الصلاة ، واستشيروا القرآن، كناية عن تحكيمه وإقامة أوامره ، ولا تفارقوا الجماعة، كناية عن الترابط والوحدة ، وليكن الإبرام بعد التشاور والصفقة بعد طول التأمل، كناية عن حصافة الرأى وسلامته ، إى بلادكم خرسة ، كناية عن تدفق الخيرات فيها وكثرة النعم ، وآخر عبارة كناية عن اتساع الدولة الإسلامية وبعد أطرافها ، وغير ذلك كثير لمن تأمل فى هذه الخطبة التى تصور أنواع الحكام خاصة ، وموقف الإنسان من الدنيا بصفة عامة، من أقوى ألوان الأدب الروحى عند الصحابة ﷺ ، فهو أدب ينبع من تجربة صادقة فى الحياة، يصور الخليفة والحاكم الذى لم يسع إلى الحكم ، ولكن الخلافة هى التى سعت إليه ، فقبلها وهو لا يبغيها ، وخضعت له الدنيا وهو فيها ، فإن زهد فيها وعف عنها ، فقد خرج بتجربة روحية صادقة بعد أن انصهرت نفسه فقاومت كل ما فيها ، وأبت إلا أن تحكم بكتاب الله وسنة رسوله ، والفرق كبير . بين من يسمو الجانب الروحى فيه عن تجربة، وبين الذى سمت روحه وهو بعيد عن الدنيا والتحكم فيها ، فرق بين السماء والأرض ؛ فهذا عن تجربة وهى النزول إلى الدنيا ، وذلك عن حذر من الدنيا وهو بعيد عنها ، وتلمح مثل هذا فى خطب الصحابة فى الحكم والوصايا وغيرها من ألوان النثر الأدبى عندهم . يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فى خطبة له منها :

أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وأوثق العرى كلمة التقوى ، وخير الملل ملة إبراهيم عليه السلام ، وأحسن السنن سنة محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وخير الأمور عزائمها ، ما قل وكفى خير مما كثر وألهى ،

نفس تنجيها خير من إمارة لا تحصيها ، خير الغنى غنى النفس ، خير ما ألقى فى القلب اليقين ، الخمر جماع الآثام والشباب شعبة من الجنون ، حب الكفاية معجزة ... أقبح الضلالة الضلالة بعد الهدى ، أشرف الموت الشهادة، من يعرف البلاء يصبر عليه ، من لا يعرف البلاء ينكره [1] .

وفقرات الخطبة لإيجازها فى اللفظ والمعنى ، وإحكام الإصابة فيها ، تكاد تكون مثلا يضرب ، أو حكمة يتمثل بها فى مواقف الوعظ والاعتبار ، فهو لا يفر من الدنيا إلا إذا عجزت النفس أمام الطغيان المادى فيها ، عند ذلك فالخير لها أن تكتفى بالقليل فالغنى غنى النفس ، حين يغنى القلب باليقين .

* * *

الوصايا :

ومن ألوان الأدب الإسلامى الذى يصور السمو الروحى عند الصحابة الوصايا ، سواء أكانت وصية الخليفة لجند الإسلام حينما يتحرك الجيش . أو قبل الالتحام مع العدو ، أو وصية الخليفة لمن يلى أمر المسلمين من بعده حينما يفرغ فيها تجربة حياة ، ويقدم إليه وثيقة الحكم ، أو وصية والد لولده ، يحذره من الدنيا والاغترار بها ، وجميعها يقوم على التخلق بخلق القرآن ، والتعبير عن القيم فى حديث رسول الله ، فيزهد الإنسان فى الدنيا وشهواتها ، ويقبل على الله ، فما عنده هو خير وأبقى . ومن هذه الوصايا وصية عمر بن الخطاب إلى قائد المسلمين فى حرب الفرس سعد بن أبى وقاص ﷺ قال بعد المقدمة : [2] .

أما بعد ... فإنى آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ؛ فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو ، وأقوى المكيدة فى الحرب ، وآمرك ومن معك من الأجناد ؛ أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصى ، منكم

(١) البيان والتبيين : الجاحظ ٢ / ٢٤١ .

(٢) العقد الفريد : ابن عبد ربه .

على عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنابهم قوة ، لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم ، فإن استوينا فى المعصية كان لهم الفضل فى القوة ، وإلا ننصر بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا ، فاعلموا أن عليكم فى سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون فاستحيوا منهم ، ولا تعملوا بمعاصى الله وأنتم فى سبيله ولا تقولوا عدونا شر منا ، فلن يسلط علينا ، فرب قوم سلط الله عليهم شرًا منهم ، كما سلط على بنى إسرائيل - لما عملوا بمساخط الله - كفار المجوس « فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا » ، واسألوا الله العون على أنفسكم، كما تسألونه النصر على عدوكم، أسأل الله ذلك لنا ولكم[(١)] . . . والله ولى أمرك ومن معك ، وولى النصر لكم على عدوكم والله المستعان .

* * *

خصائص الوصية :

اشتملت الوصية على معان واضحة عميقة ، قوية جديدة ، ظهر فيها الروح الإسلامى . تستمد عناصرها من التشريع ومبادئه السامية ، لتتكون منها اللائحه العسكرية، وجوهر الانتصار على العدو قبل وضع خطة المعركة . منها :

١ - تقوى الله أجلب للنصر من كثرة العدد وغزارة الأسلحة ، وعبقرية التخطيط العسكرى . فمهما مكر العدو فالله خير الماكرين ، لأنه سبحانه وتعالى يدافع عن الذين آمنوا .

٢ - البعد عن العاصى ، والاحتراس من الذنوب هو أساس النصر ، لأن انتصار المسلمين لا يرجع إلى قوتهم وشجاعتهم وعددهم فحسب ؛ لكن يرجع إلى معصية عدوهم .

٣ - مراقبة الله فى كل ما يقع منهم ، وأن يكونوا موصولين بالله دائما وعلى ذكر منه ، لأنه معهم ، يحصى عليهم الخير والشر ، بحفظة من عنده

(١) اكتفيت من الوصية بهذا الجزء اليسير فهى طويلة وأنهيتها بما جاء فى خاتمتها انظر العقد الفريد لابن عبد ربه ١ / ٤٩ ونهاية الأرب ٦ / ١٦٨ .

٤ - التحذير من الغرور ، لأنه يؤدى إلى الهزيمة ، وألا يخاتلهم فساد عدوهم ، وأنه شر أهل الأرض ، فقد يسلط الله عليهم شر أعدائه ، كما سلط الله على بنى إسرائيل لما عاثوا فى الأرض فسادا كفار المجوس .

٥ - رجاء النصر من الله دائما ، ومواصلة الدعاء له بالليل والنهار ، فالرجاء من الله ، والدعاء له هما مخ العبادة ، وفيها إثبات للعبودية وضعف المخلوق ، فهو ولى النصر ، فنعم المولى ونعم النصير .

وانسابت هذه المعانى الروحية ، فى ألفاظ تشف عنها ، وتحمل فى مضمونها خصائص جديدة ، لم تكن لها قبل الإسلام مثل لفظ « التقوى » بمعنى الخوف من الله واتقاء المعاصى بالطاعة له والانقياد إليه ، وكانت فى الجاهلية بمعنى الوقاية من الشيء ،وكذلك لفظ « المعاصى » فليس معناها الخروج على التقاليد والعادات الجاهلية ، ولكنها هنا بمعنى المنكر الذى حرمه الإسلام مما يغضب الله عز وجل ، وغيرها من الألفاظ ، كما اتسمت الألفاظ بسماحة الإسلام ويسر تعاليمه ، فصارت هنا سهلة عذبة رقيقة سلسله ، تنساب مع المعنى فى لطف ، وحسن إيقاع ، وجمال نسق . وزادها جمالا التحلى بآى القرآن . فجاسوا خلال الديار - حفظة يعلمون ما تفعلون، ثم الإكثار من لفظ الجلالة لتناسب ذلك مع رجاء النصر منه سبحانه وتعالى .

والتعبير بالحقيقة هنا - لا الخيال - يغلب على الوصية ، فكادت تخلو من ألوان البيان ، التى تعتمد على الخيال ، لأنها تتضمن تعليمات عسكرية ، ومبادئ حربية ، بألفاظ محددة غير فضفاضة ، لا تحتمل وجها آخر ، بل كانت دقيقة فى تصوير الحقائق واضحة ، والأوامر صريحة لكى لا تحتاج من القائد إلى كبير تأمل يضيع معه الوقت ، وإلى استنباط قد تكون فيه المجازفة والبعد عن الغرض ، لأن العقل والحقيقة - لا العاطفة والخيال - هما المصدران الأساسيان ، حيث لا يعطى الخيال فرصة للاتساع والشمول ، مما يتنافى مع طبيعة الوصايا ، التى تعتمد على الحقائق الصرفة المجردة من الخيال على وجه التقريب ، ولقد ازدادت الحقائق هنا ثراء بالروح الدينية وبالصدق فى الإيمان ، فتحقق لها من التأثير الروحى فى النفس ما يعجز الخيال عن تحقيقه ،

فتستجيب لها الروح المؤمنة وتتلاقى معها ، لأن الأرواح جنود مجندة ، ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف ، ولذلك حين قرأها القائد ابن أبى وقاص على جنوده تأثروا بها وعملوا لها ، فنصرهم الله على عدوهم فالقوة الروحية فى الأدب الروحى ، هى جوهره وعماده ، ولذلك كان لهذا الأدب أثره القوى فى تهذيب النفس عند الصوفية ، وترويضها للتعرف على الله .

أما منهج الوصية فى العصر الإسلامى الأول يشبه منهج الخطبة إلى حد كبير ، وهو يخالف منهج الوصايا فى العصر الجاهلى فهى :

١ - تعتمد على مقدمة تشتمل على الحمد لله والثناء عليه ، والصلاة على رسول الله ﷺ .

٢ - ويلى المقدمة موضوع الوصية والغرض منها ، وهو بيان الأسباب الحقيقية التى تؤدى إلى النصر لجند الإسلام ، مهما بلغت قوة العدو .

٣ - وفى النهاية ينتهى الموضوع بخاتمة تتصل بالموضوع ، وكان هنا الدعاء بالنصر .

٤ - الترابط التام بين عناصر الخطبة ومنهجها حيث تبدأ بمقدمة تمهد للغرض ، وتنتهى بخاتمة نابعة من الموضوع ذاته ، ونتيجة له وذلك من قوله : واسألوا الله العون إلى آخرها .

٥ - ارتبطت الوصايا بهدف واحد وهو تقوى الله والعمل على طاعته والتزود من الدنيا للآخرة . وإن اختلفت مقاماتها ، فالتى معنا موجهة لجيش الإسلام ،وكذلك الأمر فى وصية أبى بكر الصديق لجيش المسلمين قال فيها :

« قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عنى : لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيرًا ، ولا شيخا كبيرًا ، ولا امرأة ، ولا تعقوا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرًا إلا لمأكلة ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان من الطعام ، فإذا أكلتم منها شيئًا بعد شىء فاذكروا اسم الله عليه » .

وقد يكون مقام الوصية الاستخلاف والحكم مثل وصية عمر بن

الخطاب رضي الله عنه للخليفة من بعده [1] ووصيــة أبى بكر الصــــديق لعمر رضي الله عنهما من بعده [2] ، أو وصيته التى يودع فيها الحياة على فراش الموت فى التحذير من الدنيا ، مثل وصيته لسلمان الفارسى رضي الله عنه [3] ، أو وصية والد لولده يفرغ فيها تجربة حياة لينتفع بها ، فيضيف عمره إلى عمر ابنه ، فيبدأ الابن من حيث انتهى الأب فى تجاربه ، والعبرة منها وذلك مثل وصية على بن أبى طالب لابنه الحسن رضي الله عنهما كتبها له من حاضرين فى نواحى صفين وهى طويلة منها :

« . . . فإنى أوصيك بتقوى الله ولزوم أمره ، وعمارة قلبك بذكره ، والاعتصام بحبله ، وأى سبب أوثق من سبب بينك وبين الله إن أنت أخذت به؟ أحيى قلبك بالموعظة وأمته بالزهادة ، وقوه باليقين ، ونوره بالحكمة ، وذلله بذكر الموت ، وقرره بالفناء، وبصره فجائع الدنيا ، وحذره صولة الدهر، وفحش تقلب الليالى والأيام ، وأعرض عليه أخبار الماضين . فأصلح مثواك ، ولا تبع آخرتك بدنياك ، ودع القول فيما لا تعرف، والخطاب فيما لم تكلف ، وأمسك عن طريق إذا خفت ضلالته ، فإن الكف عند حيرة الضلال خير من ركوب الأهوال ، وأمر بالمعروف تكن من أهله، وأنكر المنكر بيدك ولسانك ، وباين من فعله بجهدك ، وجاهد فى الله حق جهاده ،ولا تأخذك فى الله لومة لائم ، وخض الغمرات للحق حيث كان ، وتفقه فى الدين ، وعود نفسك التصبر على المكروه ، ونعم الخلق التصبر فى الحق . . إلى آخرها »[4] .

ومثل هذه الوصايا كان رافدًا قويًا من روافد التصوف الإسلامى ، وجوهرًا أصيلا فى الأدب الصوفى بعد ذلك إذا استمد منه أصوله وقواعده ، واستشف منه روحه وجوهره ، وأصبح الأدب الصوفى فى مختلف عصوره موصولا بهذا الأدب الرفيع .

* * *

---

(١) البيان والتبيين الجاحظ ٢ / ٣٢٥ .

(٢) المرجع السابق : والإحياء : الغزالى ٤ / ٤٦١ .

(٣) الإحياء : الغزالى ٤ / ٤٦١ .

(٤) نهج البلاغة : للإمام على رضي الله عنه جمع الشريف الرضى : تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ٣ / ٤٤ ، ٤٥ مطبعة الاستقامة .

التحذير من الدنيا :

ومن ألوان الأدب الروحى عند الصحابة رضوان الله عليهم أدب التحذير من الدنيا ، والتنفير منها ، وكانوا أصدق الناس نظرًا إليها ، وأعظمهم عظة بها، ولقد ابتلى على ﷺ بمحن فيها ، فصبر عليها وجاهد نفسه فيها · وفهم حقيقتها ، ليفر منها ، خاصة وقد حدثت فتنة الخلافة والحكم فى عهده ، فلم تسلم له الخلافة بغير معارضة ، ودارت معارك يحكم فيها كتاب الله لا يبتغى من وراء ذلك حكما لكن استتباب الأمن فى الأمة ، والقضاء على المحنة ، وعودة سنة الخلفاء من قبله للحكم ، ولذلك نجد مواعظه تدور حول التحذير من الدنيا ، والعمل للآخرة ، فما عند الله خير وأبقى ، يقول الإمام على ﷺ فى الدنيا :

« وأحذركم الدنيا فإنها منزل قلعة ، وليست بدار نجعة ، قد تزينت بغرورها ، وغرت بزينتها ، هانت على ربها ، فخلط حلالها بحرامها ، وخيرها بشرها ، وحياتها بموتها ، وحلوها بمرها ، لم يصفها إلا لأولياءه · ولم يضن بها على أعدائه ، خيرها زهيد ، وشرها عتيد ، وجمعها ينفد ، وملكها يسلب، وعامرها يخرب ، فما خير دار تنقض نقض البناء ؟ وعمر يفنى فيها فناء الزاد ، ومدة تنقطع انقطاع السير ، اجعلوا ما افترض الله عليكم من طلبكم واسألوه من أداة حقه ما سألكم، واسمعوا دعوة الموت آذانكم قبل أن يدعى بكم ؟ إن الزاهدين فى الدنيا تبكى قلوبهم وإن ضحكوا ، ويشتد حزنهم وإن فرحوا ، ويكثر مقتهم أنفسهم وإن اغتبطوا بما رزقوا ، قد غاب عن قلوبهم ذكر الآجال ، وحضرتكم كواذب الآمال ، فصارت الدنيا أملك بكم من الآخرة ، والعاجلة أذهب بكم من الآجلة ، وإنما إخوان على دين الله ، ما فرق بينكم إلا خبث السرائر،وسوء الضمائر فلا توازرون ، ولا تناصحون ، ولا تبادلون، ولا توادون ، ما بالكم تفرحون باليسير من الدنيا تملكونه ، ولا يحزنكم الكثير من الآخرة تحرمونه ؟ ويقلقكم اليسير من الدنيا يفوتكم حتى يتبين ذلك فى وجوهكم وقلة صبركم عما زوى منها عنكم ؟ ! كأنها دار مقامكم ، وكأن متاعها باق عليكم ، وما يمنع أحدكم أن يستقبل أخاه بما يخاف

من عيبه إلا مخافة أن يستقبله بمثله ، قد تصافيتم على رفض الآجل ، وحب العاجل ، وصار دين أحدكم لعقة على لسانه صنيع من قد فرغ عن عمله ، وأحرز رضا سيده (١) .

فى هذا الوصف غاية البلاغة إذ بلغ الإمام أعماق الدنيا ، ووقف على حقيقتها ، فهى دار ممر لا قرار فيها ، تزينت بالغرور ، واختلط الخير بالشر فيها، ولذلك هانت على خالقها ، فلا تساوى عنده جناح بعوضة ، فطوبى لمن زهد فيها ، وويل لمن افتتن بها ، وذلك فى صور بليغة ، جمعت ألوان الفصاحة ، وفنون البلاغة ، فى أوجز عبارة ، وأبلغ منطق ، فتأثر به كل بليغ، واستمد منها كل واعظ أقواله البليغة ، ومعانيه التى تستولى على القلوب» يقول الإمام فى إدبار الدنيا، وإقبال الآخرة ، والحث على التزود لها:

أما بعد : فإن الدنيا قد أدبرت ، وآذنت بوداع ، وإن الآخرة قد أشرفت باطلاع ، ألا وإن اليوم المضمار ، وغدا السباق ، والسبقة الجنة والغاية النار ، أفلا تائب من خطيئته قبل منيته ؛ ألا عامل لنفسه قبل بؤسه ؟ ألا وإنكم فى أيام أمل ، من ورائه أجل ، فمن عمل فى أيام أمله قبل حضور أجله نفعه عمله ، ولم يضرره أجله ، ومن قصر فى أيام أمله قبل حضور أجله فقد خسر عمله ، وضره ،أجله ألا فاعملوا فى الرغبة كما تعملون فى الرهبة ، ألا وإنى لم أر كالجنة نام طالبها ، ولا كالنار نام هاربها ، ألا وإنه من لا ينفعه الحق ، يضرره الباطل ، ومن لم يستقم به الهدى يجر به الضلال إلى الردى ، وإن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى ، وطول الأمل وتزودوا من الدنيا ما تحرزون أنفسكم به غدا (٢) .

---

(١) نهج البلاغة : ١ / ٢٢٠ : ٢٢٢ - القلعة : منزل من لا يستقر ، النجعة : طلب الكلأ ، عتيد : حاضر ، ذوى: أبعده ونحاه ، اللعقة : هى التعبير باللسان دون تصديق القلب .

(٢) نهج البلاغة : ١ / ٦٦ . وتحدث عن الدنيا فى مواطن كثيرة منها : ١ / ١٩١ ، ١ / ٢١٦ ، ٢ / ١١٨ ، ١٥٧ ، ٢ / ٢٤٠ ، ٤ / ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٧ ، ١٧٨ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ وغيرها - معانى المفردات : المضمار : المكان التى تحبس فيه الخيل حتى تزل ، السبقة : هى الغاية المرغوب فيها ، الظعن : الرحيل عن الدنيا ، الزاد : العمل الصالح ، الحرز : الحفظ، آذنت : أعلمت ، باطلاع : فجأة .

لقد تهيأ للإمام على ﷺ من الظروف ما سما بكـــلامه قاطبة بعد الرسول ﷺ ، فقد كان فصيح المنطق، بارع التصوير، قوى الحجة ، ساحر اللسان ، عالمًا بالكتاب والسنة ، ذا رأى وبصر بالحكم والقضاء ، يملك زمام اللغة ، ويديرها كيف شاء عن سليقة واقتدار ، وخاصة إذا تحدث عن الدنيا ، ورهب فيها ، ورغب فى الآخرة ، ودعا إليها ، قال الشريف الرضى معلقا :

لو كان كلام يأخذ بالأعناق إلى الزهد فى الدنيا ، ويضطر إلى عمل الآخرة لكان هذا الكلام ، وكفى به قاطعـــا لعـــلائق الآمال ، وقادحا زناد الاتعاظ والازدجار ، ومن أعجبه قوله عليه السلام : « والسبقة الجنة والغاية النار» فإن فيه مع فخامة اللفظ ، وعظم قدر المعنى . وصادق التمثيل ، وواقع التشبيه ، سرا عجيبا ، ومعنى لطيفا .. فخالف بين اللفظين لاختلاف المعنيين، ولم يقل السبقة النار والغاية الجنة ، لأن الاستباق إنما يكون فى أمر محبوب ، وغرض مطلوب ، وهذه صفة الجنة ، وليس هذا المعنى موجود فى النار ... بل قال : والغاية النار ، لأن الغاية ينتهى إليها من يسره الانتهاء ، ومن لا يسره ذلك ، فصلح أن يعبر بها عن الأمرين معا [(١)] .

* * *

الزهد :

ومن أغراض الأدب الروحى عند الصحابة ﷺ الزهد ، لكى يغرس فى النفس العزوف عن الحياة ، ويتخلص القلب من شوائبها ، وتتخلص النفس من كل ملابسة ترتبط بها ، وتقطع الصلة بينها وبين الله سبحانه وتعالى إلا فيما يثبت العجز البشرى أمام الخالق ، الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ، ومن الزهد تنوعت الأغراض بعد ذلك ، وأصبح له وحده فنونا أدبية فى الأدب الزاهد، وأغراضا صوفية فى أدب التصوف الإسلامى؛ ليكون له النبع الأصيل ، والبحر الزاخر العميق ، ولقد غلب هذا الغرض عند الإمام على ﷺ فى مأثور

(١) نهج البلاغة : ١ / ٦٨ ؛ ٦٩ .

قوله كالشأن عنده فى وصف الدنيا والترغيب فى الآخرة قال فى وصف المتقين الزاهدين ذاكرًا قوله تعالى ؛ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبى ﷺ وآله ، ثم قال :

أما بعد فإن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق حين خلقهم ، غنيا عن طاعتهم ، آمنا من معصيتهم ، لأنه لا تضره معصية من عصاه ، ولا تنفعه طاعة من أطاعه ، فقسم بينهم معايشهم ، ووضعهم من الدنيا مواضعهم ، فالمتقون فيها هم أهل الفضائل ، منطقهم الصواب ، وملبسهم الاقتصاد ، ومشيهم التواضع ، غضوا أبصارهم عما حرم الله عليهم ، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم » نزلت أنفسهم منهم فى البلاء كالتى نزلت فى الرخاء ، ولولا الأجل الذى كتب عليهم لم تستقر أرواحهم فى أجسادهم طرفة شوقًا إلى الثواب ، وخوفا من العقاب ، عظم الخالق فى أنفسهم ، فصغر ما دونه فى أعينهم ، فهم والجنة كمن قد رآها ، فهم فيها منعمون ، وهم والنار كمن قد رآها ، فهم فيها معذبون، قلوبهم محزونة ، وشرورهم مأمونة ، وأجسادهم نحيفة ، وحاجاتهم خفيفة، وأنفسهم عفيفة ، صبروا أيامًا قصيرة، أعقبتهم راحة طويلة ، تجارة مربحة يسرها لهم ربهم ، أرادتهم الدنيا فلم يريدوها ، وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها .

أما الليل فصافون أقدامهم ، تالين لأجزاء القرآن يرتلونه ترتيلا ، يحزنون به أنفسهم ، ويستثيرون دواء دائهم ، فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعًا ، وتطلعت نفوسهم إليها شوقًا ، وظنوا أنها نصب أعينهم ، وإذا مروا بآية فيها تخويف ، أصغوا إليها مسامع قلوبهم ، وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها فى أصول آذانهم ، فهم حانون على أوساطهم ، مفترشون لجباههم وأكفهم وركبهم وأطراف أقدامهم يطلبون إلى الله تعالى فى فكاك رقابهم .

وأما النهار فحلماء علماء ، أبرار أتقياء ، قد براهم الخوف برى القداح ، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى ، وما بالقوم من مرض ، ويقول قد

خولطوا، ولقد خالطهم أمر عظيم ،لا يرضون من أعمالهم القليل ، ولا يستكثرون الكثير ، فهم لأنفسهم متهمون ، ومن أعمالهم مشفقون ، إذا زكى أحدهم خاف مما يقال له ، فيقول : أنا أعلم بنفسى من غيرى ، وربى أعلم بى من نفسى ، اللهم لا تؤاخذنى بما يقولون ، واجعلنى أفضل مما يظنون ، واغفر لى ما لا يعلمون .

فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوة فى دين ، وحزما فى لين ، وإيمانًا فى يقين ، وحرصًا فى علم ، وعلمًا فى حلم ، وقصدًا فى غنى ، وخشوعًا فى عبادة ، وتجملاً فى فاقة ، وصبرًا فى شدة ، وطلبًا فى حلال ، ونشاطًا فى هدى ، وتحرجًا عن طمع، يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل ، يمشى وهمه الشكر ، ويصبح وهمه الذكر، يبيت حذرًا ، ويصبح فرحًا : حذرًا لما حذر من الغفلة ، وفرحًا بما أصاب من الفضل ، والرحمة ، إن استصعبت عليه نفسه فيما تكره ، لم يعطها سؤلها فيما تحب ، قرة عينه فيما لا يزول ، وزهادته فيما لا يبقى ، يمزج الحلم بالعلم ، والقول بالعمل .

تراه قريبًا أمله ، قليلاً زلله ، خاشعًا قلبه ، قانعة نفسه ، منزورًا أكله ، سهلاً أمره ، حريزًا دينه ، ميتة شهوته ، مكظومًا غيظه ، الخير منه مأمول ، والشر منه مأمون ، إن كان فى الغافلين كتب فى الذاكرين، وإن كان فى الذاكرين لم يكتب من الغافلين ، يعفو عمن ظلمه ، ويعطى من حرمه ، ويصل من قطعه ، بعيدًا فحشه ، لينا قوله ، غائبًا منكره ، حاضرًا معروفه ، مقبلاً خيره ، مدبرًا شره ، فى الزلازل وقور وفى المكاره صبور ، وفى الرخاء شكور .

لا يحيف على من يبغضه ، ولا يأثم فيمن يحب ، يعترف بالحق ، قبل أن يشهد عليه ، لا يضيع من استحفظ ، ولا ينسى ما ذكر ، ولا ينابز بالألقاب، ولا يضار بالجار ، ولا يشمت بالمصائب ، ولا يدخل فى الباطل ، ولا يخرج من الحق ، إن صمت لم يغمه صمته ، وإن ضحك لم يعل صوته، وإن بغى عليه صبر ، حتى يكون الله هو الذى ينتقم له ، نفسه منه فى عناء ، والناس منه فى راحة ، أتعب نفسه لآخرته ، وأراح الناس من نفسه ، بعده

عما تباعد عنه زهد ونزاهة ، ودنوه ممن دنا منه لين ورحمة ، ليس تباعده بكبر ولا عظمة ، ولا دنوه بمكر وخدعة [1] .

المقام فى النص المأثور :

تنفست روح الإمام على رضي الله عنه بهذه الحقائق الربانية فى تصوير أدبى خالد حينما سأله أحد أصحابه عن أوصاف المتقين ، ومقاماتهم عند ربهم ، وأحوالهم فى الدنيا ، لكى يراهم عن قرب ، ويرى مكانه منهم ، لكن الإمام تثاقل فى الإجابة وقال : يا همام اتق الله وأحسن ؛ فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون · ولكن همام العابد لم يقنع بهذا القول ،حتى عزم عليه أن يصف له المتقين ، فوصف له المتقين فى هذا الأثر الروحى الخالد ·

خصائص النص المأثور :

ناهيك بالجانب الروحى هنا ، فقد جمع قواعد الزهد ، وأصول التصوف، وحقائق المعرفة ، وإحسان الإيمان ، مما جعل هذا النص الأدبى مثلا أعلى فى الأدب الروحى، يطهر النفس من أوساخ الحياة ، ويجرد الروح من خبائث الجسد وشهواته التى تقيدها ، وتكدر الصفاء الإلهى فيها · وكان مثلا أعلى أيضًا ؛ فاض عنه الأدب الزاهد فى عصر بنى أمية ، ونسجت منه الأحزاب السياسية المناوئة أدبها الروحى الثائر على جور الحكام فيه ، وسترى ذلك الأثر واضحًا فى أدب الخوارج عامة ، وفى خطبة أبى حمزة الشارى خاصة ، حين وصف أصحابه المتقين فى قوله :

شباب والله مكتهلون فى شبابهم ، غضيضة عن الشر أعينهم، إلى آخر

(١) نهج البلاغة : الإمام على رضي الله عنه ٣ / ١٨٥ : ١٩٠ زفير النار : صوت وقودها · شهيقها : شدة الزفير فيها · القداح جمع قدح وهو السهم قبل أن يراش ، برى : بمعنى أن الخوف رقق أجسامهم وأضعفها : خولط : أصاب العقل ذهول من شدة الخوف من الله ، مشفقون : خائفون ، قصدًا: اعتدالا ، التجمل فى الفاقة : التظاهر باليسر عند الفقر ، التحرج : البعد عن الطمع · استصعبت : لم تلبيه نفسه ، ما لا يزول : الآخرة ، ما لا يبقى ، الدنيا ، المنزور ، القليل ، الحريز: الحصين، الزلازل : الشدائد ، الوقور : الذى لا يضطرب : هو الذى لا يرتكب إثمًا ·

خطبته ، وفى مقطوعات قطرى بن الفجاءة الشعرية الزاهدة ، وغير ذلك مما سيأتى فى مكانه إن شاء الله تعالى ، وكان أثر الإمام واضحًا وقويًا فى أدب الصوفية بعد ذلك؛ فقد استمد مضمونه الروحى منه ، وإن انفرد الأدب الصوفى ببعض الألفاظ والمصطلحات الصوفية تبعًا لسنة التطور فى الفنون والآداب .

إلا أن المحتوى موصول بذلك الأدب الروحى الرفيع ، وفى الأدب الصوفى تجد أن المتقين بالصفات السابقة هم أهل الحقيقة : لأن منطقهم الصواب، وأسماعهم موقوفة على العلم النافع لهم ، فهم يرون الله بروحهم عن قرب : (عظم الخالق فى أنفسهم) ويرون الجنة والنار : (فهم والجنة كمن قد رآها إلى آخره) ويزهدون مما فى أيديهم فى عفة عنها وصبر عليها : (وأجسادهم نحيفة إلى آخره) ، وهم دائمًا فى يقظه لأن الروح الطاهرة تظل موصولة بربها ليلا ونهارًا : « أما الليل فصافون .. وأما النهار فحلماء علماء إلى آخره » ، يستقلون العمل فى جانب الله ، ويزداد خوفهم من الله، إذا اطلع الغير على قربانهم وزكاهم فيها ، وحينئذ يطلبون المغفرة من الله على جرمهم فى الظهور ، ولا ذنب لهم فى ذلك : « ويقول قد خولطوا إلى قوله : ما لا يعلمون » ؛ وترى هنا غير ذلك من مقومات الأدب الروحى من العلم والحلم، والصبر والقصد ، والتجمل فى الفقر ، والعفة ، والزهادة فى الدنيا، وقرة العين فى الآخرة، يجود بما عنده، ويصل من قطعه ، موصول الذكر ، دائم الشكر ، مكظوم الغيظ ، مأمول الخير ، مأمون الشر ، وقور فى الشدائد، صبور فى المكاره ، متوكل على ربه، يقول الحق ولو كان مرا من غير استدعاء بعيد عن الباطل ، أمين فيما استحفظ ، ملتزم الصمت ، مبتسم إذا ضحك ، لا يخون الأمانة ويحفظ حق الجار ، وفى العهد ، بعيد عن الناس من غير كبر، وقريب منهم دون مكر ، الناس منه فى راحة ، ونفسه فى مجاهدة من جسده ، وغيرها من المقومات الروحية السامية ، التى أخذت بنفس همام ، فصعق صعقة كانت نفسه فيها ، ومات لساعته ، وهذا ما كان يخشاه الإمام منه حين راجعه مرة،فأبى إلا أن يقول،وكان فى القول قضاؤه وحتمه .

قال أمير المؤمنين : أما والله لقد كنت أخافها عليه ، ثم قال : أهكذا تصنع المواعظ البليغة بأهلها ، فقال له قائل . فما بالك يا أمير المؤمنين ؟ فقال: ويحك ، إن لكل أجل وقتًا لا يعدوه ، وسببًا لا يتجاوزه ، فمهلا لا تعد لمثلها ، فإنما نفث الشيطان على لسانك (١) .

يقول الشريف الرضى واصفًا أدب الإمام بالنور الربانى : والعبق المحمدى . إن كلامه عليه السلام الوارد فى الزهد والمواعظ والتذكير والزواجر : إذا تأمله المتأمل وفكر فيه المتفكر .. لم يعترضه الشك فى أنه كلام من لاحظ له فى غير الزهادة ، ولا شغل له بغير العبادة .. وهو مع تلك الحال زاهد الزهاد ، وبدل الأبدال ، وهذه فضائله العجيبة ، وخصائصه اللطيفة ، التى جمع بها بين الأضداد وألف بين الأشتات (٢) .

أما خصائص الأثر الصحابى الجليل الفنية هنا فقد سمت بالنص إلى قمة البلاغة ، ونهاية الفصاحة اجتمعت فيه وسائل البيان ، فى أقوى تصوير ، وأدق تعبير ، وانتقى فيه من الكلام ما هو أنسب للمقام ، وأوفى بالمعنى « وأتم للغرض ، حتى قيل : لم يترك غرضًا من أغراض الكلام إلا أصابه ، ولم يدع للفكر ممرًا إلا جابه (٣) .

فهو يتضمن من عجائب البلاغة ، وغرائب الفصاحة ، وجواهر العربية، وثواقب الكلم الدينية والدنيوية ، ما لا يوجد - مجتمعًا فى كلام ، ولا مجموع الأطراف .. فى كتاب إذا كان أمير المؤمنين عليه السلام مشرع الفصاحة وموردها ، ومنشأ البلاغة ومولدها ، ومنه عليه السلام ظهر مكنونها، وعنه أخذت قوانينها ، وعلى أمثلته حذا كل قائل خطيب ، وبكلامه استعان كل واعظ بليغ (٤) .

---

(١) نهج البلاغة : ٢ / ١٩١ ومعنى فما بالف ، أى لم تمت مع ما انطواه قلبك على هذه المواعظ وهو حول الوقح البارد الذى غلب الشيطان عليه .

(٢) مقدمة نهج البلاغة ، الشريف الرضى ٤ ، ٥ .

(٣) الإمام محمد عبده فى مقدمة تحقيقه لكتاب نهج البلاغة .

(٤) الشريف الرضى فى المقدمة .

ومن هذه الخصائص الفنية : جزالة اللفظ وقوته ، وعذوبة الكلمة ورقتها وإحكام العبارة ودقة التركيب ، وروعة التنسيق بين الفقرات ، وتلاؤم الإيقاع ، فيها ، وأعان على قوة التأثير قصر الجمل : وتشابه الفواصل فيها . ليتجانس النغم ، وينسجم الصوت مع نظيره ؛ مع غير كلفة أو تصنع فى سجع أو طباق أو مجانسة ، حيث جاءت عفو الخاطر ، ووقعت حيث اقتضاها المقام كالسجع والجناس فى قوله :

وحرصًا فى علم ، وعلمًا فى حلم ، والسجع والطباق والجناس فى قوله: يمشى وهمه الذكر ، وغير ذلك كثير لمن تأمل كما فى قوله : الخير منه مأمول والشر منه مأمون وهكذا .

أما غزارة النص بالصور البيانية فحافل بالكثير من الألوان الخيالية الرائعة ما بين تشبيه : نزلت أنفسهم .. كالتى نزلت فى الرخا - فهم والجنة كمن قد رآها - وهم والنار كمن قد رآها - براهم الخوف برى القداح - يحسبهم مرضى .

واستعارة فى قوله : ملبسهم الاقتصاد - وقفوا أسماعهم - لم تستقر أرواحهم طرفة شوقا - أعقبتهم راحة طويلة - وأسرتهم - يستشيرون دواء دائهم - مسامع قلوبهم - أصول آذانهم - براهم الخوف - برى القداح وغيرها كثير .

وكناية فى قوله : غنيًا عن طاعتهم إلى آخره - عظم الخالق فى أنفسهم- أجسادهم نحيفة وما بعدها - قد خولطوا ولقد خالطهم أمر عظيم - حرصا فى علم وما بعدها - قرة عينه فيما لا يزول - وزهادته فيما لا يبقى ، وقلما تجد عبارة هنا تخلو من كناية رائعة ، اكتسبت مضمونها لا من العصر الجاهلى ولكن من الروح الإسلامية والقرآن الكريم ، روحا ومعنى واقتباسًا وتمثلا منه .

وما أروع الصورة الأدبية فى قوله : أما الليل فصافون ... إلى قوله يطلبون إلى الله تعالى فى فكاك رقابهم » حيث صورت عباد الرحمن بالليل والناس نيام ، وهم فى صفوف تجانست فيها أقدامهم ، فلا يبدو غير القدم

منهم ليأخذ مكانه من الجميع فقط ، أما بقية الجسد فلا وجود له ولا تقدير ، وأما الروح فقد تجندت مع من تألف ، وأخذت ترتل أجزاء القرآن ترتيلا ، ليطبوا به نفوسهم ، ويطهروا أرواحهم ، فإذا مروا بآية فيها جلال الله ونوره ، ازدادوا شوقا إليه، أو بآية فيها ذكر الجنة ، رأوها نصب أعينهم ، وإذا مروا بآية فيها ذكر النار ، أبصروها عن قرب ففزعوا من زفير جهنم ، وشهقوا منها شهقة تأخذ بمسامعهم ؛ فلا يسمعون بعدها ، وهم حانون أصلابهم على أجزاء القرآن يتلونه راكعون ساجدون لربهم بعد التلاوة ، وقد انثنت أوساطهم من العكوف على أجزائه ، وافترشوا فى صلاتهم فراشا من أبدانهم؛ ليسخروها فى طاعة الله، فجعلوا من جباههم وأكفهم وركبهم وأطراف أقدامهم مصلى ، تغنيهم عن الفراش ، فهم بهذا ينحتون من أجسادهم ليلة بعد ليلة ، لتخلص أرواحهم، وتنعتق رقابهم من عبودية الدنيا ، وأغلال الشهوات فيها ، لذلك انبرى جسدهم برى القداح .

صورة أدبية رائعة تنقل مشهدًا رائعًا بالليل من مشاهد عباد الرحمن ، فكأنك الآن تقرأ معهم وتستبشر بما يستبشرون ، وتخاف مما يخافون ، فتسمع شوقهم إلى الله وإلى الجنة ، وتفزع من زفيرهم وشهيقهم من عذاب جهنم ، وقد ظهروا نحاف الأجسام عجاف الأبدان ، لا ترى فيهم غير الروح ، ولا يغمرك منهم إلا الوضاءة والنور ، اكتملت عناصر التصوير فيها ، فترى موقفهم فى الليل بعيدًا عن أعين الناس ، يتلألأ نورهم فى الظلام الدامس ، مع صفوة أجسادهم وشحوبها من كثرة السهر والعبادة ،وتسمع أصواتهم وأشواقهم وأناتهم، وتشم منهم ريح الجنة التى عطرتهم بروحها وريحانها ، كل هذا فى الموقع من الصورة واللون والصوت والحركه والطعم من عناصر التصوير الأدبى الرفيع .

هذه هى سمات الأدب الروحى فى عصر الصحابة رضوان الله عليهم سواء أكانت من ناحية المضمون أم كانت من ناحية الشكل الفنى فى التصوير ، وتلك أغراضه وألوانه الأدبية ، وإن بقى منها بعض الأغراض التى كانت تأتى

تبعا للأغراض السابقة مثل وصف الجنة وأهلها ، ووصف النار وأصحابها ، ووصف القرآن ، والسنة الشريفة ،وغيرها مما جاء تبعًا للأغراض السابقة التى تناولناها بالتفصيل ، ومنها الزهد الذى أصبح كالبحر الزاخر للعصور التالية فى الأدب الزاهد ثم الأدب الصوفى على السواء .

* * *

الفصل الثانى

حركة الزهد فى الأدب العربى

(١)

الزهـــــد :

الزهد سلوك إنسانى يخلص النفس بالمجاهدة عما يشغلها من الدنيا ، ويسمو بالروح لتنعتق من أثقال المادة التى هبطت بها إلى الأرض ، فيؤثر الزاهد آخرته على دنياه ؛ وكان الزهد فى عصر الخلفاء الراشدين يمثل لونا واحدًا من ألوان الأدب فى إحياء الجانب الروحى للنفس ، لكنه بعد ذلك صار حركة فكرية وسلوكية وأدبية ، أشبهت حركة الثورة المضادة لما عليه الحكام والأمراء وكثير من الناس ، بعد أن انفتحت عليهم الدنيا ، وأصبح أدب الزهد يمثل فنًا أدبيا ، وغرضًا من أغراض الأدب العربى نما وازدهر ، لينبت الأدب الصوفى من أعماقه ، وتتجمع فى شخصيته المتميزة روافد الأدب الزاهد الأصيل ، ليكون الأدب الصوفى المرحلة التالية له مباشرة ، والنابعة منه عن أصالة وعراقة .

والزهد عقيدة وعمل ، وفكر وسلوك ، يؤمن به الإنسان وسيلة من وسائل المعرفة للإيمان الصادق ، يعزف فيه عن الدنيا ، فيبيع دنياه بآخرته ؛ لكن الإيمان فى الزهد قائم على أساس الرغبة والرهبة ، الرغبة فيما عند الله عز وجل ، والرهبة من انتقامه وجبروته، وقائم أيضا على أساس الرغبة فى الجنة والطمع فيها ، والرهبة من النار والخوف منها ، والزاهد الحق ، هو من كانت الدنيا تحت يديه ، يملك منها ما يريد ، ثم يزهد فيه ، ويعف عنه ، فيصرفه لغيره ، يؤثره على نفسه ، خوفًا من الله ، وطمعاً فى رحمته ، لكنه يكتفى بما يحفظ عليه روحه وجسده ، ليقوى على العمل والعبادة ؛ قيل لعبد الله بن المبارك : يا زاهد ، فقال الزاهد عمر بن عبد العزيز ، إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها ، وأما أنا ففيماذا زهدت [١] ؟

وعلى ذلك فالذى لا يملك شيئًا من الدنيا لا يكون زاهدًا ، لأنه لابد من

---

(١) الإحياء : الغزالى ٤ / ٢١٢ .

أمرين أحدهما مرغوب عنه يتمثل فى متاع الحياة الدنيا ومغرياتها ، والآخر مرغوب فيه يتمثل فى حب الآخرة وإيثارها على الدنيا ، فالعزوف عن شيء والرغبة في شيء آخر ، يسمى زهدًا ، قال الله تعالى : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ إذ الزهد هنا بمعنى العوض المطلق فقد فرط إخوة يوسف فى أخيهم طمعا فى محبة أبيهم بثمن رخيص ، لكن كثر استعمال الزهد عرفا فى العزوف عن الدنيا والرغبة فى الآخرة، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ وهذا البيع خير وأبقى عند الله : ﴿ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ﴾ .

فالزاهد لا يكتفى بترك المحرم والمشتبه فيه فحسب ، لكنه لابد له من المباح وترك ما يعود على نفسه بالنعيم والرفاهية مكتفيا منه بما يحفظ عليه حياته وروحه قال ابن مسعود ﷺ : قال لى رسول الله ﷺ : أنت منهم ، يعنى من القليل قال : وما عرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى : ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ﴾ (١) .

والزاهد الحق حين يبذل ما عنده لا يبذله طمعا فى محبة الناس ، ورغبة منه فى ميلهم نحوه والتفافهم به ، أو يبذله قصدًا للجود والسخاء ، ليقال عنه أنه جواد سخى أو لا يبذله وهو يريد الاستعلاء والفتوة ، حتى يتميز عن غيره بالمروءة والإقدام ؛ فإن التخلق بمثل هذه الأمور بعيد عن الزهد الحقيقى ، ولا مدخل له فى العبادات؛ لأن فعلها من قبيل ما هو مستحسن عند الناس ، وما يجرى مجرى العادة - لا العبادة - فيما بينهم ، قال الغزالى : الزهد من أتته الدنيا راغمة صفوًا عفوًا ، وهو قادر على التنعم بها من غير نقصان جاه ، وقبح اسم ، ولا فوات حظ للنفس ، فتركها خوفا من أن يأنس بها ، فيكون أنسًا بغير الله، ومحبا لما سوى الله ، ويكون مشركا فى حب الله تعالى غيره ، أو تركها طمعًا فى ثواب الآخرة ، فترك التمتع بأشربة الدنيا طمعًا فى أشربة الجنة و . . ، فآثر فى جميع ذلك ما وعد به فى الجنة على ما تيسر له فى

---

(١) رواه البيهقى فى باب دلائل النبوة .

الدنيا عفوًا وصفوًا .. لعلمه بأن ما فى الآخرة خير وأبقى ، وأن ما سوى هذا فمعاملات دنيوية ، لا جدوى لها فى الآخرة أصلاً[1] .

والزاهد فقير دائمًا ، يحرم نفسه من ثروته الغزيرة ، ومن غناه المتجدد ، مثله كمثل الرجل الذى بنى مصنعًا أو متجرًا ، ثم ينفق فى سبيل الله ما يعود عليه من مال ، ولا يبقى فى يده شيئًا منه وهكذا فى كل يوم ، وفى حياته كلها، فهو على هذه الحالة مسكين وفقير ؛ لأن ما فى يده لغيره ولا يملك منه شيئًا ، وبذلك فلا يتنافى الزاهد فى غناه مع المسكين فى حديث رسول الله ﷺ : اللهم أحينى مسكينًا وأمتنى مسكينا واحشرنى مع المساكين ، قال تعالى ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ﴾ والمعنى أيهم أزهد فى الدنيا بعد المعايشة لما فيها من زينة ومتاع ، فيكون الزهد عن ابتلاء وتجربة يختبر فيها الإنسان ، ومنها يخرج زاهدًا ، أو غير زاهد ، فمن زهد شيئًا استغنى عنه وهو فى يديه قال الإمام على رضي الله عنه :

المال مادة الشهوات - طوبى لمن ذكر المعاد ، وعمل للحساب وقنع بالكفاف ، ورضى عنه الله - أشرف الغنى من طلب المنى - من أطال الأمل أساء العمل[2] .

فالغنى أساسه المال ، وهو الأمل للإنسان ، ففيه بقاء حياته ، والزهد إنما يكون فيه ، ولما نزل قوله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ اللهِ** ﴾ قال ﷺ : تبًّا للدنيا ، تبًا للدينار والدرهم ، فقلنا يا رسول الله : نهانا الله عن كنز الذهب والفضة فأى شىء ندخر ؟ فقال ﷺ : ليتخذ أحدكم لسانا ذاكرًا وقلبا شاكرًا وزوجة صالحة تعينه على أمر آخرته »[3] .

قال الحسن البصرى أدركت أقوامًا ، وصحبت طوائف ، ما كانوا يفرحون بشىء من الدنيا أقبل ، ولا يأسفون على شىء منها أدبر ، ولهى كانت

---

(١) الإحياء : الغزالى ٤ / ٢١٤ .
(٢) نهج البلاغة : ٣ / ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٤ .
(٣) رواه الترمذى وابن ماجه والطبرانى وغيرهم .

فى أعينهم أهون من التراب ، كان أحدهم يعيش خمسين سنة أو ستين سنة . لم يطو له ثوب ، ولم ينصب له قدر . . . فإذا كان الليل فقيام على أقدامهم يفترشون وجوههم ، تجرى دموعهم على خدودهم ، يناجون ربهم فى فكاك رقابهم [١] .

فالذكر قوام مذهب الزهاد ، وأساس اتجاههم الروحى ، استغنوا به عن متاع الدنيا؛ فوجدوا فيه متعتهم وأمنهم وهو : « ركن قوى فى طريق الحق سبحانه وتعالى ، بل هو العمدة فى هذا الطريق ، ولا يصل أحد إلى الله تعالى إلا بدوام الذكر [٢] .

قال سفيان : « الزهد فى الدنيا قصر الأمل ، ليس بأكل الغليظ ، ولا لبس الغليظ » ويفصل القول فى ذلك يوسف بن أسباط : لو أن رجلا ترك الدنيا مثل أبى ذر ، وأبى الدرداء ، وسلمان ،ما قلنا له : إنك زاهد ، لأن الزهد لا يكون إلا على ترك الحلال المحض، والحلال المحض لا نعرفه اليوم ، وإنما الدنيا حلال وحرام وشبهات ، فالحلال حساب ، والحرام عذاب ، والشبهات عتاب ، فأنزل الدنيا منزلة الميتة خذ منها ما يقيمك ، فإن كان ذلك حلالا كنت زاهدًا فيها ، وإن كان حرامًا أخذت منها ما يقيمك كما يأخذ المضطر من الميتة ، وإن كان عتابًا ، كان العتاب يسيرًا [٣] .

والزهد أنواع ، والزاهد على درجات يرتقى فيه من درجة إلى درجة أعلى حتى يبلغ النهاية ، وفى النهاية يتحول الزاهد إلى صوفى تبعا للتطور التاريخى من الزهد إلى التصوف عند الصوفية : فأقل درجات الزهد : أن يعزف الإنسان عن الدنيا ؛ ولكنه يشتهى الدنيا ، ويميل قلبه إلى بهجتها . ولولا أنه يجاهد نفسه فى هذا الميل ، ويمنعها منه ، ويكفها عن كل ذلك ؛ لما كان زاهدًا لذلك كانت هذه الدرجة أقل درجات الزهد .

والدرجة الثانية التى تلى الدرجة السابقة فى الفضل : هى التى يعزف

(١) الإحياء : الغزالى ٤ / ٢٢٠ .

(٢) الرسالة القشيرية : الإمام القشيرى ١٠١

(٣) عيون الأخبار : ابن قتيبة ٢ / ٣٥٧ .

الزاهد فيها عن الدنيا ؛ ويعف عما يشتهى منها ، من غير ميل إليها : فهو لا يحتاج إلى مجاهدة نفسه ، لكنه يعجب بزهده ويرى عزوفه ؛ وكأنه يزهو به : ويلتفت إليه ، ويحسب أنه بهذا قهر نفسه ؛ فهو مشغول بأمر الزهد يتعلق به فى كل حين .

أما أسمى درجات الزهد وأعلاها فهى الثالثة : لا يرى الزاهد فيها زهده فهو يصدر من نفسه عن طبع ؛ ويعف عن الدنيا طوعا ، ويرى أنه ما ترك شيئًا من الدنيا ، ولا عزف عن شيء منها ، ويرى فيه الإمام على رضي الله عنه الزهد الأمثل حيث يقول : أفضل الزهد أخفى الزهد (١) .

قال الإمام الغزالى فى الثالث : فهذا هو الكمال فى الزهد ، وسببه كمال المعرفة ، ومثل هذا الزاهد آمن من خطر الالتفات إلى الدنيا ، وقسم الزهد إلى ثلاثة أقسام : قسم مرغوب فيه النجاة من النار ؛ وقسم ثان هو الرغبة فى ثواب الجنة . والقسم الثالث وهو أعلاها : أن تكون الرغبة فى الله وفى لقائه . وهذا زهد المحبين . وهم العارفون (٢) .

وأسمى درجات الزهد ؛ هى الدرجة الرفيعة التى يقوم عليها التصوف . ويتخلق بها الصوفى : الذى يبغى من وراء زهده الله عز وجل ؛ وفى الرضا عن الله الزهد الحقيقى : قال أبو سليمان الدارانى : الرضا عن الله . والرحمة للخلق درجة المرسلين ، وما تعرف الملائكة المقربون حد الرضا ؛ وقال : أرجو أن أكون قد نلت من الرضا طرفا ؟ لو أنه تبارك وتعالى أدخلنى النار كنت بذلك راضيا : وقال الفضيل بن عياض : أصل الزهد الرضا عن الله(٣) وقال إبراهيم بن أدهم : ارض بالله صاحبا ، ودع الناس جانبا (٤) .

وسيكون الحديث هنا عن أدب الزهد بعد الخلفاء الراشدين ، فى المرحلة

---

(١) نهج البلاغة : ٣ / ١٥٦ .

(٢) الإحياء : ٤ / ٢٢١ . (٣) عيون الأخبار : ابن قتيبة ٢ / ٢٥٨ ، ٢٥٩ .

(٤) طبقات الصوفية : أبو عبد الرحمن السلمى م ٤١٢ هـ : ٣٧ تحقيق نور الدين شربية - دار الكتاب العربى ١٩٥٣ م .

التى انتهت بالزاهد إلى استواء الفكر الصوفى عنده ، ونضج أدبه الروحى حين تحددت له معالمه وخصائصه الفنية ؛ التى تميز بها عن مرحلته الأولى فى أدب الزهد .

* * *

(٢)

دوافع حركة الزهد فى الأدب :

حين استقر الحكم لبنى أمية فى ملك عضود ، تضافرت عوامل كثيرة ساعدت على انتشار الزهد ، ليمثل آنذاك حركة روحية مضادة للهو والترف والإسراف فى ملكهم ، ويحمل فى أدبه ثورة هادئة تبصر الناس بدينهم ، وترجع إلى ما كان عليه رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده ، وتحقر لهم شأن الدنيا ، وهو أن ما فيها من متاع زائل ، وترشدهم إلى أن ما هو عند الله خير وأبقى ، فانتشرت حركة الزهد من حكم بنى أمية إلى تميز الأدب الصوفى فى القرن الثالث لدوافع كثيرة من أهمها :

١ - **النظام السياسى فى الحكم**: كان النظام غريبًا لم يألفه المسلمون فى حكم السلف الصالح قبلهم ؛ حيث كانت الخلافة تقوم على الشورى غالبًا ، أو على اختيار الحاكم الذى يصلح للحكم ولو بالتعيين : كما حدث بالنسبة للخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، دون نظر إلى قرابة أو نسب ، أو عراقة سياسية فى الجاهلية ، أو قصرها على بيت سليل فى الحكم ، واختلف الأمر فى حكم بنى أمية ، فاستولى معاوية بن أبى سفيان على الخلافة ، وجعلها فى بيته ملكا عضودا ، يتوارثه أبناء بنى أمية من بعده من (عام ٤١ - ١٣٢ هـ ٦٦١ - ٧٥٠ م) ونقل عاصمة الحكم من المدينة إلى دمشق [(١)] .

وهذا النظام السياسى الجديد أغضب كثيرًا من المسلمين لخروجه على ما كان عليه السلف الصالح فى الحكم ، ولمجافاته للتشريع السياسى الإسلامى ،

---

(١) تاريخ الطبرى : ٢ / ٧٨ ، ٤٦٩ ، وطبقات ابن سعد : ٥/ ٦٨ .

من حيث شكله الجديد ، وانشقاق البيت الأموى على نفسه ما بين متعصب لبنى سفيان أو متعصب لبنى مروان ! ولذلك كانت الحياة السياسية ثائرة ، فانشقت الأمة الإسلامية على أنفسها، تعارض الحكم الأموى المغتصب الذى مكن اللهو والترف منها ، وأشعل فيها نار الحروب بين بنى أمية وبين الأحزاب المناوئة لها طمعا فى الحكم لنفسها أو هدمه، وتأسيس دولة إسلامية تسير على نهج الخلفاء الراشدين ، وكانت من داخل هذه الأحزاب المختلفة ! وفى غيرها من عامة الناس كانت طبقة الزهاد ، لا يجمعهم حزب واحد ، بل تجمعهم حركة الزهد تهدئ من هذا الطغيان الجارف ، وتقف دونه بالنصح والوعظ والإرشاد إلى النظام السليم فى الحكم وإلى العزوف عن الدنيا .

٢ - **الصراع بين الأحزاب** : مزقت الحروب الداخلية وحدة المسلمين بسبب الحكم بعد مقتل عثمان بن عفان ﷺ ، ومن يومها نبتت الأحزاب فى دولة الإسلام تعارض حكم بنى أمية ، ومن أهم هذه الأحزاب : الزبيريون ، والخوارج والشيعة ، والمهالبة ، وكان لكل حزب أتباعه وأنصاره وجيشه الذى يدافع عنه ، وأثخنت الأمة بحروب ساخنة تعرض فيها كبار الصحابة للقتل والتمثيل ، وذلك طمعًا فى تغيير الملك وإسناده إلى غير بنى أمية سواء أكان لرجل من الأحزاب أنفسهم أو من المسلمين بصفة عامة، ترضى عنه الأمة كلها ولو كان قنًّا ، وهذه الأحزاب وإن كانت فى الظاهر تطالب بالعدالة فى الحكم وإصلاح أمر الحكومة والمسلمين إلا أنها فى الحقيقة أحزاب سياسية، تريد أن تسيطر على الحكم، وتملك زمام الدنيا كما عض عليها بنو أمية بالنواجذ [١] . وهذا ما دعا الزهاد إلى انصرافهم عن الدنيا ، وابتغاء الحق حيث كان ، لقد كان لبعض الزهاد من الخوارج أدبا فى الزهد يفيض حرارة وصدق إيمان لأن الخوارج كانوا غالبًا لا يلقون بالا إلى الدنيا ، ولا يبغونها من وراء حروبهم وخروجهم؛ لذلك نشط الزهد ، يسخط على هذه الحروب ، التى تدل على حرص الإنسان فى الدنيا والاهتمام بمظاهرها الفانية .

٣ - **إحياء العصبيات القبلية** : مكنت سياسة بنى أمية من إفلات

---

(١) انظر الفرق : البغدادى ، وتاريخ الإسلام السياسى : دكتور حسن إبراهيم ، والملل والنحل : الشهرستانى .

العصبيات القبلية بعد أن أسكتها الإسلام ، وطلت من مكامنها تؤرث نار المفاخرات ، والمنافرات من جديد ، لتستعر الحروب بين الأصلين الكبيرين : المضرية ، واليمنية ، وخاصة بعد أن أصهر معاوية إلى اليمنية ليأمن جانبها ، ويعتز يزيد بعد ذلك بأخواله اليمنيين، ويفاخر بهم، وتأججت الخلافات العصبية بين شعب المضرية من تميم وقيس وربيعة ، ثم بين فروع كل شعبة منها بين بكر وتغلب ، ودارم ، ويربوع وغيرها من الفروع ، ودارت حروب بين المضرية واليمنية فى واقعة مرج راهط المشهورة، وحروب قيس وتغلب المشهورة ، ثم المنافرات والمفاخرات بين شعرائها فى المرْبد والكُناسة ، وقد أيقظنا سوق عكاظ فى الجاهلية ، وكان السعار فى مناقضات أدبية بين الفرزدق من دارم وجرير من يربوع . وكلاهما من تميم ، ودارت المعارك الأدبية فى المفاخرات بين جرير وبين كل من الراعى وهو قيسى . والأخطل وهو تغلبى [1] .

والزهد يحيا فى ظل هذه العصبيات البغيضة . التى حاربها الإسلام . وقضى على منافراتها ومفاخراتها ، ومقتها ونفر الناس منها . وأنكرها الزهاد فى عصر بنى أمية ، وزاد إقبالهم على العبادة ، وإنكارهم للدنيا ، التى تستبق إليها القبائل طمعا فى مغانمها وحرصا عليها .

٤ - **التناقض الاقتصادى** . سبق تحذير الرسول ﷺ وكبار الصحابة للمسلمين من الدنيا بعد أن تنفتح عليهم فى الروم والفرس ؛ فشغلتهم واقتنوا الدور والضياع فى الأمصار . وجمعوا الأموال ، وكذلك بذل بنو أمية المال عن سخاء . لقطع ألسنة الشعراء . وتجنيدها لمدحهم والثناء عليهم . وأغدقوا العطاء على أهل الحجاز والمدينة ، لينغمسوا فى الترف والنعيم . فلا يشتغلوا بأمر الخلافة . فتضاعف عطاء الحسن والحسين رضي الله عنهما إلى مائتى ضعف عما كان يعطيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه . وأصبح للشعر والشعراء سهم من الغنائم فى الحروب ، وعطاء فى بيت المال . وهذا لم يكن موجودًا قبل بنى أمية،

(١) انظر النقائض بين جرير والفرزدق لأبى عبيدة ، والنقائض بين جرير والأخطل لأبى تمام ، وتاريخ النقائض فى الشعر العربى : دكتور أحمد الشايب .

وبجانب هذا ينتشر العوز فى البوادى ويشتد الفقر بأهلها · ويفر أهل القرى حول العراق من عسف الولاة،وظلم جباة الخراج إلى المدن ويعسكرون فيها[1].

وأدى هذا التناقض إلى نشاط حركة الزهد عند الزهاد ، وخاصة فى العراق والبصرة، حيث لقى بعض الناس فيها من قسوة الولاة ، وظلم الجباة ، فزهدوا فى الدنيا واكتفوا بالقليل منها ، ولقد قتل الحجاج منهم صبرا وغيلة مائة ألف وعشرين [2] ، وهذا مما دعا البعض إلى الزهد، ليتخلصوا من غدر الولاة وظلمهم ؛ لذلك كثر النساك والزهاد فى العراق والبصرة والكوفة [3] .

٥ - **انتشار الزهد فى العراق** وما حولها يكشف عن ظاهرة أخرى فى حكم بنى أمية وهى الاعتزاز بالعرب ، وإبعاد العجم عن المشاركة فى أمر الدولة والجيش ، فاضطهدوا الموالى ، ومنعوهم من التزوج بالعربيات ، وقد تزوج أحدهم بامرأة من بنى سليم ، ففرق إبراهيم بن هشام بينهما، وضربه مائة سوط ،وحلق رأسه وحاجبيه [4] ، وكانوا يحتقرونهم ، ويتقدمونهم فى المواكب، ذكر ابن عبد ربه أن نافع بن جبير كان إذا مرت به جنازة قال : من هذا ؟ فإذا قالوا قرشى ، قال : واقوماه ، وإذا قالوا عربى · قال : وابلدتاه ، وإذا قالوا : مولى ، قال : هو مال الله ، يأخذ ما شاء ويدع ما شاء [5] .

والإسلام لا يعرف التفرقة بين جنس وآخر ؛ فالكل سواسية لا فرق لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ؛ فهو يدعو إلى المساواة ، لا إلى الشعوبية والتمايز ، لذلك كره بعض الموالى وغيرهم من الزهاد بنى أمية وحكمهم ، وزهدوا فى الدنيا التى دفعت هؤلاء إلى التفاخر بالنسب العربى ومن أجل عرضها الزائل ·

٦ - **انتشار القصص الدينى فى العصر الأموى فى الأمصار** ، وشجع الخلفاء القصاصين ، لاشتغال الناس بالقصص ، وميلهم إليه ، حتى ينصرفوا عن التفكير فى أمر السياسة والحكم ، وكان من بين القصص الذى يهواه الناس

---

(١) الطبرى الجزء الثانى ، وتاريخ اليعقوبى الجزء الثانى ·

(٢) العقد الفريد : ابن عبد ربه ٣ / ٣١ ·

(٣) البيان : الجاحظ ١ / ١٩١ ، ٣ / ٤٤٧ ، ٤٨٢ ·

(٤) العقد الفريد : ابن عبد ربه ٢ / ٥٣ ·

(٥) المرجع السابق ٢ / ٩١ ·

فى المجالس العامة والمساجد القصص الدينى ، والوعظ الروائى ، الذى يتناول أخبار الصالحين ، والأنبياء السابقين ، والأولياء الذين أخلصوا دينهم لله، وأخبار الزهاد فى الأمم الغابرة ، وفى بنى إسرائيل ، ومواقف الزهد لعيسى عليه السلام، وما أثر من الزهد عن بعض الصحابة رضوان الله عليهم، واشتهر بالقصص الدينى وبالوعظ فيه الحسن البصرى، الذى كان يجالس به الناس فى المساجد، أو يتحدث به عند الحكام والخلفاء والأمراء والولاة، يعظهم، ويذكرهم بأمر الدنيا. ويوجههم إلى ما فيه صلاحهم فى الدنيا والآخرة.

ومثل هذا القصص الدينى قد ساعد على نمو حركة الزهد وانتشاره ، وذيوع أدبه، ثم مكانة الزهاد فى نفوس المسلمين ، ومنزلتهم العالية عند بعض الحكام سواء أكان فى العصر الأموى مثل مقامات الزاهد لمحمد بن كعب القرظى بين يدى عمر بن عبد العزيز (١) ، ومقامات الأوزاعى بين يدى الخليفة المنصور فى العصر العباسى (٢) .

واشتمل الوعظ أيضا على ما جاء فى القرآن الكريم من سور وآيات تقوى الزهد، وتنهض به وخاصة ما اشتمل على وصف الدنيا ، والتهويل من شأن النار وعذاب أهلها ، والترغيب فى الجنة ونعيم أهلها ، ثم أحوال القيامة والبعث ، والحساب والميزان والصراط ، والشعور بالإثم، وطلب الغفران من الله وغير ذلك، مما يحرك الزهد فى نفوس المسلمين آنذاك بعد أن انغمسوا فى الدنيا ، وأخذتهم بما أقبلت عليهم من مشارق الأرض ومغاربها (٣) .

٧ - شجع بعض الخلفاء الزهد ، وقربوا إليهم الزهاد ، بل كان منهم الزاهد، وذلك مثل الخليفة الأموى الزاهد عمر بن عبد العزيز، إذ قرب إليه الزهاد ليذكرونه ويعظونه ومنهم الحسن البصرى ، ومحمد بن كعب القرظى (٤) ومثل بعض الولاة : عمر بن هبيرة الذى قرب إليه الحسن البصرى (٥) .

---

(١) عيون الأخبار : ابن قتيبة ٢ / ٣٤٣ . (٢) المرجع السابق ٢ / ٣٣٨ .
(٣) حلية الأولياء : أبو نعيم ٦ / ٣٦٢ . (٤، ٥) عيون الأخبار : ابن قتيبة ٢ / ٣٤٣ .

وكان عمر بن عبد العزيز يستشير الحسن البصرى فى أمره، ويطلب منه النصيحة ،ويتأثر بما يقول فى الدنيا والحكم [1] .

ونزل هذا الخليفة على حكم الحسن البصرى ورغبته ، حيث طلب منه أن يعين عدى بن أرطأة واليا على البصرة ، لأنه يحب الزهاد ، ويقرب إليه القراء ، ويشاورهم الأمر فى حكمه ، فاستجاب عمر بن عبد العزيز لرأيه وعينه كما أراد الحسن ، وفى هذا دليل على مدى العناية والاهتمام بالزهد والزهاد من الخليفة [2] .

ونشطت حركة الزهد فى العصر الأموى وما بعده لهذه العوامل وغيرها مما يرجع بوجه عام إلى الحياة السياسية ، والفوارق الاجتماعية ، والجانب الروحى ، والتناقض الاقتصادى ، والطبقات الشعوبية والجنسية ، والعصبيات القبلية ، والمجادلات الفكرية ، والفرق الكلامية والأحزاب السياسية وما يدخل تحتها من دوافع كثيرة تلتقى جميعها بالحرص على المال ، والاشتغال بالدنيا ، والانغماس فى ملذاتها وشهواتها ، مما ساعد على تكثر الزهاد ، واشتغالهم بالزهد ، لتذكير هؤلاء وهؤلاء بما كان عليه الرسول ﷺ ، وما التزم به الخلفاء الراشدون من بعده الذين ساروا على نهجه واتبعوا سنته ، وعفوا عن الدنيا وزهدوا فيها .

أدب الزهد :

كان للعوامل السابقة أثر كبير فى تمكين الزهد من نفوس الصالحين ، وفى تكثر الزهاد ، فأصبح لهم أدب يمثل اتجاههم ، وتنسكهم ، يقف بجوار الأغراض الشعرية الأخرى ، وكان أدب الزهد شعرًا ونثرًا ؛ لكن الشعر ما يزال دون النثر الأدبى فيه ؛ إذ كان الشعر فى أبيات منثورة ، أو مقطوعات قصيرة ، ظهرت فيه بعض خصائص روحية أثرت فى الأدب الصوفى بعد ذلك ، فنرى إبراهيم بن أدهم يخر مغشيًّا عليه حينما يسمع رجلا يغنى بهذا الشعر الزاهد .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز : ١٢٤ .

(٢) صفة الصفوة : ابن الجوزى ٢ / ٨٦ .

كلُّ ذَنْبٍ لك مغفُــو ... رٌ سِوى الإعْراضِ عنّا
قَدْ وَهَبْنَــا لَكَ مَا فَا ... تَ فَهَبْ مَا فَاتَ مِنَّا (١)

لأنه صادف هوى من نفسه ، وتلاقى مع روحه ، حيث يرى الصوفى أن الله يغفر كل الذنوب إلا ذنبًا كبيرًا · وجرمًا واحدًا وهو الإعراض عن الله عز وجل فهو ذنب لا يغفر ، وهذا المعنى ينشده الصوفى فى أدبه ، ويبغيه من اتجاهه الروحى ·

وقال آدم بن عبد العزيز :

وَإِنْ قَالَتْ رِجَالٌ قَــدْ تَوَلَّى ... زَمَانُكم وَذَا زَمَنٍ جَدِيــدُ
فمَا ذَهَبَ الزَمانُ لنا بِمَجْدٍ ... وَلَا حَسَبٌ إذا ذُكِرَ الجُدود
وما كُنَّا لِنَخلُدَ إِذْ مَلَكْنــا ... وأىُّ الناسِ دَامَ له الخُلود (٢)

فى حوار أدبى يصور مصير الإنسان مهما بلغ من مجد ، وسما بحسب ونسب ، وشيد القصور ، فمصيره سيكون مثل مصير أجداده وآبائه ، الذين مضوا ، ولم يخلدهم مجدهم وحسبهم ، كما أنه لن يخلد فى الحياة أحد ·

ويقول الطِّرِمَّاح بنَ حكيم وهو من شعراء الخوارج الذين زهدوا فى الدنيا وتمنوا الموت فى سبيل الله :

لله درُّ الشُّـــراةِ إِنَّهـــم ... إِذا الكَرَى مَالَ بالطَّلا أَرِقُوا
يُرجِّعُـــــونَ الحَنِينَ آونةً ... وإِنْ عَلَا ساعةً بهم شهقـوا
خوفًا تبيتُ القَلوبُ واجفَةً ... تكَادُ عنْها الصُّــدُورُ تَنْفَلِقُ
كيف أُرَجِّى الحياةَ بعدهُمُ ... وَقَدْ مَضَى مُؤْنِسى فانطلقوا (١)

(١) الإحياء : الغزالى ٤ / ٣٢٦ ، الكشكول : العاملى : المطبعة الشرقية ١٣٠٢ هـ ·
(٢) البيان : الجاحظ ٢ / ٤٨٦ - وهو آدم بن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموى وكان ماجنا فتنسك - الأغانى : ١٤ / ٥٨ ·
(٣) ديوان الطرماح بن حكيم ·

فالشراة هم الخوارج الذين باعوا أنفسهم لله عز وجل حبا فى سبيله ، إنهم يعكفون على أجزاء القرآن ، وتتقلب أبدانهم فى العبادة ، تسمع منهم فى الليل أنات الحنين إلى ربهم؛ فإذا علا بهم الحنين خوفًا من ربهم ، وطمعًا فى رحمته شهقوا شهقة ،تنصدع منها صدورهم، ولن يطيق الشاعر أن يعيش بعدهم ، فلا خير فى حياة رحل عنها إخوان له فى الله ، فما عليه إلا أن يرحل منها ، ليأنس بهم ، وينعم معهم بالفوز عند ربهم .

ويقول شاعرهم عِمْران بن حَطان فى مثل هذا المعنى .

لَقدْ زَادَ الحَياةَ إلىَّ بغضًا ... وَحُبًّا لخروجِ أبو بـــــلال
أُحاذرُ أنْ أموتَ على فِرَاشِى ... وَأَرْجُو الموتَ تحتَ ذُرَا العَوَالى
ولو أنِّى عَلِمْتُ بأَنْ حَتْفِى ... كَحَتْفِ أَبى بلال لم أبالى
فمنْ يَكُ هَمُّهُ الدُّنْيا فإنى ... لهـا واللهِ ربِّ البيْتِ قَالى

ويقول شاعرهم أيضًا قطرى بن الفجاءة يخاطب نفسه :

أقولُ لها وقد طَارَتْ شَعَاعا ... من الأَبْطالِ وَيْحَك لَنْ تُرَاعى
فَإنَّك لَوْ سَأَلْت بَقَاءَ يوم ... عَلى الأَجَلِ الذى لَك لَمْ تُطَاع
فَصبرًا فى مجالِ الموت صبْرًا ... فَما نَيْلُ الخُلود بمُسْتطاع
ولا ثَوْبُ البقاءِ بثوبِ عِزٍّ ... فَيُطْوَى عَنْ أخَى الخَنْع اليَراع
سبيلُ الموت غايَةُ كلِّ حَىٍّ ... فَداعيه لأَهْلِ الأرضِ دَاع
ومن لا يُعْتَبط يَسْأمْ ويَهْرَمْ ... وَتُسْلَمْهُ المَنُونُ إلى انقطاع
وما لِلْمرءِ خَيْرٌ فى حياةٍ ... إذا ما عُدَّ مِن سَقَطِ المتاع (١)

فالشاعر يخاطب نفسه غير هياب من الموت، فعليها أن تصبر فى مجاله ؛ لأن القضاء حتم والموت حق ، فلن تستطيع الخلود مهما تحفظت وفرت من ميادين الجهاد والشرف،ولن تظن أن فى البقاء عزًا لها، لأن الموت هو نهايتها ، ونهاية كل حى ؛فالمفاجأة للنفس هنا، وترويضها استعدادًا للقاء الله ، والصبر فى سبيل ذلك ، وطلب الموت فى جهاد النفس مع ربهـا ، وفى سبيل انتصار

---

(١) الأمالى : أبو على القالى .

الحق ، كل هذا من خصائص الأدب الزاهد فى هذا العصر ، استمد منه الأدب الصوفى سماته وخصائصه .

ومن الشعراء من زهد فى عطاء بنى أمية من بيت المال الذى خصص للشعراء ، ووجه شعره زاهدا فى الدنيا إلى آل البيت وبنى هاشم من آل رسول الله ﷺ ، وهو الكُمَيْتُ الذى يقول :

فقلْ للذى فى ظلِّ عَمْياءَ جُونة ... ترى الجورَ دلاً أَيْنَ لا أينَ تَذهب
بأىِّ كتـــــاب أمْ بأيَّة سُنَّة ... ترى حبَّهم عارًا علىَّ وتَحْسب
فَمَالِى إلاَّ آلُ أحمَـــــدَ شيعةً ... ومالىَ إلا مشْعَبُ الحقِّ مشعب
وَمَنْ غيرَهم أَرْضَى لنفسى شيعةً ... وَمَنْ بعدَهم ؟ لا مَنْ أَجَلُّ وأرْحَب
يَعِيبونَنِى من حبهم وضــــلالهم ... على حُبكم بل يسخرون وأَعْجَبُ
وقالوا تُرابىٌّ هـــــواهُ ورأيه ... بذَلك أُدْعَى فيهـــــمُ وأُلقَّبُ
وَأحْملُ أحْقَادَ الأقاربِ فيكُمُ ... ويَنصب لى فى الأبعدَيْن فأُنصَب
فيا مُوقدًا نارًا لغيرك ضوءها ... ويا حاطبًا فى غيرِ حَبْلك تَحْطب
ألمْ تَرَنى منْ حُبِّ آل محمد ... أَرُوحُ وَأغْدُو خَـــائفًا أترقَّب
على أىِّ جُرْمٍ أمْ بِأَيَّةِ سِيرَةٍ ... أُعنَّفُ فـــــى تَقْرِيظِهم وَأُؤَنَّبُ

يقول الدكتور زكى مبارك . ولا مفر من الاعتراف برقة الحنين فى البائية، فقد بلغ الشاعر بحبه أقصى غايات التصوف (٢) .

تمكن الحب من قلب الشاعر لآل البيت ، فملك عليه حياته ، وأصبح لا يرى غيرهم ، فهم شيعته . يسير على سنتهم . وفى طريقهم . طريق الكتاب والسنة . فقلبه موصول بحب محمد ﷺ وآله بالليل والنهار حين يروح ويغدو .وهل فى هذه المحبة عار عليه ؟ وهل فيها ظلم لغيره ؟

---

(١) الكميت بن زيد الأسدى المضرى الكوفى ، متشيع لبنى هاشم اضطهده بنو أمية وسجنوه مات سنة ١٢٦ هـ .

(٢) المدائح النبوية : ١٠٠ .

والكميت أسبق الشعراء فى الثورة على تصدير القصائد ببكاء الدمن والأطلال واستعاض عنها بالحنين إلى آل البيت . فزهده فى المطالع الجاهلية محبة لآل البيت قال :

طَرِبْتُ وَمَا شَوْقًا إلى البِيدِ أَطْرَبُ ولا لَعِبًا مِنِّى وذُو الشوْقِ يَلْعَبُ

ويقول عبد الله بن المبارك فى أخلاق الزهاد وآدابهم :

الصَّمْتُ أَزْيَنُ بالفَتى من مَنْطِقٍ فى غيرِ حِينِه
والصدقُ أجملُ بالفتى فى القولِ عِنْدى مِنْ يَمِينِه
وَعَلَى الفَتَى بوقَاره سِمَةٌ تلوحُ عَلَى جَبِينِه
فَمنْ ذَا الذى يَخْفَى عَلَيْكَ إذا نظرتَ إلى قَرِينه
ربّ امرىءٍ مُتَيَقنٍ غَلَبَ الشَّقاء على يَقِينه
فَأزَاله عن رأيه فابْتَاع دُنياه بدينه (١)

فالصمت هو شعار الزاهد ، لأن قلبه مشغول بما هو أعظم من الثرثرة من غير داع وإذا اضطر إلى الكلام ، فحديثه الصدق ، لا يحتاج إلى دليل أو حلف ، وبالصدق والصمت يكون وقاره ، كأنه فى محراب العبادة، يصلى طوال حياته إذا رآه الإنسان، وقلبه فى الحقيقة متأجج بالمحبة ، مشغول بالله ، فى صراع دائب بين الشك واليقين؛ لينتصر على الشك ، ويؤمن بالله عن يقين فيبيع دنياه بدينه ، ويشترى آخرته بدنياه ، فالصمت ، والصدق ، والوقار ، واليقين ، والزهد فى الدنيا من صفات الزهاد، ومن أحوال التصوف فيما بعد .

وسيتناول الصوفية فيما بعد مسألة اليقين بالبحث والتفهم ، ويرتبون عليها نتائج لها كل القيمة فى الحياة الروحية (٢) .

قال مِسْعر بن كدام :

أَلاَ قدْ فَسَدَ الدهرُ فَمَا ضَحى حُلْوهُ مُرًّا

(١) حلية الأولياء : أبو نعيم ٨ / ١٧٠ .

(٢) التصوف فى الشعر العربى : الدكتور عبد الحكيم حسان ١٧٩ .

وقد جَرَّبْتُ مَنْ أَهْوَى فقد أنكَـــرتُهمْ طُرًّا
فأَلْزِمْ نَفْسَــك اليأسَ من الناسِ تَعِشْ حُـرًّا

ويقول أيضًا :

تَفْنى اللَّذاذةُ ممنْ نَالَ صَفْوتَها مِنَ الحرامِ ويَبْقَى الإثْمُ والعارُ
تبقى عواقبُ سوءٍ مِنْ مَغبَّتِها لا خيرَ فى لذَّةٍ من بعدها النارُ

كان مسعر يقول : لولا أمى لما فارقت المسجد ، إلا لما لابد منه ، وكان إن دخل بكى ، وإن خرج بكى ، وإن صلى بكى ، وإن جلس بكى ، وسئل عن بكائه فقال : القيامة وما فيها (١) .

إنه قد جرب الحياة فوجدها مرة على الرغم من حلاوتها عند الناس واعترك الناس وأحبهم ، ولكنه وجد فى حبهم عبودية لهم ، وعرف أن محبة الله هى التى تجعله حرا ، وتفك رقابه من الناس والحياة ، وما فائدة الانغماس فى الدنيا والتنعم بملذاتها وشهواتها ، مادامت النار هى العاقبة .

وهو الذى آثر الجوع ليواصل العبادة ، وكره الطعام الذى يعين على النوم، ويقطع الصلة بين العبد وربه ، فيغفل عن ذكر الله يقول :

وجدتُ الجوعَ يطردُه رغيفٌ وملْءُ الكَفِّ مِنْ ماءِ الفُراتِ
وقُلُّ الطَّعْم عَوْنٌ للمصلــى وكُثْرُ الطَّعْمِ عَوْنٌ للسَّبات (٢) .

وترى من خصائص الزهد هنا : فساد الدنيا ، ومرارة حلاوتها ، ومحبة الله ، لا الاشتغال بالناس ، والاعتكاف لله ، والصمت ، والفقر ، والخوف من الحرام، والبعد عن الإثم، والرهبة من النار ، وغيرها . وميمونة السوداء الزاهدة تقول: ما من عبد أعطى من الدنيا شيئا ، فابتغى إليه ثانيًا إلا سلبه حب الخلوة معه ، وبدله بعد القرب البعد ، وبعد الأنس الوحشة ثم أنشأت تقول :

---

(١) صفة الصفوة : ابن الجوزى ٣ / ٧٣ زاهدًا من التابعين مات ١٥٥ هـ .
(٢) حلية الأولياء : أبو نعيم ٧ / ٢١٩ .

يا واعـــظًا قَامَ لاحْتساب ... يَزْجُرُ قومًا عــــن الذّنوب
تَنْهَى وأنتَ السقـــيمُ حقاً ... هذا مـــن المُنْكرِ العَجيب
لو كنتَ أصلحْتَ قبـــل هذا ... عَيبَك أَوْ تُبْتَ مِنْ قَريب
كانَ لِمَا قُلْتَ يا حبيـــبى ... موقعَ صـــدق من القلوب
تَنْهَى عـــن الغَىِّ والتمادى ... وأنت فى النهْىِ كالمريب (١)

الأبيات تصور الزاهد الحقيقى ، الذى يصلح نفسه أولا قبل أن ينصح غيره؛ فيتزين بالصلاح ، وينكر كل عيب ، وتبرأ روحه من السقام ، وتطهر من الذنوب، عند ذلك إذا وعظ أخذ بمجامع القلوب ، وإذا نصح استولى على النفوس ،ووقع قوله موقع الصدق والاعتقاد ، والحب واليقين .

ويقول الإمام الشافعى ﷺ فى الدعاء :

أَتَهْزَأُ بالدُّعاء وتَزْدَريه ... وما يُدْريكَ ما فَعَلَ الدُّعاء
سِهَامُ الليل لا تُخْطِي ولكنْ ... لَهَا أمدٌ وللأمَد انتهاء
دُعَا المظلومُ ليس له مَرَدٌّ ... ولا حُجُبٌ تقيه وَلاَ سَماء
وكم أفْنَى وَدمَّرَ مِنْ ملوك ... أبادَهمُ به لَمَّا أساءوا
وصاروا عِبْرَةً للخَلْق لمَّا ... أحَاطَ بهمْ منَ الله البلاء
فلا تغرُرْكَ أيامٌ حسَانٌ ... ولا تَظْلم فَإنَّ لهَ جزاء
فإن اللهَ يا هذا غَيُور ... فلا يُهْملُ إذا رُفِعَ الدُّعاء(٢)

والدعاء هو مخ العبادة ، وهو الرباط الذى يصل الزاهد بالله عز وجل وصلاً لا ينقطع ، وفى الدعاء مناجاة ، وتضرع إلى الله ، والمناجاة من مقامات الأدب الزاهد والصوفى ويقول فى ذم الدنيا :

وَمَنْ يَذُقْ الدنيا فإنى طَعمْتُها ... وَسِيق إلينـــــا عَذْبُها وعَذَابُها
فلم أرَها إلا غُرورًا وَبَاطِلاً ... كما لاَحَ فى أرضِ الفَلاةِ سَرَابُها

(١) صفة الصفوة : ٣ / ١٢٢ .

(٢) السمو الروحى فى الأدب الصوفى : أحمد عبد المنعم عبد السلام الحلوانى ص : ٤١٧ - هو الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعى يتصل نسبه برسول الله، وهو صاحب المذهب الشافعى فى الفقه ولد بغزة وعاش فى مكة ومات بمصر ٢٠٤ هـ .

قال مُساورُ الورَّاق لابنه :

شَمِّرْ قميصَك واستَعِدَّ لقائلٍ واحْكُكْ جبينَك للقضاءِ بثُوم
واجعل صِحابَك كلَّ حَبْرٍ ناسك حَسَنَ التعهد للصلاة صؤوم
مِنْ ضَرْبِ حَمَّادٍ هناك ومِسْعَرٍ وسِمَاك العَتَكى وابنُ حكيم
وَعَلَيْكَ بالغَنَوِىِّ فاجلِسْ عنده حتى تنالَ وديعةً لِيَتِيم (١)

ينصح ابنه بملازمة الزهاد ، والتعلم على أيديهم ، والإفادة من علمهم وصلاحهم . وليواصل العبادة ويقوم الليل ، عليه أن يحك جبينه بالثوم ويكتحل بالملح ليساعده ذلك على السهر ، وحماد ، ومسعر بن كدام ، والسماك وابن حكيم أئمة فى الزهد .

وهو الذى ذكر كلمة التصوف فى شعر له يقول فيه :

تَصَوَّفَ كَىْ يُقَالُ لهُ أمِينٌ وما يَعْنِى التَّصَــوُّفَ والأَمَانة
ولم يُرِدْ الإله بهُ ولكــن أرادَ به الطريقُ إلى الخِيانة (٢)

وقال عُرْوةُ بن أُذَيْنَةَ الكنانى :

نَرَاعُ إذا الجنائزُ قابَلَتْنَا وَيُحزِنُنَا بكــاءُ الباكيـــات
كروْعةِ ثُلَّةٍ لِمغَار ذئبٍ فلما غابَ عَادتْ راتِعات (٣)

ينعى الشاعر على أولئك الذين لا يعرفون ربهم إلا إذا مرت بهم جنازة أو أحدق بهم الموت، عند ذلك يخافونه ، ويهابون مصيرهم مثلهم فى ذلك كمثل الأنعام أو قطيع الشياه ، ترتاع من الذئاب وتفزع منها ، فإذا ما أمنت على نفسها ، عادت كما كانت . تسرح وتمرح ، وتعدو هنا وهناك ، فما أشبه هذا الإنسان بالحيوان الذى لا يعقل ، أما المؤمن الحق هو الذى يعرف ربه فى

---

(١) البيان : الجاحظ ٣ / ٤٧٥ .
(٢) العقد المفريد : ابن عبد ربه : ٣ / ٢١٧ .
(٣) البيان : الجاحظ ٣ / ٤٨٦ .

كل حين ، ويترقب الموت فى كل لحظة ، تلك صفة الزهاد ، الذين لا تفتنهم الدنيا كما تهيم الشياه بالمرعى ، لا تذكر الموت إلا حين يهجم عليها الذئب .

ويقول ابن أذينة أيضا :

ولقد علمتُ وما الإسرافُ من خُلُقى ... أَنَّ الذى هو رِزْقى سوف يَأْتينى
أَسْعَى لــــــــه فَيُعَنِّينى تطلُّبه ... ولو جلستُ أتانى لا يُعَنِّينى
وإن حظ امرئٍ غيرى سيبلغه ... لابُدَّ لابُدَّ أَنْ يجتازَه دونى
لا خَيْرَ فى طَمَعٍ يُدْنِى لِمَنْقَصَة ... وغيرُه من كفافِ العيش يكفينى
لا أركبُ الأمر تُذْرِى بى عواقبُه ... ولا يعابَ به عِرضى ولا دينى
كم مِنْ فَقيرٍ غَنِىٍّ النفسِ تَعْرِفهُ ... ومِنْ غَنِىٍّ فَقيرِ النفسِ مسكين
ومِنْ عدوٍّ رمانى لو قصدْتُ له ... لم يأخذَ النصفَ منى حينَ يَرْمينى
ومِنْ أخٍ لى طَوَى كَشْحًا فقلت له ... إن انْطواءَك عنه سوف يَطْوينى
إنى لأنطق فيما كان من أَرَبى ... وأُكْثِرُ الصَّمْتَ فيما ليس يَعنينى
لا أبْتغى وَصْلَ مَنْ يَبْغى مُفَارَقتى ... وَلا أَلينُ لمن لا يشتهى لينى (١)

ويتضح فى شعر أذينه بعض معالم الزهد ، وخصائصه فى القرن الثانى الهجرى فليست مطولة من المطولات الشعرية على النحو المعروف فى الأغراض الأخرى ، وتعبر عن تجربة الشاعر ذاته فى الزهد ، وعزوفه عن الدنيا ، وفيها من أحوال الصوفى مقام التوكل : فالمقسوم له من الرزق سوف يأتيه سعى أو لم يسع ، وعليه أن يواصل العبادة ، ولا ينقطع عن ربه ، الذى تكفل برزقه . ومقام الفقر : لأن الغنى يكون فى غنى النفس ، وخير العيش ما يكفيه ويسد جوعته ، ومقام الصمت : فلا ينطق إلا بالمحبة ولا يتحدث إلا فى الخير ، وأفضل أحواله الصمت ، الذى يصل قلبه بالله دائما . ومقام الحقيقة : فلا يعنيه من أمر الناس شيئا ؛ ولا يشغله عن الله شاغل سواء ابتغى وصله ، أو مفارقته ؛ لأن قلبه موصول بما هو أعظم من التفكير فى وصل الناس أو صدهم ، كما هو واضح من البيت ، وتلك هى مقامات الزهد والتصوف التى تأثر بها الأدب الصوفى بعد ذلك .

---

(١) الأغانى : الأصفهانى ٢١ / ١٠٦ .

وابن أذينه من الشعراء الزهاد ، الذين أحبهم الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز ، فتمثل بشعره الأثير إلى روحه وقلبه ، ذكر ابن أذينة عند عمر بن عبد العزيز فقال : نعم الرجل أبو عامر ، على أنه الذى يقول :

وقد قالت لأترابٍ لها زهر تلاقينا (١)

وكثيرا ما كان يتمثل الخليفة بالشعر الزاهـد ويتعبد به ، وكان عمر بن عبد العزيز يتمثل بهذه الأبيات :

نهارُك يا مغرورُ سهـوُ غفلةٍ وليلكَ نَـومٌ والأَسَى لك لاَزِم
تُسَرُّ بِمَا يَفْنِى وتَفْرحُ بالمنـى كمـا سُرَّ باللذاتِ فى النوْمِ حَالِم
وَشُغْلُك فيما سوفَ تكرهُ غِبَّه كذلك فى الدنيا تَعيشُ البهائم (٢)

وإذا تمثل بمثل هذه الأبيات يرددها عن عظة فى نفسه ، وكثيرا ما كان يبكى ويشتد فى البكاء ، فنفسه كانت شفافة ، وقلبه رقيقا ، وإحساسه مرهفا، وروحه صافية ، إذا سمع شعرا فى الزهد اقشعر جسده ، وانهمرت دموعه ، وعلا نشيجه ، وعمرت مجالسة بالزهاد من أهل عصره ، فكان يعظهم ويعظونه، ويبكى منهم ويبكونه « دخل سابق البربرى على عمر بن عبد العزيز فقال له : عظنى يا سابق وأوجز قال نعم يا أمير المؤمنين ، وأبلغ إن شاء الله تعالى ، قال: هات فأنشده :

إذا أنت لم تَرْحَلْ بِزَادٍ مِنَ التُّقى وَوَافَيْتَ بعد المـوتِ مَنْ قَدْ تَزَوَّدا
ندمتُ على أن لا تكـون شركتُه وأرصدْتُ قبل الموتِ ما كان أُرْصِدا

فبكى عمر حتى سقط مغشيا عليه (٣) .

قال ميمون بن مهران : دخلت على عمر بن عبد العزيز يوما وعنده سابق البربرى الشاعر وهو ينشد شعرًا ، فانتهى فى شعره إلى هذه الأبيات :

---

(١) الأغانى : أبو الفرج : ٢١ / ١٠٩ .

(٢) أدب الدنيا والدين : وأبو الحسن على بن محمد البصرى الماوردى : ٩٥ الأميرية القاهرة ١٩١٨ .

(٣) حلية الأولياء : أبو نعيم ٥ / ٣١٨ .

فَكَمْ من صحيحٍ بَاتَ للموت آمنًا　　أَتَتْهُ المنايا بَغْتَةً بعد ما هَجَع
فلمَ يَسْطَعْ إذْ جاءَهُ الموتُ بغتَةً　　فراراً ولا منهُ بقوته امتَنَع
فَأَصْبَحَ تبكيه النساءُ مُقَنَّعًا　　ولا يسمعُ الداعىَ وإِنْ صوتُه رُفِع
وَقُرِّبَ مِنْ لَحْدٍ فَصَار مَقِيلصيه　　وَفَارَقَ ما قد كان بالأمر جُمِع
فلا يترك الموتُ الغنىَّ لمَالِه　　ولا مُعْدَمًا فى المالِ ذَا حاجةٍ يَدَع

قال : فلم يزل عمر يبكى ويضطرب حتى غشى عليه ، فقمنا فانصرفنا عنه [١] وفى هذه الأبيات من معانى الزهد ، ذم الدنيا ،وهو أنها مع الغنى والفقير على السواء ، فإذا جاء الموت ، لا يحمى المال صاحبه الغنى منه، ولا يدفعه الحرمان عن الفقير رحمة به ، عند ذلك تتفرق عنه الأعوان والإخوان ، فهم يصرخون ، ويندبون ،وهو مشغول بأمره ، لكل امرئ يومئذ شأن يغنيه .

ومحمود الورَّاق من بيت زهد ، فقد تتلمذ على يد الزهاد فى عصره ، وصار زاهدًا مثلهم يقول :

أَلَيسَ عجيبًا بِأَنَّ الفتَــــى　　يُصَابُ ببعض الذى فى يَدَيْه
فَمِــــنْ بَيْنَ باكٍ له مُوجَعٍ　　وبين مُعَــــزٍّ مغْــــذٍ إليه
ويَسْلُبُهُ الشيبُ شَرْخَ الشباب　　فليس يُعَزِّيه خُلُقٌ عليــــه [٢]

فى هذا التصوير الأدبى الرائع ، يرى الصوفى مكانه الصحيح فى الحياة، وهو العجز المطلق ، والإرادة المسلوبة منه ، فلا حول له ولا قوة ، فروحه بين جنبيه ونفسه فى أحشائه ، والروح والنفس أقرب الأشياء إلى الإنسان ، ومع ذلك ، فلا يستطيع أن يدفع عن نفسه الفناء ، ولا أن يرد عن روحه النزع الأخير ، فإذا حل الأجل ، أصيب فيهما وهما بين يديه ، وكذلك الشباب فهو قوام بدنه ، ونشاط حياته، ومع ذلك لا يستطيع دفع الشيب عنه،

---

(١) المرجع السابق .
(٢) البيان : لجاحظ ٣ / ٤٨٤ .

ولا حفظ النضارة فيه ، فيسرع إليه الشيب ، ويسرى فى جسده البلى ، وهو فى كلا الأمرين عاجز مسلوب الإرادة ، لا يستطيع للموت دفعا ، ولا للشيب ردًا، وتلك نزعة صوفية ، وغاية يسعى إليها المتصوف أفتراه عن طريق المجاهدة ورياضة النفس ؟ يريد أن يصل إلى هذه الغاية التى يترك فيها جسده وروحه لله يصرفها كيف يشاء ، فروحه اتصلت بربه فلم تر غيره ، ولا تسمع سواه ، عزفت عن الدنيا ، فلن تسمع الباكين حولها ، ولا تبصر عزاءها من الناس ، ومن مقامات التصوف أيضا البكاء فى زهدياته يقول :

بَكيتُ لقُرْبِ الأَجَـــــلْ ... وَبعْدَ فَـــــوات الأَمَلْ
روافدُ شَيْـــــب طَرَا ... بعقب شبـــاب رَحَلْ
شبَاب كأن لمْ يكُـــــنْ ... وَشَيبٌ كأن لَمْ يَزَلْ
طَوَاكَ بَشـــــيرُ البَقَا ... وَحَلَّ بشــــيرُ الأَجَلْ
طَوَى صاحبٌ صاحبًا ... كذاكَ اختلافُ الدُّول

فالبكاء هنا ليس حزنا على نفسه ، بل هو فرحة اللقاء بربه · وانتصاره عليها ، بفقدان الأمل فى الدنيا ، وابتعادها عن الأمانى فيها من شواغل الحياة، والدليل على هذه الفرحة ، فرحة اللقاء، هو التعبير بالبشارة فى جانب الشباب الذاهب ، وبالبشارة مع الشيب الفانى ، والشباب والشيب ليسا عدوين كما يظن المؤملين فى البقاء ، والمحبين للدنيا ، ولكنهما عند الزاهد صاحبان ، وفى نفس الصوفى شقيقان ، مثل الدول ، فالدولة الثانية والعاقبة ، امتداد للأولى ، واستمرار لبقائها حتى لو كانت أضعف منها ، وعلى أسوأ حال ·

حكى أن هشام بن عبد الملك ، لما ثقل عليه المرض بكى ولده عليه ، فقال لهم : جاد لكم هشام بالدنيا ، وجدتم عليه بالبكاء ، وترك لكم ما كسب، وتركتم عليه ما اكتسب وما أسوأ حال هشام ؟ إن لم يغفر الله له ، فأخذ هذا المعنى محمود الورّاق فقال :

تَمَتَّعْ بمالِكَ قبْل المماتِ ... وإلاَّ فلا مالٌ إنْ أنتَ متَّا
شقيتَ بِـــــــه ثم خلَفتَهُ ... لغَيْرِكَ بُعْدًا وسُحقًا ومَقْتَا
فجادُوا عَلَيكَ بِزُورِ البُكاء ... وَجُدْتَ عليهمْ بما قَدْ جَمَعْتَا
وَأَرْهَنْتُهُمْ كَلَّ ما فى يَدَيْكَ ... وخلَّوْكَ رَهْنًا بما قَدْ كَسَبْتَا (١)

فالشاعر يرى أن المال وغيره من متاع الحياة الدنيا ، إن لم ينفقه صاحبه فى وجوه الخير ، كان شقاء له فى الحياة ، وسحقًا ومقتًا لأولاده من بعده فى الدنيا ، لأنهم قد جعلوا أبيهم بعد مماته معلقًا بهذا المال ، ومرهونًا ما دام تحت أيديهم حتى ينفق فى الخير ، فقد يطلق سراحه ، ويفك رهنه ، هذا بالإضافة إلى جزع الأولاد عليه بالبكاء ، يكون عوضا عن ماله ، يزيد من عذابه ، فما تركه من مال دفعهم إلى ندبه ، والبكاء عليه ، لذلك ترى الزاهد فى الدنيا ينفق ما جمع خشية الشقاء به ، ليكون قدوة صالحة لأبنائه من بعده؛ فخير ما يورثه لهم الصلاح يقول الوراق :

رأيتُ صــــــلاحَ المرْءِ يُصْلِحُ أَهْلَهُ ... ويُعْدِيهم دَاءُ الفَســــــادِ إذَا فَسَــدْ
يَعْظُمُ فى الدنيــــــا بِفَضْلِ صَلاحِه ... ويُحفَظُ بعد الموتِ فى الأهْلِ والولد(٢)

ومن شعراء المجون المستهترين أبى نُواس الذى قارف اللذات ، واشتهر بالخمريات فى الأدب العربى ، وعبر عن شهواته ونزواته فى شعره ، واستجاب أدبه للتيارات الإباحية سجل فى شعره أخيراً اعترافاته فى المجون والتهتك ، التى بلغ فيها الغاية قال :

ولقد نهزتُ مــــع الغُواةِ بدلوهم ... وأسَمْتُ سَرْحَ اللهوِ حيثُ أسَاموا
وبلغتُ ما بـــلغ امرؤٌ بشبابـــهِ ... فإذا عُصَــــارةُ كلِّ ذاك آثــــام

ثم ثاب إلى رشده فى أخريات أيامه ، وزهدت نفسه فيما خالطت من شهوات وملذات فاتقى الله ، وأناب إليه ، لعله يغفر ذنبه فذنبه كبير ، لكن عفو الله أكبر ، وجرمه عظيم لكن غفران الله أعظم يقول :

(١) أدب الدنيا والذين : أبو الحسن الماوردى ١٦٨ .
(٢) البيان : الجاحظ ٣ / ٤٨٤ .

يا نُوَاسىُّ تَفَكَّـــــــــرْ وتَعَـــــزَّ وتَصبَّـــــــــرْ
سَاءَك الـــــدهرُ بشىء ولِمَـــــا سَــــرَّكَ أكثر
يا كبيرَ الذنْبِ عَفْـــوُ اللهِ من ذنبـــــك أكْبر [١]

كانت توبته نصوحة . لأنه أخلص فيها : بقدر إغراقه فى الملذات، ولو امتد به الأجل لخلد فى الأدب تراثا شعريا فى الزهد . وهذا شأن العبقرى لا يعرف التوسط فى الأمور ، فحين ينحرف يبلغ الغاية فى انحرافه ، وحين يستقيم ويتقى يبلغ النهاية فى صلاحه ، ولعله كان كذلك ، « ويمتاز أبو نواس بالإخلاص فى كل ما لهج به من المعانى الشعرية ، فهو مخلص فى زندقته ، ومخلص فى فجوره ، ومخلص فى تقاه .. فهو أنموذج لقوة الروح ، وحياة الوجدان ، فى مسالك الهوى ، ومآرب الضلال » [٢] ثم يقول :

أَكْبَرُ الأشياء عَنْ أَصْـ ـغَرِ عَفْوِ اللهِ أَصْغَـــرْ
ليس للإنســـانِ إلاَّ مَا قَضَى اللهُ وَقَـــدَّرْ
ليس للمخلــوقِ تدبيرٌ بل اللهُ المُـــــدبِّر [٣]

وبلغ من زهده موقع الصدق من نفسه ، حين وصف الدنيا فى شعره ، فشهد له المأمون العالم الأديب بصدق الوصف وبلاغة القـــول ، إذ يقول ابن عيينة : هو أشعر الناس وكان المأمون يقول : لو وصفت الدنيا نفسها ما بلغت قول أبى نواس :

ألا كلُّ حــىٍّ هالكٌ وابنُ هالكِ وذو نَسَبٍ فى الهالـكين عَريق
فقل لقريبِ الدَّارِ إنكَ ظاعــنٌ إلى منزلٍ نائى المحلِّ سَحيــق
إذا امتحنَ الدنيا لبيبٌ تَكَشَّفَتْ له عن عدوٍّ فى ثيابِ صـــديق

(١) المرجع السابق ٣ / ٤٨٥ .
(٢) التصوف الإسلامى : الدكتور زكى مبارك المصرية لبنان ٧٦ .
(٣) الديوان : ١٦٨ المطبعة الحميدية ١٣٢٢ هـ .

وأثنى عليه ابن عُيَيْنَةَ وعلماء عصره بالبلاغة والفصاحة (١)

ويقول أبو نُواس :

كُنْ مِنَ اللهِ يَكُنْ لكَ   واتَّـــــقِ اللهَ لَعَلَّكَ
لا تَـــــكُونَنْ إلا مُعَدًّا   للمنـــــايَا فكأنـــكَ
إن للـــــمَوت لَسَهْمًا   واقعًا دونـــك أو بكَ
نحن نُجْرَى فى أفانيـــ   ـينَ ســــكون ونُحَرَّك
فَعَلــــى اللهِ توكَّلْ   وبتقواه تمســـك (٢)

زهد النواسى ، وخلصت روحه من أثقال المادة ، وأراد لها أن تعود لحقيقتها وجوهرها وتصفو وتطهر ، لتكون قبسًا من عند الله ، ونورًا من رحمته ، لذلك قال : كن من الله ، ولن يكون كذلك إلا بالتقوى ، وأن اتق الله ، فليقع فى مقام الرجاء وهو من أحوال الصوفية . إن شاء عفى عنه ، وإن شاء عذبه ، فتقوى الله ابتغاء مرضاته هى فى مقام الرجاء ، تجعل العبد متأرجحا بين الغفران والعقاب، وإذا انتهى العبد إلى مقام الرجاء ، أسلم وجهه لربه يتصرف فيه كيف يشاء ، وهو يشعر بحلاوة الإيمان ، ولذة المعرفة؛ بعد أن اطمأن من موقعه ، وسكنت روحه فى نفسه ، ومن كان هذا حاله؛ فمقامه التوكل ، والتمسك بالعروة الوثقى ، كما هو واضح من البيتين الأخيرين ، فالرجاء ، وإسلام الوجه لله ، ولذة المعرفة والمحبة والتوكل ، كلها من مقامات وأحوال الزهد والتصوف الإسلامى .

وترى مقام التوبة ، وعمل الزاهد ، الذى لا يخلصه من عقاب ربه فى هذه الأبيات ؛فهى تؤكد المعانى السابقة فيقول :

انقضَتْ شِرَتى فعفْتَ الملاهى   إذ رمى الشيْبُ مَفْرِقى بالدواهى
ونَهَتْنى النُّهى فملْتَ إلى العدْ   ل وأشفقتُ مـــــن مقالةِ ناه

(١) شذرات الذهب : ابن العماد ١ / ٣٤٥ القاهرة .

(٢) البيان : الجاحظ ٣ / ٤٨٥ - هو الحسن بن هانئ نشأ بالبصرة ، وبرع فى الشعراء ، واتصل بالخلفاء وخاصة الأمين ، ومات سنة ١٩٨ هـ .

أيها الغافلُ المُقيمُ على السهو ولا عذرَ فى المقامِ سواه
لا بِأعْمَالِنَا نطيقُ خلاصًا يوم تبدو السماء فوق الجِبَاه (١)

قرب اللقاء وأزفت الآزفة ، فتضرع بالتوبة إلى الله ، خوفا منه ، وتذرع بالسهو، وعذره فى ذلك أنه عبد لربه ، مخلوق بقدرته ، فالعمل الطيب مهما بلغ لا يكفى للخلاص من عذاب الله ؛ لأن نعمة الخلق والإبداع ترجح فوق كل عمل صالح مهما بلغ ؛ فالرضا من الله بعد العمل هو الرحمة والنجاة ويقول أيضا فى الزهد الذى ينساب فى صوره الرائعة :

خَلِّ جَنْبيــــــك لِرام وَامْضِ عنه بِسَلام
متْ بداء الصمْت خَيْرٌ لَكَ من دَاء الكَلام
إنَّما السَّالمُ مَنْ ألْـ ـجَمَ فَاهُ بِلِجام
رُبَّما استَفْتَحْتَ بالمَزْ حِ مغاليقَ الحمام
رُبَّ لفْظ سَاقَ آجا لَ فِئــامٍ لِفِئَام
فالْزمِ الصمْتَ فإنَّ الصمْتَ أبْقى للحمامِ
والمنايــا آكـــلاتٌ شَاربـــــاتٌ للأَنَام
شِبْتَ يا هَذَا وما تتْـــ ـرُكُ أخلاقَ الغُلام ؟ (٢)

يعالج نفسه بالصمت ، فهو خير عون على الزهد فى الدنيا ، يلجم من يتعرض له باتهام فى ماضيه الماجن ، أو باستهزاء لحاله الناسك ، أو بمزاح يصوره فى تهتكه وزهده كمن لا يثبت على حال ، فرب كلمة واحدة تنفلت من محابس الصمت اضطرارًا ، تسوقه إلى الهلاك ، وقد جعل الصمت داء كداء الكلام ، لأن فى الصمت معالجة وقهرا للنفس، وكيف لا يحب الصمت ؟ وهو سمت الوقار ، وصمام الشيوخ الرزان، وقد مضى زمن الصبا وانطلاق الشباب ، وانسلخت عنه أخلاق الغلام .

وهكذا نجد الزهد فى الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى وقبله بقليل يشيع على لسان الزهاد من الشعراء ، وعلى لسان غيرهم مما يأتى عرضًا :

(١) ديوان أبى نواس .
(٢) البيان : الجاحظ ٣ / ٤٨٥ .

لتأثرهم بموجة الزهد فى عصرهم ، وغالبا يكون الشعر الزاهد فى بيت يساق مساق العظة ، أو أبيات تنشد للاعتبار والتحذير ، أو مقطوعات قصيرة لقلة من شعرائه، قد أعمل فيهم الزهد، وقد يزهد شاعر ، وهو رأس حزب سياسى فى الدولة الأموية ، لا يبغى من وراء حزبه منصبًا أو جاهًا ، لكنه يدافع لإحقاق الحق ، وإزهاق الباطل مثل بعض شعراء الخوارج كابن الفجاءة وغيره ، أما الكميت - وإن اشتهر بمطولاته الهاشمية فى حب آل البيت - فقد كان زهده عرضًا ، لا يكشف إلا عن انتماء لمن زهدوا فى الدنيا، وبعدوا عن السياسة والحكم مختارين أو مضطرين وهم آل البيت؛ فكان زهده فى حبه لهم ، هو عزوفه عن عطايا بنى أمية التى جذبت الشعراء إليهم، وهو من أقدرهم على النظم وكم تمنوه ؟ فلما امتنع حبسوه؛ لذلك كان عزوفه فى اتجاهه العام وفى غرضه الشعرى المطلق ، لا فى معانى قصائده فإنها فى ذكر أخلاق آل البيت ، ولا فى مقامات الزهاد ، فإن شعره مدحًا وتمجيدًا لمآثرهم، لذلك دخل شعره فى باب المدائح النبوية ، ليمثل طورًا من أطوارها فى تاريخنا الأدبى ، حتى انتهت عند البوصيرى؛ فكان إمامًا فى الزهد ، وقطبًا للتصوف، وشيخا لمداحى الرسول وآله، وسيكون موضعًا لدراسة أدبه الصوفى دراسة تفصيلية ، أما الكميت فقد اكتفينا منه بالوقفة الواحدة عند اتجاهه العام للزهد ومحبة آل البيت ؛ لذلك لا تعد مطولاته هذه فى كل أجزائها من الشعر الزاهد .

وأما أبو العتاهية فقد غلب على شعره الزهد [(١)] ، وعالجه فى مطولات من شعره ، تتسع له القصائد الطويلة ، معلنا اتجاهه فى الزهد ، ومشتهرا به فى عصره ، على عكس الكميت فقد اشتهر بمذهب طالبى شيعى ، خلط شعره بين الزهد والسياسة؛ لكن أبا العتاهية ، أعلن مذهبه فى الزهد ، ووقف به فى وجه الأمراء والخلفاء، الذين أنكروا عليه اتجاهه بعد الغزل ، وفى وجه الذين عبثوا به ضاحكين أو مستهزئين أو متندرين ، أو متعجبين من بخله وحرصه

---

(١) هو إسماعيل بن القاسم نشأ بالكوفة ، وعاش فى بغداد ، وخالط عقله مذاهب المتكلمين والفلاسفة ، لقب بأبى العتاهية لاضطراب كان فيه ، وقال الشعر فى الغزل والهجاء والمدح أول حياته ثم تنسك فى آخرها وقال شعرًا كثيرًا فى الوعظ والحكمة ، وغلبت السهولة على شعره الزهدى وعاش ما بين (١٣٠ - ٢١١ هـ) .

وغزله مع زهده حدثنا مخارق أن أبا العتاهية دعاه لزيارته ، فلما حضر وجد الشواء والشراب ، والفاكهة والريحان ، فشرب ما شاء ، ثم قال له أبو العتاهية غننى فى قولى :

أحمدٌ قال لى ولم يَدْرِ ما بى　　أَتُحِبُّ الغَدَاةَ عُتْبَةَ حقًا

فغناه ، فشرب قدحًا وهو يبكى أحر بكاء ، ثم قال : غننى فى قولى :

لَيْسَ لِمَنْ لَيْسَتْ له حِيلةٌ　　مَوْجُودةٌ خَيْرٌ مِنَ الصَّبْر

فغناه وهو يبكى وينشج . ثم شرب قدحا آخر ، وقال غننى ، فديتك فى قولى :

خَلِيلَىّ مَالى لا تَزَال مَضرَّتِى　　تكُونُ مع الأقْدارِ حَتْمًا مِنَ الحَتْم

قال مخارق : وما يزال يقترح على كل صوت غنى به فى شعره فأغنيه ، ويشرب ويبكى حتى صار العتمة، فقال أحب أن تصبر حتى ترى ما أصنع ، فجلست ، فأمر ابنه وغلامه فكسر كل ما بين أيدينا من النبيذ وآلته والملاهى ، ثم أمر بإخراج كل ما فى بيته من النبيذ وآلته فأخرج جميعه ، فما زال يكسره ويصب النبيذ وهو يبكى، حتى لم يبق من ذلك شىء ، ثم نزع ثيابه واغتسل ، ثم لبس ثيابًا بيضًا من صوف ، ثم عانقنى وبكى ، ثم قال : السلام عليك يا حبيبى ولو فرحى من الناس كلهم ، سلام الفراق الذى لا لقاء بعده ، وجعل يبكى ، وقال : هذا آخر عهدى بك ، فى حال تعاشر أهل الدنيا . فظننت أنها بعض حماقاته ، فانصرفت وما لقيته زمانا ، ثم تشوقته فأتيته فاستأذنت عليه فأذن لى فدخلت ، فإذا هو قد أخذ قوصرتين ، وثقب إحداهما وأدخل رأسه ويديه فيها ، وأقامها مقام السراويل ، فلما رأيته ، نسيت كل ما عندى من الغم عليه والوحشة لعشرته ، وضحكت والله ضحكًا ما ضحكت مثله قط ، فقال: من أى شىء تضحك ؟ فقلت أسخن الله عينيك ! هذا أى شىء هو ؟ من بلغك عنه أنه فعل هذا من الأنبياء والزهاد والصحابة والمجانين ؟ إنزع عنك هذا يا سخين العين » (١) .

(١) الأغانى : أبو الفرج ٤ / ١٠٧ القوصرة وعاء للتمر .

هذا الخبر يصور آخر عهد أبى العتاهية بمجالس الشراب واللهو ، والإعلان عن اتجاهه الجديد فى الفن الشعرى ، وإخلاص العمل له ، وهو الزهد فى شعره ، الذى وقع فى نفسه - بعد ترويضها عليه المرة بعد المرة - موقع رد الفعل لانطلاق نفسه مع اللهو ومجالس الشراب ، واستجابتها للغزل والمجون ، وموقع الحركة المضادة للحضارة العباسية من حوله التى امتزج فيها الخير بالشر ، والتقدم بالتخلف ، وصمد الإسلام فيها لفلسفات وافدة ، وعقائد دينية زائفة، تشيع لها المغرضون ابتغاء شعوبية أو حزبية أو طائفية أو مصلحة شخصية ، لذلك اتخذ أبو العتاهية - بعد هذه المعاناة - الزهد مذهبه الشعرى خالصًا من الأغراض الأخرى؛ ليمثل بهذا الفن الأدبى حركة قوية دامغة تزلزل ما حولها من تيارات جارفة، هزت كيان المجتمع الإسلامى، وكان هو واحدًا من ضحاياه ، مما دفع خلانه ومعاصروه فى مجالس الشراب والغزل إلى اتهامه بالزندقة والتنكيل به :

جلس منصور بن عمار فى بعض مجالسه ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : إنى أشهدكم أن أبا العتاهية زنديق ، فبلغ ذلك أبا العتاهية فكتب إليه:

إِنَّ يَوْمَ الحِسَابِ يَوْمٌ عَسِيرٌ   لَيْسَ للظالِمِين فيه نَصِيــر
فَاتَّخِذْ عُدَّةً لِمَطْلَــعِ القَبْرِ   وَهَوْلِ الصِّراطِ يَا مَنْصُور

ووجه بها أبو العتاهية إلى منصور ، فندم على قوله : وحمد الله وأثنى عليه ، وقال : أشهدكم أن أبا العتاهية قد اعترف بالموت والبعث ، ومن اعترف بذلك فقد برئ مما قذف به [١] .

واتهمه البعض بالحرص والبخل طعنًا فى مذهبه الزهدى ، لتناقضه مع طبعه ؛ فكيف يزهد فى شعره ، وتأبى نفسه إلا جمع المال ، واكتنازه حتى مع نفسه ، التى هى أحق بالرفه من غيرها ، قال له أبو ثمامة بن أشرس يتندر بغناه

---

(١) تاريخ الطبرى : ٦ / ٢٥٤ .

وحرصه : لم تحبس عندك سبعًا وعشرين بدرة فى دارك ؟ ولا تأكل منها ، ولا تشرب ولا تزكى ، ولا تقدمها ذخرًا ليوم فقرك، وفاقتك، فقال : يا أبا معن : والله إن ما قلت لهو الحق ، ولكنى أخاف الفقر والحاجة إلى الناس ، فقلت : وبم تزيد حال من افتقر على حالك ، وأنت دائم الحرص ، دائم الجمع ، شحيح على نفسك ، لا تشترى اللحم إلا من عيد إلى عيد ؟ فترك جواب كلامى كله ، ثم قال لى : والله لقد اشتريت فى يوم عاشوراء لحمًا وتوابله وما يتبعه بخمسة دراهم (١) .

والاختراع ظاهر فى هذه القصة ، والتلفيق واضح فيها ، فكيف أحصى ما عنده من مال ، حتى بلغ سبعا وعشرين بدرة ، والبدرة عشرة آلاف درهم ، ولو كان حريصًا كما يقول لأخفى ذلك على أقرب الناس وهم أهل بيته ، إنها اختراعات وأقاويل مألوفة تقع فى كل زمان مع هؤلاء الذين يفجأون المجتمع بتناقض الأحوال ، وخاصة فى الانتقال من المجون والغزل إلى الصلاح والزهد، ويهون التناقض إذا كان التغير على خلاف ما سبق ، وخاصة فى عصر انتشر فيه المجون وأصبح مذهبا فى الأدب ، وأساسًا لمجالس اللهو والطرب ، التى شاعت فى العصر العباسى ، فعاش الشاعر فى حياة زخرت بمصادر الترف والنعيم فى كل مكان ، وأقبلت الدنيا بالخيرات والفتن ، تميس فى أبهى حللها وزينتها للحكام والوزراء ومن حولهم ، ممن بيدهم الأمر ، فأفسحوا لها المكان فى قصورهم ومجالسهم بالغناء والطرب ، والشراب والرقص ، والمجون والغزل ، والظرف والخلاعة والتهتك والفسوق ، والتندر والفكاهة ، ومراسيم الملوك ، وبهاء السلطة ، حتى اشتهر أناس بالظرف والظرفاء وكتبوا فى ذلك ، أو كتب عنهم الغير ، وأناس بالتندر والفكاهة وأناس بالمجالس وآداب الملوك ، وأناس بالغناء والطرب ، وآخرون بالشراب والرقص والمجون والغزل (٢) .

---

(١) الأغانى ٤ / ١٦ .

(٢) انظر : مروج الذهب : المسعودى ٧/ ٢٧٦ المستطرف:الأبشيهى ٢ / ١٨٧ .

ولا عجب فى ظل ما سبق أن تطل الزندقة ، وينتشر الإلحاد ، وتشيع فلسفتهما لتهز كيان المجتمع الإسلامى، فتهب الشعوبية من رقدتها أثناء الغفلة ، وتتخذ أنصارا من المسلمين أنفسهم ، الذين اختلط عليهم الدين بالفلسفة انبهاراً بها ؛ ليعيدوا حضارة أجدادهم فى الفرس أو الروم ، بعد أن ذابت فى دعوة الإسلام ، وتلاشت فى أعماق الحضارة العباسية الإسلامية ، فحياة الشعوبية ترتبط بانغماس الدولة العباسية فى الترف وآداب الملوك وهم يعلمون بأنها كانت هى أسباب اندثار حضارتهم العريقة .

وأبو العتاهية كان يعيش فى هذه الحياة ، وخالطها عن كثب ، وأحب عتبة مولاة المهدى فى قصره ، وطلبها منه ، ولكها ناشدت الخليفة ألا يفعل ذلك [(١)] ، وكان فى بيته مجلس للشراب والغناء إن صح قول مخارق السابق ، وهو لا يخلو من المبالغات الظاهرة قصداً للاستهزاء والتندر ، نزل الشاعر فى هذه الحياة ، وتجاوب مع الملوك والحكام فى مجالسهم وآدابهم ،من هارون الرشيد إلى الخليفة المأمون [(٢)] ، ثم خالط المجتمع ، الذى كان مسرحًا للصراع العنيف بين الطبقات ، والمذاهب ، والأحزاب ، والعقائد ، والفوارق الاجتماعية بين الغنى العريض والفقر المدقع ، والفلسفات الوافدة ، والتيارات الفكرية المسمومة ، والانحرافات الشاذة فى بعض أعلام الأدب والفكر من المقربين إلى الحكام ، وغير ذلك مما دفع أبا العتاهية إلى أن يعود إلى رشده ويفيق من غفوته ، فيحيا ضميره بالإسلام شيئا فشيئا ، ويستيقظ عقله فينفض ما تراكم عليه من أوساخ المجتمع الفينة بعد الفينة ، وبالعقيدة التى تحركت ، وبالفكر الذى استيقظ ، تمددت مشاعره الزاخرة بتجارب الحياة فى أعماق قلبه، فصفا وشف عن صدق تجربة مر بها ، ورأى أن الحياة التى عاشها ونعم فيها بالملذات والشهوات مهما طالت فليست بدار قرار ، وإنما هى دار مخافة وفزع تكدر الصفو ، وتنغص المسرات ، وتكذب الآمال ، وتكرم اللئيم ، وتهين المكرمين وتستبعد الراغبين وتقطع الأرحام ، وتبدد الشمل ، فهى سجن لمن

---

(١) وفيات الأعيان ابن خلكان ١ / ٨٩ .

(٢) الأغانى : أبو الفرج ٣ / ١٧١ : ١٧٣ .

فيها، تضمر الكيد وتقذف بالصروف والأحداث ، وتصهر أهلها بالآلام والأسقام ، إذا ابتسمت أظهرت قواطعها وأنيابها، تطحن من خدعتهم بالابتسامة الحلوة المسكرة ، وإذا أظلمت انشقت عن فجر ذاهب ، وأمل حاسر، تتقلب من حال إلى حال ، تقلب الليالى والأيام ، والشهور والأعوام، لتعبر عن طبعها من الفناء والعدم ، وظل كذلك حتى ساعة الخلاص من شهواتها وملذاتها ، والتوبة من آثامها وشرورها ، وتهيئته لاستقبال حياة جديدة أساسها العزوف عن الدنيا بعد المفارقة ، والزهد فيها بعد المعايشة ، وليس بعيد بعد الموازنة بين الحالين ، والتمهيد لما اشتغلت به نفسه من حركة الزهد أن يكون السبب المباشر،وليس كل الأسباب ولا سبب الأسباب،أن يقوم مفزوعًا من نوعه لحلم حرك فيه غريزة الزهد؛ ليبدأ به حياة جديدة،ولكن الحلم كان قنطرة لزهده التى صنعتها العوامل الكثيرة السابقة وأوصلته إلى حالة التمهيد والموازنة ثم الإقدام .

وهذا الحلم الذى كان معبرًا لزهادته يحكيه أبو سلمة الغنوى ، ويعرفه من لسان أبي العتاهية ، فسأله قائلا : ما الذى صرفك عن قول الغزل إلى قول الزهد ؟ قال : إذًا والله أخبرك ، إنى لما قلت :

اللهُ بَيْنى وَبَيْنَ مَـــوْلاَتِى أَهْدَتْ لِيَ الصَّدَّ والمَلامات
مَنَحتُها مُهْجَتِى وَخَالِصَتِي فكَانَ هِجْرانها مُكَـــافَاتِى
هيَّمنَى حُبُّهـــا وَصيَّرنِى أُحْدُوثَةً فِى جَمِيعِ جَارَاتى

رأيت فى المنام فى تلك الليلة كأن آتيًا أتانى فقال لى : ما أصبت أحدا تدخله بينك وبين عتبة يحكم لك عليها بالمعصية إلا الله تعالى ؟ فانتبهت مذعورًا ، وتبت إلى الله تعالى من ساعتى من قول الغزل (١) .

وليس بعيدًا أن يرى مثل هذه الرؤية ، ولا أن تكون هى نهاية المطاف بالمجون ، وآخر العهد بالغزل ، وخاصة بعد أن روض نفسه على أحوال الدنيا، وشف قلبه بما خبره من طبيعتها بعد طول تجربة مر بها عن مخالطة وعن

---

(١) تاريخ الطبرى : ٦ / ٢٥٨ .

قرب، وسبق الحديث الذى يصور أن الله إذا أراد بعبد خيرًا جعل له واعظًا من نفسه وزاجرًا من قلبه ، والرؤيا إنما هى إظهار لمكنونات مكبوتة فى منطقة اللاشعور ، قد لا ينهض صاحبها بإظهارها فى اليقظة لعوامل كثيرة ، لكنها تظهر فى الأحلام لفقدان عوامل التحكم فى النفس أثناء النوم ، لكنها فى الواقع خواطر اختزنها الإنسان فى وقت مقتنعا بها ، وصراعات نفسية دارت فى الشعور الخفى أثناء انبهار الإنسان بمظاهر الدنيا ومتطلباتها، وكأن الاشتغال بالدنيا يصرفه عن الإحساس بهذه الصراعات الداخلية ،ولا يتحقق فى الأحلام إلا لمن صفا قلبه ، وطهرت روحه ،فالمبشرات كما قال الرسول ﷺ جزء من أجزاء النبوة .

ليس بعيدًا أن يكون أبو العتاهية صادقًا فى رؤيته ، وتكون هى خلاصة تجاربه مع أحوال الحياة ، حتى تكون القنطرة المباشرة التى عبر عليها إلى حياة الزهد ، وصفات الزهاد ، ثم يسجل حياته فى شعره ، الذى أخلصه لحركة الزهد فى الأدب؛ ليمثل مرحلة من أقرب المراحل للأدب الصوفى ، وأوثقها اتصالاً بالصوفية التى عاش روادها الأوائل فى عصر أبى العتاهية ، وسمعوا شعره السائر على كل لسان عند العامة والخاصة لسهولته وقربه من النفس ، وشيوعه بينهم من مكان الشهرة الذى احتله قبل ذلك،حتى مدحه النقاد فى شعره الزاهد قديمًا وحديثًا بالجودة والسيرورة والقوة،وشمل شعره على ألوان الزهد، وأغراضه المختلفة فى مقطوعات وقصائد حتى بلغت أرجوزته فى الحكمة والوعظ أربعة آلاف بيت ،وأهم هذه الأغراض الزهدية فى الشعر عامة وفى شعر أبى العتاهية خاصة الذى تناولها كلها فى قصائد ومقطوعات دون غيره هى :

أغراض الزهد فى الشعر:

١ - **ذم الدنيا** : يقول أبو العتاهية فى قصيدة منها :

فَالآنَ يا دُنْيَا عَرَفْتُكَ فَاذْهَبِى ... يَا دَارَ كُلِّ تَشَتُّتٍ وَزَوَال
والآنَ صَـارَ لِىَ الزَّمانُ مُؤَدِّبا ... فَغَدَا عَلَىَّ وَرَاحَ بالأَمْثَـال
والآنَ أَبْصَرْتَ السَّبِيلَ إِلى الهُدَى ... وَتَفَرَّغَتْ هِمَمِى عَنِ الأَشْغَال

وَلَقَدْ أَقَامَ لِىَ الْمَشِيبَ نُعَاتُه ... يُفْضِى إلىَّ بِمَفْرقٍ وَقَذَالِى
وَلَقَدْ رَأَيْتُ الموْتَ يَبْرُقُ سَيْفَه ... بِيَدِ الْمَنِيَّةِ حَيْثُ كانَ حِيَالِى
وَلَقدْ رَأيتُ عُرَى الحياةِ تَخرَّمَتْ ... ولقدْ تَصَدَّى الوارثون لِمَالى
ولَقدْ رأيتُ على الفَنَاء أدِلَّةً ... فِيمَا تَنكَّرَ مِنْ تَصَرُّفِ حَالى
وإذَا اعتَبرْت رأيْتَ خَطْبَ حوادثٍ ... يَجْرين بالأرْزاقِ والآجَال
وإذا تَناسَبَتِ الرجالُ فما أَرَى ... نَسبًا يُقَاسُ بِصَالِحِ الأعمْال
وإذا بَحثْت عن التُّقى وجَدتَه ... رجلاً يُصَدَّقُ قولهُ بِفِعال
وإذا اتقى اللهَ امْرؤٌ وأَطَاعَه ... فَيَدَاه بَيْنَ مَكارِمٍ ومَعَالى
وعَلَى التَّقِىِّ إذا تَرَسَّخَ فِى التُّقَى ... تَاجَانِ تَاجُ سكِينَةٍ وَجَلالِ
واللَّيلُ يذهبُ والنَّهارُ تعاورًا ... بالخَلْقِ فى الإدْبَارِ وَالإقْبَال
يَبْلى الجديدُ وأنتَ فى تَجْديدِهِ ... وجميع ما جَدَّدْتَ مِنْه فَبَالى
يا أيُّها البَطِرُ الذى هُوَ فِى غَدٍ ... فِى قَبْرِهِ مُتَفَرِّقُ الأَوْصال (١)

فالدنيا لا قرار لها ، ولا استقرار فيها ، فهى تجمع لتشتت ، وتجدد لتفنى، ويزول ما فيها فلا أمن ولا أمان ، وكل ما فيها من أمارات وعلامات دليل غدرها وفنائها سواء فى أحداثها وهمومها ، وأمثالها وعجائبها ، والشباب والشيب ، والموت وصراع الورثة ، كل هذا لا محالة زائل ، وما بقى فيها ومنها إنما هو العمل الصالح والطاعة والتقوى ، فهى خير نسب إذا تفاضل الناس فيها بالأنساب ، وخير لباس إذا تفاخروا باللباس والتيجان ، فالتقى يسمو بعمله إلى المكارم والمعالى ، ويتجمل بالسكينة والوقار؛ فإفراغ القلب من الدنيا،وعدم الاشتغال بها ، وذكر الموت ، ورؤية الفناء فى كل الموجودات ، والتعرف على أسرار الكائنات ، وترويض النفس على التقوى ومجاهدتها

---

(١) رشفات من رحيق الأدب ، حرر القصيدة وحققها الدكتور عبد السلام سرحان ٢٦٢ .

بالعبادة ، والتزام السكينة والوقار ، كل ذلك من أوصاف الصوفى ، ومن أحواله ، وهى من أخص قواعد الزهد وأصوله فى الأدب .

وإن كان زهد أبى العتاهية دون الدرجة السامية فى هذه القصيدة لفزعه من الشيب فالزاهد الأمثل لا يفزع من تقلبات الدهر فى نفسه ، فهى أمور جارية لا تشغله عن الطاعة ، ولا يشعر منها بأدنى فزع أو ندم ما دام يستعجل الدنيا ؛ ليحظى بما هو خير وأبقى عند الله فى الآخرة .

وكذلك الأمر فى اشتغاله بأمر ماله بعد وفاته ، واقتسام الورثة إياه ، فالزاهد الأمثل لا يتفاخر بشىء ، حتى بتقواه ؛ لأنه يستصغر طاعاته أمام ربه ، ومهما اتقى لا يرى فى عمله ما يستحق عليه الأجر من الله ، لأن نعم الله كثيرة لا يسمو إليها العمل من أزهد الزهاد ، وأتقى الأتقياء ، اللهم إلا إذا تغمده الله برحمته ورضوانه ، لذلك كان أبو العتاهية زاهدًا فى سلوكه ، ولكنه ليس من أزهد الزهاد ، ولم يبلغ أسمى درجات الزهد ، بل كان يحتاج إلى وقت أكبر ليجاهد نفسه فيه ، ويروضها على الزهادة ، هذا إن اعتبرنا شعره صورة صادقة لنفسه وشاعريته وهو ما أراه ؛ لأنه شاعر بلغ درجة الجودة الفنية حتى حكم النقاد له بالسبق والشهرة ، والتفوق فى النظم وخاصة فى الزهد :

قال ابن أبى الأبيض : أتيت أبا العتاهية فقلت له : إنى رجل أقول الشعر فى الزهد ولى فيه أشعار كثيرة ، وهو مذهب أستحسنه؛ لأنى أرجو ألا آثم فيه ، وسمعت شعرك فى هذا المعنى ، فأحببت أن أستزيد منه ، فأحب أن تنشدنى من جيد ما قلت ، فقال له :

اعلم أن ما قلته ردئ ، قلت وكيف ! قال : لأن الشعر ينبغى أن يكون مثل أشعار الفحول المتقدمين ، أو مثل شعر بشار وابن هرمة ، فإن لم يكن كذلك ، فالصواب لقائله أن تكون ألفاظه مما لا تخفى على جمهور الناس مثل شعرى ، ولا سيما الأشعار التى فى الزهد ، فإن الزهد ليس من مذاهب الملوك، ولا من مذاهب رواة الشعر ، ولا طلاب الغريب ، وهو مذهب

أشغف الناس به الزهاد وأصحاب الحديث والفقهاء وأصحاب الرياء والعامة ، وأعجب الأشياء إليهم ما فهموه [١] .

فهذا وغيره مما ورد من نقد حول شعره ، يدل على جودته ، ومدى صدقه فى التصوير لتجربة صاحبه فى الزهد ، وشاعر آخر له شأنه فى العصر العباسى وهو أبو نواس يقول عنه واصفًا شعره ، فوالله ما رأيته قط إلا توهمت أنه سماوى وأنا أرضى [٢] .

ويقول أبو حاتم عنه : غثاء جم ، واقتدار سهل ، وشعره كخرز الزجاج وربما أشبه الياقوت والزبرجد [٣] .

ومحفل آخر من الشعراء يشهدون له بصدق شعره وقوته ، ومبلغ أثره فى النفس، والشاعر الصادق فى تجربته هو الذى يؤثر فى غيره ، ويكون الصدق أعمق إذا كان السامع شاعرًا مثل بشار ، رأس المحدثين فى الشعر العباسى . قال أشجع السلمى : أذن لنا المهدى والشعراء فى الدخول عليه ، فدخلنا ، فأمرنا بالجلوس ، واتفق أن جلس إلى جنبى بشار ، وسكت المهدى وسكت الناس ، فسمع بشار حسًّا ، فقال لى : يا أشجع من هذا ؟ فقال أبو العتاهية ، فقال لى : أتراه ينشد فى هذا المحفل ؟ فقلت : أحسب سيفعل ، قال : فأمره المهدى أن ينشد فأنشده :

* ألا مَا لِسَيِّدَتى مَا لهَا *

قال : فنخسنى بمرفقه ، ثم قال لى : ويحك ! أرأيت أحر من هذا ! ينشد مثل هذا الشعر فى هذا الموضع ، حتى بلغ إلى هذا الموضع :

أَتَتْهُ الخِلافةُ مُنْقَـــادةً ... إليه تَجُـــرُّ أَذْيالهـــا
فلمْ تَكُ تَصلُــحُ إلاَّ لَهُ ... ولَمْ يَكُ يَصلُحُ إلاَّ لهـا
ولَوْ رامَها أَحَـــدٌ غَيْرهُ ... لَزُلْزِلتِ الأرْضُ زِلْزَالَها
ولَوْ لَمْ تُطِعْهُ بَنـاتُ النُّفو ... سِ لَمَا قَبلَ اللهُ أَعْمَالها

(١) الأغانى : أبو الفرج ٤ / ٧٠ .
(٢) تاريخ الطبرى ٦ / ٢٥١ .
(٣) مقدمة ديوان أبى نواس .

قال : فقال بشار : انظر ويحك ! يا أشجع هل طار الخليفة عن فراشه[١] .

كل هذ يجعل أبا العتاهية صادقًا فى الزهد حين يصوره فى شعره ، لكنه يمثل درجة من درجات الزهد دون المثلى ، وفى تصويره لنفسه على هذا النحو صدق فنى أيضا ، ولن يستطيع أن يصور الدرجة العليا منه ؛ لأنه كان حديث عهد بالزهد ، ويحتاج إلى متسع من الوقت لكى ينتهى إليها ، وليس معنى ذلك أنه مقصر فى شعره الزاهد ، بل أجاده تمامًا فلكل حالة لبوسها . والصدق الفنى فى التصوير إنما يتحقق بمقدار التلاؤم بين الشعر كصورة، وبين ما فى النفس كتجربة شعرية نابعة منها ، كنبع الماء من عين تلتقى فيه صفات العين وخصائصها ، كذلك الأمر فى الشعر الصادق .

ومن شعره فى ذم الدنيا أيضًا ما حكاه الأصمعى قال :

دخلت على الرشيد رحمة الله عليه يومًا وهو ينظر فى كتاب ودموعه تسيل على خده فلما أبصرنى قال : أرأيت ما كان منى قلت نعم يا أمير المؤمنين، قال : أما إنه لو كان لأمر الدنيا ما كان هذا ، ثم رمى إلىَّ بالقرطا ، فإذا فيه شعر أبى العتاهية رحمه الله تعالى :

هَلْ أَنْتَ مُعْتبرٌ بِمَنْ خَرِبَتْ ... منه غَدَاةَ قَضَى دَسَاكِرُهُ
وَبِمَنْ أذَلَّ الدَّهْرُ مَصْرَعَهُ ... فَتَبَرَّأَتْ منْهُ عَسَاكِرُهُ
وَبِمَنْ خَلَتْ منْه أُسْرَتُه ... وَتَعَطَّلَتْ منه مَنَابِرُهُ
أيْنَ المُلُوكُ وأيْنَ عِزُّهُمُ ... صَارُوا مصيرًا أَنْتَ صَائِرُهُ
يا مُؤْثِرَ الدُّنيا لِلَذَّتِه ... والمُستعدُّ لِمَنْ يُفَاخِرُهُ
نِلْ ما بَدَا لَكَ أنْ تَنَالَ مِنَ الدُّنْـ ... ـيا فإنَّ المَوْتَ آخِرُهُ

فقال الرشيد رحمة الله عليه والله كأنى أُخاطب بهذا الشعر دون الناس ، فلم يلبث بعد ذلك إلا يسيرًا حتى مات رحمه الله [٢] .

---

(١) تاريخ الطبرى ٢ / ٢٥٧ .

(٢) أدب الدنيا والدين : أبو الحسن البصرى الماوردى : ٩٩ .

وبكاء الرشيد يدل على صدق شعر أبى العتاهية فى الزهد ، وأنه نبع من تجربة صادقة لقيت من نفسه صدى ، ومن سلوكه تجاوبا ما ، فالشعر الصادق هو الذى يحدث صدى وأثرًا فى النفوس ، كما أحدث فى نفسه، ونبع صادقا منها ، وها هو الشاعر ينشد شعـــره وهو ينتحب ، ويشتد بكـــاؤه ، روى أبو عكرمة عن شيخ له من أهل الكوفة قال : دخلت مسجد المدينة ببغداد بعد أن بويع الأمين محمد بسنة ، فإذا شيخ عليه جماعة وهو ينشد :

لَهفَى عَلَى وَرَقِ الشَّبابِ   وغُصُونِه الخُضْرِ الرِّطَابِ
ذَهب الشباب وبان عنى   غير منتظر الإياب
فَلأَبْكِيَنَّ عَلَى الشَّبا   ب وَطيب أيامِ التصَّابى
ولأَبْكَيَنَّ منَ البِلَى   ولأَبْكينَّ منَ الخضَاب
إنى لآمُلُ أَنْ أُخَـــلَّدَ   والمنيةُ فِى طِـلابى

قال : فجعل ينشدها وإن دموعه لتسيل على خديه ، فلما رأيت ذلك ، لم أصبر أن ملت فكتبتها ، وسألت عن الشيخ فقيل لى هو أبو العتاهية (١) .

فالصدق الفنى هنا واضح حيث أبكى الشاعر ، وأثار الحاضرين ، مع أنه صدق فى درجة من درجات الزهد دون الدرجة العليا منه والدليل على هذا هنا أن الشاعر ما زال يندب شبابه الذاهب ، وكأنه يتمنى أن يعود ، ويبكى أيام الحب الناعمة ، وكأنه يتمنى أن ترجع، ويعيشها كما كانت ، والبكاء على الشباب والتصابى ، والأمانى فيهما، والبكاء من الشيب والفناء والخضاب لشعره هروبًا من الشيب والموت ، كل ذلك ينزل بالشاعر عن أسمى درجات الزهد ؛ لكن الشعور بالندم على التقصير فى أيام الشباب والخوف من لقاء الموت ومواجهة الله بذنوب الشباب والتقصير فيه لا يحرمه من الزهد ، وإن قل عن أعلى درجاته ، وهذا ما نراه فى زهد أبى العتاهية ، وفى شعره الزاهد .

٢ - **مقامة الخلفاء** : وهذا غرض من أغراض أدب الزهد ، نبت فى حركته الأدبية ، إذ كان الخلفاء يبدأون حكمهم بمجالس وعظية من الوعاظ ، يستفتحون بها اشتغالهم بأمور الناس ، ويحددون فيها مسئوليتهم من الله ومن

---

(١) الأغانى : أبو الفرج ٣ / ١٤٣ .

الرعية ، ويستضيئون بنورها فى حياتهم وخلافتهم ، وكان الخليفة يعقد هذه المقامات من وقت لآخر حين يشعر بأنه فى حاجة إلى السمو الروحى والعظة والاعتبار ، وشحن النفس بطاقة جديدة من الوعظ والترهيب والترغيب من حين لآخر ؛ لكى لا تنقطع الصلة بينه وبين ربه، ويجدد العهد فى تحمل المسؤلية وكثيرا ما كان الخليفة يعقد هذه المقامات .

وتختلف مقامات الزهاد عن مقامات الهمذانى التى اشتهرت فى أدبنا العربى فالبون بينهما شاسع ، فمقامات الزهد تجمع بين الشعر والنثر ، وتعتمد على الحقيقة ، ومقامها فى مجالس الخلفاء والأمراء فقط ، وأبطالها حقيقيون يتمثلون غالبًا فى الأديب والخليفة أو الأمير ، والغرض منها الوعظ والعزوف عن الدنيا من غير قصد العطاء من الخليفة ، أما مقامات الهمذانى فقد كانت فى النثر الأدبى فقط ، وتعتمد على الخيال فهى من نسجه ، وتأليفه ، ومقامها يتسع ليشمل أى مجلس من المجالس العامة أو الخاصة ، ما دامت محل الرجاء والعطاء ، وأبطالها خياليون ، يتمثلون فى شخص الرواية وهو عيسى بن هشام والبطل وهو أبو الفتح الإسكندرى عند الهمذانى ، وكلاهما بطلان خياليان فى قصة المقامة ، والغرض منهما النقد السياسى والاجتماعى والأدبى قصدًا للشحاذة والكدية .

وسأتحدث عن ذلك بالتفصيل عندما نتعرف على خصائصها الفنية فى النثر الزاهد لمقامات الزهاد ، ومن هذه المقامات فى الشعر قول أبى العتاهية للأمين حين تولى أمر الخلافة بعد موت الرشيد قال له :

أَفْنَيْتَ عُمْرَكَ إدْبارًا وإقْبَالا ... تَبْغِى البنينَ وَتَبْغِى الأَهْلَ والمَالا
الموتُ هَوْلٌ فكُنْتَ ما شِئْتَ فَاعلاً ... من هوله حيلةٌ إنْ كُنْتَ مُحتالا
أَلَمْ تَرَ الملكَ إلاَّ من حِينَ مَضَى ... هل نَالَ حَيٌّ من الدنيا كَمَا نَالا ؟
أفناهُ مَنْ لم يَزَل يُفْنى القُرونَ فقد ... أضْحَى وأَصْبَح عَنهُ الملكُ قَد زَالا
كَمْ من ملوكٍ مضى ريبُ الزمان بهم ... فأصبحوا عبرًا فينا وأمْثَالا (١)

---

(١) الديوان : ٢١٠ ، والأغانى : ٣ / ١٦٤ .

وله مقامات كثيرة فى الزهد مع الخليفة المأمون .

٣ - **مشاهد القيامة وأهوالها** : من الأغراض الشعرية فى الزهد ، والتى وضحت عند الشاعر وأكثر فيها القول، حتى صارت لونا من ألوان الزهد فى الشعر العربى مثل قوله :

لله يومُ تَقْشَعِرُّ جُلودُهم ... وتَشيبُ منه ذَوائبُ الأَطْفال
يومُ النَّوازل والزَّلازل والحوا ... ملَ فيه إذْ يَقْذفْنَ بالأَحمال
يومُ التغابُنِ والتَّبايُنِ والتنا ... زل والأُمورُ عَظِيمةُ الأَهْوَال
يومٌ يُنَادى فيه كلُّ مُضَلِّلٍ ... بمُقَطَّعَات النار والأَغْلال
للمتقينَ هناك نُزْلُ كرامةٍ ... عَلَتْ الوجُوهَ بِنُضْرةٍ وجَمَال
زُمُرٌ أضَاءَتْ للحساب وجوهُهاً ... فَلَهَا بريقٌ عِندَها وتَلالى
وسوابِقٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ جَرَتْ ... خمْصَ البُطون خَفيفةَ الأَثْقال
مِنْ كلِّ أَشْعَث كان أَغْبَرَ ناحلاً ... خَلَقَ الرِّداء مُرَقَّعَ السِّربال
نزلوا بأكْرمِ سيِّدٍ فَأَظَلَّهُم ... فى دَارِ مُلْكٍ جَلالةً وظِلال (١)

ولن تجد أكثر تأثرًا بالقرآن الكريم والحديث الشريف والمأثور عن الصحابة من أدب الزهد فى الشعر العربى ؛ لأنه يستمد من كل هذا أصوله وروحه ومعالمه وقواعده ، ويظهر ذلك فى كل نص سواء أكان شعرًا أو نثرًا عامة ، وهنا خاصة نرى روح القرآن وآياته فى البيت الأول قوله تعالى : ﴿ **اللهُ نزَّلَ أحْسَنَ الحديث كتابًا مُتشابهًا مَثَانى تَقْشَعِرُّ منهُ جلودُ الَّذينَ يَخْشَوْنَ ربَّهُمْ ثُمَّ تَلينُ جلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلَى ذكْرِ الله** ﴾ (٢) ، وقوله تعالى فى سورة المزمل :

﴿ **فَكَيفَ تَتَّقُونَ إنْ كفرتُمْ يومًا يَجْعَلُ الوِلْدانَ شيبًا** ﴾ ، وفى البيت الثانى نرى سورة الزلزلة وقول الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّها النَّاس اتَّقُوا رَبَّكُمْ إنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَة شَىءٌ عَظيمٌ ، يومَ تَرَونَهَا تَذْهلُ كلُّ مُرْضعةَ عمَّا أرْضَعَتْ وتَضَعُ كُلُّ ذَات حَمْلٍ حَمْلَهَا وتَرَى النَّاسَ سُكَارَى ومَا هُمْ بِسكَارَى ولَكنَّ عَذَابَ اللهِ شَديدٌ** ﴾ (٣) ،

(١) الديوان : ابو العتاهية ١٩٦
(٢) الزمر : ٢٣ .
(٣) الحج : ١ ، ٢ .

وترى فى البيت الثالث سورة التغابن ، وفى البيت الخامس قوله تعالى : ﴿ **إن للمتقين مفازًا ، حدائق وأعنابًا** ﴾ [١] ، وفى البيت السادس سورة الزمر وقوله تعالى : ﴿ **وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرًا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين** ﴾ .

وترى فى السابع قول الرسول ﷺ : « إن من أمتى يدعون يوم القيامة غرا محجلين من أثار الوضوء، فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليعمل » [٢] ، وفى البيت الثامن الحديث السابق « رب أشعث أغبر ذى طمرين لو أقسم على الله لأبره » وما أثر عن الصحابة من لباسهم الخلق وثوبهم المرقع ، وفى البيت الأخير نذكر قول الله تعالى : ﴿ **ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا** ﴾ [٣] .

٤ - **أحوال الناس فى الدنيا** : قال أبو العتاهية :

أَرَى الدنيا لِمَنْ هى فى يَدَيْهِ ... عَذَابًا كلما كَثُرَتْ لَدَيْهِ
تُهِينُ الْمُكْرَمِين لها بِصُغْرٍ ... وتُكْرِمُ كلَّ مَنْ هانَتْ عَلَيْه
إذَا اسْتغنَيتَ عن شىءٍ فَدَعْه ... وخُذْ ما أنت مُحتاجٌ إليه [٤]

إذا أعطت الدنيا كان عطاؤها عذابًا ، لأنها تهين من أكرمتهم ، وتكرم من أهانتهم ، فهى لا تستقر على حال ، تخدع من يهواها ، ولا يأمنها إلا من أخذ منها بقدر حاجته واستغنى عما هو فوق ذلك ، ويقول أيضًا :

ومَنْ أجابَ الهوى إلى كلِّ ما ... يَدْعُوه مِمَّا يُضِلُّ ضَلَّ وتَاهَا
ومن رَأى عبْرةً فَفكّرَ فيها ... آذنَتْهُ بالبيْنِ حِينَ يَرَاها
ربَّما اسْتُغْلِقتْ أمورٌ على منْ ... كان يأتى الأُمورَ مِنْ مَأتاها

---

(١) النبأ : ٣١ ، ٣٢ .
(٢) الجامع الصحيح : الزبيدى ، باب الوضوء . (٣) النساء : ٦٩ .
(٤) أدب الدنيا والدين : البصرى الماوردى ٩٨ .

وسَيَـــأوْى إلى يَـــدٍ كلُّ مَأتا ... تِى ويَأوى إلى يدٍ حُسْناها

قد تكون النجاةُ تكْرَهُها النفْسُ ... وتَأتِى ما كانَ فيهِ رَدَاها (١)

ومن تبع هواه ، وانساق لشيطانه ، فقد ضل وتاه ،ولا يدرى الإنسان ما تخفيه له الدنيا ، قد يكون نجاته فى موته ، أو موته فى نجاته منها ، لأن أحوال الناس أمر يثير العجب من الظلم والشماتة ، واللؤم والحسد ، والبخل وإنكار المعروف قال :

يا ربِّ إنَّ النَّاسَ لا يُنْصِفُونَنى ... فكَيْفَ وَإنْ أَنْصَفْتُهم ظَلَمونى

فإنْ كان لى شىءٌ تَصدُّوا لأَخْذه ... وإنْ جئْتُ أَبْغى شَيْئَهم مَنَعُونى

وإنْ نالَهُم بَذْلى فلا شُكْرَ عنْدهم ... وإنْ أنا لم أَبْذلْ لهم شَتَمُونى

وإنْ طَرَقَتْنى نكبةٌ فكهُوا بها ... وإنْ صَحبتْنى نعمةٌ حَسَدونى

سَأمْنَعُ قلْبى أنْ يَحنَّ إليهم ... وأغمضَ عنهم ناظرى وجُفُونى

وأقْطعُ أيَّامى بيَوْمِ سُهولةٍ ... أَقْضى بها عُمرى ويوم حُزُونى

أَلاَ إنَّ أَصْفَى العيْشِ ما طابَ غِبُّه ... وما نِلْتُه فِى لَذَّةٍ وَسُكونِ (٢)

٥ – **عظات الموت**: من أغراض الزهد فى الشعر العربى فى هذه المرحلة، وكثر القول فيه حتى أصبح غرضًا مستقلا من أغراضـــه يقـــول أبو العتاهية:

لو أن عبدًا له خزائن فى الــ ... ـأرض ما عاش خوف إملاق

يَا عَجَبًا كُلُّنا يَحيدُ عن الْـ ... ـحَيَنْ وكُلٌّ لحَيْنه لاَقِ

كَأَنَّ حَيًّا قَد قَامَ ناديه ... والْتَفَّت السَّاقُ منه بالساقِ

وَاسْتَلَّ منه حياتَه مَلِكُ المَوَ ... تِ خَفيًّا وقِيلَ منْ رَاقِ (٣)

وما أروع الاقتباس من القرآن الكريم فى آيات صورت الغافل عن الموت حين يفجؤه ، ويأتيه بغتة فى صورة ذلك المنكر للبعث حين يرى نفســه والناس

(١) البيان والتبين : الجاحظ ٣ – ٤٧٩ .

(٢) الديوان : ٣٥٥ ، أدب الدنيا والدين : ١٧٤ .

(٣) البيان والتبين : الجاحظ ٣ – ٤٧٩ .

من حوله، يساقون إلى الحساب والجزاء عند ذلك يقول هل من راق ؟ ويلتف الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق ، ويقول :

ما للمقابر لا تُجيـــــب إذا دَعَاها الكَئيبُ
حُفَرٌ مُسَقَّفةٌ علَيْـــــهن الجنادلُ والكَثِيبُ
فيهنَّ ولدانٌ وأطـــــفالٌ وشُبَّانٌ وشِيبُ
كمْ منْ حَبِيبٍ لمْ تكنْ نَفْسِي بفُرْقَته تَطِيبُ
غادَرْتُه فــــى بَعْضِهـــن مُجَنْدَلاً وهو الحَبِيبُ
وسَلَوْتُ عنـــــه وإنما عَهْدِى بِرؤيته قَرِيب (١)

٦ - **الرجاء**: غرض من أغراض الشعر الزاهد ، وواحد من مقامات الصوفية وأحوالهم ، وقريب منه الدعاء فهما متلازمان ، والزاهد حين يرجو الله ؛ فإنما يدعو الله الوصل ، والقرب منه ، ولا يتم ذلك إلا بعد صفاء الروح وشفافية القلب ، يقول أبو العتاهية :

يا ربِّ أَنْتَ خَلَقْتنـــى وخَلَقْتَ لِى وخَلَقْتَ منِّى
سبحانك اللهـــم عَا لِمُ كلَّ غيبٍ مُسْتَكِـــــنِّ
مَا لِى بِشُكْـــرِكَ طاقةً يا سَيِّدى إنْ لَمْ تُعنـــــىِّ

والرجاء ينبغي أن يكون ممن أحب الله ووصل قلبه بحبه ، وكيف يرجو العبد ربه وهو محروم من محبته ، مع أنه على تقوى من الله وحذر من الدنيا:

أَراكَ امْرأً ترجُو من اللهِ عَفْوه وأنتَ عَلَـــى مَا لاَ يُحِبُّ مُقِيـــمُ
تُدِلُّ على التَّقْوى وأنت مُقَصِّرٌ فَيَا مَنْ يُداوِى الناسَ وَهوَ سَقِيم (٢)

٧ - **التنكُّر للمجون ومحاربة الزندقة** : وكان من المجان قبل زهده ، وأنكر على نفسه هذه الحياة كما أنكرها على غيره من الشعراء ، وأنشـــد فيهم

---

(١) أدب الدنيا والدين : ١٠٠ .
(٢) المرجع السابق : ٢٦٠ .

الشعر ينكر عليهم المجون ، ويشدهم إلى الزهد ، وحين يعظ شيخ الماجنين أبا نواس يقول له أبو العتاهية :

لا ترقدون لعينك السَّهَر وانْظُرْ إلى ما تَصْنعُ العبَر
انظرْ إلى عِبَرٍ مُصَرَّفة إن كان تنفعُ عينُك النَّظَر
فإذا سألتَ فلَم تَجدْ أحداً فَسَلِ الزمانَ فعندَه الخَبَرْ
أنت الذى لا شىءَ تملكُهُ وأَحَقُّ منك بِمالِكَ القَدَر

فقال أبو نواس : أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون (١) .

وقد اتهم الشاعر أيضا بالزندقة كما سبق ، ولكنه أراد أن يشن فى زهده حربا عليها ، ويفندها بالدليل الواضح ، ليبطلها بالحجة المقنعة ، وجعلها غرضًا من أغراض شعره الزاهد ، وتتبع مذاهبها المختلفة . بالطعن والفساد من مانوية ومزدكية وغيرها من مذاهب الشرك التى انتشرت فى عصره يقول :

والخيرُ موعدُه الجِنَا نُ وظِلُّها ورَحِيقُها
والشرُّ موعدُه لَظىً وزَفيرُها وشَهيقُها (٢)

٨ - **الحكمة** وهذا الغرض لا يصدق فيه الشاعر إلا عن صدق تجربة فى الحياة وعن عمق الفهم لأسرارها ، وعن صفاء النفس لرؤية ما خفى على عامة الناس ، والصدق والعمق والصفاء لا تتحقق كلها إلا لمن صرف قلبه عن الدنيا ، وعفت نفسه عن شواغلها وصوارفها ، وأخلص قلبه وعقله لفهم أسرار الوجود ، وخفايا الحياة ، فتشغله الحقيقة والفضيلة والأخلاق ، عند ذلك ينطق بالحكمة فتأخذ بالقلوب ، ويضرب المثل فيستولى على النفوس ، وينشد العظة فتأخذ موقعها منهما ؛ لأنها خرجت من نبع صفا من كدر الدنيا ونكدها ، وسمت عن أخلاط المادة وشوائبها ، ومثل أبى العتاهية تتناثر على لسانه الحكمة شعرًا ، فقد تجاوبت فى نفسه أصداء الزهد فصفت روحه مع

(١) تاريخ الطبرى : ٦ / ٢٥٩ .
(٢) الديوان : ١٧٧ .

القريحة الشعرية النفاذة ، التى شفها الشعور الرقيق ، والإحساس المرهف · فصادفت الحكمة هوى من نفسه ، ولقيت عناقًا من غيره فى فكاك الرقاب من قيود الأرض وأثقال الحياة ·

وشاعت الحكمة فى شعره ، لكنها تجمعت فى أرجوزته المشهورة ، التى بلغت أربعة آلاف بيت ، فهى من بدائعه كما قال الأغانى ، واشتملت على معانى كثيرة فى الوعظ والزهد والتقوى ، والورع والرضا ، والتوكل والتسامح والرجاء والخوف والصمت واليقظة ، والحلم والتوسط ، والثناء على الله عز وجل ، والمديح للنبى ﷺ ، والطاعة والمراقبة ، وغيرها من مقامات التصوف ، وأحوال الصوفية ·

والحكمة هى الغاية من الزهد ، لأن النفس إذا صفت أدركت العبر من مظاهر الحياة ، وأيقظت بها ضمير المؤمن ، وبعثت فيه الحياة [1] يقول أبو العتاهية فى أرجوزته :

حَسْبُك ممَّا تَبْتَغيه القوتُ	ما أكْثَر القوت لمنْ يَمُوتُ
الفقْرُ فيمَا جَاوَزَ الكفَافَا	مَنِ اتْقَى اللهَ رَجَا وَخافا
هى المقاديرُ فَلُمْنى أَوْ فَذَرْ	إنْ كنتُ أخطأْتُ فَمَا أخطات القَدَرْ
لكُلٍّ ما يُؤْذى وإنْ قلَّ أَلَمْ	ما أطْوَلَ الليلُ على مَنْ لَمْ يَنَمْ
مَا انْتَفَعَ المرءُ بمثْلِ عَقْله	وَخَيْرُ ذُخْرٍ للمرءِ حُسْنُ فعْله
إنَّ الفسادَ ضدُّ الصَّلاحُ	وَرُبَّ جِدٍّ جرَّهُ المزَاحُ
إنَّ الشبابَ والفراغَ والجدهْ	مَفْسدَةٌ للمرءِ أىّ مَفْسَدَة
ما زالت الدُّنْيا لَنَا دارَ أذًى	ممزوجةَ الصَّفْو بألوان القَذَى
والخيرُ وَالشرُّ بها أزواجُ	لذَا نتاجٌ وَلذَا نتَاجُ
مَنْ لَكَ بالمَحْضِ وليسَ مَحْضٍ	يَخْبُثُ بَعْضٌ وَيَطيبُ بعْضُ
لكلٍّ إنسانٍ طبيعتان	خيرٌ وشرٌّ وهما ضدَّان
إنك لَوَ تشقَ الشَّحيحَا	وَجدْتَه أَنْتَنَ شىء ريحَا
وَالخَيرُ والشرُّ إذا ما عُدَّا	بينهما بَوْنٌ بعيدٌ جِدًّا

(١) المرجع السابق : ٢٦٠ ·

عَجِبْتُ حتى غَمَّنِى السّكوتُ   صِرْتُ كأنى حائرٌ مَبْهوت
كَذا قَضَى اللهُ فكيف أصْنَع   الصَّمتُ إنْ ضَاقَ الكلامُ أوْسَع(١)

وبقيت أغراض أخرى تتناول الترغيب والترهيب ، والنار وأهلها ، والجنة وأصحابها ، وانتهاك المحارم ، وغيرها ، وكلها وجدت صدى فى شعره، ولقيت استجابة من نفسه ، فعبر عنها تعبير الزاهدين ، وصورها فى أدبه يتأثر بها العارفون من الصوفية فى عصره وبعد عصره .

(٤)

أغراض النثر وسماته الأدبية :

كان النثر الأدبى فى هذه المرحلة أقوى تصويرًا لمعالم الزهد وأصوله من الشعر فيها على الرغم من تعدد أغراضه وفنونه ، لأن الشعر لا يحلق إلا بالخيال ، ولا يبلغ الشاعر بالحقيقة مبلغ الخيال، أو يربو عليه إلا إذا هيىء له من الاقتدار على تصوير الحقيقة بما لا يقل عن ملكة الخيال حين تبدع فى التصوير ، وذلك لا يتأتى إلا عن بصر بأسرار اللغة العربية ، وفهم عميق لحقائق ألفاظها وصلتها بالواقع المحسوس يوم نشأت، ويوم أن يستعملها الشاعر حقيقة مقررة ، فى صورة رائعة ، تتلاقى عندها الأرواح ، فتنعم بها ، وتستعذب ذكرها ؛ لأنها تألفت من صفاء روح الشاعر ، وسمت بحقائق وأسرار شف القلب عنها بعد إدمانه بالرياضة والتهذيب فى العبادة والمراقبة؛ ولم يتحقق ذلك لشعراء الزهد ، وإنما تحقق لقلة من أقطاب شعراء التصوف ، وتحقق لكثرة من أقطابهم فى النثر الصوفى .

والسبب فى ذلك يرجع إلى قيود الشعر من الوزن والقافية ، والقريحة الصافية عند الشاعر ، واكتمال التجربة الشعورية ، والصدق الفنى فيها ، الذى لا يتحقق فيها إلا بعد المعايشة الطويلة لكل جديد وطارئ ، حتى يسبر أعماقه ويطوى أبعاده ، ويصبح الجديد من مخزونات الشعور ، يستجيب عفوًا ومنقادًا لنداء القريحة الشعرية ، عند ذلك ينشد الشاعر فيصدق فى تجربته ، وتتواءم فى

---

(١) الأغانى : أبو الفرج ٣ / ١٣٨ ، ١٣٩ .

التشخيص مع أدواتها فى الصورة من اللفظ والمعنى والخيال والموسيقى والغرض ، تلك هى قيود الشعر المستعصية ، والتى تحتاج من الشاعر إلى جهد ومعاناة ووقت ، وقد يمضى الجيل كله يمهد لفكرة ، لتستقيم للجيل الذى بعده من الشعراء ·

هذا بخلاف النثر الأدبى؛ فلا تعترضه هذه الصعوبات ، حين يصور الجديد؛ فهو أشبه بالماء الصافى ، يتشكل بسرعة فى كل إناء، وعلى قدر صفاء الإناء وشفافيته ، تأخذ صورته مكانها من الروعة والإبداع ، وكذلك الأديب الناثر الزاهد ، فعلى قدر شفافية قلبه وصفاء روحه ، يبلغ أدبه من التأثير فى النفس والروح بقدر هذه الشفافية وذلك الصفاء ·

لذلك كان لحركة الزهد فى النثر الأدبى أكبر الأثر فى إمداد الأدب الصوفى شعرًا ونثرًا بمعالمه وأصوله وخصائصه الروحية والأدبية الرائعة ، كان ذلك أكثر من الزهد فى الشعر العربى · فتأثرت الصوفية بأدب الحسن البصرى والأوزاعى وأبى سفيان الثورى وابن المبارك وغيرهم من الزهاد أكثر من تأثرهم بالشعراء منهم مثل مسعر ، وأبى الأسود الدؤلى ومحمود الوراق وأبى العتاهية وأبى نواس وغيرهم ·

وتعددت أغراض النثر الأدبى فى الزهد ، كما تعددت فى المرحلة السابقة، لكن بعض الأغراض اختفت هنا مثل الخطبة فى الحكم والسياسة ، التى تصدر من الخليفة والحاكم نفسه ، وبعض الأغراض بقيت ، ولكن كان لها طابعها الجديد ، وخصائصها النابعة من عصرها ، وإن كانت تلتقى فى جوهرها ومضمونها بما تأثرت به من الأغراض فى المرحلة الأولى ، وهى كثيرة، وبعضها ظهر فى ثوب جديد ، حتى صار وليد عصره ، فاقتضاها الحال وما عليه الحكام ، ومن أهمها مقامات الزهاد فى مجالس الحكم ورجال الدولة·

ومن الألوان التى كانت موجودة قبل ذلك ثم اتسمت بروح العصر ، الذى نبعت منه ، واستقت من معينه ، وصورته أدق تصوير فى عبارة

محكمة، وألفاظ سهلة وتأثر بالقرآن الكريم والحديث الشريف ومأثور الصحابة، ومن أهم هذه الأغراض ما يلى :

١ - وصف الزهاد (المتقين) :

لم يكن جديدًا كل الجدة ، فقد سبق مثله فى قول الإمام على رضى الله عنه حين وصف الزهاد المتقين فى خطبة طويلة وقفنا على بعض معالمها من السمو الروحى ، وخصائصها الأدبية ، وأثر الدعوة الإسلامية الجديدة فيها ! وسنرى مثلها فى خطبة لأحد الزهاد من خطباء الخوارج وهو أبو حمزة الشارى يصف فيها حال الزهاد من شيعته ، ويصور موقفهم من حزبهم ، وصلته بالعقيدة الإسلامية : والغرض الأسمى الذى ينشدونه كما يصور حالهم أثناء العبادة فهم قيام بالليل وفى جهاد بالنهار لرفع كلمة الحق والإسلام ، يقـــول أبو حمزة الشارى فى أهل مكة بعد أن حمد الله وأثنى عليه : [(١)]

أيها الناس ، إن رسول الله ﷺ كان لا يتأخر ولا يتقدم إلا بإذن الله وأمره ووحيه ، أنزل الله له كتابًا بيَّن له فيه ما يأتى وما يتقى ، فلم يكن فى شك من دينه ، ولا شبهة فى أمره ، ثم قبضه الله إليه ، وقد علم المسلمين معالم دينهم ثم قال يصف النساك من أصحابه مخاطبًا أهل الحجاز ·

يا أهل الحجاز ، أتعيروننى بأصحابى ، وتزعمون أنهم شباب ، وهل كان أصحاب رسول الله ﷺ إلا شبابًا ، أما والله إنى لعالم بتتابعكم فيما يضركم فى معادكم ، لولا اشتغالى بغيركم عنكم ، ما تركت الأخذ فوق أيديكم ، شباب الله مكتهلون فى شبابهم ، غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم، أنضاء عبادة ، وأطلاح سهر ، فنظر الله إليهم فى جوف الليل ، منحية أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقا إليها ، وإذا مر بآية من ذكر النار ، شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه ، موصول كلالهم بكلالهم ، كلال الليل بكلال النهار ، وقد أكلت

---

(١) هو أبو حمزة يحيى بن المختار ، الخارجى الشارى ، من الفرقة الأباضيه وأحد خطبائها المشاهير ، قال الجاحظ هو أحد نساك الأباضية (٢ / ٢٧٥) البيان ·

الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم ، واستقلوا ذلك فى جنب الله ، حتى إذا رأوا السهام قد فوقت ، والرماح قد أشرعت ، والسيوف قد انتضيت، ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت ، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعد الله ، ومضى الشباب منهم قدما ، حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه ، وتخضبت بالدماء محاسن وجهه؛ فأسرعت إليه سباع الأرض ، وانحطت عليه طير السماء، فكم من عين فى مناقير طير طالما بكى صاحبها فى جوف الليل من خوف الله ، وكم من كف زالت عن معصمـــها طالما اعتمد عليهـــا فى جوف الليل بالسجود لله ·

ثم قال : أوه ، أوه ، أوه ، ثم بكى ، ثم نزل [1] .

الجانب الروحى :

اشتملت الخطبة على الجانب الروحى ممثلا فى عناصر كثيرة، فرأى أن رسول الله ﷺ كان يحكم بوحى من عند الله وأمره ، فأنزل عليه كتابًا ، يسير على هديه ، ويحكمه فيما يجد من أحوال، ويتقى به ما تتقلب به الدنيا من فتن وشرور ؛ولذلك سلم حكمه من الشك ، وأمره من الشبهات ، حتى قبضه إليه بعد أن اطمأن المسلمون إلى معالم دينهم ، ثم جاء أبو بكر وعمر

---

(١) البيان والتبيين : الجاحظ : ٢ / ٢٧٧ - معانى المفردات : التتابع : التردى فى الشر والسقوط فيه ، مكتهلون والكهل : ما فوق الثلاثين سنة ، غضيضة : من غض إذا خفض البصر وغضيض الطرف أى فاترة ، وشىء غض وغضيض أى طرى ، وغض الشباب طريه وغض منه أى نقص ! أنضاء عبادة : بمعنى أتعبتهم العبادة وأجهدتهم ، حتى صاروا كالإبل الهزيلة ضمورا فيقال بعير نضو أى مهزول ، وانتضى سيفه أى سله من غمده ! أطلاح والطلح : هو العيى الذى سقط من شدة الإعياء وكثرة الجهد والتعب منحنية : من حنى ظهره إذا عطفه وثناه ؛ كلالهم والكل : هو العيال والثقل ، وعيى من المشى وهو المقصود هنا ؛ تخضبت : إذا تخضب بالحناء وجهه والمراد اختلط دم الشهادة بوجهه فأصبح كأنه مخضبا، انحط : نزل ؛ الجوف : البطن والأجوفان البطن والفرج · الشهقة : تردد البكاء فى الصدر ، والزفير : صوت النار ، أوه : يحكى الصوت الذى يدل على الأنين وشدة الحزن · فوفت : إذا ركبت فى أقواس الرمى أشرعت : صوبت · انتضيت : أخرجت من أغمادها · القدم : المضى أمام ·

رضى الله عنهما ، وعملا بكتاب الله وسنة رسوله ، ثم مضوا إلى ربهم ، ثم سار عثمان ﷺ بسيرة صاحبيه ، وكان دونهما ، حتى تولى على بن أبى طالب ﷺ أمر المسلمين، فلم يستقر الأمر فى يديه لفتنة اندلعت بين المسلمين ، تحول الحكم بسببها إلى بيت بنى أمية فتفرق المسلمون شيعًا وأحزابًا .

« ظاهرت بكتاب الله ، وأعلنت الفرية على الله ، لم يفارقوا الناس يبصر نافذ فى الدين ، ولا بعلم نافذ فى القرآن ، ينقمون المعصية على أهلها ، ويعلمون إذا ولوا بها ، يصرون على الفتنة ، ولا يعرفون المخرج منها ، جفاة عن القرآن ، أتباع كهان، يؤملون الدول فى بعث الموتى ، ويعتقدون الرجعة إلى الدنيا ، قلدوا دينهم رجلا لا ينظر لهم، قاتلهم الله أنى يؤفكون » ، فكان أبو حمزة يذكر أحوال الخلفاء من بنى أمية حتى انتهى إلى الخليفة الزاهد عمر ابن عبد العزيز فأخرجه منهم ، ثم انتقل إلى وصف أصحابه من زهاد الخوارج(١) :

١ - اتهم أهل الحجاز أصحابه بأنهم شباب ، خلوا من حنكة الشيوخ وحصافتهم ، فهم أغرار أخفاء لا حكمة فى رأيهم ، ولا تجارب فى حياتهم ، مما يساعدهم على حصافة الرأى ، وصواب القول ، ورزانة التصرف ، والتروى فى الأمر وعمق التجربة ، عيروه بكل ذلك مما يوحى به الاتهام فى قولهم « أنهم شباب » ، فرد أبو حمزة اتهامهم ، ودحض افتراءهم ، ووضح لهم وجه الخطأ فيما يدعون ، ذلك بأقوى حجة وأنفذ دليل ، فالذى يدعو إلى العجب أن ما تتهمونهم به هو عنوان فخارهم ، وتاج فضلهم ، فهم حقا شباب لا كما تدعون ، ولكن هم شباب كأصحاب رسول الله ﷺ فقد كانوا شبابا، لكن الإسلام جعلهم فى ثوب الشيوخ فنصر الله الإسلام على أيديهم .

وفى هذا الحجة الدامغة ، والقول الفصل ، الذى يردكم عن الاتهام ، وينأى بكم عن الخطأ فى التقدير ، وإلا ترجعوا ، فأنا أعلم بكم من أنفسكم ، فقد تماديتم فى الباطل ، وترديتم فى الشر ، مما تضرون به أنفسكم يوم الميعاد،

---

(١) البيان والتبيين : الجاحظ : ٧٦ .

ولولا أنى وأصحابى قد صرفنا الهمم لمن هم أقوى منكم فى السلطة والحكم لأخذنا على أيديكم ، وقاتلناكم، حتى تعودوا إلى رشدكم، وترجعوا عن اتهامكم، وهكذا كان أصحاب رسول الله فى إحقاق الحق ودحض الباطل ، فلم يجرؤ أحد أن يرميهم بحداثة السن وميعة الشباب .

٢ - ومثل هذا الشباب الذى يسير على سنة السلف الصالح ، اتصفوا بصفاتهم : صفات الشيوخ من الحلم والعقل والحكمة والإصابة ، والوقار والرزانة ، والتأمل والروية ، والصلاح والتقوى ، يغضون أبصارهم عن الشر بكل وسائله ، ولا ينغمسون فى الباطل ، ويدافعون عنه فلا يعرفون إلا الخير، ولا يحيدون عن الحق، بل يدافعون عنه فى جرأة وشجاعة، حتى نحلت أجسادهم من الجهاد فى سبيله ، وضمرت أبدانهم من العبادة ، وأصابهم العى من تتابع السهر خوفا من الله ، وابتغاء مرضاته وما زالوا كذلك يتقربون إليه بالليل والنهار ، حتى أحبهم الله ، ونظر إليهم فى جوف الليل ؛فحفهم بالسكينة وتغشاهم بالرحمة، وقد انحنت ظهورهم من الاستمرار فى الركوع والسجود ، وانثنت أصلابهم لانحائهم على أجزاء القرآن، يرتلونه ترتيلا ، وينفذون إلى أغواره ، ويتذكرون بمعانيه ، فإذا مر أحدهم بآية فيها ذكر الجنة ونعيمها ازداد حنينه إليها ، وانتحب يبكى شوقا ، كأنهم يرونها بقلوبهم رأى العيان ، ويشمون رائحتها الطيبة فى القرآن حبل الله المتين ، وإذا مروا بآية فيها ذكر النار، أخذت بتلابيب أنفسهم ، وغابت أنفاسهم عن صدورهم ، حتى يكاد القلب أن يسكت ، ويقضى على صاحبه ، فيشهقون شهقة تمتلأ منها قلوبهم ، وكأن أصوات شهقاتهم ، امتدادًا لزفير جهنم الذى امتلأت به أسماعهم ، فهم يرونها ببصيرتهم رأى العيان ، ومن رأى النار خافها ، وتجنب الطريق إليها ، ولا عجب فى ذلك ؛ فالخيال - وهو خيال - فى عرف الشعراء ورقة شعورهم يجعل المعنى الذهنى محسا ، والفكرة المجردة مشهدًا من مشاهد الحياة ، فكيف برؤية القلب والبصيرة - وهما حقيقتان - إنهما يريان الجنة والنار رؤية العيان.

٣ - ومثل هؤلاء الشباب ترى الواحد منهم قد أسهر ليله مع ربه ، دائم

الصلة به ، لا يشغله عن الله شيء؛ لأنه عرف طريق الحق ، وذاق حلاوة الإيمان، ونعم بلذة اللقاء ، لا يغفل عن ربه ليلا أو نهارًا ؛ فإذا أيقظ ليله ، امتدت اليقظة فى النهار ، فتراهم ركعا سجدًا يبتعون فضلا من الله ورضوانًا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، وقد برتهم العبادة حتى الأرض ؛ فما برحوا عن الطاعة لحظة من نهار ، فأكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم ، وكأن عوامل الفناء فى طاعة الله ، ترجع إلى أمرين : إلى مواصلة العبادة بالليل ، وإلى ملازمتهم الأرض التى ضمتهم ، كما أفنت الموتى وذابوا فى ترابها ، فهم يسكنون إليها دائما ، لا يشغلهم متاع الحياة الدنيا ، ولا تحركهم شهواتها وملذاتها ، ولكنهم إذا تحركوا من الأرض كانوا أسودًا فى الجهاد ، ويرون عملهم هذا دون ما يستحقه الله من الشكر .

٤ - لا يصرفهم عن العبادة وملازمه الأرض فى الطاعة ، إلا الجهاد فى سبيل الله ؛ حتى إذا أذن به ، واصطفوا للدفاع عن الحق ؛ فترى النبال قد أحكمت فى الأقواس ، والرماح قد أشرعت للرمى ، والسيوف قد أخرجت من أغمادها للضرب ، فإذا التحم الجيشان أبرقت السيوف من كثرة التلويح بها أثناء الضرب يمينا وشمالا ، وتتساقط الموتى بصواعق التلاحم والتضارب ، وهم فى ذلك يلبون نداء الحق ، ويتمنون الشهادة فى سبيله ، حتى ينعموا بوعد الله لهم فى الجنة ، ويستبشرون بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، فرحين بما أتاهم ربهم ، ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، ولذلك يضربون أروع أمثال البطولة والشجاعة ، فلا تراهم إلا متقدمين دائما . لا يولون الدبر حتى إذا أثخن أحدهم الضرب ، واصل قتاله ورجلاه تختلف على عنق فرسه ، حتى لا يزل عنه إلا وهو شهيد ، تخضبت بالدماء محاسن وجهه ، فيتصافح على وجهه نور العبادة ، ورائحة الشهادة الزكية ، ولتنعم روحه عند ربه ، أما ما يتصل بالأرض من أجسادهم ، فلا يلقون إليه بالا ، فقد ابتغوا طول حياتهم التخلص من أبدانهم فى دوام العبادة ، فالروح من الله ، وقد عادت إلى السماء ، والجسد من الأرض ، وقد هبط إليها ، ولا ضير أن يتحلل البدن فى الأرض مباشرة ، أو يتحلل بوسيلة من وسائل الأرض ، ليعود إليها حين تلتهمه سباع الأرض وطيور الجو ، فكم من عين فى منقار طائر ، لو علم هذا

الطائر أنها كانت تبكى من خشية الله فى جوف الليل لما مثَّل بها فى الجو ، وكم من كف زالت عن معصمها فأمسك بها سبع من سباع الأرض ، وعض عليها بفمه ، ولو علم أنها طالما اعتمد عليها صاحبها ساجدًا لله لما أمسك بها وسقطت من فمه ، وخر السبع ساجدا لربه ، وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم .

هذا هو الجانب الروحى فى النص الأدبى ، الذى تعمق فى نفوس أصحاب أبى حمزة الشارى؛ فلبسوا به ثوب الزهاد ، وسمت أنفسهم به عما حفت به الدنيا من الشهوات والملذات ، ولقد كان للسمو الروحى هنا الأثر القوى فى الأدب الصوفى ، وبناء أصوله ، وتحديد معالمه وخصائصه .

الخصائص الفنية :

صور أبو حمزة الزهاد من أصحابه أبلغ تصوير ، ووصفهم أدق وصف، وأعطاهم فى خطبته ما هو واقع بهم ، وأعظم ما حفل به الوصف هنا قوة التصوير الأدبى ، الذى التقى الإقناع والتأثير فى أدواته : من اللفظ ، والعبارة ، والصورة ، والموسيقى؛ فأما الإقناع فلم يقتصر على وضوح المعنى، وعمقه ، وخصوبته ، وتأييده بالدليل القوى والحجة الواضحة ، وغير ذلك مما يتجه إلى الفكر والعقل ، ولكنه أرسل ذلك فى صور تتفتح لها نوافذ الإدراك الأخرى فى النفس من الوجدان والشعور والعاطفة، ليتنبه العقل عن طريقها قبل أن يعى ، ويتيقظ قبل أن يقتنع ، وذلك عن طريق إرسال المعنى فى صور أدبية محسة ، فكأن تصوير المعنى المجرد فى صورة محسوسة يعد دليلاً آخر ينفذ من خلال المشاعر إلى العقل ، يساند الأدلة الأخرى المجردة وعلى هذا فمصادر الإقناع فى الوصف هنا ترجع إلى أمور أهمها :

١ - **وضوح المعنى** فى كل عناصر الخطبة كما وضحنا ذلك فى الجانب الروحى ؛ فالمعانى فى العبادة والطاعة واضحة مثل معنى الاكتهال ؛ فإنه يدل على العقل والحكمة والوقار والرزانة والروية والصلاح وغير ذلك مما سبق .

٢ - **عمق المعنى** : لا يتعارض الوضوح مع العمق فى المعنى ، وتلك

قدرة لا يجيدها إلا البلغاء ، والعمق ظاهر فى كل فقرة ، فحين شبه أصحابه الشباب بالصحابة ﷺ ، أعطى لهم من الصفات والشمائل ، ما غرسه الإسلام فى أعماقهم ، وما تأصل فى نفوسهم من خلق القرآن .

٣ - **خصوبة المعنى** ترجع إلى اتساعه وشموله ، فإذا تأملت المعنى فى لفظ « أنضاء » مثلا تراه يفيد الضمور وهزال الجسد ونحافته ، ومع ذلك يفيد القوة والشجاعة لأن الضمور هنا ليس بمعنى الضعف والخور ، فالجواد الضامر أقوى وأشد من الجواد المترهل والمكتظ باللحم ؛ لذلك كان العرب يضمرون جيادهم وإبلهم استعدادًا للحرب .

٤ - **الدليل القوى والحجة الواضحة** : وذلك على سبيل المثال حين رد على أهل الحجاز ما اتهموا به أصحابه من الخفة والطيش ، فأسكتهم بأدلة واضحة ، فهم مثل أصحاب رسول الله ﷺ ، وقد كانوا شبابا وقادوا العالم إلى الحق والنور ، وأسكتهم بحجة انتزعها من أهل الحجاز أنفسهم وهى توجيه الاتهام إليهم ، فقد تمادوا فى الباطل وانغمسوا فى الشر ، فهم أحق بالتهمة من أصحابه ، وهم يستحقون توجيه الجيوش إليهم ، لتأديبهم ، ثم الدليل القوى الذى يتضح فى اتصاف أصحابه بصفات عباد الرحمن ، وتقلبهم فى الطاعة بالليل والنهار ، وكأنه يرد عليهم الاتهام بواقع أصحابه العملى من مواصلة العبادة والجهاد فى سبيل الله .

٥ - **التصوير المحس** : يقوم التصوير المحس هنا مقام سوق الدليل فى الإقناع وربما يكون أقوى ؛ لأنه يستميل القارئ ، ويحرك الوجدان ، ويوقظ العقل قبل أن يستقر فيه الدليل ، فإذا أراد أن يقنع السامع بفرحة الشهيد للقاء ربه بهم - وهو معنى ذهنى مجرد تفتش عنه النفس فى جوانبها الخفية - ساقه فى هذه الصورة المحسة المألوفة لتكون كالدليل فى الإقناع وهى قوله : وتخضبت بالدماء محاسن وجهه ، فالخضاب يكون بالحناء إعلانًا عن الفرح والسرور ، لا بالدماء التى يفزع منها الإنسان ، وخاصة إذا التقى هذا الحسن مع النور الساجى على وجهه من أثر العبادة فيتعاظم البشر بلقاء الله ، وتتم

الفرحة بالنعيم المقيم ، وتلك الصورة المحسة فى الخضاب لتمثل أقوى الأدلة فى الإقناع بالمعنى المراد من العبارة وهو بشرى الشهادة .

وأما الشق الثانى فى هذا الغرض الأدبى فيرجع إلى التأثير الذى يستمد قوته مما يأتى :

١ - فاللفظ قوى جزل ، قد انسجمت حروفه وتلاءمت أصواته لأداء المعنى المراد ، فترى الحياء من الله فى لفظ « غضيضة » ، ، وخاصة فى امتداد الكسرة التى اقتضت حرف الياء ، وفك الإدغام فى الضاد أصلها « الغض » فأعطى للفظ امتدادًا وطولا إلى أقصى ما يمكن أن يمتد ، وهو أشبه فى امتداده وغايته بما ينبغى أن يكون عليه المسلم من الحياء ، ثم ما تفيده كلمة « ثقيلة » من التثاقل ، والبطء الناتج من معنى اللفظ اللغوى ، ومن ثقل حرفى الثاء القاف فى إيقاعهما الصوتى ، تم ذلك الثقل الناتج عن حرف اللين « الياء » وغيرها من الكلمات القوية الجزلة التى تلاءمت فيها المعانى والحروف والأصوات والشكل مع الغرض الذى جاءت من أجـــله ، ولذلك انتقـــى أبو حمزة الكلمات القوية النفاذة إلى القلوب .

٢ - والعبارة تتشكل فى جمل قصيرة سهلة لتتميز بسرعة الإلقاء وسرعة الفهم ، وتتابع المعنى ، وتلاحق الأثر النفسى ، فلا ينصرف السامع عن المتابعة، لأن القصر لا يمكنه من الانتقال إلى شيء آخر ، فلا يشتغل الذهن بسواها مثل قوله : شباب والله مكتهلون فى شبابهم إلى آخره .

والعبارة وردت فى أسلوب قوى محكم ، بحيث لا تجد اضطرابا فى موضع منها ولا قلقا فى مكانها ، بل الجميع ينساق نحو الغرض فى جرس موسيقى متساوق ، وأعان على ذلك ما يتناثر فيها من سجع ينتهى إليه الإيقاع فى نهاية الفقرات وبعض المحسنات كالطباق فى الليل والنهار ، والشهيق والزفير ، والوعيد والوعد ، وغيرها ، والمزاوجة فى قوله . كلال الليل بكلال النهار ، والسهام قد فوقت والرماح قد أشرعت والسيوف قد انتضيت ، وغيرها

من ألوان المحسنات البديعية التى جاءت هنا عفوا ؛ فسلمت من الكلفة والتصنع، وخلت من القهر والإقتسار كالجناس والتقسيم والترادف وغيرها .

وزاوج فى الأسلوب بين الإنشاء والخبر ، حتى لا يمل السامع أو يسأم من الأسلوب الخبرى وحده أو الإنشائى وحده ليظل يقظ العقل ، متفتح الوجدان والشعور ، ولقد ابتدأ بالنداء والاستفهام لإثارة الانتباه ، والتعبير عن الدهشة والإنكار ، حتى إذا أمسك بمجامع قلوبهم ، وردهم إلى الصواب ، ودفع التهمة عن أصحابه بالأسلوب الإنشائى أخذ يخبر عنهم ، ويصف حالهم بأسلوب يتسم بالهدوء والتأمل ، وكان ذلك فى الأسلوب من أول قوله : شباب والله مكتهلون فى شبابهم إلى آخر النص الأدبى .

وتأثر الأسلوب بالقرآن الكريم فكان سهلا لا تعقيد فيه ولا غموض ، رفيقًا عذبًا يفيض عن مكنـــونه بأدنى تأمل، ظهر فيه روح القرآن واضحًا فى قوله : قد نظر الله إليهم إلى أخره مستمدًا من قوله تعالى : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع** ﴾ وفى قوله : قد أكلت الأرض جباههم ؛ من قوله تعالى : ﴿**تراهم ركعًا سجدًا يبتغون فضلا من الله ورضوانًا** ﴾ .

وتأثر كذلك بكلام على بن أبى طالب فى الزهد ووصف المتقين وقد مضى ذكره وخاصة فى الأســلوب وبعض الصور وعلى سبيــــل المثال قال على رضي الله عنه : أما الليل فصافون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن إلى قوله : قد براهم الخوف برى القداح ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى ، فتأثر به أبو حمزة فى قوله : أنضاء عبادة وأطلاح سهر ، وقوله : فنظر الله إليهم فى جوف الليل إلى قوله : وجباههم ؛ وظهر التأثر فى غير ذلك وفى مواطن كثيرة، وكلها تدل على أن الأدب الروحى فى هذه المرحلة يعتمد كل الاعتماد على نظيره فى المرحلة الأولى (١) .

٣ - والصورة الأدبية هنا تشخص لك المعانى المجردة ، وتجسم ما خفى عن النفس وذلك عن طريق الخيال ، الذى أسهم فى قوة التأثير كما يأتى :

---

(١) انظر ما سبق فى قول الإمام على رضي الله عنه .

(أ) التصوير المحس حين يلتقط الخيال صورة من الواقع ، وينتقى أقوى المشاهد فى الحياة ، التى تتناسب مع المعنى لتثير النفس ، وذلك مثل عباد الرحمن وهم فى جوف الليل يعبدون ، والزفير والشهيق ، والرعد والبرق والصواعق فى تلاحم القتال واختلاف الرجل على عنق الفرس ، والخضاب والدماء ، والعين فى منقار طائر ، والكف فى فم وحش ، وهكذا يأخذ من الواقع مشاهد محسة ، يعبر بها عما يريد من معان .

(ب) الصور البيانية التى ابتدع فى صوغها الخيال ، فأعطاها من القوة والتأثير ، ما به تستقر فى النفس ، واختلفت الصور هنا من استعارة إلى كناية وتشبيه ، ومجاز مرسل ، كلها جاءت لتوضيح الغرض لكى تتأثر النفس به .

وفى التشبيه ترى تشبيهًا ضمنيًا حين شبه أصحابه بأصحاب رسول الله ﷺ فى الصفات السابقة ، وكذلك فى تشبيههم بالكهولة فى الحنكة والروية والوقار والرزانة والعقل وطول التجربة والإصابة ، والتشبيه البليغ فى قوله : كلال الليل بكلال النهار فى معنى المواصلة ومتابعة العبادة بحيث لا فرق فيها بين الليل والنهار .

والاستعارة فى قوله : أكلت الأرض ... تصور شغفهم بالعبادة وشدة إقبالهم على الطاعة واستغراقهم فى الصلاة وخاصة فى السجود ، حتى أن الأرض أعانتهم على ضمور أجسادهم ونحافة أبدانهم ، فذابت من العبادة والجهاد بالليل والنهار ، والأرض تأكل منهم وهم يخرون ساجدين لربهم ، ويطيلون فى ذلك حتى تتمكن منهم ، والاستعارة فى قوله : ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت ، تصور ضراوة القتال ، وجلبة المعركة ، فتلمع السيوف ، وتصطك بعضها بالبعض ويتردد صداها فى ساحة القتال ، لتتجاوب مع أصداء وقع السهام والنبال على الدروع ، ثم تلك الصرخات والأنات للقتلى والجرحى . وأصوات الحماسة للإحجام والإقدام ، كل هذه المشاهد من واقع المعركة وغيرها نقلتها إلينا الاستعارة فى رعدت ، وفى برقت ، ثم الاستعارة فى قوله : وتخضبت بالدماء ، التى تصور فرحة المسلم بالشهادة ،

وابتهاجه بلقاء ربه ، فالشأن فى الدماء الخوف والفزع والرعب ، لكنها إذا ظهرت فى صورة الخضاب تزهو بها النفس ، فالعادة فى استعمال الحناء عند العرب يتخضبون بها أثناء فرحهم وسرورهم ؛ فكأن الشهيد تزفه الملائكة إلى ربه ، ليلقى أعظم الجزاء ، ويسمو إلى منازل النبيين والصديقين والصالحين وحسن أولئك رفيقًا .

أما الكنايات فما أكثرها فى هذا النص الأدبى الرفيع ، فالكناية عن العفة فى قوله : غضيضة عن الشر أعينهم ،وفى البعد عن الخطايا فى قوله : ثقيلة عن الباطل أرجلهم، والكناية عن الحنين إلى الجنة فى قوله : كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقًا إليها ، وعن الفزع من النار فى قوله : وإذا مر إلى آخره ، والكناية عن دوام الاتصال بالله فى قوله : موصول كلالهم بكلالهم، وجملة قد أكلت الأرض ركبهم إلى آخرها كناية عن إطالة السجود والاستغراق فيه ، والكناية عن الشهادة فى قوله : استخفوا بوعيد الكتيبة لوعد الله ، والكناية عن الشجاعة فى قوله : اختلفت رجلاه على عنق فرسه، وهكذا ترى الكنايات فى تصويرها المتأنى الدقيق « تتمنع على العقل قليلا فى حياء وخفر ، حتى إذا تكشفت حلت من القلب فى أكرم منزل ، واستقرت فيه على قدر تمنعها من العقل، وتأبيها على النفس،وهذا من أسرار البيان العربى ، ودلائله العجيبة فى التأثير والإقناع .

٤ - الإيحاء يشمل الصورة واللفظ فأما الصورة فى الاستعارة والكناية فوقفنا على وحيها وشمولها لكثير من المعـــانى بحيث لا ينهض اللفظ وحده بها ، لولا أنه وقع فى موقع الاستعارة أو الكناية ، فترى مثلا فى قوله : أنضاء عباده كناية عن الضمور ، وهى فوق ذلك توحى بالقوة فى الجسد والعقيدة ، وبالاستغراق فى العبادة، والزهد فى الدنيا ، والعفة عن شهواتها ، وأما الإيحاء فى اللفظ فتراه مثلا فى كلمة « شباب » فتوحى بالطيش والانطلاق والتهور والاندفاع والحدة والهوى ، وكلمة « أصحاب » توحى بكل المعانى التى اتصف بها أصحاب رسول الله ﷺ من التخلق بأخلاق القرآن ، ولفظ « مكتهلون » يوحى بالوقار والعقل والتجربة والتقوى ، والفعل « نظر » يوحى

بالصلاح والتقوى والرحمة والرعاية والإعجاب والتقدير والقرب والرضى ، وفى الشهيق والزفير معان كثيرة فوق المعنى الأصلى شع به موقعها من النظم فتشعر بمعانى الفزع والرعب والموت ومواصلة الطاعة ، والبعد عن المعصية ، ونفاذ البصيرة ، وشهود الحقيقة ، وتوحى الصواعق بشدة القتال وتلاحم النبال ، واصطكاك السيوف والدروع ، وارتفاع الأصوات ، وكثرة القتلى ، وضراوة المعركة ، وكذلك فى الألفاظ : تزعمون ، فوق ، غضيضة ، ثقيلة ، أطلاح ، كلالهم ، استخفوا مضى ، قدما ، اختلفت ، محاسن وجهه ، سباع ، طير ، عين ، كف .

٢ - عظة الموت :

كانت من أغراض الزهد فى الأدب العربى ، فمن ذكر الموت هانت عليه الدنيا ، ومن اتعظ به زهد عما فى الحياة من زينة ومتاع ، فالموت نهاية كل حى فطوبى لمن عمل لما بعد الموت ، وكان أصحاب رسول الله ﷺ ، إذا دخلوا فى الصلاة ، صلوا صلاة مُودِّع ، فهم يعتقدون أن الموت من ورائهم فى كل عمل ، ولذلك أحسنوا وصدقوا وأخلصوا يقول الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز [(١)] .

أما بعد فإن الله عز وجل لم يخلقكم عبثًا ، ولم يدع شيئا من أمركم سُدى ، وإن لكم معادًا فخاب وخسر من خرج من رحمة الله ، وحرم الجنة التى عرضها السموات والأرض ، واشترى قليلا بكثير ، وفانيا بباق ، وخوفًا بأمن، ألا ترون أنكم فى أسلاب الهالكين ، وسيخلفها بعدكم الباقون ، كذلك حتى ترد إلى خير الوارثين ، فى كل يوم وليلة تشيعون غاديًا ورائحًا إلى الله عز وجل ، قد قضى نحبه ، وانقضى أجله حتى تغيبوه فى صدع من الأرض فى بطن صدع ، ثم تدعونه غير ممهد ولا موسد ، قد خلع الأسباب ، وفارق الأحباب ، وسكن التراب ، وواجه الحساب ، مرتهنا بعمله فقيرا إلى ما قدم ،

(١) هو أبو حفص أمه بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، خامس الخلفاء الراشدين كما قال سفيان الثورى ومصلح المائة الأولى والشافعى على رأس المائة الثانية كما قال الإمام أحمد بن حنبل وتوفى رحمه الله عام ١٠١ هـ .

غنيا عما ترك ، فاتقوا الله قبل نزول الموت ، وايم الله إنى لأقول لكم هذه المقالة ، وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب ما أعلم عندى ، وما يبلغنى عن أحد منكم من حاجة إلا أحببت أن أسد من حاجته ما قدرت عليه ، وما يبلغنى أن أحدًا منكم ما يسعه ما عندى إلا وددت أنه يمكننى تغييره، حتى يستوى عيشنا وعيشه، وايم الله لو أردت غير ذلك من النضارة والعيش لكان اللسان منى به ذلولا ، عالما بأسبابه ، ولكن سبق من الله عز وجل كتاب ناطق وسنة عادلة، دل فيها على طاعته، ونهى فيها عن معصيته ، ثم وضع طرف ردائه على وجهه فبكى وشهق ،وبكى الناس ،وكانت آخر خطبة خطبها (١) .

ومن دلائل الصدق فى هذا النص الأدبى أنه خرج من قلب صادق ،قد شفه الإيمان وأرقه الزهد فى الحياة ، فعرف حقيقة الإنسان منذ أن خلقه الله ، فهو ميت مهما طال عمره ، فحياته وموته لا لذات الحياة والموت ، ولكن ليرى الإنسان مكانه عند ربه ، ويهيء لنفسه موقعًا فى منازل الآخرة ، فالخسران لمن حرم الجنة ، وكيف يغفل الإنسان عن حقيقته، وهو يراها كل يوم فى الغادى والرائح من الأموات صباح مساء ، حتى ينتهى إلى شق من الأرض ،حيث كان يتوسد فيه التراب ، ويفترش الحصى والغبار .

ومما يؤكد الصدق فى هذا القول ما يؤكده الخليفة من عمل ،فالمحتاج يقضى حاجته حتى يستوى معه فى العيش ، ومن أراد أن يسعه ما عنده لود أن يفعل ذلك ، لأن ذنوبه تشغله عن التفكير فى أمر الدنيا والعناية بها .

فهذا الصدق يوقظ الغافل عن الموت من غفلته ، فيشعر أن الموت يقبل عليه، ويسرى فى أحشائه، ويقضى عليه شيئًا فشيئًا ، والصدق هو دليل البراعة فى القول سمع الحسن البصرى خطيبًا يعظ ، لم يرق له قلبه فقال له : يا هذا إن بقلبك شرًا أو بقلبى ، وعمر عبد العزيز من أصدق الناس تعبيرًا وأطهرهم قلبًا ، وأزهدهم نفسًا ، وأقربهم إلى الله وأبعدهم عن الدنيا ، فحينما دفن عمر بن عبد العزيز الخليفة سليمان بن عبد الملك عاد بعد دفنه ؛

---

(١) صفة الصفوة : ابن الجوزى : ٢ / ٧٠ .

فيسمع للأرض هدة أو رجة ، فقال : ما هذه ؟ فقيل هذه مراكب الخلافة يا أمير المؤمنين قربت إليك لتركبها فقال : مالى ولها نحوها عنى ، وقربوا إلى بغلتى ، فقربت إليه بغلته فركبها فجاء صاحب الشرطة يسير بين يديه بالحربة ، فقال : تنح عنى مالى ولك إنما أنا رجل من المسلمين؛ فسار وسار معه الناس حتى دخل المسجد ، فصعد المنبر واجتمع الناس إليه فقال :

يا أيها الناس إنى قد ابتليت بهذا الأمر من غير رأى كان منى فيه ، ولا طلبة له، ولا مشورة من المسلمين ، وإنى قد خلعت ما فى أعناقكم من بيعتى، فاختاروا لأنفسكم، فصاح المسلمون صيحة واحدة ،قد اخترناك يا أمير المؤمنين، ورضينا بك ، فأنت أميرنا باليمن والبركة ، فلما رأى الأصوات قد هدأت ورضى به الناس جميعًا خطب فيهم ... حتى قال : وإن هذ الأمة لم تختلف فى ربها ولا فى نبيها ، ولا فى كتابها ، وإنما اختلفوا فى الدينار والدرهم ، وإنى والله لا أعطى أحدًا باطلاً ، ولا أمنع أحدًا حقًا .. ثم نزل فدخل ، فأمر بالستور فهتكت ، والثياب التى كانت تبسط للخلفاء فحملت وأمر ببيعها ، وإدخال أثمانها فى بيت مال المسلمين ، ثم ذهب فتبوأ مقيلاً ، فأتاه ابنـــه عبد الملك ، فقال يا أمير المؤمنين ماذا تريد أن تصنع ، قال : أى بنى أقيل ، قال تقيل ولا ترد المظالم ، قال : أى بنى قد سهرت البارحة فى أمر عمك سليمان ، فإذا صليت الظهر رددت المظالم ، قال : يا أمير المؤمنين من لك أن تعيش إلى الظهر،قال : أدن منى ، فدنا منه ، فالتزمه وقبَّل بين عينيه ، وقال: الحمد لله الذى أخرج من صلبى من يعيننى على دينى ، فخرج ولم يقل، وأمر مناديه أن ينادى ، ألا من كانت له مظلمة فليرفعها ... فجعل لا يدع شيئًا مما كان بيده وفى يد أهل بيته من المظالم إلا ردها مظلمة مظلمة ، فلما بلغت الخوارج سيرة عمر ، وما رد من المظالم ، اجتمعوا فقالوا : ما ينبغى لنا أن نقاتل هذا الرجل [1] .

٣ - الوصايا :

وهى من أغراض الزهد فى الأدب ، اشتهر بها التابعى الزاهد الحسن البصرى. وتختلف عن الوصايا فى الصدر الأول . التى كانت تصدر من خليفة

(١) صفة الصفوة : ابن الجوزى ٢ / ٦٥ .

إلى آخر من بعده ،أو من خليفة لقائد جيش، أو من والد لولده ؛ لكن الوصايا فى هذه المرحلة ظهرت على يد غير هؤلاء ، ووجهت إلى عامة الناس لا إلى شخص معين ؛ فقد يقولها زاهد بعيد عن مواقع الحكم والقيادة ، ويسديها إلى كل من هو أهل للوعظ ، فالحسن البصرى مثلاً ليس حاكمًا ولا قائدًا ، ولم يوجه وصايا للحكام فقط، بل لعامة الناس ، وكثيرًا ما كان يعظ بها الناس فى مساجد البصرة بعيدًا عن دمشق موطن الحكم والخلافة ، يقول الحسن البصرى فى بعض وصاياه (١) .

« يا ابن آدم ، بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعًا ، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعًا .

يا ابن آدم إذا رأيت الناس فى الخير فنافسهم فيه ، وإذا رأيتهم فى الشر فلا تغبطهم فيه ، الثواء هنا قليل ، والبقاء هناك طويل ، أمتكم آخر الأمم ، وأنتم آخر أمتكم ، وقد أسرع بخياركم فما تنتظرون ؟ المعاينة ؟ فكأن قد ، هيهات هيهات ، ذهبت الدنيا بحال بالها ، وبقيت الأعمال قلائد فى أعناق بنى آدم ، فيالها موعظة لو وافقت من القلوب حياة ، أما إنه لا أمة بعد أمتكم ، ولا نبى بعد نبيكم ، ولا كتاب بعد كتابكم ، أنتم تسوقون الناس والساعة تسوقكم ، وإنما ينتظر أولكم أن يلحق بآخركم ، من رأى محمدًا ﷺ غاديًا ورائحًا لم يضع لبنة على لبنة ، ولا قصبة على قصبة . رفع له علم فشمر إليه (٢) .

ثم قال : ﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة** ﴾ ؛فرغب أقوام عن عيشه ، وسخطوا ما رضى له ربه . فأبعدهم الله وسحقهم ، يا ابن آدم طأ الأرض بقدمك ، فإنها عن قليل قبرك ، واعلم أنك لم تزل فى هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك ، رحم الله رجلاً نظر فتفكر ، وتفكر فاعتبر ، وأبصر فصبر ، فقد أبصر أقوام فلم يصبروا ، فذهب الجزع بقلوبهم ، ولم

(١) هو أبو سعيد الحسن بن أبى الحسن البصرى مولى الأنصار ، ولد فى خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه توفى عام ١١٠ هـ .

(٢) صفة الصفوة : ٣ / ١٥٨ والبيان : الجاحظ ٢ / ٤٥٠ .

يدركوا ما طلبوا ، ولم يرجعوا إلى ما فارقوا · يا ابن آدم ، اذكر قوله : **﴿وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابًا يلقاه منشورًا ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبًا ﴾** · عدل والله عليك ، من جعلك حسيب نفسك ، خذوا صفاء الدنيا، وذروا كدرها؛ فليس الصفو ما عاد كدرًا، ولا الكدر ما عاد صفوًا ، دعوا ما يريبكم إلى ما لا يريبكم ، ظهر الجفاء ، وقلت العلماء ، وعفت السنة ، وشاعت البدعة » (١) .

والخصائص الأدبية للوصية هنا خاصة ، والوصايا فى أدب الزهد عامة فى هذه المرحلة تبدو فى سمات وملامح من أهمها :

١ - وضوح المعنى ، وظهور الفكرة ، لأنها نصائح ومواعظ ، الغاية منها أن تستقر فى القلب بأدنى تأمل ·

٢ - الاعتماد على الحقيقة غالبًا ، إلا فى القليل من صور الخيال ووسائله البيانية مثل قوله بع دنياك بآخرتك ·

٣ - المزاوجة بين الأسلوب الإنشائى والخبرى لإيقاظ الذهن واستمرار المتابعة والتشويق ·

٣ - المضمون فيها نابع من القرآن الكريم ومن السنة الشريفة ·

٥ - الإكثار من التمثيل بآيات القرآن والأحاديث ومأثور الصحابة ·

٦ - شيوع ألفاظ الفقهاء والمحدثين والمتكلمين ·

٧ - يجوز فى بعض الفقرات أن تنفصل عن مكانها ، وتستقل عن النص الذى ذكرت فيه لتصير مثلاً أو حكمة ، أو عظة يتمثل بها فى مواقف مختلفة ، دون أن يحدث خللاً أو اضطرابًا فى النص الأدبى الذى أخذت منه، وكذلك الأمر ، لو تقدمت بعض العبارات أو تأخرت فلا يضر التقديم شيئًا : ولا التأخير كذلك ·

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ٣ / ٤٥١ ·

٨ - تختلف الوصايا فى هذه المرحلة عن الأولى إذ كانت هنا من عامة الناس إلى عامتهم كما وضحت ذلك من قبل .

هذه أبرز السمات فى وصايا الزهاد ونصائحهم التى كانت تعبر عن صدق إيمائهم ، وصفاء قلوبهم ، وإخلاصهم لربهم عز وجل .

٤ - الرثاء :

وهو غرض من أغراض الزهد فى الأدب ، يشخص فيه القائل معالم الزهد والتقوى فى المرثى ، ليكون تأبينًا له وتكريمًا لمنزلته ، ويبقى فى ذكره قدوة حسنة لمن رغب عن الدنيا وأحب الآخرة ، حب الراغبين فيها ، وهذه مرثية رثى بها أبو جعفر بن السماك داود الطائى (١) ، يقول ابن السماك :

« يا أيها الناس إن أهل الدنيا تعجلوا غموم القلب ، وهموم النفس ، وتعب الأبدان مع شدة الحساب ، فالرغبة متعبة لأهلها فى الدنيا والآخرة ، والزهادة راحة لأهلها فى الدنيا والآخرة ، وإن داود الطائى نظر بقلبه إلى ما بين يديه ، فأعشى بصر قلبه بصر العين ، فكأنه لم يبصر ما إليه تنظرون ، وكأنكم لا تبصرون ما إليه ينظر ، فأنتم منه تعجبون ، وهو منكم يتعجب . فلما نظر إليكم راغبين مغرورين ، قد ذهبت على الدنيا عقولكم ، وماتت من حبها قلوبكم ، وعشقتها أنفسكم ، وامتدت إليها أبصاركم ، استوحش الزاهد منكم، لأنه كان حيًا وسط موتى .

يا داود ما أعجب شأنك ألزمت نفسك الصمت حتى قومتها على العدل، أهنتها وإنما تريد كرامتها ، وأذللتها وإنما تريد إعزازها ، ووضعتها وإنما تريد تشريفها ، وتعبتها وإنما تريد راحتها ، وأجعتها ، وإنما تريد شبعها ، وأظمأتها وإنما تريد ريها ، وأخشنت الملبس وإنما تريد لينه ، وأمت نفسك قبل أن تموت، وقبرتها قبل أن تقبر ،وعذبتها قبل أن تعذب ، وغيبتها عن الناس كى لا

(١) وابن السماك من زهاد الكوفة وهو أبو العباس محمد بن صبيح بن السماك ، عاش فترة فى بغداد ثم مات فى الكوفة عام ١٨٣ هـ . وهو غير أبو جعفر السماك البغدادى الأصل فأما أبو سليمان داود الطائى فقد جالس أبا حنيفة وتوفى عام ١٦٥ هـ.

تذكر . وغبت بنفسك عن الدنيا إلى الآخرة؛ فما أظنك إلا قد ظفرت بما طلبت.

كان سيماك فى عملك وسرك ، ولم يكن سيماك فى وجهك ، فقهت فى دينك، ثم تركت الناس يفتون . وسمعت الأحاديث، ثم تركت الناس يحدثون ويرون ، وخرست عن القول، وتركت الناس ينطقون ، لا تحسد الأخيار ، ولا تعيب الأشرار ، ولا تقبل من السلطان عطية ، ولا من الإخوان هدية ، آنس ما يكون إذا كنت بالله خاليا ، وأوحش ما تكون إذا كنت مع الناس جالسًا ، فأوحش ما تكون آنس ما يكون الناس ، وآنس ما تكون أوحش ما يكون الناس.

فمن سمع بمثلك صبر صبرك ، أو عزم عزمك ، وما أظنك إلا قد لحقت بالماضين ، وما أظنك إلا قد فضلت الآخرين ، ولا أحسبك إلا قد أتعبت العابدين ، وأما المسجون فيكون مع الناس محبوسًا فيأنس بهم ، سجنت نفسك فى بيتك وحدك فلا محدث ولا جليس معك ، ولا أدرى أى الأمور أشد عليك ، الخلوة فى بيتك تمر بك الشهور والسنون ، أو تركك المطاعم والمشارب، لا ستر على بابك ، ولا فراش تحتك ، ولا قلة يبرد فيها تورك .

وكل أمرك يا داود عجيب ، ما كنت تشتهى من الماء بارده ، ولا من الطعام طيبه، ولا من اللباس لينه ، بلى ولكنك زهدت فيه لما بين يديك ، فما أصغر ما بذلت ، وما أحقر ما تركت ، واما أيسر ما فعلت فى جنب ما أملت، أما أنت فقد ظفرت بروح العاجل وسعدت والله فى الآجل ، عزلت الشهرة عنك فى حياتك ، لكى لا يدخلك عجبها ، ولا يلحقك فتنتها ، فلما مت شهرك ربك بموتك ، وألبسك رداء عملك ، فلو رأيت اليوم كثره تبعك ، عرفت أن ربك قد أكرمك »(١) .

والمتأمل فى هذا الرثاء يرى فيه روح التصوف أكثر من غيره فى الأغراض

---

(١) عيون الأخبار : ابن قتيبة ٢ / ٣١٥ - ٣١٦ ، صفة الصفوة : ابن الجوزى ٣ / ٨١ - ٨٢ بتصرف . تورك : الإناء الصغير .

الأخرى ، يرى فيه شخصية الصوفى وقد تحددت معالمها ،وكادت أن تستقل عن شخصية الزاهد ، لتتوفر الخصائص الأدبية والروحية فى النص ، فتكشف عن أكثر معالم التصوف فى الطائى أولا ، وعند ابن السماك قائل هذه المرثية ثانيا ، وهذه الخصائص هى :

١ - صدرت المرثية عن قلب صادق شف عن معالم الزهد وأسبابه التى عاشها ابن السماك عن تجربة وواقع، قضى حياته فيهما ، ولذلك كانت المرثية تصور ذاته، وتنقل واقعه ، قبل أن تصور بصدق حال الطائى، وموقفه من الزهادة والتصوف، فابن السماك والطائى يلتقيان معًا فى المرثية ، ولا أدل على ذلك من نفاذ بصيرة القائل لكل صغيرة وكبيرة ، كان يعيشها الطائى فى زهادته ، فقد ذكر ما يعن للزاهد فى حياته كل يوم إلى أن يلقى الله · هذا الصدق هو الذى تميز به الرثاء فى الزهد ، على خلاف الصدق للرثاء العام فى الشعر ، فإنه يتم بالملاءمة بين القصيدة وبين انفعال الشاعر بالحزن ، ولو لم يعش الشاعر بنفس المحامد والمآثر التى كان عليها المرثى ؛لأنه يقولها طمعًا فى العطاء أو الشهرة ، أما الرثاء عند الزاهد ، فقد التقت فيه عناصر الصدق من انفعال صادق ، وتجربة عاشها القائل،ومن تجنب الشهرة والعزوف عن العطاء ، وهذا هو الفرق بين الصدق فى رثاء الزهاد وبين الصدق فى رثاء غيرهم ·

٢ - ظهرت ملامح الزهد عن طريق استقصاء عزوف الطائى عن الدنيا ، والإطناب فى تتبع أفعاله فى وحدته وعباداته ، فما ترك القائل شاردة ولا واردة فى الزهد إلا صورها مثل حال الطائى فى علمه ووحدته ومأكله ومشربه ، وملبسه ومضطجعه وأنسه ووحشته وسره وعلانيته فى قوله : آنس ما يكون إلى آخره ·

٣ - وضح القائل مقام الطائى العارف بالله، ومنزلته من التعرف على الحقيقة ، فقد رأى الله ببصيرته لا ببصره ، وأصبح لا يرى الوجود إلا بقلبه ، حتى أهمل عينيه ، فأصبح لا يرى بهما الدنيا وأحوال الناس ، ولذلك تعجب الناس من أمره حيث أبصر بغير بصرهم ، وهو فى نفس الوقت يعجب منهم ،

فهم يدركون لذة المعرفة التى أدركها هو ، وعاش بعيداً عنهم عيشة الحى وسط الأموات ، وذلك فى قوله : نظر بقلبه إلى ما بين يديه من آخرته . . . نظرة إلى حى وسط أموات ، وهذا من مقامات الصوفى العارف بالله .

٤ – وكادت المرثية أن تشمل أحوال التصوف ومقاماته ، التى كان عليها الطائى ومن أهمها : الزهد فى قوله : أهنت نفسك . . . وإنما تريد راحتها ، والفقر فى قوله : أخشنت المطعم . . وأخشنت الملبس ، ولا قلة يبرد فيها ماؤك ، وصحفة يكون فيها غذاؤك وعشاؤك ، والورع فى قوله : وما أظنك إلا قد لحقت بالماضين . . . وقد أتعبت العابدين بعدك ، والصبر فى قوله : وصبر صبرك وعزم عزمك ، والتوكل والرضا فى قوله : كان سيماك فى سرك . . . ولا من الإخوان هدية ، والأنس والقرب فى قوله : آنس ما تكون إذا كنت بالله خاليا . . . إلى قوله : ما يكون الناس . وحال المشاهدة واليقين فى قوله : فأعشى بصرُ القلب بصرَ العين . . . إلى قوله : ما إليه ينظر ، وغيرها من المقامات والأحوال ، التى كانت أساسًا للأدب الصوفى فيما بعد .

٥ – أما من حيث الأسلوب والتصوير الأدبى . ترى صفاء اللفظ الذى يشف عن معناه من غير إمعان ، مع قرب الصور الخيالية مما لا يحتاج إلى كثير تأمل ، وهذا ما يتناسب مع الرثاء فى الزهد ، فهو يحتاج إلى البساطة والوضوح والقرب والانسياق مع السجية والطبع دون تكلف أو صنعة ، وهو ما يتسم مع طبيعة الرثاء من الارتجال ومواتاة القريحة من غير تنقيح أو تغليف للمعنى ، على عكس الأغراض الأخرى فى الزهد ؛ فقد يسودها بعض الغموض فى معانيه وحقائق التصوف .

٥ – مقامة الزهد :

والمقامة هنا غرض من أغراض النثر الأدبى الزاهد كما وضحنا ذلك فى الشعر الزاهد ، وهى من الأغراض الجديدة فى أدب الزهد ولها خصائصها وسماتها ، التى تميزها عن مقامة الكدية فى الأدب العربى والتى اخترعها بديع الزمان الهمذانى ، ونشأت فى بلاط الملوك ، ومجالس الخلفاء فى العصر

الأموى والعصر العباسى ، منها مقام محمد بن كعب القرظى بين يدى عمر بن عبد العزيز ، وفيها يقول :

إنما الدنيا سوق من الأسواق؛ فمنها خرج الناس بما ينفعهم وبما يغرهم ، وكم من قوم قد عزهم مثل الذى أصبحنا فيه ؟ حتى أتاهم الموت فاستوعبهم ، فخرجوا من الدنيا مرملين، لم يأخذوا لما أحبوا من الآخرة عدة ، ولما كرهوا جنة. . . يا أمير المؤمنين : افتح الأبواب ، وسهل الحجاب ، وانصر المظلوم إلى آخرها (١) .

ومنها مقامة الحسن البصرى عند عمر بن هبيرة . منها :

يا ابن هبيرة إنه يوشك أن يبعث الله إليك ملكا ، فينزلك عن سريرك إلى سعة قصرك ، ثم يخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك ، ثم لا ينجيك إلا عملك ، يا ابن هبيرة ، لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق (٢) .

ومن أشهر المقامات مقامة الأوزاعى بين يدى الخليفة العباسى المنصور يقول :

إنك قد أصبحت من هذه الخلافة بالذى أصبحت به ، والله سائلك عن صغيرها وكبيرها ، وفتيلها ونقيرها ، ولقد حدثنى عروة بن رويم ، أن رسول الله ﷺ قال :

« وما من راع يبيت غاشًا لرعيته إلا حرم الله عليه رائحة الجنة » فحقيق على الوالى أن يكون لرعيته ناظرًا ، ولما استطاع من عوراتهم ساترًا ، وبالقسط بينهم قائمًا ، لا يتخوف محسنهم منه رهقًا ، ولا مسيئهم عدوانًا ، فقد كان بيد رسول الله ﷺ جريدة يستاك بها يردع عنه المنافقين ، فأتاه جبريل فقال : «يا محمد ما هذه الجريدة بيدك ! اقذفها لا تملأ قلوبهم رعبًا » فكيف من سفك دمائهم ، وشق أبشارهم ، ونهب أموالهم ، يا أمير المؤمنين إن المغفور له ما

---

(١) عيون الأخبار . ابن قتيبة ٢ / ٣٤٣ - يكنى أبو حمزة توفى عام ١١٧ هـ كما ذكر الواقدى على خلاف فيه .

(٢) المرجع السابق : ٢ / ٣٤٤ .

تقدم من ذنبه وما تأخر ، دعا إلى القصاص من نفسه بخدش خدشه أعرابى لم يتعمده ، فهبط جبريل فقال ؛ يا محمد بن عبد الله لم يبعثك الله جباراً تكسر قرون أمتك » .

واعلم أن كل ما فى يديك لا يعدل شربة من ماء الجنة ، ولا ثمرة من ثمارها، قال رسول الله ﷺ : لقاب قوس أحدكم من الجنة ، أو قُذَّة خير له من الدنيا بأسرها » وإن الدنيا تنقطع ويزول نعيمها ، ولو بقى الملك لمن قبلك، لم يصل إليك يا أمير المؤمنين ، ولو أن ثوبًا من ثياب أهل النار علق بين السماء والأرض لآذاهم ، فكيف من يتقمصه ؟ ولو أن ذنوبًا من صديد أهل النار صب على ماء الأرض لآجنه ، فكيف بمن يتجرعه ؟ ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب ، فكيف من سلك فيها ؟ ويرد فضلها على عاتقه ، وقد قال : عمر بن الخطاب : لا يقوم أمر الناس على حصيف العقدة الغرة ، ولا يطلع الناس منه على عورة ، ولا يحنق فى الحق على جرة، ولا تأخذه فى الله لومة لائم .

واعلم أن السلطان أربعة : أمير يظلف نفسه وعماله ، فذلك له أجر المجاهد فى سبيل وصلاته سبعون ألف صلاة ، ويد الله بالرحمة على رأسه ترفرف ؛ وأمير رتع ورتع عماله ، فذاك الذى باع آخرته بدنياه : وأمير يرتع ويظلف عماله فذاك شر الأكياس .

واعلم يا أمير المؤمنين أنك قد ابتليت بأمر عظيم ، عرض على السموات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنه وأشفقن منه ، وقد جاء عن جدك فى تفسير قوله تعالى :﴿ **لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها** ﴾ أن الصغير التبسم والكبيرة الضحك ، وقال : فما ظنكم بالكلام وما عملته الأيدى ، فأعيذك بالله أن يخيل إليك أن قرابتك برسول الله ﷺ تنفع مع المخالفة لأمره ، فقد قال رسول الله ﷺ : يا صفية عمة محمد ، وفاطمة بنت محمد استوهبا أنفسكما من الله ، إنى لا أغنى عنكما من الله شيئًا ، وكان جدك الأكبر سأل رسول الله ﷺ إمارة فقال : أى عم ، نفس تحييها خير لك

من إمارة لا تحصيها » نظرًا لعمه وشفقة عليه ، أن يلى فيجور عن سنته جناح بعوضة ، فلا يستطيع له نفعًا ، ولا عنه دفعًا .

هذه نصيحتى إن قبلتها فلنفسك عملت ، وإن رددتها فلنفسك بخست ، والله الموفق للخير والمعين عليه ، قال : بلى ! نقبلها ونشكر عليها ، وبالله نستعين (١) .

خصائص مقامة الزهاد :

وتختلف عما اشتهر من مقامات الهمذانى ومن نسج على منواله فى أمور كثيرة توضح خصائصها من أهمها :

١ - معانى المقامة فى الزهد : تطلق على مجلس الوعظ الذى يضم الخليفة أو الحاكم والزاهد الذى يعظ الحاكم بناء على طلبه ، وقد تطلق على الوعظ نفسه الذى يقع فى المجلس ، بينما مقامة الهمذانى إن اتفقت معها فى الدلالة على المجلس أو ما يقال فيه من قصص إلا أن الهمذانية تختلف عنها فى أمور : أولها أنها لا يشيع فيها الوعظ الدينى إلا نادر كالمقامة الوعظية والأهوازية (٢) لكن الزهدية إنما قيلت من أجل الوعظ والزهد ، وثانيها أن الهمذانية لا تحكى بناء عن طلب أو دعوة من الغير، بينما الزهدية تقع بناء على طلب الغير ، وثالثها : أن الهمذانية تحكى فى المجالس العامة والناس ، بينما الزهدية لا تقال إلا فى مجالس الخلفاء والأمراء وما أشبه ذلك .

٢ - محور المقامة : فالمحور فى الزهدية الوعظ الدينى والزهد فى الدنيا، والرغبة فيما عند الله ، يجرى كل ذلك على لسان الزاهد حقيقة لا خيالا ويكون السامع الموعوظ خليفة أو أميرًا ، ويستعين بها على مباشرة الحكم، وغالبا ما تتكرر المقامة الزهدية فى مجالس الخليفة ، فالزاهد والخليفة

---

(١) عيون الأخبار : ابن قتيبة ٢ / ٣٣٨ - ٣٤١ - توفى الأوزاعى عام ١٥٧ هـ - قذة : ريش السهم ، آجنة ، جعله طوبًا وحجرًا ، الأحناق : التصاق البطن بالصلب. الجرة ، ما يخرجه البعير من جوفه . يظلف : يكف .

(٢) شرح مقامات بديع الزمان الهمذانى: محمد محيى الدين عبد الحميد ـ مطبعة صبيح .

شخصان حقيقيان لا خياليان ، كما أن الموضوع حقيقى لا خيالى ، أما الهمذانية فتدور على حادث عادى من نسج خيال الهمذانى ، يقوم بها بطلان خياليان ، أحدهما الراوية وهو عيسى بن هشام ، وثانيهما البطل وهو أبو الفتح السكندرى ، الذى يفجأ الحاضرين فى نهاية الأقصوصة بما يشبه الحيلة أو الحل.

٣ - الموضوع فى الزهدية يقوم على التقوى ، والخوف من الله ، والعمل ابتغاء مرضاته لا طمعًا فى مال أو متاع ، أو شهرة أو غير ذلك من عرض الدنيا ، أما الهمذانية فموضوعها يختلف باختلاف الأحوال والزمان ؛ فتصور المجتمع وتنقده فى أحوال مختلفة ، كالمقامة البغدادية ، لنقد أحوال بغداد ، والنيسابورية لفساد القضاء والقضاة ، والإبليسية لتعدد الملل والنحل فى العصر ، والنقدية كالقريضية والجاحظية والعراقية والشعرية ، والتعليمية كالأسدية والعلمية والحمدانية ، وغيرها مما تختلف فيه موضوعاتها حسب الأحوال ، لكنها تلتقى جميعا فى النهاية حول هدف واحد وهو الكدية ، فالغرض منها الاستجداء والشحاذة ، والنزول إلى الدنيا والرغبة فى متاعها الذاهب [١] .

٤ - الأسلوب فى الزهدية سهل قريب يصدر عن طبع سليم ، وقريحة مواتية من غير تكلف أو صنعة لفظية وبيانية من غير إغراق فى المحسنات ولا فى الصور البيانية ، وإن وقعت ، جاءت عفو الخاطر ، تلبى ما يقتضيه المعنى، من غير كراهية أو اقتسار ، أما الهمذانية فيشيع فيها اللفظ الغريب والوحشى ، فهى حقل لألفاظ اللغة العربية غير المألوفة فى الاستعمال وإليها يرجع الفضل فى نقل الألفاظ الغريبة إلى الأجيال فى صور أدبية جذابة ، وتعتمد أيضا على الصناعة اللفظية والبيانية والبديعية، قد تصل إلى حد الإغراق فى كل ذلك ، وتضم كثيرًا من المصطلحات اللغوية والعلمية والتاريخية والألغاز والأهاجى .

---

(١) شرح مقامات بديع الزمان الهمذانى : محمد محيى الدين عبد الحميد - م صبيح .

٥ - تقوم الهمذانية على أقصوصة قصيرة ، غير مسلسلة الحوادث ، لا إحكام فى حبكتها ، مع الضعف فى عنصر التشويق ، أما الزهدية فليست قصة ولا أقصوصة وإنما هى حقائق تجرى مجرى الحكم والنصائح والوعظ والإرشاد بطريق مباشر وبالنص والتصريح ، ويصلح كل معنى أن ينفصل عن المقامة مستقلا ليتمثل به على سبيل الحكمة أو المثل أو النصيحة ، أو التدليل على ما يقصد المتكلم مثل : واعلم أن كل ما فى يديك لا يعدل شربة من ماء الجنة ولا ثمرة من ثمارها وقوله : ولو أن ثوبا من ثياب أهل النار علق بين السماء والأرض لآذاهم ، فكيف من يتقمصه ؟ وغيرها .

وتقوم أيضًا على التفصيل فى أمر الحكم ، وتوضيح أنواعه ، وموقف الإسلام من كل نوع ، والحث على اختيار الطريق السليم للحاكم التى يرضى عنه الله عز وجل ابتغاء مرضاته ، وتبصيره بالمسئولية وتحمل الأمانة ، وما يدخره الله لكل حاكم من جزاء ، كل ذلك ليراقب الخليفة ربه فى كل ما يصدر عنه من حكم ، مثل قول الأوزاعى فى تقسيم السلطان إلى أربع : أمير يكف نفسه وعماله ، وأمير يرتع ويرتع عماله ، وأمير يكف نفسه ويرتع عماله ، وأمير يرتع ويكف عماله ، وأقربهم إلى الله الأول فله أجر المجاهد ، ومع ذلك فقد ابتلاه الله بالحكم ، وهو أمر عظيم أبت عنه السموات والأرض والجبال وهو فى هذ متأثر بخطبة أبى بكر رضى الله عنه السابقة : « إن أشقى الناس ثلاثة » الخ .

فالزهدية تقوم على ما يتصل بالخليفة ورجال دولته ، ومسئوليته فى الحكم أمام الله ، وأمام نفسه ، وأمام الرعية ، حتى يتقى بمواعظها نقمة الله سبحانه وتعالى ، وتلك نصيحة إن شاء عمل بها أو لم يعمل ، فلا تزر وازرة وزر أخرى يقول الأوزاعى :

« هذه نصيحتى إن قبلتها فلنفسك عملت ، وإن رددتها فنفسك بخست . . . قال المنصور : بلى نقبلها ونشكر عليها وبالله نستعين . والمقامة فى أدب الزهد تحتاج إلى بحث مستقل للتعرف على نشأتها ودوافعها ومجالسها ،

ومن اشتهر بها من الزهاد والخلفاء والأمراء ، ثم التعرف من خلال خصائصها على معالم شخصياتها ، ومدى تأثرهم بها، ثم معالمها الفنية وخصائصها الروحية والأدبية ، وأثر ذلك كله فى الحكم والسياسة وفى التصوف وأدبه ، وبهذا نبرز لونا جديدًا من ألوان الأدب العربى ، التى نعمت به النفوس، وعمرت منه مجالس الخلفاء والأمراء الصالحين ، لتقف فى النهاية على أثر المقامة الزهدية شعرًا كانت أو نثرًا فى الحكام وفى سياستهم وفى الأدب العربى عامة التى كانت تمثل مرحلة منه ربما تكون من أهم مراحل الأدب فى خدمة السياسة والدولة والناس أجمعين (١) .

ومن الأغراض أيضًا الدعاء ، والمناجاة ، والحكمة ، والاستعانة ، لكنها كانت منثورة فى إيجاز لا يحتمل أن يكون نصا أدبيا إلا قليلا .

أعلام الزهد فى الأدب

تكاثر أدباء الزهد فى هذه المرحلة : وخاصة فى النثر الأدبى ، واشتهر منهم عدد غير قليل ، قد ذكرنا بعضهم من الشعراء والأدباء فى مقام الدراسة لأدبهم الذى يعبر عن الزهد لا التصوف ، ويصور الزهاد لا الصوفية ، وتأسيسًا على ذلك فقد اقتصر هذا الفصل على أعلام الزهد فقط ، وإن كان التحديد لهم من الصعوبة بمكان ، لكننى حكمت فيه النصوص الأدبية فى الزهد ، فكانت هى المعيار الدقيق للتمييز بين الزاهد والصوفى ، فمثلا أدخلت أبا العتاهية فى طائفة الزهاد ، مع أنه كان يعيش حياته مع رواد التصوف الأوائل والذين قطعوا فى الأدب الصوفى والتصوف شوطا يمثل المرحلة الأولى منه،والتى انتهى إليها الزهد؛ ليكون لها المعين الصادق، تنهل منه بروافده الكثيرة: ومن أشهر الأدباء الزهاد :

أبو عبد الله مطرف بن عبد الله بن الشخير م ٨٧ هـ ، وأبو عبد الله سعيد بن جبير م ٩٥ هـ ، وأبو عبد الله مسلم بن يسار م ١٠٠ هـ ،

---

(١) تناولتها بالتفصيل فى موازنة تاريخية وأدبية ونقدية فى كتابى : « من الأدب العباسى دراسة ونقد » ص ١٦٥ القاهرة - المكتبة الأزهرية للتراث ١٩٨٥ م .

وأبو عبد الرحمن طاوس بن كيسان م ١٠٦ هـ ، وأبو بكر محمد بن سيرين م ١١٠ هـ، وأبو عبد الله وهب بن منبه م ١١٠ هـ وأبو عبد الله محمد بن واسع م ١٢٠ هـ ، وأبو يعقوب فرقد بن يعقوب السبخى م ١٣٠ هـ ، وأبو يحيى مالك بن دينار م ١٣١ هـ وأبو بكر أيوب بن أبى تميمة السختيانى م ١٣١ هـ ، وأبو غياث منصور بن المعتمر السلمى م ١٣٢ هـ ، وأبو عبد الله يونس ابن عبيد الله م ١٣٩ هو أبو حازم سلمة بن دينار الأعرج م ١٤٠ هـ ، وأبو المعتمر سليمان بن طرخان التيمى م ١٤٣ هـ ، وجعفر بن محمد بن على بن الحسين م ١٤٨ هـ والإمام أبو حنيفة النعمان م ١٥٠ هـ ، وأبو عون عبد الله ابن عون بن أرطبان م ١٥١ هـ ، ووهيب بن الورد بن أبى الورد م ١٥٣ هـ ، وسفيان بن سعيد الثورى م ١٦١هـ ، وأبو سلمة حماد بن سلمة م ١٦٨ هـ ، والفضيل بن عياض التميمى م ١٨٧ هـ ، وأبو محمد سفيان بن عيينة م ١٩٨هـ ، وأبو سعيد يحيى بن سعيد القطان م ١٩٨ هـ ، وأبو عبد الله أحمد ابن محمد بن حنبل الإمام م ٢٤١ هـ وغيرهم ممن كان لهم أثر أدبى فى الزهد.

* * *

الفصل الثالث

الأدب الصوفى

(١)

أصل كلمة صوفى :

كان من الطبيعى أن ينتهى بنا الحديث عند الأدب الصوفى لنقف على معالمه وأغراضه وخصائصه · كما انتهينا إلى ذلك فى مرحلته السابقة ، مرحلة الزهد فى الأدب العربى ؛ فالأدب الصوفى نتاج المراحل السابقة ، وستكون له شخصيته المتميزة ، التى ينفرد بها هذا الأدب عن أصوله ، فأفردنا له هذا الفصل لدراسته حتى القرن الرابع الهجرى » ·

ولا يغيب عن الذهن أن الأدب الصوفى فى ذاته سيمر بأطوار مختلفة ، ينتقل فيها من طور إلى طور ، حسب فلسفته واتجاهه الفكرى ، وسنقف هنا على خصائصه وأغراضه حتى هذه الفترة فقط ، فمن العسير دراسة أطواره كلها هنا دراسة تحتاج إلى التأمل والنظر ، نتعرف من خلالها على منهجه وأغراضه الأدبية ، وخصائصها الفنية والروحية ·

وينبغى ألا ننتقل إلى الأدب الصوفى ذاته قبل أن نقف مع أصل الكلمة واشتقاقها ومعناها ، وتاريخ نشأتها ، باعتبار أنها أصبحت مصطلحا جديدا ، يطلق على هذه المرحلة وما بعدها ، ولأنها استخدمت عند بعض المستشرقين ومن تبعهم استخدامًا مقصودًا، يهدفون من ورائه حرمان الفكر العربى وأدبه من كل جديد ، ورده إلى غير العرب والمسلمين تعصبًا لجنسهم ،وطعنًا فى العروبة والإسلام ·

ولا مبرر للمستشرقين فى ذلك إلا فى العلوم الدخيلة على الفكر العربى الإسلامى؛فى عصر التعريب والترجمة للثقافات الأجنبية الوافدة من علوم ومعارف وفلسفة؛وحجتهم فى ذلك أن العرب حين عربوها، استمدوا كل جديد منها،فهم لا فضل لهم فيه،ويعد هذا وحده دليلاً كافيًا فى تأكيد دعواهم،وتحقيق أغراضهم المسمومة،متناسين حشدًا من الأدلة القوية التى تؤكد النسبة الإسلامية،وذلك إما لأنهم لا يقتنعون إلا بفكرهم وفلسفتهم تعصبًا ، حتى ولو ظهر فيها جذور الفكر الإسلامى،وإما لأنهم يجهلون اللغة العربية

ولا يعرفون أسرارها ومعالجتها للواقع العربى ، وإما لأنهم يعلنون الحرب على الإسلام دين الحياة، الذى يمثل الخطر على عقائدهم المختلفة أو غيرها من دوافع ،تضعهم فى مواقع الإنكار والتصدى لكل جديد فى الشرق العربى ·

لذلك ترى الخلاف نشأ حول كلمة « صوفى » فقط، لا كلمة الزهد [١] لأن الأولى صادفت نشأتها وظهورها عصر التعريب، والثانية شاعت قبله ، فلم يستطع المستشرقون أن تسرى سمومهم من خلالها ، وإنما استقام لهم الأمر فى كلمة (صوفى) لأدنى ملابسه على النحو التالى :

أولا : بهذا الادعاء السابق أرجعوا كلمة « صوفى » إلى كلمة « سوفيا » اليونانية بمعنى الحكمة ، وقال بذلك بعض الباحثين العرب [٢] ، لكن الصواب مع من عارض هذا الرأى · وجعله زعمًا باطلاً ، لأنه لا صلة تاريخية بين اللغتين العربية واللاتينية ، ولا يوجد دليل قوى يؤيد هذا الزعم [٣] ·

ويرجع البطلان أيضا إلى أن كلمة سوفيا بمعنى الحكمة فى الطب؛ ليست بمعنى الحكمة الروحية ، وعلى ذلك فلا صلة بين الكلمتين ، والأقرب من ذلك أن ترجع فى النسبة إلى كلمة صوف العربية ، فالكلمتان عربيتان ، وإن كانت إحداهما بمعنى الاتجاه الروحى والثانية بمعنى اللباس الخشن الذى هو علامة التقشف ، وهذا أقرب لوجود الصلة التاريخية بين العربية فى العصر العباسى والعربية فى الجاهلية [٤] ·

وهذا الادعاء الإستشراقى فيه إسراف فى التعسف ، ومبالغة فى الإغراق للأسباب التى ذكرتها آنفًا وللأدلة الآتية ·

---

(١) زهد : من التزهيد فى الشىء وعن الشىء خلاف الترغيب فيه ، وزهد يعنى فى الأمور رغب فيه فالزهد والزهادة تدور معانيها المختلفة حول قلة الشىء وحقارته ·

(٢) مثل أبى الريحان البيرونى ٤٤ هـ والدكتور محمد غلاب والأستاذ محمد لطفى جمعة وعبد العزيز الاسلامبولى·

(٣) التصوف الإسلامى الدكتور خفاجى ١ / ٥١ ·

(٤) التصوف الإسلامى : الدكتور زكى مبارك : ١ / ٥٤ ·

١ - أن كلمة « صوفى » عربية أصيلة فى نحتها وحروفها ، سواء كانت إسما لرجل أو إسما لقبيلة ، أو إسما لشعر الشاة ، أو كانت مشتقا ترجع إلى مادتها الأصلية مع القلب فيها أو الإبدال ، هى فى كل هذه الحالات عربية أصيلة .

٢ - لو لم تكن كلمة « صوفى » عربية ، وكانت فى الأصل يونانية لبقيت على صورتها ورسمها اليونانى « سوفى » بالسين ، وهو أولى من الصاد العربية لأمرين : لتوافق حروفها اليونانية مع العربية ، من غير تغيير أو إبدال كما جرت العادة فى تعريب بعض الكلمات الأجنبية .

ولأن وجودها بالرسم اليونانى أولى لمن وضعوا هذا المصطلح على علم التصوف الإسلامى ، ليظل شرف النسبة موصولا إلى اليونان لا إلى الإسلام ، ما داموا يقصدون من وراء ذلك نسبه كل جديد فى دولة الإسلام إلى غير العرب ، وخاصة أن بعض المستشرقين يرى أن الذين وضعوا علم التصوف ومصطلحه ، يرجعون فى أصولهم إلى دم غير عربى [١] ،لأن من تحققت فيه الجرأة على وضع علم جديد، لا يعدم القدرة على بقاء المصطلح اليونانى كما هو وخاصة أن حروفه تتفق مع النحت العربى من غير تغيير إلا فى الألف الأخيرة فى « سوفيا » فقط ، ولا يضر حذف الألف فى العربية ما دامت زائدة للإطلاق فى آخر الكلمة .

٣ - لا داعى لهذ التعسف وركوب المظان والتمحلات ، ما دام الذين أنشأوا هذا العلم ووضعوه هم من قلب الدولة الإسلامية العربية ، ولو كانوا من أصل أعجمى قبل الإسلام ، فينسب إليهم ، لأنه نبع من تجاربهم الروحية، لا من تجارب اليونان، فقد مضوا فى أعماق التاريخ ، بل اندثرت حضارتهم ، وغابت معالمها فى طى الزمان قرونا ، حتى جاء الإسلام وأنار الفكر الإنسانى من جديد ، فكل معرفة نبتت فى ظلال الإسلام ، تنسب إليه فى ميلادها ونشأتها وازدهارها ، وإن تلاقت فى بعض معالمها مع فكر إنسانى

(١) فى التصوف الإسلامى . نيكولسون ١٦ : ١٨ .

قديم ، فقد يكون ذلك مصادفة ، والمصادفة لا تثبت حقيقة مقررة ، وخاصة أن الفكر يستوى فيه كل الشعوب ، لكنه يحتاج إلى طاقة تفجره كالعقيدة الإسلامية عند العرب .

٤ - ولو سلمنا جدلا بأن الكلمتين العربية واليونانية يرجعان منذ القدم إلى أصل واحد ، على اعتبار أن لغة الإنسان القديم واحدة ، ومع مضى الزمن تفرعت إلى لهجات ولغات ، لو سلمنا بذلك ، فالذى لا شك فيه أن المضمون لكل كلمة يختلف تماما عن الأخرى ، لاختلاف الزمان والبيئات وأحوال الناس وأذواقهم ، وخاصة لأن اللغة العربية هذبت واستقرت ، وهى بعيدة عن الاتصال التاريخى بينها وبين اليونانية ، ولو حدث تغيير فى حروف الكلمتين ، لنقله التاريخ إلينا كما نقل على علم التصوف نفسه بقواعده ومعالمه، والأقرب من هذا أن تنسب كلمة صوفى إلى صوفة :

ثانيا : النسبة إلى صوفة: وهو أبو حى من مضر ، وقيل : حى من تميم ، وسواء أكان الرجل من هذا الحى أو ذاك فهو عربى الأصل ، يعيش فى العصر الجاهلى،واسمه الغوث بن مرقد ، وهبته أمه ليكون متنسكا فى البيت الحرام ، ومتعبدا لله ، حتى أسندت إليه إجازة الحجيج ، فلا تصح أعمال الحاج فى الجاهلية إلا إذا أجازه صوفة أولا ، ثم يمضى الجميع لأداء مناسك الحج .

وليس هذا غريبًا على العقل ، وإن كان ممكنًا ؛ لأن الدلائل التاريخية تشير إلى أن بعض من صفت فطرتهم ابتعدوا عن عبادة الأوثان ، ومضوا على دين إبراهيم عليه السلام وهم الحنفاء ، أو سلكوا مسلك المسيحية [١] ومضى الكلام حول هذا الموضوع؛ وعلى ذلك فالاتجاه الروحى عند صوفى يلتقى مع اتجاه الصوفية ، بل فى ذلك ما يدل على اعتزاز العرب بأنفسهم وتاريخهم ، وأن الإسلام قد سبقته مبشرات روحية نابعة من الفطرة الإنسانية للدلالة على صلاحية أمة العرب لتقبل عقيدة الإسلام أكثر من غيرهم .

والحق أن المضمون لكلمة صوفى عند الصوفية الإسلامية يختلف كثيرًا

---

(١) معجم البلدان : الحموى ٢ / ٣١٢ .

عن مضمون كلمة صوفة ، العلم على رجل جاهلى ، إلا أن الذى لا يمكن إنكاره بحال ، ولا يقبل الجدل ، هو أن الكلمتين عربيتان فى النشأة والأصل والاشتقاق والطور التاريخى لألفاظ اللغة الواحدة .

ولقد أثبتت كتب المعاجم اللغوية من قديم أصل النسبة سواء كانت إلى رجل أو إلى قبيلة عربية اشتهرت بذلك (١) .

ومع هذا الجواز فهو فى نظرنا بعيد ومتكلف تبدو فيه الصنعة ، لأن الكلمتين مع اتفاقهما فى الحروف والنحت ، فقد أعطى الإسلام للكلمة مصطلحًا ومفهومًا جديدًا لم يكن فى الجاهلية ، فقد كانت علمًا على اسم شخص أو قبيلة ؛ لكنها فى الإسلام تضمنت المعنى الروحى الإسلامى لعلم التصوف مع أنه لا يتناقض مع الروحية فى الأديان السابقة الحنيفية والمسيحية . ومثل ذلك ألفاظ كثيرة قد تغيرت تمامًا فى معناها بعد الإسلام ، كألفاظ الصلاة والوضوء والزكاة والحج وغيرها .

وهذا يضعف تلك النسبة الجاهلية مع جوازها ، وكذلك الأمر فيما لو نسبت « صوفى » إلى الشعر المتدلى فى نقرة القفا وتسمى زغبات القفا كما ذكر ذلك ابن الأعرابى ، وابن دريد (٢) .

وعلى ذلك لا تصح النسبة إلا إذا وضعنا فى التقدير أن الصوفى - لعدم اعتنائه بمظهره الخارجى وانشغاله بأمر الباطن والحقيقة، والعزوف عن مظاهر الحياة وزينتها - يترك شعره يتدلى على قفاه، فيشكل زغبات فى نقرته ، ومن هنا تكون النسبة إلى صفة الصوفى ومظهره الخارجى ، وهو وإن كان جائزًا إلا أنه ضعيف يحتاج إلى تأويل ، ومجازفة فى القول ، والأقرب من هذا وذاك هو النسبة إلى الصفاء .

ثالثا : الصفاء : ونسبة الصوفى إلى الصفاء أقرب مما سبق باعتبار الغاية والمضمون وحقيقة التصوف وأصوله التى تنتهى بالمريد إلى درجة الصفاء فى

(١) لسان العرب : ١١ / ١٠٣ والقاموس المحيط : ٣ / ١٦٥ وأساس البلاغة للزمخشرى .

(٢) المعاجم السابقة : نفس الصفحات .

الروح ، وشفافية القلب ، وعلى ذلك فالنسبة تتصل بالمعنى لا باللفظ ، قال سهل بن عبد الله الصوفى : من صفا من الكدر ، وامتلأ من الفكر ، وانقطع إلى الله من البشر ، واستوى عنده الذهب والمدر (١) .

وسئل بعضهم عن التصوف فقال : تصفية القلب عن موافقة البرية ومفارقة الأخلاق الطبيعية ، وإخماد صفات البشرية ، ومجانبة الدواعى النفسانية ، ومنازلة الصفات الروحانية ، والتعلق بعلوم الحقيقة ، واتباع الرسول فى الشريعة ، وقيل : فتقول الصوفى هو الذى يكون دائم التصفية ، لا يزال يصفى الأوقات عن شوب الأقدار بتصفية القلب عن شوب النفس (٢).

هذا من ناحية المضمون ، وقد تصح النسبة من ناحية اللفظ والحروف ، وعلى ذلك فقد ورد فى معاجم اللغة صاف يصوف صوفًا وصاف السهم إذا طاش وعدل عن الهدف (٣) ورأى ابن فارس أنه لا يوجد فى اللغة صاف يصوف بالفاء بمعنى الميل ،ولذلك فالفاء مبدلة من الباء والأصل صاب يصوب ، وكلاهما وارد فى الاستعمال بهذا المعنى على الإبدال (٤) .

والعلاقة بين هذ المادة بمعنى الميل وبين مادة صوفى ، هو أن الصوفى يعدل عن الدنيا رغبه فى الآخرة لتصفو نفسه .

وعلى ذلك فالصفاء من صفا يصفو متفق فى مادته وحروفه مع صوف من صاف يصوف ، لكنه حدث قلب مكانى فى الواو المقلوبة ألفًا لتطرفها ، فيصح نسبه صوفى إلى الصفاء فى لفظه على تقدير القلب المكانى ويؤيد هذا أن حروف اللغة تحكى بأصواتها المعانى وتعبر عنها بمخارجها الصوتية كما هو معروف فى أصوات اللغة والقراءات ، والحروف جميعها فى كل من الكلمتين (صاف ، وصفا) واحدة لم تتغير إلا فى التقديم والتأخير فقط ، والنتيجة فى المضمون واحدة ، لأن المعانى التى تحكيها أصوات مجموع الحروف فى كل كلمة تكون متقاربة إن لم تكن متشابهة تمامًا .

وهذا التفسير اللغوى القائم على الإبدال أولاً ثم القلب ثانيًا يجعل

---

(١) ، (٢) عوارف المعارف : السهرودى ١ / ٢٢١ ، ١ ، ٢٢٤ .

(٣) لسان العرب : ١١ / ١٠٣ ، القاموس المحيط ٣ / ١٦٥ .

(٤) مقاييس اللغة .

النسبة بين الصوفى وبين الصفاء مقبولة وجائزة قال السهروردى : وقيل كان هذا الاسم فى الأصل صفوى ، فاستثقل ذلك ، وجعل صوفيًا [١] .

وظاهر أن صفوى من الصفاء لا من الصوف فى القول السابق ، وعندى أن هذا أولى مما سبق ومن بناء الفعل للمجهول فى صافى « فصوفى » والنسبة إلى أهل الصفة أقرب من الصفاء .

رابعًا :أهل الصفة : لا غرابة فى نسبة الصوفى إلى السلف الصالح من أهل الصفة التى أوى إليها بعض أصحاب رسول الله ﷺ ، وتكون النسبة هنا من حيث الهدف والمضمون ، وهى بعيدة عن التمحل والمبالغة والإسراف ، لأن الصوفى بمجاهداته وعباداته يريد أن يصل عن طريقها إلى ما كان عليه أصحاب الرسول من الإيمان والتقوى ، فهم يسلكون منهجهم ، ويلبسون لبوسهم لعلهم يلحقون بهم ، ويقاربون منازلهم وأحوالهم عند ربهم سبحانه وتعالى ، وسبق الكلام عن أهل الصفة فى مكانه هناك .

والكتب الصوفية لم تخل من حديث أهل الصفة وأوصافهم وأحوالهم ، وفقرهم ، وزهدهم وقربهم من رسول الله ﷺ ، فهم مثلهم القريب من أنفسهم الذى استهدفه رجال التصوف فى العصور الإسلامية المتابعة [٢] .

قال الطوسى : وكان رسول الله ﷺ يؤانسهم ، ويجلس معهم ، ويأكل معهم ، ويحث الناس على إكرامهم ومعرفة فضلهم [٣] .

وقيل : سموا صوفية نسبة إلى الصفة ، التى كانت لفقراء المهاجرين على عهد رسول الله ﷺ ، الذين قال الله فيهم : ﴿ **للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربًا فى الأرض** ﴾ الآية ، هذا وإن كان لا يستقيم من حيث الاشتقاق اللغوى ؛ لكنه صحيح من حيث المعنى ؛ لأن الصوفية

---

(١) عوارف المعارف : ١ / ٣٣١ هامش الإحياء للغزالى .
(٢) دراسات فى التصوف الإسلامى : الدكتور عبد المنعم خفاجى : ١ / ٥٤ .
(٣) اللمع : ١٨٣ .

يشاكل حالهم حال أولئك ، لكونهم مجتمعين متآلفين متصاحبين لله وفى الله كأصحاب الصفة (١) .

وأهل الصفة نهلوا من معين النبوة ، وتطهرت أرواحهم بموارد الإسلام الصافية، وحين يلتقى الصوفى فى الهدف معهم ، إنما يلتزم طريقهم ، ويسير على منوالهم ، ويسير نفسه بعباداتهم ، فيبشره ربه بفضل منه ورضى ، وينعم برفقة النبى ﷺ فى الآخرة ، فعـــن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : وقف رسول الله ﷺ يوما على أهل الصفة فرأى فقرهم وجهدهم وطيب قلوبهم فقال : أبشروا يا أصحاب الصفة فمن بقى منكم على النعت الذى أنتم عليه راضيا بما هو فيه ؛ فإنه من رفقائى يوم القيامة (٢) .

وأقرب من هذا كله فى نسبة الصوفى إلى أصله هو النسبة إلى الصوف ·

خامسًا : الصوف : يكاد الجميع يلتقى فى نسبة الصوفى إلى الصوف ، فلا تأويل ولا تفسير ولا تغيير إلا فى إسناد ياء النسب إلى الاسم ، الذى يتحول معناه بسببه من شعر الشاة إلى ذلك المصطلح الذى تعارف عليه علماء الصوفية فيما بعد ، ليضعوا له علما جديدًا يضاف إلى العلوم الإسلامية، التى ظهرت تباعا؛ ليكون نتيجة حتمية للدعوة الإسلامية الإنسانية الجديدة على العالم كله ·

والصوفى مأخوذ من مادة الصوف وهو للشاة مثل الوبر للإبل ، والشعر للماعز ويصنع منه الثوب ، وغالبا ما كان الصوف لباس الفقراء والزهاد والصالحين والأنبياء ، قال رسول الله ﷺ : يوم كلم الله تعالى موسى عليه السلام كان عليه جبة صوف ، وسراويل صوف ، وكساء صوف وكمه من صوف · ولذلك سموا صوفية للبسهم الصوف وهو أليق وأقرب إلى التواضع والانكسار ، والتخفى والتوارى · · · فيقال صوفى نسبة إلى الصوافة كما يقال كوفى نسبة إلى الكوفة (٣) .

---

(١) عوارف المعارف : السهروردى ١ / ٣٣٢ ·

(٢) المرجع السابق ١ / ٣٣٥ ·

(٣) عوارف المعارف : السهروردى : ١ / ٣٣٠ ، ٣٣١ ·

فالأنبياء يؤثرون لباس الصوف على غيره ، وقد جاء أن رسول الله ﷺ كان يركب الحمر ويلبس الصوف [1] ، وجاء فى مرثية عمر رضي الله عنه لرسول الله ﷺ إذ قال :

« بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لقد اتبعك فى سنك ، وقصر عمرك ، ما لم يتبع نوحا فى كثرة سنه ، وطول عمره ، ولقد آمن بك الكثير، وما آمن معه إلا القليل ، بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، ولو لم تجالس كفؤا ما جالستنا ، ولو لم تنكح إلا كفؤا لك ، ما نكحت إلينا ، ولو لم تواكل ما واكلتنا ، فلقد والله جالستنا ونكحت إلينا ، وواكلتنا ، ولبست الصوف ، وركبت الحمار ، وأردفت خلفك ، ووضعت طعامك على الأرض ولعقت أصابعك تواضعا منك » [2] .

والسبب فى ذلك أن لبس الصوف كان منذ القدم من مظاهر التقشف ، ولباس التخشن ، ودليل التواضع ، وعلامة الكفاف ، وفيه إذلال للنفس وترويضها على الخشن من الحياة والزهد فى نعيمها وزينتها ، فجاء الصوفية وتبعوا الأنبياء فى أحوالهم ولباسهم ، فالتزموا لباس الصوف وصار هو عنوان مذهبهم الروحى فى الحياة؛ فهو يعينهم على تهذيب الروح وإذلال النفس ، وحين لبس الناس الصوف تشبها بالصوفية فى الظاهر ، وهم بعيدون عنهم فى الباطن ، كان لباس الصوف موضع المؤاخذة من أقطاب التصوف قال الجنيد يذم التظاهر بالتصوف :

إذا رأيت الصوفى يعنى بظاهره فاعلم أن باطنه خراب [3] ، وقال الحسن يمتدح لبس الصوف : لقد أدركت سبعين بدريا كان لباسهم الصوف [4] .

ويقول سليمان الدارانى يفصح عن السر فى لبس الصوف لرجل لبسه :

---

(١) نشر المحاسن الغالية : اليافعى ٢ / ٣٤٣ .
(٢) الإحياء : الغزالى ١ / ٣٢٠ .
(٣) الرسالة القشيرية : ١٢٧ .
(٤) تلبيس إبليس : ١٩٨ .

إنك قد أظهرت آلة الزاهدين ، فماذا أورثك هذا الصوف ؟ فسكت الرجل . فقال له : يكون ظاهرك قطنيا ، وباطنك صوفيًا [1] .

والنسبة إلى الصوف ، وإن كانت ترجع إلى الظاهر ، لكنها فى الحقيقة تتصل بالباطن ، لملازمة لباس الصوف للأنبياء والصالحين ، فالذى يرتديه منهم إنما يذكر مراحله التاريخية ، ووجه تفضيله على غيره من الثياب ، لذلك أصبح الصوف مقترنًا بالناحية الروحية عندهم ، ولست مع الذين ينفون هذا التناسب بين الصوفى وبين ما يتصل به من ناحية معناه أو شكله ، مع أنهم لم يقيموا على ادعائهم دليلا قويًا يؤيد حجتهم [2] .

* * *

(١) عوارف المعارف : ١ / ٣٢٦ .
(٢) من أعلام التصوف الإسلامى : طه سرور ٢ / ٣٠ .

الأصالة فى التصوف الإسلامى

تلك هى الاتجاهات المختلفة حول تفسير كلمة « صوفى » ؛ لنقف على مصدرها الحقيقى من ناحية الشكل والمضمون معًا ، وكلها تعين على توضيح المعنى ، وكشف المراد ، وتلتقى جميعها لتأكيد الأصالة العربية ، والعراقة الإسلامية ، لتعبر عن مظهر من مظاهر المعرفة والفكر فى عصر بلغت فيه الحضارة الإسلامية العباسية مجدها وغايتها فى العصور القديمة .

١ - **صحة النسبة إلى صوفى** : فى الاتجاهات السابقة منها ما يرجع إلى اشتقاق اللفظ ومادته ، كما فى نسبة الصوفى إلى « الصوف » ومنها ما يرجع إلى مادة اللفظ ومضمونه معًا كما فى نسبته إلى « الصفاء » ، ومنها ما يرجع إلى افتراضات وادعاءات مغرضة كما فى نسبته إلى كلمة « سوفيا » ومنها ما يرجع إلى الهيئة الحاصلة للصوفى بعد ذلك مما تركنا التفصيل فيه كما فى نسبته إلى « الصف الأول » من المؤمنين وغير ذلك من الاتجاهات ، التى تفسر مصطلحًا جديدًا نبت فى ظل الحضارة العباسية الإسلامية .

٢ - **الدراسة الموضوعية** : لسنا فى حاجة ملحة فى الوقوف حول الاتجاهات السابقة كثيرًا لكى نرد على المستشرقين ومن تبعهم ممن قالوا : بأن التصوف علم غير إسلامى ، لأن منهجنا فى هذا الكتاب وطريقة عرضه كفيل بالرد على كل دعوى كاذبة تبعد التصوف عن الإسلام ، حين تتبعت ميلاد التصوف فى ظله منذ أن بعث الله محمدًا ﷺ ، ووقفنا على الاتجاه الروحى فى بعض نصوص من القرآن ومن الأحاديث النبوية ، ثم بعض ما أثر عن الصحابة رضوان الله عليهم وكلها كانت المصدر الحقيقى لحركة الزهد الإسلامى من عصر بنى أمية إلى نشأة التصوف الإسلامى فى العصر العباسى .

وكان الاتجاه الروحى فى الصدر الأول من الإسلام ، والاتجاه الروحى فى الزهد الإسلامى بعد ذلك ، كان هو الأساس الذى قام عليه علم التصوف، واستمد منه أصوله وقواعده ، ومعالمه واتجاهاته ، وأغراضه وسماته الروحية

والفنية وحاولت أن أبتعد عن النصوص الأدبية في الزهد لغير الأمة الإسلامية من الأمم الأخرى كأمة بنى إسرائيل ، وكان ذلك عن قصد ، لكى أوضح أن التصوف الإسلامى حتى ميلاده يكفيه فى التكوين ، واكتمال معالمه أن يعتمد على التراث الإسلامى العربى وحده دون غيره من أقوال الشعوب الأخرى فى ذلك .

بهذا المنهج ، وبتلك الطريقة فى البحث ، أردت بدراسة النصوص والوقوف عندها بالتأمل والدراسة ، أن أوضح هذه النسبة بطريق عملى ، واتجاه تطبيقى من خلال دراستها دراسة موضوعية ، نكشف فيها عن سمو الجانب الروحى وخصائصه الأدبية ؛ فكان هذا الاتجاه العملى التطبيقى يحمل فى ذاته أقوى رد على المستشرقين ومن تبعهم فى قطع الصلة بين التصوف وبين مصدره الأول والأصيل وهو الإسلام بتعاليمه وتشريعاته [١] .

٣ - **الحضارة العباسية الإسلامية** : نشأ علم التصوف فى ظل الحضارة العباسية ، وفى قلب الدولة التى كانت خاصعة لخلافتها ، من مشارف الصين شرقًا إلى حدود فرنسا غربًا ، وكل فرد فى هذه الدولة عباسى فى كل ما يتصل بها ، وينسب إليها ما دام يعيش فى ظلها ، وخاصة بعد أن تمكن الإسلام منهم، وجرت العربية على لسانهم ، وعلى قدر اتساع الدولة كان اختلاف الثقافات ، وتعدد المذاهب ، وكثرة العلوم التى اقتضتها الحضارة الإسلامية العباسية ، وألحت عليها ضرورات العصر ، فهى صدى لنداءاتها فى كل المجالات ، وعلى ذلك فهى منها ولها ، فكل فكر نشأ فيها يلبى عقل المفكرين لها ، وكل مذهب يستقيم أمره يستجيب لرواده فيها ، وكل تيار فكرى يشفى غلة الظامئين منها ، وكل العلوم إنما كانت استجابة لمتطلبات العصر ، وحاجات الأمة ، إذن فكل ما فيها عباسى إسلامى ، وخاصة بعد أن تلاشت ظلال الحضارات المختلفة قبيل انتشار الإسلام ، واندثرت معالمها ، واختفت فى غياهب الظلمات ، وتصدع ملك كسرى وقيصر بالحروب التى دارت بينهما

(١) نيكولسون ، وماسنيون ، وبلاسوس ، وجولد زيهر ، وبراون والدكتور عبد الحكيم حسان وعبد الدايم أبو العطا وغيرهم فى بحوثهم المختلفة .

سنوات كثيرة ، وانتهت تماما عند الفتح الإسلامى ، ليدخل الجميع فى دين الله أفواجًا ، وقبل الفرس والروم اختفت حضارة الإغريق ، وغابت فى طيات الزمن قرونًا طويلة ، فأشرق الإسلام بنوره يبدد الظلمات؛ ليقود العالم إلى ما فيه سعادته ، فلا غرابة حين ننسب إليه كل شىء نبت فيه ، وكل فكر تفجر منه ، وكل مذهب انبثق من فجره .

فالشيعة والخوارج والأمويون والزبيريون والمهالبة كلهم أحزاب سياسية ودينية نشأت فى ظلال الإسلام ، فى أمة إسلامية عربية لا جدال فى ذلك .

وعلوم التفسير والحديث والرواية والنحو واللغة والعروض والمنطق والتوحيد والتاريخ والأدب والبلاغة والبيان والمعانى والبديع وغيرها من العلوم التى نشأت فى ظل الإسلام ؛ فهى علوم إسلامية عربية لا جدال فى ذلك .

والمذاهب المختلفة للإمام مالك ، والإمام أبى حنيفة ، والإمام الشافعى، والإمام أحمد بن حنبل ، وابن حزم وغيرهم ، فهى مذاهب نشأت فى أمة إسلامية عربية لا جدال فى ذلك .

والمذاهب العقائدية المختلفة من أهل السنة ، والمعتزلة ، والأشاعرة ، والقدرية والجبرية ، والمرجئة ، وغيرها ، مما نشأ فى ظلال الدولة الإسلامية ، فهى مذاهب نشأت فى أمة إسلامية عربية لا جدال فى ذلك .

إذا كان الأمر كذلك فكيف يكون علم التصوف وأدبه غريبًا عن أمة الإسلام ، وهو الذى نشأ متأثرًا بهذه العلوم ، وفى ظل الحضارة العربية العباسية الإسلامية . إنه كذلك علم وأدب من علوم الإسلام وأدبه، واتجاه من اتجاهاته ، وفرع من فروعه المختلفة .

ولا حجة بعد ذلك لهؤلاء الذين ينسبون التصوف إلى الثقافات الأجنبية، لأن بعض رواده فى القرن الثالث الهجرى من أصل غير عربى ، مثل معروف البلخى فهو من أصل مسيحى صابئى فارسى ، وأبى سليمان الدارانى فهو من أهل واسط الفارسى[1] فمثل هؤلاء تعربوا وأسلموا ، وعاشوا فى ظل الحضارة

---

(١) فى التصوف الإسلامى نيكولسون ٤ ، ٥ .

العباسية ، واغتذوا بفكرها وثقافتها وروحها ومذاهبها ، وكل ما فيها من تيارات فكرية وأدبية وفلسفية ولغوية وعلمية وتاريخية وعقائدية وغيرها، وأصبحوا ينسبون إليها ، لا إلى أصولهم وأجدادهم فى الفرس والروم.

وليس معنى ذلك أننا ننفى أثر الثقافات الوافدة فى الحضارة العباسية وظهور ذلك فى علومها وأدابها ، ليس كذلك ، فالأثر واضح لا ينكر بحال ، لكن الذى ننكره هو نسبته لتلك الثقافات الوافدة ، وأنه يرجع إليه وحده ، لا إلى الحضارة العباسية التى عمقت الفكر الوافد ، وصبغته بروحها ، وجعلته أصلاً من أصول ثقافتها وفكرها وآدابها ، لا ننكر الأثر ، ولا ننفى الظلال ، فهذا أمر لا ينكر . وإنما ننكر بشدة النسبة والأصالة والتبعية المطلقة .

أوربا الحديثة قامت نهضتها على ثقافات مختلفة من إغريقية ويونانية وفارسية ورومية وهندية وفرعونية وإسلامية ، ومع هذا أنكرت كل ذلك ، ونسبت كل تقدم فكرى وعلمى وأدبى إلى العصر الحديث نفسه ، فكل ذلك عندهم من النهضة الأوربية الحديثة وحدها ، وإن اضطرت إلى الاعتراف بالأثر، فلا يعدو أن يكون أثرًا خارجًا وعاملاً من العوامل فقط ، وحين يتعصب أهلها، ينفون كل الثقافات ما عدا ما يتصل بهم مباشرة ، مثل ثقافة الإغريق واليونان والرومان .

فالقصة الحديثة فى أوربا مثلاً مع اعتمادها على الملاحم الإغريقية والرومانية ، وعلى القصص العربى القديم وخاصة القصص القرآنى والمقامة : فهم يجزمون - وهم على جانب كبير من الصدق - أنها نتاج فكرى وأدبى حديث ، ولا توجد بمعناها الفنى فى أى عصر من العصور السابقة .

والقصة العربية الحديثة التى تأثرت بالقصص العربى القديم والقصص الأوربى الحديث - على الرغم من ذلك - فهى قصة عربية حديثة فى روحها وأشخاصها وزمانها ومكانها وأسلوبها وخصائصها ، وطبيعة كاتبها وأبطالها ، وموضوعها ومعالجتها للواقع العربى ، وامتزاج كل ذلك بقواعدها وأصولها ومنهجها ، فهى بكل ذلك قصة عربية حديثة ، وليست قصة أوربية ، ولا قصة عربية قديمة ، لأنها نبت زمانها ، ووليدة عصرها .

وكذلك التصوف الإسلامى الذى نشأ فى بداية القرن الثالث الهجرى ، فهو وليد عصره ونبت زمانه ، وإن تأثر بالصدر الأول وبالزهد بعد ذلك وبالثقافات الأجنبية الأخرى ، لأنه علم من علوم الحضارة العربية العباسية الإسلامية ، وإذا كان لابد من شرف النسبة ، فينبغى أن ترجع إلى الحدث الكبير الذى مكن الدولة العباسية من الحكم ومن الإفساخ لحضارتها ، فى كل أنحاء العالم العربى الإسلامى .

٤ - مقياس الأصالة الحقيقى فى كل شىء يرجع إلى الأمة المنتصرة ، التى سادت وغلب أمرها على الشعوب الأخرى ، كما قرر ذلك علماء التاريخ والحضارة ، فالعادة فى الفضل أن يرجع للأقوى والمنتصر ، حتى لو كانت الأمة المغلوبة أعمق ثقافة وأوسع حضارة ، فإن هذا العمق وذلك الاتساع ينسب إلى الدولة المنتصرة ، لتزهو به فى التاريخ .

ولن ينكر أحد حضارة الفراعنة فى مصر ، ولا عراقتها فى التاريخ القديم، وعلى الرغم من ذلك فقد سلبت منها ، ونسبت إلى غيرها ، حين خضعت مصر للدولة الرومية البيزنطية ، فأصبح كل تقدم حضارى وفكرى وثقافى ينسب إلى الروم آنذاك والأمثلة على ذلك كثيرة ، وكلها تتوفر لبيان معنى الأصالة فى كل اتجاه فكرى أو حضارى يحل بأى شعب من الشعوب ، حين ينتصر وتكون له الغلبة وبيده السلطة ومقاليد الدولة والحكم .

وكذلك الأمر فى التصوف الإسلامى ، فقد نشأ فى ظل دولة قوية أخضعت لها كل الشعوب ، وذابت فى شعبها ، وغابت عن حضارتها وثقافتها القديمة ، وأصبحت حينما تفكر إنما تفكر للدولة العباسية ، وتفكر عن الحضارة العربية الإسلامية ، فهى المقياس الحقيقى لأصالة الفكر والثقافة والحضارة والأدب والعلوم .

تلك هى الحقائق فى أصالة التصوف الإسلامى ، التى كشفت عن جوهره وحقيقته، وأنكرت الدعايات الكاذبة ، والمفتريات المسمومة ، التى يشنها الأعداء حربًا على الإسلام ، وطعنًا فى رجاله وعلومه ، لتجريد الحضارة الإسلامية من كل فضل أو سبق ، وإذا كان من فضل إنما يرجع لمسلم غير

عربى ، ولا يغيب عنهم أن الدعوة الإسلامية ، لم تكن للعرب وحدهم ، حتى لا تكون العنصرية هى أساس التفاضل فيه ، وإنما كانت لكل إنسان ، وفى كل الأمم ، وحينما يحل الإسلام تكون حضارته وعلومه ولو فى قلب أوربا نفسها ، كالحضارة الأندلسية الإسلامية فيها ، والتى ما زالت تعيش عليها أوربا حتى اليوم ، وتدرس فى مدارسها وجامعاتها ، لبيان أثرها القوى فى النهضة الحديثة .

* * *

ظهور كلمة تصوف

نَعِم الصحابة رضوان الله عليهم بشرف الصحبة ، فكان يسمى الواحد منهم صحابيًا ، وظل الأمر كذلك حتى جاء عصر التابعين ، فكان الرجل يسمى، تابعيًا ، فإذا ظهر زهده بين الناس ، وعرف به ، سمى زاهدًا ، حتى ظهرت كلمة التصوف فى القرن الثانى الهجرى ، (فلم يعرف هذا الاسم إلى المائتين من الهجرة العربية لأن فى زمن رسول الله ﷺ كان أصحاب رسول الله ﷺ يسمون الرجل صحابيًا لشرف صحبة رسول الله ﷺ ، وكون الإشارة إليها أولى من كل إشارة ، وبعد انقراض عهد رسول الله ﷺ ، من أخذ عنه العلم سمى تابعيًا ، ثم لما تقادم زمان الرسالة ، وبَعُدَ عهد النبوة ، وانقطع الوحى السماوى ، وتوارى النور ... تفرد طائفة بأعمال صالحة وأحوال سنية ، وصدق فى العزيمة ، وقوة فى الدين وزهدوا فى الدنيا ومحبتها، واغتنموا العزلة والوحدة [١] .

لكن الأقرب أن كلمة « تصوف » نشأت بعد مرور القرن الأول مباشرة حيث وردت عن « الحسن البصرى ١١٠ هـ » قال : رأيت صوفيًا فى الطواف ، فأعطيته شيئًا فلم يأخذه ، وقال : معى أربع دوانيق ، يكفينى ما معى » [٢].

وسبق قول مساور :

تصوف كى يقال له أمين وما يعنى التصوف والأمانة

وهو من شعراء الزهد فى القرن الثانى الهجرى .

ولذلك نرى صاحب طبقات الصوفية يبدأ رجال التصوف حين يبدأ «بالفضيل بن عياض م ١٨٧ هـ » [٣] ، فهذا يدل على أنها لم تطلق إلا فى نهاية القرن الثانى . وقيل أطلقت أول الأمر على « أبى هاشم الكوفى م ١٥٠ هـ » روى عن سفيان الثورى أنه قال . لولا أبو هاشم الصوفى ما عرفت

---

(١) عوارف المعارف : السهروردى ١ / ٣٣٧ .

(٢) المرجع السابق : ١ / ٣٣٦ .

(٣) أبو عبد الرحمن السلمى : ٦ .

الرياء[١] ، وقال الجاحظ وكان من الشعراء وأسماء الصوفية من النساك ممن يجيد الكلام : كلاب ، وأبو هاشم الصوفى [٢] .

وسبق كل ذاك ما أثر عن النبى ﷺ من لباسه الصوف ، كما جاء فى بعض أحاديثه ، وما أثر عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين رثاه ، هذا يدل على جواز استعمال كلمة التصوف والصوفى نسبة للصوف اقتداء بالنبى ﷺ ، وجاء الحسن البصرى وغيره فأطلقوا على الزهد تصوفًا ، وظل الإسم يجرى على الألسنة ، وصفا للزاد، حتى صار مصطلحًا على علم التصوف ، له قواعده وأصوله ، ومعالمه البارزة ، لم يكن ذاك إلا فى نهاية القرن الثالث الهجرى ، حيث انتهى التصوف إلى أوائل أقطابه فى هذا القرن ، ومن هؤلاء « الجنيد ٢٩٧ هـ » موضحًا أصوله :

الطرق كلها مسدودة على الخلق ، إلا من اقتفى أثر الرسول ﷺ ، واتبع سنته ، ولزم طريقته ، فإن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه [٣] .

ويقول ؛ ما أخذنا التصوف عن القيل والقال ، لكن عن الجوع ، وترك الدنيا وقطع المألوف والمستحسنات ، لأن التصوف هو صفة المعاملة مع الله تعالى . وأصله التعزف عن الدنيا ، وقال : هو

« نعت الحق حقيقة ، ونعت العبد رسم » [٤] .

وحين يضع الجنيد أصول التصوف فى علم جديد ، يرى أن أصوله تقوم على الكتاب والسنة ، وأنه يستمد منه قواعده ومعالمه [٥] .

والتصوف الإسلامى جرى لفظه على اللسان العربى لفظًا وليدًا فى خلال

---

(١) اللمع : الطوسى ٤٢ ، وعوارف المعارف : ١ / ٣٣٦ .
(٢) البيان : ١ / ١٩٢ .
(٣) طبقات الصوفية : السلمى ١٥٩ .
(٤) المرجع السابق : ١٥٨ .
(٥) الطبقات الكبرى : الشعرانى : ٤٠ .

القرن الثانى الهجرى ، وحينما استقل العلم الصوفى بأصحابه ، وضعوا له أصوله وآدابه وميزوه عن العلوم الإسلامية الأخرى ، حتى صار لفظه مصطلحًا علميًا، تواضع عليه علماء التصوف، وكان ذلك فى خلال القــرن الثالث الهجرى .

* * *

حقيقة التصوف

تقتضى الأصالة فى كل علم أن نكشف روافده الضاربة فى أعماق منابعه، الذى انبثق منها ، فعلم التصوف وثيق الصلة بمصدره العربى الإسلامى، من حيث الشكل فى الاشتقاق اللغوى ، والمضمون فى الجوهر الذى هو الغاية منه ، فحقيقة التصوف لا تقطع الصلة الاشتقاقية فى نسبة الصوفى إلى صوفة الناسك الجاهلى ، ولا تنكر النسبة إلى أهل الصفة ، وتعترف بياء النسب التى لحقت لباس الصوف الخشن ، وغيرها من الحوافز التى يعانيها الصوفى ، حتى يسلك الطريق مخلصا إلى الصفاء النفسى ، وحضور القلب بالله ، وتخليص الروح من أثقال الجسد . فتمضى النفس فى طريق الحق تستعذب المشقة والمجاهدة ، وتميت الرغبة ، وتكسر الشهوة ، وتهمل الظاهر ، وتغمر الباطن بالحب ، وتلهيه بالشوق ، وتتزكى بالأخلاق ، وتتخلق بالآداب الإسلامية ، فى عزيمة قوية ، وإخلاص فى العمل ابتغاء مرضاة الله ، لا خوفا من ناره أو طمعًا فى جنته ، ولكن سعادة بلذة الحب لله تعالى ، ومتعة بمشاهدة الحق سبحانه ، فتبلغ النفس درجة الإحسان فى الإيمان مصداقا لحقيقته كما قال الرسول الكريم عنه : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

وإذا كانت حقيقة التصوف هى التوحيد المطلق لله عن طريق التجرد النفسى المطلق ، والصفاء الروحى الخالص ، والكشف القلبى بالحق المبين ، فلا يرى الصوفى من الوجود إلا ربه فى كل الوجود ، يراه فى الوردة الضامرة تكتم فى حواشيها حرارة الحب ، وحين تتفتح يفيض عنها الشوق ثناء على الله سبحانه ، فيفوح منها ريحان الجنة وعبير الإخلاص ، ويرى النخلة فى سكونها تكتم أنفاس الحب ؛ فيهمس به سعف الجريد موسوسًا ، فإذا ما هاج الشوق ، ثارت عواصف الريح ، فيتمايل الساق راكعًا فى مجاله ويخر ساجدًا لربه ، يسبح صارخا بأنات السعف ، ويستغيث شوقا باصطكاك جريده ، وإن من شىء إلا يسبح بحمده ،ولكن لا تفقهون تسبيحهم .

ويرى الصوفى فى قلبه الحاضر بالله نور الحقيقة ، وينكشف جلال الحق فيغرق فى بحار نوره ، ﴿ **أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين ، الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء** ﴾ سورة الزمر : ٢٢ ، ٢٣ ، ويهيم القلب بذكر المحبوب أثناء التأمل شوقا إليه ، قال الرسول الكريم : « أسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك » ، قال أبو سعيد الخراز فى العارفين : ملئت قلوبهم من المحبة ، فطاروا بالله عز وجل طربا ، وهاموا إليه اشتياقا فيا لهم من قلب مشتاق ، أسف بربه كلف دنف ، ليس لهم سكن غيره ولا مألوف سواه [١] .

وحين يرى القلب بالله تكون النفس قد تجردت عن هواها ، فعفت عن المباح الذى أحله الشرع لها ، إلا بقدر ما يسد الرمق ويقيم البدن ، ويستر الجسد ، وتأبى أنفسهم التعرف المجرد على المشتبهات علاوة على الحرام ، فالإنسان فى خلقه وخلقه معادلة صعبة ، إن طغت مادية الجسد بالإغراق فى الملذات والشهوات هوى إلى فوضى الحيوانات وشهوة العجماوات · التى ارتفع عنها شرف التكليف ، وإن طغت الروحية فى البدن ، وأحرقت شهواته وملذاته بمجاهدة النفس بالعبادة الخالصة ، ورياضتها بالصبر عن الرغائب وقطع الأمل ، حينئذ يرى القلب بالله وتخلص الروح من تلابيب الجسد المادية ، فتسمو إلى مصاف العوالم الروحية كالملائكة فى أجسامهم النورانية ، يفعلون ما يؤمرون ويسبحون الله بالليل والنهار لا يفترون ·

الصوفى اتخذ دنياه طريقا إلى آخرته ،ومعبرا للقاء ربه ، ومزرعة لحصاد الشوق إليه ، فلا يشعر بالحرمان فيها ، ولا يجد مشقة ، لأنه أنكرها فأنكرته، وعرف حلاوة المحبة الإلهية فحرمته ، فيا للعجب العجاب ! أيكون فى الحرمان لذة ؟ وفى العذاب منها متعة ، وصدق قول الصوفى : (من ذاق عرف ومن حرم انحرف) ، وعرفان القلب هو الحقيقة فى رؤية الحق ، ورؤيته سبحانه

(١) اللمع : الطوسى ٩٤ ·

هو حقيقة الإحسان فى الإيمان ، وقد وجدها الصحابى الجليل حارثة ﷺ ، حيث قال له الرسول الكريم : يا حارثة كيف أصبحت ، قال : أصبحت مؤمنا حقا ، قال : إن لكل شيء حقيقة ، فما حقيقة الإيمان ، فقال يا رسول الله : عزفت نفسى عن الدنيا ، فأسهرت ليلى ، وأظمأت نهارى ، وكأنى أنظر إلى عرش الله بارزا ، وإلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وإلى أهل النار يتضاغون فيها ، فقال له عليه السلام : عرفت يا حارثة فالزم ، فأقره على حقيقة الإيمان التى توطنت فى قلبه ، وشهد له بالمعرفة ، التى تحققت فيه من الهيمان بالله .

ولست مع الذين يفصلون بين الشريعة والحقيقة ، فالشريعة هى أساس الحقيقة، والعمل الدائب بها هو الذى يضمن بقائها فى الروح، ويظهر الفساد فى مناطق التفريق حين يتراجع الصوفى عن العمل بالشريعة ، فيهمل الصلاة والذكر والمجاهدة ورياضة النفس ، تغادر الحقيقة نفسه ، ويظلم قلبه ، وإلا لما بعث الله الرسل بالشرائع لترويض النفس وتحقيق الروح ؛ أنكر هذا التفريق العارف بالله العز بن عبد السلام فى كتابه « حل الرموز ومفاتيح الكنوز » : فلما رأيت هذه الأقوال الصادرة عن أهل الأحوال ، قد أشكل على الأفهام تعليلها ، وعزب عن الأفهام تأويلها ، أحببت أن أشرح منها ما انشرح له صدرى ، وسنح به فكرى . وبلغ إليه قدرى، وذكرت فيه من العبارة ما ليس فيه استعارة . ثم وضح إنكاره فى قوله : فالشريعة إقامة بوظائف العبودية ، والحقيقة مشاهدة الربوبية ؛ فالشريعة مجاهدة والحقيقة مشاهدة ولا تباين بينها، إذ هما متلازمان . . . فبطون الحقيقة فى الشريعة كبطون الزبد فى لبنه أو الكنز فى معدنه . . . وكل شريعة لا حقيقة لها فهى عاطلة ، وكل حقيقة لا شريعة معها فهى باطلة ، فالشريعة حق والحقيقة حقيقتها ، فالشريعة للقيام بالأوامر ، والحقيقة مشاهدة الأمر ، والشريعة والحقيقة يجمعهما كلمتان فى قوله تعالى : ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ ، فإياك نعبد شريعة ، وإياك نستعين حقيقة [١] .

---

(١) بين الشريعة والحقيقة : ص ٦ ، ١٠ ، ١١

والرسول الكريم يوضح هذا فى قوله : (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم) ، فالمعنى من عمل بعلوم الشريعة وسلك طريقها ، أودع الله فى قلبه نور الحقيقة ، ليكون العبد على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله، والصوفية هم الذين أحيوا نفوسهم بالعبادة . منصرفين عن البحث فى ذات الله وكنهها وهو ما عليه الفلاسفة . وهم أنعشوا أرواحهم بالذكر لاهين عن المتكلمين ، الذين يفرقون بين ذات الله وصفاته ، فأفنوا أنفسهم فى الحب عن كل شيء ، فرأوا الله فى الوجود كله ، فى كل شيء ، وفوق كل شيء ، ومحيطا بكل شيء ، اشتمل على قلوبهم فأصبحوا يرون به حاضرين بالحق ، منعمين بلذة الشهود ، وحينئذ يتحقق النور المحمدى الذى قال فيه : (إنى لست كأحدكم أظل عند ربى يطعمنى ويستقينى) ، وقول الحق فى الحديث القدسى : (ما وسعنى سمائى ولا أرضى ، وسعنى قلب عبدى المؤمن) وقوله تعالى فى حديث آخر : (تجدنى عند المنكسرة قلوبهم من أجلى) ؛ وصدق الله العظيم إذ يقول : (وهو معكم أينما كنتم) ، (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) .

وجه الرسول الكريم هذا القول إلى الخاصة من أهل التصوف وإلى العامة ممن جمعوا بين الدنيا والدين ، عن الحسن أنه قال : (خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم على أصحابه فقال : هل منكم من يرد أن يذهب الله عنه العمى ويجعله بصيرا ؟ ألا إنه من رغب فى الدنيا ، وطال أمله فيها أعمى الله قلبه على قدر ذلك ، ومن زهد فى الدنيا وقصر أمله أعطاه الله علما بغير تعلم وهدى بغير هداية ، الا أنه سيكون بعدكم قوم لا يستقيم لهم الملك إلا بالقتل والتجبر ، ولا الغنى إلا بالفخر والبخل ، ولا المحبة إلا باتباع الهوى ، ألا فمن أدرك ذلك لزمان منكم فصبر على الفقر وهو يقدر على الغنى ، وصبر على البغضاء وهو يقدر على المحبة ، وصبر على الذل وهو يقدر على العز ، لا يريد بذلك إلا وجه الله تعالى ، أعطاه الله ثواب خمسين صديقا) ؛ وقال أيضا عن الدنيا : يا أبا هريرة ألا أريك الدنيا جميعا بما فيها فقال أبو هريرة بلى يا رسول الله ، فأخذ بيدى وأتى بى واديا من أودية المدينة ، فإذا مزبلة فيها

رؤوس وعذرات وخرق وعظام ، ثم قال يا أبا هريرة هذه الرؤوس كانت تحرص كحرصكم ، وتأمل كأملكم ، ثم هى اليوم عظام بلا جلد ، ثم هى صائرة رمادًا ، وهذه العذرات هى ألوان أطعمتهم ، اكتسبوها من حيث اكتسبوها ، ثم قذفوها فى بطونهم فأصبحت والناس يتحامونها ، وهذه الخرق البالية : كانت رياشهم ولباسهم؛ فأصبحت والرياح تعصفها ، وهذه العظام عظام دوابهم ، التى كانوا ينتجعون عليها أطراف البلاد ، فمن كان باكيا على الدنيا فليبك - قال أبو هريرة : فما برحنا حتى اشتد بكاؤنا [1] .

فالزهد فى الدنيا وتحقيرها ، وقصر الأمل فيها من أخلاق الصوفى التى تحققت من دوام المحاسبة لنفسه واستمرار اللوم ، والتجرد من العلل والغايات والشوائب والحاجات والخواطر والرغائب ، كل ذلك نبع صادقا من قلبه مخلصا لوجه الله : ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين** ﴾ ، والإخلاص فى الطاعة والتلاوة والذكر والعبادة من أشق الأعمال على النفس، وأشد العزائم لها والصبر عليها ، ومثل ذلك أن إبراهيم بن أدهم عقد العزم مع الله أن يخلص له ويترك المال والبنين والأهل قصدًا لوجهه، ورأى ابنه مرة فى الحج بعد أن كبر؛ فاستحى من الله تعالى أن يعود لشىء خرج عنه، وتركه له عز وجل وأنشد :

ولا عرضَتْ لـــــى نظرةٌ مذْ عرفْتُهُ ... مَدَى الدهْرِ إلا كانتْ لِى حيثُ أَنْظُرُ
أغَارُ علـــــى طَرْفِى له فكـــأنَّنى ... إذا رَامَ طَـــرْفِى غيرَه لَسْتُ أُبْصِرُ
أيامَ ذُخْرِى وَسُؤْلِى وَعُـــــدَّتِى ... ودِادُكَ فِى قَلْبِـــى إِلى يَوْم أُحْشَرُ

ثم قال لشخص آخر : امض وسلم عليه لعلى أتسلى بسلامك عليه ، وأبرد نارا على كبدى ، فأتيت الفتى وقلت له : بارك الله لأبيك فيك ، فقال يا عم وأين أبى ؟ إن أبى قد خرج فارا إلى الله تعالى ، ليتنى أراه ولو مرة واحدة، وتخرج نفسى عند ذلك هيهات هيهات ! وخنقته العبرة وقال : والله أود لو أنى رأيته وأموت فى مكانى ، ثم بكى وأنشد يقول :

---

(١) الإحياء : الغزالى ٣ / ١٩٦ .

لقد حكَمَ الزمانُ عليَّ حتَّى بَرانِى فى هوَاك كما تَرانى
حبيبى إنْ بَعُدْتَ فإنَّ قلبى على الزمان إليك دَانى
وإن بَعُدَتْ ديارُك عن ديارِى فَشخْصُك لَيْس يَبْرَحُ عن عَيانى
لقد أَسْكَنْت حبَّكَ فِى فُؤادى مكانًا ليْس يَعْرفُه جنَانى
كَأَنَّك قد ختَمْتَ على ضَميرى فغيرُك لا يَمُرُّ على لِسَانى

قال الرجل ثم رجعت إلى إبراهيم وهو ساجد فى المقام . وقد بل الحصى بدموعه وهو يتضرع إلى الله تعالى ويبكى ويقول :

هجرْتُ الخلقَ طُرًا فى هواَكَا وَأَيْتَمْتُ العيَال لِكَــىْ أَرَاكَا
فلو قَطَّعتَنَــى فى الحبِّ إربًا لما سكَنَ الفؤادُ إلى سِواكا

قال : فقلت له : ادع له فقال ، حجبه الله عن معاصيه، وأعانه على ما يرضيه (١) .

وقالت رابعة العدوية تبتغى مرضاة الله تعالى :

فَلَيْتَك تَحلُــو والحَيَاةُ مَريرَةٌ وَلَيْتَكَ تَرْضَى والأنَامُ غِضَــابُ
وليْتَ الذى بيْنِى وبَيْنَكَ عامرٌ وَبْينى وبينَ العالمـين خَرَابُ
إذا صحَّ مِنْك الوُدُّ فالْكُلُّ هَيِّنٌ وكُلُّ الذى فَوْقَ التُّرابِ تُرَابُ

وقال سحنون المحب :

قلوبُ العــارفين تَحِنُّ حتى تْحُلُّ بِقُــرْبِه فِى كلِّ رَاح
صَفَتْ فِى وُدِّ مَوْلاها فَلَيْسَتْ لَها عَنْ وُدِّ مولاها بَرَاح (٢)

توطنت قلوبهم على المحبة والرحمة ، والأخوة والمودة والتزاور والتألم

(١) روض الرياحين : اليافعى ١٢٩ ، ١٣٠ .
(٢) روض الرياحين : اليافعى ص ٣٢ ، ٦٧ ، لا يعنينى شخصية رابعة أهى حقيقية أو وهمية ؟ بقدر ما يعنينى الأدب ذاته ما دام نصًا عربيًا فيه روح التصوف الإسلامى .

والفرح للغير ، والتحلى بسائر مكارم الأخلاق تحقيقًا لقول الرسول : إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

وأئمة التصوف عرفوا طريقهم بتعاريف هى مزيج قلوبهم ،وقبس أرواحهم ، فعلى قدر تجربة الصوفى يكون تعريفه ، ويقف حده مطابقا لتجربته وما يشعر به فى نفسه ، وفى التأمل فيما قلناه ، وفى هذه التعاريف تنتهى النفس إلى معنى التصوف وأصوله وأهدافه وطريقته وجوهره ، فالكمال لله وحده ؛فسبحان من لا تخفى عليه الأسرار ، ويحيط بما خفى منها وما بطن.

جاءت هذه التعاريف فى رسالة القشيرى . قال (أبو تراب النخشبى ٢٤٥هـ) . الصوفى لا يكدره شيء ، ويصفو به كل شيء . وقال (سهل ابن عبد الله التسترى ٢٨٣ هـ) : الصوفى من يرى دمه هدرا وملكه مباحا . وقال (الجنيد ٢٩٧ هـ) : أن يميتك الحق عنك ويحييك به . وقال أيضا ; أن تكون مع الله بلا علاقة . وقال (معروف الكرخى ٢٠٠ هـ) :التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما فى أيدى الخلائق.وقال(ذو النون المصرى٢٤٥هـ) : هم قوم أثروا الله عز وجل على كل شى فآثرهم الله على كل شيء . وقال (الحلاج ٣٠٩ هـ) : هو وحدانى الذات لا يقيله أحد ولا يقيل أحدًا . وقال (الشبلى ٣٣٤ هـ) : الجلوس مع الله بلا هم ، وقال أيضا : هو عصمة عن رؤية الكون .

وجاءت هذه التعاريف فى تذكرة الأولياء منها [١] : ما قاله التسترى : الصوفى من صفا من الكدر ، وامتلأ من الفكر ، وانقطع إلى الله من البشر ، واستوى عنده الذهب والمدر . وقال (سرى السقطى ١٥٧ هـ) : التصوف اسم لثلاث معان : لا يطفىء نور معرفته نور ورعه ، ولا يتكلم بباطن فى علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب والسنة ، ولا تحمله الكرامات على هتك أسرار محارم الله . وقال الجنيد : التصوف تصفية القلوب حتى لا يعاودها ضعفها الذاتى ومفارقة أخلاق الطبقة ، وإخماد صفات البشرية ، ومجانبة نزوات النفس ،

---

(١) فريد الدين العطار : ٨٣٣ ، ٢٦٤ ، ٣٨٢ .

ومنازلة الصفات الروحية والتعلق بعلوم الحقيقة ، وعمل ما هو خير إلى الأبد، والنصح الخالص لجميع الأمة ، والإخلاص فى مراعاة الحقيقة ، واتباع النبى ﷺ فى الشريعة . وقال (سليمان الدارانى ٢١٥ هـ) : أن تجرى على الصوفى أعمال لا يعلمها إلا الحق؛ وأن يكون دائما مع الحق على كل حال لا يعلمها إلا هو . وقال (أبو الحسين النورى ٢٩٥ هـ) : ليس التصوف رسما ولا علما ، لأنه لو كان رسما لحصل بالمجاهدة ، ولو كان علما لحصل بالتعليم، ولكنه تخلق بالله ، ولن تستطيع أن تقبل على الأخلاق الإلهية بعلم ولا رسم . وقال (أبو الحسن الحصرى ٣٧١ هـ) : الصوفى إذا فنى عن آفات الدنيا لم يرجع إليها ، ومن إذا ولى وجهه نحو الحق لم يتحول عنه وليس للحوادث أثر فيه بحال . وقال (أبو الحسن الخراقانى ٤٢٥ هـ) : ليس الصوفى بمرقعته وسجادته ولا برسومه وعاداته ، بل الصوفى من لا وجود له .

بين التصوف والزهد :

فى التعاريف السابقة وغيرها كثير مما لا يدخل تحت حصر صورة حقيقة التصوف، وهى ما سبق أن أوجزناه فى عجاله ليتضح معناه ، ويتميز عن أول مراحله وهو الزهد ؛ فالصوفى لا يشعر بوجوده ، فهو يرى فى نفسه أنه ليس زاهدا مهما بلغ من درجات السمو الروحى ، وأبصر رضا الله فى نفسه ، فهذا العمل دون ما يجب على الفقير لربه ، قالت رابعة الشامية :

وزَادِى قليلٌ ما أَرَاهُ مُبَلِّغِى   للزادِ أَبْكِى أَمْ لِطُولِ مَسَــــافَتِى
أَتحْرِقُنِى بالنَّارِ يَا غَايَةَ المُنى   فأَيْنَ رَجَائِى فيكَ أَيْن مَخَافَتِى (١)

والزهد كما مضى مشوب بما يعكر صفوة ، ويكدر صفاءه ، لأن الزاهد قد يكون مشغولا بأمر دنياه يصارعها فيصرعها ، لكن الصوفى منصرف عن دنياه مشغول بالحق سبحانه مقطوع الصلة بغيره . والزاهد حين يزهد فى الحياة قد يكون طمعا فى جنته ،وخوفا من عذابه ، بينما الصوفى لا يبتغى إلا مرضاة الله تعالى ، ولو غرق الصوفى فى عذابه وشقائه ، فالنعيم ليس فى الجنة ،ولا

---

(١) روض الرياحين : اليافعى ٢١٢ .

العذاب فى النار ، وإنما الجنة فى رضاه والعذاب فى الإعراض عنه ، قالت ريحانة المجنونة :

أنتَ أُنْسِى ومُنْيَتِى وسُرُورِى   قَد أَبَى القلبُ أَنْ يُحبَّ سِواكا
يَا حَبِيبِى ومُنْيَتِى واشْتِيَاقِى   طَارَ شَوْقِى مَتَى يَكُونُ لِقَاكا
لَيْس سُؤالى من الجِنَانِ نَعِيمًا   غَيْرَ أَنِّى أُرِيدُها لأَرَاكَا

وقالت رابعة العدوية :

كلهم يعبدون من خَوْفِ نارٍ   ويَرَوْنَ النجاةَ حَظًّا جَزِيلا
أَوْ بِأَنْ يَسْكُنُوا الجِنَانَ فَيَحْظَوْا   بِقُصُورٍ وَيَشْرَبُوا سَلْسبِيلا
ليس لِى فى الجِنَانِ والنَّارِ حَظٌّ   أَنَا لا أَبْتَغِى بِحُبِّى بَدِيلا

والزاهد قد يزهد فى الدنيا ويعف عن شهواتها ، لكن وخزًا فى نفسه يميل به نحوها . وهوى فى صدره ينازعه شواغلها ، ومع ذلك يمنع نفسه ويجاهد روحه . بينما الصوفى لا يتسرب إلى قلبه أدنى علائق الدنيا؛ فقد كرهها عن عزم ويقين ، بلا تردد نفس ، ولا وشوشة فى القلب ، الذى امتلأ بحب الله، فلا مكان فيه للانشغال بغيره ، وقد يرتقى الزاهد درجة أعلى من السابقة ، حين يخلو القلب من هذا الميل ، ويتجرد من الشوق إلى مباهج الحياة فى الباطن ، لكن الذى أبعده عن طريق الصوفى ، أنه يعجب بزهده ويزهو به ، ويعلن عن نفسه التى انتصرت على هواها . ومع أن هذا الأمر خارجى لا يتصل بالباطن إلا من بعيد إلا إنه يعكر صفاء الروح ؛ لأن الزاهد قد أوسع للظهور مكانًا فى قلبه ، يزاحم حب الله ويأخذ حيزًا منه . وهذا يتعارض مع الصوفى الذى لا يشعر بزهده . ولا يرضى عن صوفيته ، فأفضل الزهد أخفى الزهد ، والصوفى يشعر بأنه لا وجود له ، قال الغزالى : وكان حاصل عملهم قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بها إلى تخلية القلوب عن غير الله تعالى . وتحليتها بذكر الله [١] .

(١) المنقذ من الضلال : الغزالى ٤٢ .

ويفرق ابن سينا بين الصوفى العارف وبين الزاهد والعابد ، ليتميز الصوفى العارف عنهما : والعارف الصوفى خلافا للزاهد والعابد - يريد الحق الأول لا لشىء غيره . ولا يؤثر شيئًا على عرفانه ، إنه لا يعبده لهدف آخر يرجوه من ورائه ، إنه لا يجعل الحق واسطة لأجر يناله أو مثوبة يطمع فيها ، إن الحق غايته إنه مبتهج به ، لقد عرف اللذة الحق ، وولى وجهه سمتها ؛ فكان من المستبصرين بهداية القدس . وأخذ يعدد صفات العارف من طلاقة الوجه ، وبسامة المحيا ، والفرح بالحق ، والنصح والرحمة والحلم ؛ والرؤية بنور الله وسره ، والشجاعة والجود والصفح . إلى أن قال : (إن للعارفين مقامات ودرجات ، يخصون بها وهم فى حياتهم الدنيا دون غيرهم ؛ فكأنهم وهم فى جلابيب من أبدانهم ، قد نضوها ، وتجردوا عنها إلى عالم القدس ، ولهم أمور خفية فيهم ، وأمور ظاهرة منهم ، يستنكرها من لا يعرفها) [1] .

والتصوف فى طبيعته هذه أمر شاق وطريق صعب ، لا يطيقه كل الناس وهم مختلفون فى الطبائع ، ولا يقدر عليه كل المسلمين وهم متباينون فى الدرجات ، قال تعالى : ﴿ **فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة والسابقون السابقون أولئك المقربون** ﴾ ، وفى آخر السورة ﴿**فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم ، وأما إن كان من أصحاب اليمين** ﴾ سورة الواقعة . وقال تعالى : ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير** ﴾ فاطر ٣٢ ، حتى التفاضل بين الرسل ، فأفضلهم أولو العزم، وأفضل الجميع محمد خاتم المرسلين . قال تعالى : ﴿ **تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض** ﴾ البقرة ٢٥٣ .

وقضى الله بين خلقه بالتفاضل لحكمة يعلمها الله وحده ، لكى تسير الحياة ويعمر الكون . ويقضى الله أمرا كان مفعولا . فيتشعب الخلق . فمنهم الصانع والتاجر والزارع والعامل والعالم والطبيب . والقاضى والمهندس والصوفى والزاهد . وهم جميعا يمثلون أدوارهم فى البناء والتقدم الانسانى

---

(١) الإشارات والتنبيهات : ابن سينا تحقيق د . سليمان دنيا القاهرة ١٩٥٨ .

والعلمى . لا يستغنى أحدهم عن الآخر فى تخصصه ومهنته . وفيهم خاصة سلكوا طريق التصوف . ولانت أمامهم الصعاب، واستعذبوا مرارة العزوف عن شهوات الدنيا . وجاهدوا أنفسهم فيها ؛ فكانوا هم وحدهم القادرون على تحمل مشقة الطريق . ومن العسير أن يسلك غيرهم مسلكهم من الذين استبدت بهم المهن، وشغلهم بناء الحياة وعمارة الكون عن التفرغ للعبادة غالبًا. وإلا لأحاط بالعالم الخراب، ولتصدعت الحضارات،وأقفرت الدنيا من الازدهار والرقى . واكتفى الجميع بما يقيم الأود ، وهذا ما تأباه الفطر السليمة والشرائع المنزلة . التى تحض على العمل والبناء . وتعمير الحياة وتقدم البشر .

وقد أحكم الرسول الكريم ميزان الدين والدنيا ، وأصحابه من بعده فبلغوا فيهما معا أسمى المراتب . التى يعجز عنها كل إنسان بعدهم : لأنه لا يستطيع أن يحكم ميزانهم فى الحياة ، لذلك قال الرسول الكريم خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم وهكذا . وأمام هذا العجز ، فالحياة بعد القرن الأول تحتاج إلى هؤلاء وإلى هؤلاء . تحتاج إلى الزهاد والصوفية وإلى أصحاب المهن والحرف . تحتاج إلى غير الصوفية من المؤمنين ليعمروا الحياة ، وتحتاج إلى الصوفية ، يبصرون غيرهم بالحق ويهدونهم إلى النور، ويرجعونهم بين الحين والحين إلى العالم الروحى منفرين لهم الشغف بالمادة والحرص على الدنيا ، فالصوفية من هؤلاء مثل دقات الساعة تنبه الإنسان من وقت لآخر ، ومثل تعاقب الليل والنهار، والظلام والنور ،والخير والشر ، وفى النقيضين تكون الحياة، ويستقيم أمر الدنيا . وهم مع هؤلاء كالكفتين فى الميزان ، يتعاقب التأرجح بينهما لتذكر إحداهما الأخرى فى عمل دائب . وإلا أصبح الميزان قطعة مهملة من الحديد لا تشرف باسم العدل والقسطاس المستقيم .

ولعل الله بسببهم يرفع عن عباده العذاب لما اقترفوا من الإثم ، فيحققوا لهم الأمن والأمان ، وصدق الرسول الكريم إذ يقول : (لولا شيوخ ركع وأطفال رضع لصب عليكم العذاب صبا) ، وقال أيضا فى المخلصين منهم (رب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره) ، وأشار الغزالى إلى ضرورة هذا التخصص فى الحياة فقال : إن السالك لسبيل الله يعرض عن الدنيا إعراضا لو

ساواة الناس كلهم لخـــرب العالم ، وأن سالك سبيل الله قليل والمدعى فيه كثير [1] .

وإذا كانت الشريعة تقتضى أصحاب المهن كما اقتضت أهل الطريق تحقيقا للمعادلة الصعبة فى الحياة ، فما ذنب أصحاب المهن ؟ ما داموا يؤدون واجبهم نحو الشريعة ، ومن أجل إسعاد البشر فى الحياة ، ولم يكن ذلك شرا منهم بل خيرا يدفعهم إلى أن يقتربوا من الصوفية إن لم يساووهم ، وهذا وهم وخلط فى المعادلة ، لأن غير الصوفية ملكت الدنيا أنفسهم وشغلتهم عن الله ، وما خلق الله الدنيا وسخرها إلا لخدمة الانسان حتى يعبد ربه ويصل قلبه ، ولكنهم أفرطوا فى الاشتغال بها ، وازدادوا حرصا فيها ، فكانت عندهم الغاية لا الوسيلة ، وقد وضح الرسول الكريم هذه المعادلة الصعبة ، وأنقذ البشر من هذه الحيرة ، ووضع لهم القسطاس المستقيم فى المعادلة .

جاء فى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال : جلس رسول الله ﷺ على المنبر وجلسنا حوله فقال : إن مما أخاف عليكم بعدى ما يفتح من زهرة الدنيا وزينتها ، فقال رجل : أو يأتى الخير بالشر يا رسول الله ؟ قال : فسكت عنه رسول الله ﷺ ، فقيل ما شأنك تكلم رسول الله لا يكلمك ، قال : ورأينا أنه ينزل عليه ، فأفاق يمسح عنه الرحضاء (العرق) ، وقال : أين السائل ؟ وكأنه حمده ! إن الخير لا يأتى إلا بالخير . . . وإن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم (داء يصيب البطن من كثرة أكل الكلا أو يلم : أى يقرب من الداء) إلا آكلة الخضر ، فإنها إن أكلت حتى إذا امتدت خاصرتاها ، استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت ثم رتعت ؛ وإن هذا المال خضر حلو ، ونعم صاحب المسلم ، هو لمن أعطى منه المسكين وابن السبيل، وإنه من يأخذه بغير حقه كالذى يأكل ولا يشبع، ويكون عليه شاهدا يوم القيامة .

فأصحاب المهن الذين أقبلوا على الدنيا . وأطلقوا للنفس هواها مستغرقة

---

(١) ميزان العمل : الغزالى فصل بيان علامة المنزل منزلة السائرين إلى الله .

فى الملذات والشهوات ، ليكون ذلك سببا فى هلاكهم ، واستحقاقا لغضب الله عليهم ، ما لم يعطوا لكل ذى حق حقه ، فيعطون لأنفسهم بقدر منها ، وما زاد يضعونه فى مواضعه كما أمر الله ، ومثلهم فى الإقبال على الدنيا كمثل البهيمة فى وقت الربيع ؛ إذ يغريها الكلأ الحلو والمرعى الطرى ، وبه قوام حياتها ، فإذا أقبلت عليه بغير حساب كان سببا فى هلاكها وموتها ، لا فى قوتها وحياتها ، أما الكلأ الذى يعقب داء فى بطنها أو يقرب منه فهى تحذر منه كما يحذر الإنسان الحرام تماما ، وبهذا حدد لهم الرسول الكريم موقفهم الصحيح من الدنيا ، ووضح لهم المعادلة الصعبة ، وجعلهم فى موطن الذين أسهموا فى تعمير الدنيا ، ولم يفرطوا في أنفسهم ولا فى جنب الله . ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونَ ، مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونَ ، إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِينُ** ﴾ سورة الذاريات ٥٦ : ٥٨ .

وسبق أن قلت : إن الزهد الحقيقى إنما يتحقق من زاهد يستولى على جماح نفسه وهواها ، يزهد فى الدنيا وهو يملك منها ما يصرفه عن زهده؛ فيزهد فيها عن غنى ، أو على الأقل عن عمل وجهاد لتحقيق الكسب . لا عن عجز وخمول وكسل ؛ والزاهد إنما يمثل مرحلة يصعد بعدها إلى درجة العارف الصوفى . الذى لابد فيه من اجتماع أسمى الصفات فى الزهد . بل تكون أولى فيه ، وأقطاب التصوف فى القديم كان يعملون، فالعارف بالله إبراهيم بن أدهم كان يحرس البساتين أو يعمل فى الحصاد ، فإذا فرغ من عمله أرسل بعض أصحابه يحصل أجره ، ويقول لهم : خذوا وكلوا بها شهواتكم ، وغيره كثيرون مما كانوا يعملون ويأكلون من عمل أيديهم ،وهذا هو التصوف الحقيقى، لأنه تمكن من نفوسهم عن غنى وجهد وعمل ، لا عن تقاعد وكسل، وبطالة وعجز .

* * *

الأدب الصوفى

العوامل التى ساعدت على ازدهار الأدب الصوفى :

كان الأدب الزاهد يمثل التيار المضاد ، الذى قاوم الخروج على سنة

الخلفاء الراشدين فى الحكم ، وأخذ يندد بمن أخضعوا الأمة الإسلامية للإنحراف السياسى والأخلاقى والتناقض الاجتماعى ، والانغماس فى اللهو والملذات ، وسائر متع الحياة ، وغير ذلك من العوامل السابقة ، التى دفعت حركة الزهد دفعة قوية ، صاغ منها الزهاد أدبا رائعًا وشعرًا روحيًا قويًا حتى بداية القرن الثالث الهجرى [١] . وظل الأدب الزاهد بعد ذلك يذود عن الإسلام ، ويصد كل التيارات فى الإلحاد والمجون والشعوبية والزندقة ، ومجالس الخمر والاشتغال بأمر الدنيا ، فقويت شوكته وكثرت أتباعه ، وتعددت فنونه وأغراضه ، وازداد عمقًا واتساعًا بقدر ما ابتعد الناس آنذاك عن تعاليم الإسلام ، وبقدر اشتغالهم عنه بزهرة الدنيا ، التى انفتحت عليهم من كل جانب ، وبلغ الأمر بالحكام أن امتزجت دمائهم بالأعاجم ، وولوهم أمور المسلمين ، فأدخلوا على نظام الحكم فى الإسلام مراسيم الأكاسرة والقياصرة فى أسلوب حكمهم وترف حياتهم ، وبهرجة مجالسهم فى اللهو والترف والنعيم ، والغناء والطرب والشرب [٢] .

وسيطر الفرس على الحكم والوزارة؛ فحكمت أسرة يحيى البرمكى ثم أسرة بنى سهل ، ثم الأتراك ، مستخدمين فى ذلك كل الحيل وأساليب الدهاء والمؤامرات وبث الفتن ، لكى يستقر أمرهم ، ويطول الحكم فى أيديهم [٣] . ولم يقتصر الصراع السياسى على الوزراء من الأعاجم ، وإنما وقع هذا فى بيت الخلافة العباسية ، إذ كان الواحد منهم يدبر القتل لأبيه أو أخيه ، لتئول إليه الخلافة ، وربما لا يستقر على كرسى الحكم إلا ويرى نفسه معزولا أو مقتولا أو مخلوعًا بأمر الأعاجم وبتدبيرهم

قلد الأتراك المعتز بالله خليفة عام ٢٥٢ هـ ، ثم خلعوه بعد أن أثخنوه بضرب الدبابيس ، وأقاموه حافيًا فى الشمس ثم قتلوه ، ورفعوا مكانه المهتدى ابن الواثق عام ٢٥٥ هـ الذى لم يعجبهم زهده وورعه وعدالته فخلعوه عام

(١) هذا الكتاب : ١٦٤ : ١٧٠ .

(٢) تاريخ الطبرى : ٦ / ٣٣١ .

(٣) الوزراء والكتاب : الجهشيارى ٢١٢ ، ٣٢٦ - مقدمة ابن خلدون ١٨٣ .

٢٥٦ هـ وغير ذلك من الصراع السياسى المشحون بالظلم والإجحاف ، مما أشعل حركة التصوف ، أنكر الصوفية على هؤلاء اشتغالهم بأمر الدنيا والتحقير من شأنها ، وذلك فى الأدب الصوفى الرفيع الذى يوثر الحب الإلهى عن حب الدنيا ومظاهر الحكم فيها .

نشط الأدب الصوفى أيضًا فى ظلال الصراع السياسى ، يتحدى الثورات المختلفة، ويتنكر لها لبعدها عن تعاليم الإسلام ، فقد تشيع للعلويين فريق تنكروا للحكم العباسى ، وأنهم أولى بالخلافة ، وغالوا فى مذهبهم الشيعى ، حتى فضلوا عليا على أبى بكر وعمر وعثمان ﷺ جميعا ، فهو أحق بالخلافة منهم، وخرجوا على سنة السلف الصالح ، ثم ما كان من أمر الخوارج مع الغباسيين، حيث دارت بينهم حروب حول تقرير مبدأ الشورى لتنصيب الحاكم فى عهد المهتدى والرشيد والمأمون [١] .

ثم ثورة الزنج (٢٥٥ هـ - ٢٧٠ هـ) التى أنهكت العباسيين فى معارك كثيرة أشهرها معركة البصرة ، التى قضوا على حضارتها ومعالمها وعلومها وعلمائها ، وأعملوا فيها السلب والنهب ، وصور ابن الرومى هذه المعركة المشهورة ، ثم انتصر عليهم الخليفة الموفق بعد أن أنهكت القوى الإسلامية ، ضاع فيها أكثر من مليون مقاتل [٢] ، ثم أنكر الصوفية ما عليه المجتمع من حولهم من تناقضات وفوارق طبقية بين أفراده ؛ ما بين طبقة عليا تكون فى الخلفاء والوزراء والقواد والولاة ، وهم أصحاب اليسار والترف ، وطبقة وسطى متوسطة متمثلة فى العلماء والتجار ، وطبقة دنيا وهم الزراع وأصحاب الحرف وسواد الشعب ، وهى أفقر الطبقات الثلاث ؛ فأما طبقة الحكام فقد غرقوا فى الثراء والترف والبذخ والطرب ، وجمعوا الأموال عن طريق المصادرات والجبايات ، وعن طريق الرشوة والسلب [٣] ، ثم انغمسوا فى

---

(١) الطبرى : ٦ / ٨٢ ، ٣٥٨ ، ٣٧٢ ، ٤٦٥ ، ٤٧٢ .

(٢) الطبرى ٩ / ٤٧٠ ، ٤٧٨ ، ٤٨١ ، ٦٦٣ .

(٣) تاريخ التمدن الإسلامى : جورجى زيدان ٥٦,٣ .

مجالس الشراب والغناء حتى الصباح ، فصـــــــار للغناء والرقص والمجالس أصـول وقواعد كالعلوم[1] .

ثم موقف الصوفية من المذاهب الدينية الجدلية ، من معتزلة وقدرية وجبرية وغيرها ، التى أحالت العقيدة إلى فلسفة وجدل ؛ يبحثون عن ذات الله وصفاته ؛ فيضعون أنفسهم مواضع الزلل ، فأنكر الصوفية عليهم هذا الصنيع، وملأوا بصيرتهم بالحب الإلهى ، لا بالتفريق بين الذات والصفات ، وشغلهم الحب عن التفكير فى غيره [2] .

ومن العوامل التى ساعدت على ازدهار الأدب الصوفى أن التصوف الإسلامى كان يمثل تيارا إسلاميًّا صرفًا ، يدافع عن الإسلام فى أدب عف ، وشعر روحى صرف ؛ ليكون فنا أدبيًا ، يقاوم أدب المعتزلة ، وأدب الزندقة وأدب الشعوبية ، وأدب الشيعة ، وأدب المجون وأدب الخمر ، وأدب المجالس والغناء ، وأدب الغزل بالمذكر ، بالإضافة إلى الأدب التقليدى الهابط المتوارث، فالصوفية يعلنون ثورتهم فى أدبهم الصوفى على كل الاتجاهات السابقة والصراعات السياسية والاجتماعية والمذهبية والحزبية؛ لأن العبادة وترويض النفس بالمجاهدة لا تكفى وحدها فى الرد على الإتجاهات السابقة ، ولا تكفى فى توضيح اتجاههم الروحى ، فالصمت أخرس لا يكشف عنه ، وهو الجانب السلبى الذى يقضى على الدعاية، والأدب الصوفى إعلان له ، وتوضيح لمعالمه، وترغيب فى الانتماء إليه ، وجذب المريدين نحوه ، وثورة صارخة على الذين اشتغلوا بالدنيا ، وكيف لنا أن نعرفهم إلا من خلال أدبهم الصوفى شعرًا ونثرًا، ولولا تلك الآثار ما عرفنا عن جهاد الصوفية شيئا ودفاعهم عن العقيدة فى مختلف العصور .

والمقامات فى مجالس الحكام التى تمت بينهم وبين الصوفية ، الذين كانوا مصابيح الهداية للحكام والرعية ، ينصحونهم فى الحكم ، ويعلمونهم شريعة

---

(١) مروج الذهب : المسعودى ٢٧٦,٧ والمستطرف : الأبشيهى ١٨٧,٢ .
(٢) الفرق بين الفرق : البغدادى والملل والنحل الشهرستانى .

الله ابتغاء مرضاته ، عافين عن عطاياهم وهداياهم ، زاهدين فيما كسبت أيديهم،فكان منهم المفسرون وعلماء الحديث وفقهاء الشريعة ، ومن أشهر المقامات الوعظية مقامة الأوزاعى بين يدى الخليفة المنصور (١) ومقامات أبى العتاهية للأمين بعد أن تولى الخلافة ، وللمأمون كذلك (٢) ومقامة ذى النون المصرى بين يدى الخليفة المتوكل التى ابتدأها بقوله : يا أمير المؤمنين إن لله عبادًا عبدوه بخالص من شكره ، فهم الذين تمر صحفهم مع الملائكة فرغا، حتى إذا صارت إليه ملأها لهم من سر ما أسروا إليه . وظل كذلك فى مواعظه حتى أطلق سراحه ،وطلب منه المزيد ، ورد على الذين وشوا به عنده قائلا : إن كان هؤلاء زنادقة فما على وجه الأرض مسلم (٣) .

ومقامات الحلاج حينما نزل فى قصر الخلاقة فى بيت ابن المعتز ، ثم عند المقتدر وأمه (شغب) وصاروا جميعا من تلاميذه لمواعظه فى مقاماته معهم (٤) ومع غيرهم ، يقول أحمد بن فارس : رأيت الحلاج فى سوق القطيفة قائما على باب مسجد المنصور وهو يقول : أيها الناس إذا استولى الحق على قلب أخلاه عن غيره ، واذا لازم أحدًا أفناه عمن سواه ، واذا عبده أحث عباده بالعدوان عليه ، حتى يتقرب العبد مقبلا عليه ، فكيف لى ولم أجد من الله شمة ، ولا قربا منه لمحبته ، وقد ظل الناس يعاودوننى ، ثم بكى حتى أخذ أهل السوق فى البكاء (٥) ، فالمقامات الوعظية فى مجالس الخلفاء والأمراء وغيرهم من العوامل التى ساعدت كثيرًا على تكثر الأدب الصوفى ، إذ لابد فيها من مواعظ يسوقها فى أدب جميل وشعر قوى ، يهذب النفس ، ويجردها من شواغل الدنيا إلى صفاء الروح ونقاء السريرة .

والرحلات الصوفية وسياحاتهم من الدوافع التى أعانت على ظهور

---

(١) عيون الأخبار : ابن قتيبة ٢ / ٣٤٣ .

(٢) انظرها الكتاب ١٩٨ .

(٣) الحلية : أبو نعيم ، الطبقات الكبرى : الشعرانى ١ / ٧٢ .

(٤) تاريخ بغداد : البغدادى ٨ / ١٢٤ .

(٥) أحباء الحلاج : على بن أنجب الساعى ١٣ .

الأدب الصوفى وكثرته فقد ألفوا التنقل من موطن إلى آخر لأسباب كثيرة منها: التدبر فى ملكوت الله، والتقلب فى الكون، والبحث عن أمثالهم من العارفين الذين اشتهروا فيهم ليرتادوا بهم، وقصد الانتفاع بعلمهم وطريقتهم، والإمعان فى التخفى عن أعين الذين تآلفوا معهم، حتى لا يشتغل القلب بهم عن ذكر الله، فالغربة تجعله مغمورا بين الناس؛ لتعينه على التأمل والتفكير فى الله، ولما سئل إبراهيم بن أدهم عن كثرة سياحاته، قال لكى تتم الخلوة مع الله ولا تزداد المعرفة بالناس حتى لا أشتغل بهم عن ذكر الله، وخلفت الرحلات والسياحة أدبًا موفورًا غزيرًا، ومنه على سبيل المثال أن أبا سعيد الخراز قال: دخلت المسجد الحرام وسمعت امرأة متعلقة بأستار الكعبة تنشد هذه الأبيات :

يا حَبيبَ القُلـــوبِ مَالى سِوَاكَ　　فارْحَمِ اليـــومَ زائرًا قدْ أتَاكا
عِيلَ صَبْرِى وزاد فيك اشتياقى　　وأَبَى القلبُ أن يُحِبَّ سِواكا
أنت سُؤْلى وبُغْيَتِـــى ومُرَادِى　　ليتَ شِعْرِى مَتَى يكونُ لِقاكا [١]

وها هو ذا النون المصرى يقول فى رحلة من رحلاته ؛ كنت فى جبال بيت المقدس وإذا برجل قد اتزر بالخوف ، واتشح بالرجاء ، فتقدمت إليه وسلمت عليه ، فرد السلام فقلت له من أين يرحمك الله ؟ قال من حظيرة الأنس ، قلت : وإلي أين تريد ؟ قال : إلى ساحة الناسِ ثم ولى وهو يقول :

هَجَرَ الخلقَ كُلَّهم وتَخَلَّى　　فهو بالله طَيِّبُ الخَلَوات
قال للنفْسِ سَاعدينى وجدِّى　　ليسَ نقضُ العهود فعْلِ الثِّقات
ليس من يطلبُ الحبيبَ فُتُورًا　　فاسْلِى الدَّمْعَ واهجُرِى التُّرَّهات
هل رأيتُم مُدَلَّلاً فى عَذَاب　　وَعرُوسًا تُواصلُ العَبَرات
مالك جَائِعُ غَنِىٌّ فَقِيرُ　　مُشْرِقٌ وَجْهُهُ مِنَ الحَسَنات
لَمْ يَرُمْ عُرْسَه الذى هو ماضٍ　　إنَّمَا رَامَ عُرْسَه الذى هو آت
فَلَعَمْرِى لَتَخْلَعَنَّ عليـــــه　　خُلَعَ العزِّ مع جَزِيلِ الهِبات [٢]

---

(١) روض الرياحين : اليافعى ١٢٣ .

(٢) روض الرياحين : ٢٥٧ .

وغير ذلك كثير من أدب الرحلات التى تعين الصوفى على صفاء الروح،وصقل التجربة فى الفناء النفسى فى الله ، فيكون أقدر على التعبير بصدق عما فى نفسه فى أدب صوفى رفيع ، ومدح الله السائحين بقوله تعالى : « التائبون العابدون السائحون الراكعون الساجدون » الآية .

طبيعة الأدب الصوفى

بين النثر والشعر :

الاتجاهات الجديدة تكون غريبة عن النفس ، لا تستقر فيها إلا بعد لأى وطول نظر؛ لأن التيارات الناشئة تحتاج إلى وقت طويل ، لكى تتضح معالمها فى النفس ، وتزداد المعاناة والأناة حينما تصاغ فى أدب يكشف عنها ، وإن كان النثر الأدبى أيسر لها فى البداية من الشعر ، المقيد بقيود الوزن والقافية ، فدوره بعد النثر بزمن،وهذا ما كان فى الزهد ، فقد سيطر النثر الأدبى على حركته وأغراضه فى البداية ؛وتناثر فى مراحله البيت والبيتان والثلاث،حتى إذا ما استوى الاتجاه الصوفى على عوده استقام له الشعر ، ونظمت فيه القصائد الطوال فى مختلف أغراضه وفنونه كما رأينا ذلك عند أبى العتاهية وغيره .

والأمر كذلك فى التصوف ، فإنه يحتاج إلى المراحل السابقة فى الزهد إذ هو فى ذاته موضوع مستقل كاستقلال الزهد ، يحتاج بمفهومه الخاص إلى تعاقب الشعر عليه بعد النثر الأدبى فى الوجود والخلق الفنى ، لأن الفكر الصوفى اتجاه روحى يختلف فى حقيقته عن الزهد فى معناه ، ومعنى هذا أنه يقتضى مراحل زمنية وعملية حتى تتضح معالمه فى النفس ، فيمر أولا بأيسرها فى النثر الأدبى ، فإذا ما تمكنت الملكة الشعرية من حقيقة التصوف ، وانسابت سهلة فى أوزان الشعر وقوافيه ، ظهر الشعر الصوفى تاليا لنثره الفنى ، وهذا ما كان عليه الأدب الصوفى فى القرن الثالث والرابع الهجريين ، إذ غلب الفن النثرى عليه مع تعدد الأغراض فيه ، وتجد أيضًا البيت والثلاث ، بل بعض المقطوعات التى هى دون السبع من الأبيات ، ثم تتابعت القصائد لذى النون المصرى ، وسمنون المحب وبهلول المجنون إلى أن أصبح لبعض الصوفية ديوان

شعر مثل ديوان الحلاج ، ومهما بلغ الشعر مبلغًا كبيرًا فلن يلحق النثر الأدبى من حيث الغزارة والكثرة .

والنثر الصوفى تظهر غزارته فى مختلف المواقف ، وعند كل القدرات الصوفية الموهوبة وغيرها ، والمبتدئ والمحنك ، والمريد والشيخ ، وذلك فى أدب رحلاتهم ومقاماتهم فى مجالس الخلفاء والأمراء والمساجد .

وفى مواعظهم ، ومواجيدهم ، ومناجاتهم وحبهم ، ودعواتهم ، وشوقهم وحضورهم ، وأحوالهم فى الكشف والمشاهدة وفى البقاء وغير ذلك من الأغراض التى سنوضحها بالتفصيل إن شاء الله تعالى ، وكثرة النثر ترجع إلى طبيعته الهادئة ، التى تتفق مع وقار الواعظ ، وتأمل العارف ،وسبحاته التى يغيب فيها ، وفى الوقار والتأمل والسبحات طول وامتداد يتناسب مع طول النفس فى النثر ، واسترسال الموعظة فيه ، وامتدادها فى إطناب عذب إلى أن تصل القطعة إلى غاية لا تتحقق فى الشعر ، الذى يحتاج إلى مشقة أكثر فى تطويع الفكرة للتجربة الصوفية التى تتواءم مع اللفظ والنظم والوزن والقافية .

وهذا مما يجعل النفس فى الشعر قصيرًا ، ومما يزيد فى قصره أن الصوفى غالبًا ما يرتجله وينطق به منفعلا لساعته ، من غير إعداد أو تهذيب وصقل ، فينقطع النفس بعد فقرات ، ليستأنف القول فيه بعد ذلك فى مناسبة أخرى ، وهذا ما انتهينا إليه فى الشعر الصوفى . إذ تناثرت منه أبيات فى البداية . فلما تمكن الشعر من الصوفى أخذ يرتجل مقطوعات قصيرة ، إلا ما ندر من قصائد عند بعضهم ، حتى القصائد ذاتها كانت محدودة إذ بلغت القصيدة عند ذى النون ثمانية عشر بيتا ، وعند الحلاج عشرون بيتا .

وهناك أسباب أخرى تنضم إلى الارتجال فى قصر القصيدة ، وهى أن الصوفى يقتصر فى نظمه على موضوع واحد متلاحم المعانى ومتناسق الأجزاء، كالحب الإلهى أو المديح النبوى أو غير ذلك : وسبب ثالث : وهو أن الصوفى لا يتخذ شعره حرفة يتكسب بها،أو يتعالى على غيره،فليس عنده دافع دنيوى ، يلح عليه فى استخدام وسائل الإطالة من التهذيب والصقل والتوليد ، وغير

ذلك مما يصنعه تجار الشعر وعشاق التزويق والزخرف فى القول ، فهو أدب الوجدان الحى المتقد بإشراقات الوجد ومواجيده (١) .

وسبب رابع وهو الاهتمام بالمعنى والخلق والتربية فى القصيدة ، لا باللفظ ، فانساقوا مع البديهة والارتجال لإفراغ ما فى تجربتهم الصوفية دون اهتمام بتنميق اللفظ، وشغف بالصنعة والزخرف ، وهذا الاتجاه لا يتنافى مع الدقة فى التصوير الأدبى عندهم ، لأن بناء الصورة لا يقتصر على التنميق والخيال فحسب ، لكنه يتحقق باللفظ السهل القريب وبالحقيقة ، والصدق الفنى فى التعبير الدقيق ؛ لتجسيم الصورة كاملة كما هى فى وجدان الصوفى بروحه وعاطفته وفنائه وتجربته الصوفية ، يقول السبكى فى طبقاته : إن المتصوفة هم أهل الوجد والعبارة .

والأديب الصوفى مثقف واع . اشتهر بكثرة الحفظ وسعة الاطلاع فهو يتمثل فى الأخلاق والتربية بأبيات يحفظها عن غيره . وينشدها فى المواطن المناسبة لها ، والأمثلة كثيرة منها ماحكاه ذو النون فى رحلاته : أن شابا كان معه يحب الخلوة ، ويأنس بالوحدة ، تراه كأنه قريب عهد بمصيبة ، وكنا نعذله على أن يرفق بنفسه فلا يجيب قولنا وعذلنا،ولا يزداد إلا مجاهدة واجتهادا ولسان حاله يقول ؛

أيها العاذلون فى الحـــبِّ مَهْلاً ... حَاشَ لى عن هَـــوَاهُ أَنْ أَتَسَلَّى
كيف أَسْلو وقد تَزَايَدَ وَجْـــدى ... وَتَبَدَّلْتُ بَعْــــدَ عِـــزِّى ذُلاًّ
قِيلَ تَبْكِى فَقُلْتُ تَبْلَى عِظَـــامِى ... وَسْطَ لَحْدِى وحُبُّكم لَيْسَ يَبْلَـــى
حبكم قد شـــربته فى فـؤادى ... فى قديم الزمان منذ كنت طفلا (٢)

وإنشاد الشعر أقل أدوات الثقافة عندهم ، أما القرآن الكريم والحديث الشريف ، وآثار السلف الصالح فهو جوهر ثقافتهم وثراء فكرهم ، بل ذهبوا

(١) من أعلام التصوف الإسلامى : طه سرور ١ / ٤٣ .

(٢) روض المحبين : ٤٤ وغير ذلك من أمثلة أخرى فى ٦٠ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ٦٧ .

أبعد من ذلك حيث كانوا ينشدون الشعر فى الغزل الحسى ، ويرمزون به إلى مواجيدهم وحبهم الإلهى [١] .

مميزات الأدب الصوفى :

تميز أدبهم كذلك بالمصطلحات الصوفية التى أدخلوها فى معنى اللفظ العربى ، فأوسعوه لمجاهداتهم الروحية والنفسية والتربوية والوجدانية وأصبح أدبهم بهذه المصطلحات ذا شخصية متميزة عن غيره من ألوان الأدب العربى ، ووردت ألفاظهم التى تواضعوا على معنـــــــاها فى اصطلاحهم فى كتاب : « التعريفات » للجرجانى ، وفى كتاب : « مصطلحات الصوفية على ذيل كتاب التعريفات » وهما لابن عربى ، وفى كتاب : « اللمع » للطوسى ، وفى رسالة القشيرى وغيرها ، ويتميز الأدب الصوفى بألفاظ اجتماعية استعملوها فى تعاملهم مع عامة الناس ، ومنها : أبو جابر للخبز ، وأبو الأخضر للخيار ، وأم القرون للقثاء ، وأم حفص للدجاج ، وبنات المؤذن للفروج ، وغيرها مما ذكره الأصفهانى فى محاضراته ؛ فقد خص بها بابا سماه « كنى الأطعمة وأسماؤها الأعلام عند الصوفية » [٢] ، وقد استوحاها الصوفى من بيئته الرامزة وغموضها ، التى يهدف إلى استغلال الألفاظ فيها قصدا للتعمية على العامة فى الحوار بينهم ، وإشاعة لون من التصوير الأدبى البارع ، الذى يدفع السامع إلى التأمل والبحث عن المغزى فى التعمية وسر الجمال فيها .

والغموض الممتع بصفة عامة من خصائص أدبهم ، لم يكن مقصورا على مصطلحاتهم الصوفية والاجتماعية فحسب ، ولكن جاء بطرق أخرى من أهمها : الاهتمام بالتقديم والتأخير ، وكثرة الضمائر المبهمة التى تعود على الملفوظ والمقدر مما يقع الإبهام فيهما ، ثم كثرة حروف الجر وتتابعها فى موطن واحد ، وسنرى ذلك أثناء دراسة النصوص ، والغموض ليس عيبا فى الأدب وخاصة الممتع منه ، وأقصد به ما يتضح عند التأمل ، ويسفر بعد المعرفة عن

---

(١) المرجع السابق : ٢٥٥ .

(٢) محاضرات الأصفهانى : ٢ / ٣٠٠ .

خصائص الأدب الصوفى ؛ فيكون الغموض أشد وقعا فى النفس ؛ وأقوى أثرًا فيها ، حيث يتمكن منها بعد مشقة فى تحصيله المعنى .

وفى العصر الحديث أصبح الغموض مذهبا أدبيا يتخذ اتجاهات مختلفة من رمزية ، أو تمرد ، أو لا معقولية أو غير ذلك ، ووصف أحمد أمين أدبهم بما هو جدير به فقال : هو أدب غنى فى شعره ، غنى فى فلسفته ، شعره من أغنى ضروب الشعر وأرقاها ، وهو سلس واضح وإن غمض أحيانا ، وفلسفته من أعمق أنواع الفلسفة الإلهية وأدقها ، ومعانيه فى نهاية السمو ، تقرأها فتحسب أنك تقرأ معانى رقيقة عارية لا ثوب لها من الألفاظ ؛ خياله رائع ، يسبح بك فى عالم كله جمال وعواطف ،يعرضها عليك كأنها كتاب إلهى ؛ تقلبه أنامل الملائكة ، يقدس الشعراء فيه الحب ، ولابد أن يكون الإنسان هائما مسلما بكثير من الأذواق والمواجيد والحالات التى يعتقدها المتصوفة حتى يسايرها فى الفهم (١) .

ظل الأدب الصوفى ساميا يرتقى فى أغراضه الأدبية حتى انتهى إلى فنون خالدة ، ابتدعها الصوفى من تَجربته الصادقة فى الفناء الإلهى ، يسبر فيها أعماق النفس ، ويجسم صفاء الروح ، وتترقرق فيه أغوار الفلسفة وأساليب التربية ، فتكون درسا فى الأخلاق ، وسلوكا للعارفين ، ومنهجا يستضىء به المريد فى طريق الحب الربانى ، والمعرفة الإلهية : « إى والله كان للصوفية أدب هو أعلا وأشرف من أدب البحترى والمتنبى وأبى العلاء ، ولكن طافت بالناس طائفة من الجهل ، فتوهموا ألا صلة بين الأدب والدين ، وراحوا يقفون فيما يتخيرون عند الكتاب والشعراء ، الذين ألفوا الروح المدنية واتخذوا غذاءهم من الكؤوس المترعة والوجوه الصباح » (٢) .

أغراضه واتجاهاته :

كان من الضرورى أن يخلد الصوفى بأدبه فسما فى الشكل والمضمون ،

---

(١) ظهر الإسلام أحمد أمين ٤ / ٧١ .

(٢) التصوف الإسلامى : د / زكى مبارك ١ / ٣ .

وتحددت أغراضه واتجاهاته مترتبة بعضها على البعض فى نمو وتدرج وتصاعد ، ولن يكون الزهد بفنونه الأدبية غرضًا هنا ، لأنه مرحلة دنيا فى التصوف ، ولن يكون التصوف فى حقيقته غرضًا ، لأنه هو المذهب العام والاتجاه الروحى الصرف ، الذى تنبع منه أغراض التصوف كالحب الإلهى ، والشهود والحلول والاتحاد والمديح وغيرها ·

والدراسة للأدب الصوفى وأغراضه تقف دون التعمق فى نظرياته وفلسفاته إلا بقدر ما يوضح لنا الأدب ، ويكشف عن أغراضه ، فكان من الضرورى قبل أن تحدد الأغراض ، أن نعرف منابع هذه الأغراض وروافدها ، وكيف ينشأ الغرض بعد الغرض ؟ وكيف ينشأ أدب الحضور والمشاهدة بعد الحب الإلهى ؟ وكيف ينشأ غرض الاتحاد بعد المشاهدة ؟ وكيف ينشأ غرض المديح بعد هذا كله ؟ لابد أن هناك أساس انطلقت منه هذه الاغراض ، ومنبعًا تفجرت منه هذه الفنون ، ألا وهى المقامات والأحوال فى فلسفة التصوف [1] .

فأما المقامات فهى أعمال يقوم بها الصوفى متدرجا فيها من مقام إلى آخر، على أن يخلص فى كل مقام فيبلغ الغاية فيه ، وحين يبلغها يدخل فى المقام الذى يليه ، وهكذا حتى نهاية المقامات فى مجاهدات النفس وترويضها ، وعلى سبيل المثال : حين يدخل الصوفى فى أول المقامات وهو التوبة ، يستقر فيه زمنا متصعدا فى درجاته من رد المظالم إلى الندم إلى العزم ثم النصح وهكذا حتى يبلغ المقام الثانى وهو الورع ، ويقيم فيه بالمجاهدة فترات حتى يرتقى إلى المقام الذى يليه إلى آخر المقامات ؛ التى أجمع الصوفية عليها وهى على الترتيب : التوبة · الورع ، الزهد ؛ الفقر · الشكر · الخوف · الرجاء· التوكل · الرضا · ولها مصطلحات عندهم مر بعضها فى أدب الزهد ·

وأما الأحوال فهى ثمار هذه المقامات · ونتيجة المجاهدة فيها · قال بعض مشايخ خرسان : « والأحوال مواريث الأعمال » · وفى المقامات ظهر

---

(١) التصوف الإسلامى الخالص : السيد محمود أبو الفيض المنوفى ٩٨ ·

الكسب وبطنت المواهب · فالأحوال مواهب سماوية · والمقامات طرقها [1] والأحوال هى :

المحبة · الشوق · الأنس · القرب ، الحياء · الاتصال (المشاهدة) القبض والبسط · الفناء والبقاء ·

ويتدرج الصوفى فى هذه الأحوال من حال إلى حال ،فإذا دخل فى حال المحبة، لم يخرج منها إلا إذا التهب قلبه بنار الشوق ، ثم الأنس · ثم المشاهدة، ثم الفناء وهكذا ، وإذا نظم الأديب قولا يعبر عن المقامات التى يعانيها أطلقنا عليه أديبًا زاهدا ، كما مضى فى أدب الزهد ، الذى يصور التوبة والورع والصبر والرجاء وغيرها ، وإذا نظم الصوفى أدبا وهو يتقلب فى أحوال التصوف ، أطلقنا عليه أدبا صوفيا ، كالأدب فى الحب الإلهى ، أو الأدب فى الأنس : أو الأدب فى المشاهدة · أو الحلول والاتحاد : أو غير ذلك مما سنطلق عليه أغراض الأدب الصوفى واتجاهاته الفنية ·

ولن يستطيع الصوفى مهما كانت ملكته الشعرية أن يجيد النظم فى الحضور والمشاهدة إلا بعد أن يبلغ الغاية فى الحب الإلهى ، وإن لم ينشده شعرا ، لكن لابد من امتلاء قلبه به ، ويترتب على هذا أمور : أن هذه الأغراض تقع مرتبة ترتيبا تصاعديا كالترتيب فى الأحوال السابقة ، التى تصورها تماما · وقد تجتمع هذه الأغراض عند الشخص الواحد ، لتقلبه من حال إلى حال مثل الحلاج الذى قال فى معظم الأغراض ، وأخيرا فإن الأغراض مجتمعة تمثل الغاية من التصوف ، وتصور الصوفى الحقيقى ، وسنقف على بعض الأغراض التى اشتهرت فى القرنين الثالث والرابع ·

الحب الإلهى

الحب الإلهى أول أغراض الأدب الصوفى ، والحب فى اشتقاقه اللغوى، هو اسم لصفاء المودة ، فالعرب تقول لنضارة الأسنان وصفائها حبب الأسنان ، وعلى ذلك فالحب الإلهى : صفاء القلب لله ، فخلى عما سواه

---

(١) أنظر عوارف المعارف والجزء الرابع من الإحياء ، والثانى من رسالة القشيرى واللمع للطوسى وغيرها ·

من شواغل الدنيا ، وتارة يكون بمعنى الحباب الذى يطفو على سطح الماء عند المطر ، أو عند تلاطم الأمواج، وتتحقق محبة الصوفى من غليان القلب واهتياجه عند التفكر فى الله والأمل فى لقائه . وتارة يكون مشتقا من الحب بمعنى الثبات واللزوم ، قالوا أحب البعير إذا برك لا يقوم . والحب الإلهى على هذا المعنى لا يبرح قلب الصوفى ، ويظل ملازما له وثابتا فيه ، لا يتزحزح عنه، وتارة يؤخذ من الحب الذى فيه الماء ، كالوعاء الممتلئ الذى يمسك ما فيه من ماء ، ولا يقبل غير ما فيه ولا أكثر ، وعلى هذا فالحب الصوفى يسرى إلى موطنه فى القلب ، فيكون وعاء للحب الإلهى ، بحيث لا تزاحمه شواغل أخرى غير محبة الحق سبحانه (١) :

وأكد هذه المعانى مجتمعة فى الحب ما ورد فى القرآن الكريم والحديث الشريف والمأثورات الأدبية ، مما كشف عن معناه الحقيقى وجوهره الأصيل ، قال الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء** ﴾ المائدة ٥٤ ، وقال تعالى : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله** ﴾ آل عمران٣١ ، وقال تعالى : ﴿ **يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله** ﴾ ، البقرة ١٦٥ . ، ويقول الرسول الكريم : ﴿ **اللهم إنى أسألك حبك ، وحب من يحبك ، والعمل الذى يبلغنى حبك ، اللهم اجعل حبك أحبَّ إلىَّ من نفسى وأهلى ومن الماء البارد** ﴾ ، قال أبو رزين العقيلى : يا رسول الله ما الإيمان ، قال ﴿ **أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما** ﴾ ؛ وقال الرسول الكريم ﴿ **من أحب الله فليحبنى ، ومن أحبنى فليحب أصحابى ، ومن أحب أصحابى فليحب القرآن ، ومن أحب القرآن فليحب المساجد ، فإنها أبنية أذن الله تعالى برفعها وتطهيرها وبارك فيها ، فهى ميمونة أهلها ، فهم فى صلاتهم والله تعالى فى حوائجهم ، وهم فى مساجدهم والله تعالى فى نجح مقاصدهم** ﴾ ، وقال الرسول الكريم : « إذا أحب الله عبدا قال لجبريل : يا جبريل إنى أحب فلانا فأحبه ، فيجيبه جبريل ، ثم ينادى جبريل فى أهل السماء ، ثم يضع له القبول

---

(١) رسالة القشيرى : ٦١٣,٢ ، وبين الشريعة والحقيقة : ٦ .

فى الأرض » ، وقال أبو بكر رضى الله عنه : من ذاق من خالص محبة الله تعالى ، شغله ذلك عن طلب الدنيا ، وأوحشه عن جميع البشر (١) .

ومحبة الله ورسوله فريضة على كل مسلم ، فهى من الإيمان ، تقوم على المعرفة بالعقل والقلب معا ، وعلى الموافقة بين المحب والمحبوب ، والمحبة فى ذاتها لها مراتب ودرجات ، منها محبة عامة الناس ، وهى التى تتولد من إحسان الله تعالى لعباده وعطفه عليهم ، وأعلى من هذه الدرجة محبة الصادقين، التى تتولد من غنى القلب بعظمة الله وجلاله ، وأسمى الدرجات محبة العارفين حين يتعرف القلب بقديم حب الله من غير علة (٢) .

ووضح الصوفية معنى الحب الإلهى فى أقوال بليغة : منها قال الحارث المحاسبى : (ميلك إلى الشىء بكلك ، ثم إيثارك له على نفسك وروحك ومالك ، ثم موافقتك له سرا وجهرا ، ثم علمك بتقصيرك فى حبك) ، وقال الشبلى : (سميت المحبة لأنها تمحو من القلب ما سوى المحبوب) وقال المحبة: (أن تغار على المحبوب أن يحبه مثلك) ، وقال الجنيد : (دخول صفاء المحبوب على البدل من صفاء المحب) (٣) ، والحب فى قول الجنيد بمعنى الفناء فى الله فالمحب فنى فى المحبوب ، حتى لم ير نفسه ، بل رأى الله وحده فى الوجود ، وليس معنى هذا هو الاتحاد ، لأن التعبير بالبدلية ، يوحى بالفرق بين البدل والمبدل منه ، أى بين المحب والمحبوب .

وقال النورى : (المحبة هتك الأستار وكشف الأسرار) ، وقال يحيى ابن معاذ : (المحبة ما لا ينقص بالجفاء ولا يزيد بالبر) . وقال أبو عبد الله القرشى : (حقيقة المحبة أن تهب كلك لمن أحببت ،فلا يبقى لك منه شىء)، وقال الحلاج : (حقيقة المحبة : قيامك مع محبوبك بخلع أوصافك) (٤).

وهذه التعاريف للحب تعبر عن تجربة ذاتية يعانيها العارف فهو يعبر عمـــا

---

(١) انظر صحيح البخارى ومسلم ، عوارف المعارف : السهروردى ، الإحياء : الغزالى ٤ ,٢٨٦ .

(٢) اللمع : الطوسى ٨٧ ورسالة القشيرى ٢ ,٦١٢ والإحياء : ٤ ,٢٨٨ .

(٣) بين الشريعة والحقيقة : العز بن عبد السلام ١٧

(٤) رسالة القشيرى : ٢ / ٦١٦ .

حل بقلبه من الحب ، ولذلك رأيت معنى الفناء فى حب الجنيد، وكذلك حب القرشى ، ونجد معنى الحلول ، والاتحاد فى تعريف الحلاج ، حيث يرى أن الحب الحقيقى ، لا يتم إلا إذا تجرد الإنسان من أوصاف بشريته ، وقام مع محبوبه متخليا عن أوصافه ، وفى رأيى ليس هذا اتحاد بمعنى وحدة الوجود ، ولكنه مبالغة فى المحبة ، بدليل أوصاف البشرية التى تخلى عنها المحب ، وليس فى قدرة البشر محو صفات البشرية كلها مهما كانت درجة الحب .

وردت ألفاظ فى الحب الإلهى يقتضيها المقام ، واستعملت فى أسلوبه وصوره تارة بمعناها العام ، وأخرى بمصطلحها الصوفى ، وهى كثيرة منها : الشوق والود والأنس والوحشة ، والقرب والبعد والسكر والصحو ، والغيبة والحضور والانبساط والهيبة ، وصفاء الذكر وجمع الهمة ، والوجد والمواجدة والأسرار والعتاب ، وسنجلى معناها فى مكانها من النصوص الأدبية ، وهناك فرق بين الحب والشوق والود والوجد والسر عندهم » وعلى سبيل المثال ، ذهب ذو النون إلى جبل المقطم يبحث عن مجنونة ، فلما أشرف عليه سمع صوتا يقول :

يا ذَا الذى أنسِ الفُؤادُ بِذِكْرِهِ   أَنْتَ الذى ما إِنْ سِوَاكَ أُرِيدُ

قال : فاتبعت الصوت فإذا بجارية جالسة على صخرة عظيمة ، فسلمت عليها فردت على السلام ، وقالت : يا ذا النون مالك وللمجانين تطلبهم ؟ فقلت لها وأنت مجنونة ؟ فقالت لو لم أكن مجنونة لما نودى على بالجنون ، فقلت لها وما الذى جننك ؟

قالت : يا ذا النون حبه جننى ، وشوقه هيمنى ، ووجده أقلقنى ، لأن الحب فى القلب ، والشوق فى الفؤاد ، والوجد فى السر ، فقلت يا جارية : الفؤاد غير القلب ؟ قالت : نعم الفؤاد نور القلب ، والسر نور الفؤاد ، فالقلب يحب ، والفؤاد يشتاق . والسر يجد . قلت : وما يجد ؟ قالت : يجد الحق ، قلت : وكيف يجد الحق ؟ قالت يا ذا النون : وجدان الحق بلا كيف ثم أنشئت تقول :

إن كنت بالوجد موجودا فلا وجدت نفسى وجودك إلا بعد موجودى فقلت يا جارية ما صدق وجدانك للحق ؟ فبكت بكاء شديدًا حتى كادت نفسها تفيض ، ثم غشى عليها فلما أفاقت نادت تقول : أواه منك ثم أنشأت تقول :

فَوَجْدِى بِه وَجْدٌ بِوَجْدِ وُجودِهِ   وَوَجْدُ وُجُودِ الوَاجِدِينَ لَهِيبُ
لئنْ مِتُّ حَقًّا فى مَحبَّةِ سَيِّدى   فإنَّ المَنَايَا فى الفؤَادِ تَطِيبُ (١) .

وهذه الحكاية تدل على سعة ثقافة هذه الجارية وفلسفتها العميقة التى تدل على تمكنها من التصوف ، وعلى الصفاء الروحى الذى أبصرت به الحقائق والأسرار فى التفريق بين معانى هذه الكلمات ، ومنزع كل كلمة ، ومكانها الذى تصدر عنه ، وسواء أكانت هذه القصة حقيقية أو فيها شىء من المبالغة ، فإن الذى يعنينا هو ما حواه هذا الأدب من معان وأسرار وأخلاق وتربية فى علم التصوف الإسلامى .

ومن القصائد التى بلغت القمة فى الحب الإلهى ما أنشده ذو النون المصرى (٢) وقد قربت ساعة لقاء المحب بالمحبوب ؛ قال فتح بن شحرف دخلت على ذى النون عند موته ، فقلت له كيف تجدك ؟ قال :

(١) روض الرياحين اليافعى ٧٢ ، ٧٣ .

(٢) هو أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم الملقب بذى النون المصرى ، نوبى الأصل،ولد فى أخميم إحــدى قرى الصعيد ، توفى رحمه الله بالجيزة عام ٢٤٥ هـ ٨٦٠ م . وكان رجلا نحيفا زاهدا فى الحياة ، حكيما واسع المعرفة ، أجاد علوم الفلسفة والكيمياء وعلوم التصاوير والآثار ، وله كرامات تدل على عرفانه بالله فى طريق التصوف . قال عنه القفطى فى إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ١٨٥ : ذو النون بن إبراهيم الإخميمى المصرى من طبقة جابر بن حيان فى انتحال صناعة الكيمياء وتقلد علم الباطن والإشراف على كثير من علوم الفلسفة ، وكان كثير الملازمة لبربا بلدة إخميم فإنها بيت من بيوت الحكمة القديمة وفيها = التصاوير العجيبة والمثالات الغريبة » وذكره المسعودى فى مروج الذهب والسيوطى وأبو نعيم فى حلية الأولياء ، الذى ذكر قصته مع الخليفة المتوكل حين سعى به بعض الوشاة عنده فوعظه ذو النون بمقامة صوفية اشتهرت عنه ، وحكم له الخليفة بالفضل والمعرفة وقال فيه : إن كان هؤلاء زنادقة فما على وجه الأرض مسلم،واشتهر بكثرة سياحاته الصوفية وكراماته التى فاض عنها كتاب روض الرياحين : اليافعى .

أَموتُ وَمَا مَاتَتْ إلىَّ صَبَابَتى ... وَلاَ رَويتُ مِنْ صدْق حُبِّك أَوطَارى
مُنَاى المُنى كلُّ المُنى أَنْتَ لى مُنًى ... وأَنْتَ الغنَى كُلُّ الغنَى عند إقتَارى
وأنت مَدَى سُؤْلى وغايةُ رَغْبتى ... ومَوْضعُ آمالى ومَكْنونُ إضْمارى
تَضمَّنَ قَلْبى منكَ مَالكَ قَدْ بَدَا ... وإنْ طالَ سرِّى فيكَ أَوْ طَالَ إظْهارى
وبين ضُلُوعى منــــكَ مَالاَ أُبثُّهُ ... ولَمْ أُبْد بَادَيه لأَهـــلٍ ولَاَ جَارِ
سرائِرُ لا يَخْفَى عليـــك خَفيُّها ... وإنْ لم أَبِحْ حتـــى التَّنَادى بأَسْرارى
فَهَبْ نَسِيمًا منــــك أَحْيَا بِرُوحه ... وَجُدْ لِى بِيُسْرٍ مـــنكَ يَطْرُد إعْسارى
أنرتَ الهدى للمهتدين ولَم يكنْ ... من العلـــم فى أَيديهمُ عُشْرَ معْشَار
وعلَّمتهم عِلْمـًــا فَبَاتُوا بِنُوره ... وباتَتْ لهـــم منه مَعَالم أَسْرارى
مُعاينةً للغيب حـــتى كأَنَّها ... لما غَابَ عنها منهُ حاضرةُ الدَّار
وَأَبصْارهم محـــجُوبة وقلوبُهم ... تَراك بأوهـــامٍ حديدات أبْصار
جمعتُ لهـــا الهمَّ المفرّقَ والتُّقَى ... على قَدَرٍ والهمُّ يَجْـــرى بمقْدار
ألستَ دليلَ الرّكْب إن هم تَحَيَّروا ... وعصْمةُ مَن أَمْسَى على جُرف هَار
ومَالى سوَى الإِطْرَاق والصَّمْت حيلةً ... ووضْعى عَلَى خَدىِّ يدى عند تذْكارى
فإنْ طَرَقَتْنى عَبْرةٌ بعـــدَ عَبْرة ... تجرَّعْتُها حـــتّى إذا عِيلَ تَصبَارى
أَفَضْتُ دمـــوعًا جمَّةً مستهلةً ... أُطْفى بها حرًّا تَضَمَّنَ أَسْرارى
فَيَا مُنْتهَى سُؤْل المحبـــين كلِّهم ... أَبحْنى مَحَلَّ الأُنْسِ مَعَ كلِّ زُوارى
ولستُ أُبالَى فَائتًا بعــــد فائِتٍ ... إذا كنتُ فى الدَّارَيْن يا أَوحَدى جَارى[(١)]

---

(١) معانى الألفاظ : صبابة : رقة الشوق ، أوطارى : الحاجات المشفوعة بالعناية ، ولا رويت : لم أكنف بهذا الحب ولم أشبع ، مناى . قصدى والمنى القصد، إقتارى : فقرى ، مدى : نهاية سؤلى : الحاجة التى يبغيها السائل ، تضمن : اشتمل ، السر : ما استتر فى الصدر ، إظهار : المشكوف والمعلن ، ضلوع : ما انطوى عليه الصدر ، أبثه : أظهره ، أبح : أظهر ، التنادى : الإظهار ، نسيم ، الريح الطيب والروح ، الروح : الراحة والرحمة ، باتوا : تدبروا ، معاينة مكاشفة والحاضر من الشيء ، حديد البصر : دقيق الإبصار ، الجرف : الشق الهاوى ، هار : ضعيف ، أفضت : أظهرت ، جمة : غزيرة ، مستهلة : ظاهرة حرا . شوقا ، طرق : حصول الدمع ، تجرع : نفد الصبر ، عيل : عز الصبر ، تصبار : صبر ، فائت متروك ، أوحدى : أنيس ، صفة الصفوة . ابن الجوزى ٤ / ٢٩ .

المصطلحات الصوفية فى القصيدة

هذه القصيدة فى الحب الإلهى والشوق الربانى · بلغت الغاية فى التجربة الصوفية ، مما جعلها تحوى كثيرًا من الألفاظ ، التى تواضع على معانيها أهل الطريق ، فأصبحت ولا تزال تحمل مصطلحا صوفيًا خاصًا ، بالإضافة إلى ما يحمله اللفظ من معانى لغوية ، وإيحاءات شعرية ، لذلك ينبغى على المتذوق للأدب الصوفى أن يقف على معانى المصطلحات الصوفية فى القصيدة أولا ، قبل أن يقف على المعنى اللغوى والشعرى للفظ المصطلح عليه عندهم ، وفهم المصطلح الصوفى هو المفتاح لفهم أدبهم ، والركن الركين لتبديد الغموض فيه ، وجاءت فى القصيدة مصطلحات لابد من الوقوف عندها طويلا :

١ - الشوق : ورد فى (صبابتى - دموعًا جمة - أطفى بها حرًا) ، وفى معانى القصيدة كلها · وهو مصطلح صوفى عندهم يدل على معان ثلاث:

١ - أدناها هو اشتياق لما وعد الله به عباده من ثواب جزيل ·

٢ - الشوق إلى لقاء الله فى الدنيا عن طريق القلب وفى الآخرة بالصفة التى يعلمها الله سبحانه وتعالى وحده

٣ - الاشتياق عن مشاهدة بالقلب وعن قرب ، فالله حاضر فى القلب لا يغيب عنه ، فهو متنعم بذكره دائمًا ، وهو الغاية من الحب والشوق ، وأسمى الدرجات فيه ·

قال أبو على الدقاق فى معنى الشوق : اهتياج القلوب إلى لقاء المحبوب، وعلى قدر المحبة يكون الشوق · وقال ابن عطاء : احتراق الأحشاء، وتلهب القلوب وتقطع الأكباد · وقال ابن خفيف : الشوق ارتياح القلوب بالوجد ، ومحبة اللقاء بالقرب ، وفرق الدقاق بين الشوق والاشتياق فقال : الشوق يسكن باللقاء والرؤية ، والاشتياق لا يزول باللقـــاء قال النصر اباذى ، للخلق كلهم مقام الشوق ، وليس لهم مقام الاشتياق ، ومن دخل فى حال الاشتياق هام فيه حتى لا يرى له أثر ولا قرار · وللشوق

علامات يعرف بها ، قال يحيى بن معاذ : علامة الشوق · فطام الجوارح عن الشهوات · وقال أبو عثمان : علامة الشوق حب الموت مع الراحة [١] .

والفرق كبير بين معنى الشوق فى اللغة ومعناه عند الصوفية ، فشاقنى معناه ، فى اللغة هاجنى الحب ، فإذا ما وجد المحبوب ، وتم الوصل ، سكن الشوق ، وفى اصطلاح الصوفية لا يسكن الشوق إلى الله مطلقا لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ؛ فأما فى الدنيا فيلهب قلب العارف بالله ، حتى يتم حضور القلب بالله ، ويراه بنور البصيرة من وراء ستر رقيق ، يكون هذا الستر مصدرا للتخيلات والتمثيل والمحاكاة ، لذلك لا تتحقق الرؤية بالمعنى الدقيق فى الدنيا؛ فيظل الشوق قائما بالقلب إلى الآخرة لذلك قال : ذو النون : أموت وما ماتت إلى صبابتى أى شوقى إلى الله ؛ وأما فى الآخرة فستتحقق الرؤية الحقيقية لعباده الذين من الله عليهم بها ، لكن الشوق لا يسكن بل يظل قائما، لأنه لا ينكشف للعبد كل ما هو معلوم لله تعالى من جلاله وصفاته وحكمته وأفعاله فذلك محال إذ لا نهاية لهذه الصفات ، وإن تحققت الرؤية الدقيقة فى بعض منها من غير ستر ولا تخيل ، ولذلك لا يسكن الشوق مطلقا فيما لا يتضح من بقية الصفات والأفعال ، وهذا ما لا نهاية له ، لأن أمر الحق لا نهاية له ، فما من حال يبلغها المحب إلا ويعلم أن وراء ذلك ما هو أوفى وأتم · قال الغزالى: واعلم أن ما غاب عن علمه من المعلومات أكثر مما حضر ؛ فلا يزال متشوقًا إلى أن يحصل له أصل المعرفة فيما لم يحصل مما بقى من المعلومات ·

قال الرسول الكريم : (اللهم إنى أسألك الرضا بعد القضاء ، وبرد العيش بعد الموت ، ولذة النظرة إلى وجهك الكريم ، والشوق إلى لقاك [٢] .

٢ - الحب : فقد اتضح مفهومه قبل ذلك ، فأما درجاته فهى :

أ - حب يتولد من طاعة الله ورسوله مع حلاوة المناجاة ·

ب - أو يتولد من نظر القلب إلى جلال الله وعظمته ·

---

(١) الرسالة القشيرية : ٢ / ٦٢٦ ، واللمع : الطوسى ٩٠ ، عوارف المعارف ·

(٢) انظر الإحياء للغزالى ٤ / ٣٠٤ ·

جـ - أو يتولد من المعرفة بقديم حب الله تعالى من غير علة ، والحب فى معناه اللغوى يقوم على الوداد الناشىء عن ميل القلب ، وهذا الميل قد تم عن طريق الحواس المعروفة وكلها قاصرة ومتقلبة ، وفوق هذا فلن يكون المحبوب مقدما إنسانا آخر على حب الإنسان لذات نفسه ، فحب الإنسان لنفسه ووجوده هو أساس الحب للغير ، إذ لا تقع المحبة إلا من موجود ، وعلى هذا فالحب اللغوى قاصر وناقص للأمرين السابقين ، لكنه عند الصوفية يختلف كثيرًا ، لأن حب العارف لذاته يتلاشى أمام حبه لله ، فهو الذى أوجد العارف وخلقه بروح من عنده ، وأحسن إليه ، وبلغ سبحانه غاية الكمال والجمال ، والروح التى هى من عنده تكون صادقة فى التعرف على الله ، وتقصر الحواس بما فيها العقل دونه ؛ لذلك كان المصطلح الصوفى أدق وأصدق ومتصل ودائم، ومجرد للإخلاص فى الله وحده ، قال الرسول الكريم ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما الخ الحديث . قالت رابعة العدوية فى معنى الحب الصوفى :

أُحِبُّكَ حُبَّيْنِ حُبَّ الهَـــوَى ... وَحُبًّا لأَنَّك أَهْـــلٌ لِذَاكـــا
فَأَمَّا الذى هُوَ حُبُّ الهَـــوَى ... فَشُغْلى بِذكْرِكَ عَمَّـــا سِوَاكا
وَأَمَّا الـــذى أَنْتَ أَهْـــلٌ له ... فكَشْفُكَ لى الحُجْبَ حتى أَرَاكا
فلا الحْمدُ فى ذَا ولا ذَاكَ لِى ... ولَكِنْ لَكَ الحمـــدُ فِى ذَا وذَاكا

قال الغزالى : ولعلها أرادت بحب الهوى حب الله لإحسانه إليها وإنعامه عليها ، وبحبه لما هو أهل له الحب لجماله وجلاله الذى انكشف لها [١] .

٣ - الفقر : فى كلمة (الإقتار) ومعناه اللغوى العوز والحاجة ، وفى اصطلاح الصوفية يتصعد فى السمو إلى ثلاث درجات أقلها .

١ - من لا يملك شيئًا ويعرض نفسه على من يفرح بلقائه .

٢ - من لا يملك ويأخذ من غير مسألة .

---

(١) الإحياء : ٤ / ٣٠٢ .

٣ - من لا يملك ولا يأخذ · قال الرسول الكريم : إن المسكين ليس بالطواف الذى ترده اللقمة واللقمتان ، والتمرة والتمرتان · فقيل من المسكين يا رسول الله : قال · الذى لا يجد ما يغنيه » ويستحى أن يسأل الناس ، ولا يفطن له فيتصدق عليه (١) · قال تعالى : ﴿ **يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا** ﴾ البقرة ٢٧٣) ·

٤ - أوطارى : قال الطوسى فى الوطر هو تمتع ومنية محمودة خارجة عن نعت البشرية وحظوظ النفسانية ، وقال الجنيد : إن لله عبادا على وطنات مطى حملاته يركبون ، وبالسرعة والبدار إليه يستبقون ، وقال أبو سليمان الدارانى : الإيمان أفضل من اليقين ، لأن الإيمان وطنات واليقين خطرات : وعلى ذلك فالوطر والوطن بمعنى واحد عند الصوفية وهو الايمان ، فالإيمان ثابت فى نفوسهم ومتوطن فى قلوبهم وهو غايتهم وحاجتهم ، يصف النورى نوبات الشوق للإيمان الذى توطن فى قلبه ، فجعله شاردا فى حالة من الغيبة والحضور ، فإذا غاب حضر الله فى قلبه، وإن حضر الحق سبحانه ، سكر النورى من غيبوبة الشهود : قال فى ذلك :

أَمَا تَرَى هَيَّمَنِـــــى شَرَّدَنِى عَنْ وَطَنِـــى
إِذَا تَغَيَّبْتَ بَـــــدَا وَإِنْ بَدَا غَيَّبَنِـــــى
يَقُولَ لا تَشْهَـــد مَا تَشْهَدُ أَو تُشْهِدُنِـى (٢)

وفرق بين المصطلح السابق وبين المعنى اللغوى للوطر : وهو الحاجة والمقصد بصفة عامة دنيوية أو دينية وبين الوطن وهو المكان الذى يستقر فيه الإنسان ·

٥ - باديه : وهو الذى يفجأ القلب من الغيب على سبيل الوهلة إما لموجب فرح أو موجب ترح ، قال إبراهيم الخواص : إذا بدا بادى الحق أفنى كل باد (٣) ، وفرق بين المعنى السابق وبين المعنى اللغوى للفظ : فهو بمعنى

---

(١) رياض الصالحين ، النووى ·

(٢) اللمع : ٤٤٥

(٣) رسالة القشيرى : ١ / ٢٨٥ · اللمع : ٤١٨ · عوارف المعارف:٤/ ٤١٧ ·

الظهور ، لكنه فى المصطلح قد اختص الظهور : بحضور القلب بالله فجأة بسبب هزة قلبية توجب الفرحة والبشرى أو الحزن والخوف .

٦ - النسيم والروح والتروح : نسيم تنسم به قلوب أهل الحقائق فيتروح من تعب ثقل ما حُمِّل من الرعاية بحسن العناية ، وقلوب العارفين يروحها الله من وهج الدنيا بفيض من عنده أو حكمة أو لطيفة ، وفرق بين هذا المصطلح وبين المعنى اللغوى للفظ وهو الريح الخفيف الطيب والراحة والرحمة .

٧ - الغيب والغيبة : غيبة القلب عن علم ما يجرى من أحوال الخلق ، لاشتغال الحس بما ورد عليه ، ثم قد يغيب عن إحساسه بنفسه وغيره ، بوارد من تذكر ثواب ، أو تفكر عقاب . فقد يطرأ على العارف وارد سواء أكان فيضا ورحمة ، يلتذ بها أو كان عقابا ونارا ، يغيب فى الحالتين عن نفسه وعن غيره ، ولا يفيق إلا أن يقضى وطره منها . يروى عن على بن الحسين : أنه كان فى سجوده ، فوقع حريق فى داره ، فلم ينصرف عن صلاته فسئل عن حاله فقال : ألهتنى النار الكبرى ، عن هذه النار [١] . وفرق بين المعنى السابق وبين المعنى اللغوى للغيبة وهو عدم الحضور بصفة عامة غير مقيد بما سبق من قيود عن أهل التصوف .

٨ - الحضور والكشف والمشاهدة : هو الحضور بالحق ، فإذا غاب العارف عن الخلق حضر بالحق ، بمعنى استولى ذكر الله على قلبه من غير غفلة أو سهو ، فينكشف له ما يستتر على الفهم ، وعلى قدر اتصال ذكره ، وشدة شوقه يكون مكاشفا لله بحضوره القلبى . قال النورى : مكاشفات العيون بالأبصار ومكاشفات القلوب بالاتصال . وهذه القيود الصوفية فى معنى اللفظ، تختلف كثيرا عن المعنى العام له كما تواضع عليه علماء اللغة .

٩ - السر : قال الطوسى هــو خفاء بين العدم والوجود، وهو موجود فى معناه ، فهو ما غيبه الحق سبحانه وتعالى عن الخلق . وعلى ذلك فهو لطيفة فى القلب كالروح فى الجسد ، يكون محل المشاهدة ، كما أن الروح

---

(١) انظر رسالة القشيرى ١ / ٢٦٤ .

محل للمحبة، والقلب محل للمعـــرفة ، وفرق بين السر [1] وهو ما يشرف عليه صاحبه ، وبين سر السر وهو ما لا يطلع عليه غير الحق سبحانه وتعالى ، ورتبته أنه ألطف من الروح ، والروح ألطف من القلب ، بينما معنى السر فى اللغة هو ما خفى عن الغير [2] .

١٠ - الروح : وهى سر الحياة ، قال بعضهم هى أعيان لطيفة ، مودعة فى القوالب المخلوقة ، ولا يعلم كنهها إلا الله سبحانه وتعالى [3] .

١١ - الجمع والتفريق : فأما الجمع فهو أن يشاهد الصوفى الحق سبحانه، فيرى رضا الله عنه ، وإسداء اللطف إليه ، فالجمع قرب من الله للتعرف عليه ، وأما التفريق : فهو ما يخالطه الصوفى من أعمال فى طاعة الله؛ فيشهد أفعاله فى طاعته منصرفا فى هذا الحال عن شهود الحق سبحانه وتعالى ، وعلى ذلك فالتفريق مرحلة اكتساب للعبد ، بينما الجمع مرحلة شهود وأنس ، وهما متلازمان ؛ قيل أصل الجمع والتفرقة قول الله تعالى : شهد الله أنه لا إله إلا هو - فهذا جمع ثم فرَّق فقال : والملائكة وأولو العلم . قال الجنيد : القرب بالوجد جمع ، وغيبته فى البشرية تفرقة . وقالوا : التفرقة عبودية ، والجمع توحيد يتحقق فى رؤية الصفات ، وجمع الجمع فى رؤية الذات والفناء بالكلية فى الله [4] وفرق بين هذه المعانى ومعناهما اللغوى .

١٢ - الهم والهم المفرد والسر المجرد : كلها بمعنى السر للعبد المجرد لله، حين يتجرد العبد لله من الاشتغال بغيره ، ويتفرد بمراقبة ذى الجلال ، فلا تقطع خواطرُه دوام الاتصال بالله عز وجل ، وبه يجمع الإنسان همته ليتوصل بالمجاهدة إلى الصفاء والإلهام .

(١، ٢، ٣) انظر رسالة القشيرى : ١ / ٢٦٤ ، ٢٠٨ ، ٢٧٩ - اللمع : ٤٣٠ - عوارف المعارف : ١ / ٤٧٠ .

(٤) عوارف المعارف : ٤ / ٧٥٥ - اصطلاحات الصوفية : ابن عربى - رسالة القشيرى ١ / ٢٥٤ .

حكى الجنيد قول إبراهيم الآجرى : يا غلام لأن ترد بهمك إلى الله طرفة عين ، خير لك مما طلعت عليه الشمس [1] .

١٣ - الحيرة والتحير : الحيرة بديهة تَرِدُ على قلوب العارفين عند تأملهم وحضورهم ، تحجبهم عن التأمل والتفكير : ومعناه اللغوى هو التردد وعدم الاهتداء ، والتحير فى اللغة بمعنى الدوران والتيه ، وفى اصطلاح الصوفية : بمعنى المنازلة التى تتولى قلوب العارفين ، تجعلهم بين اليأس والطمع فى الوصول فيرتجوا ، ولا تيئسهم عن الطلب فيستريحوا ، فالتحير هى المرحلة التى تسبق الحيرة [2] .

١٤ - الإطراق فى قول ذى النون : فباتوا بنوره - طرقتنى : ومعنى البيات فى اللغة الإقامة ليلا ، ومعنى الطرق فى اللغة : الإتيان ليلا ، أما عند الصوفية فمعناهما ما يطرق قلوب أهل الحقائق عن طريق السمع ، فيجدد لهم حقائقهم ، حيث تطلع عليهم أنوار المعرفة ، فتنعدم غيرها من أنوار الخلق والحياة [3] .

١٥ - الصمت والعبرة : فأما الصمت فهو إيثار المجاهدة بالسكوت وأما العبرة بمعنى الحزن ، فهو حال يقبض القلب عن التفرق فى أودية الغفلة ، حيث يخاف الصوفى مما سيكون فى المستقبل من فوات محبوب ، أو الوقوع فى محذور ·

١٦ - الأنس : هو الصحو مع الله عز وجل ، فهو دوام الاتصال به ، فيتمتع بنور الحق فى حالة الحضور به وشهود الذات ، فهو مستأنس بالله مستوحش بما عداه ، وله ثلاث حالات أدناها :

١ - مؤانسة ذكر وهو لأهل الفناء فى الأفعال ·

٢ - مؤانسة قرب لأهل الفناء فى الصفات ·

---

(١) اللمع : ٤٢٤ ·

(٣،٢) أنظر مصطلحات الصوفية : ابن عربى اللمع : ٤٢١ ، ٤٢٢ ·

٣ - مؤانسة شهود ، وهو لأهل الفناء فى الذات؛ فالأول لأهل الإسلام، والثانى لأهل الإيمان ، والثالث لأهل الإحسان [١] .

قال الجنيد كنت أسمع السرى يقول : يبلغ العبد إلى حد لو ضرب وجهه بالسيف لم يشعر [٢] .

١٧ - الطمأنينة فى البيت الأخير : وهى حال تتحقق للعارف بعد الأنس بالله ، حيث يسكن قلب العبد إلى مولاه ، ويطمأن إليه ، ﴿ **ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾ ، قال الطوسى : وهى حال رفيع ، لعبد رجح عقله ، وقوى إيمانه ، ورسخ علمه ، وصفا ذكره ، وثبتت حقيقته، وهى على ثلاث ضروب .

١ - إذا اطمأن العامة إلى ذكر الله ، فمدى حظهم اتساع الرزق ، ودفع الآفات ، وغيرها من أغراض الدنيا .

٢ - أما أهل الخصوص فطمأنينتهم ممزوجة برؤية طاعتهم ، لأنهم رضوا بقضائه ، وصبروا على بلائه ،وأخلصوا فى تقواهم .

٣ - وأما خصوص الخصوص ، فسرائرهم لا تطمئن ، ولا تسكن هيبة لله وتعظيما ، لأنه ليس غاية تدرك ، حتى ينتهى إليها اطمئنان القلب ، (ليس كمثله شيء) ،فهم فى طلب الزيادة دائما ، وفى عطف مستمر إلى الأمن [٣] ، وعن طريقها يصعد العبد إلى حال المشاهدة ، وفرق كبير بين هذا المصطلح الصوفى ، وبين المعنى اللغوى للطمأنينة التى معناها الأمن والسكون.

شرح القصيدة :

١ - حين يلقى الصوفى ربه ، وينقطع عن الدنيا ، يفنى جسده ، ويتجدد الشوق إليه ، فتتصل الروح ببارئها ، وتراه عن قرب ، فهو حاضر لا يغيب عنه فى لذة مستمرة مع ربه ، لا تدانيها لذة ، ولا ترويها صبابة ، تطفىء

---

(١) التصوف الإسلامى : أبو الفيض ١٤٩ .

(٢) رسالة القشيرى ١٠ / ٢٤٣ . (٣) اللمع : الطوسى ٨٨ .

حرارة الشوق الحى المجرد لله ، على الرغم من فناء الجسد ، وانقطاعه عن الدنيا .

٢ - أما قلب الصوفى خالص لا يتسع لغير الحق سبحانه وتعالى ؛ لأن الشوق الذى توطن فيه ، صار نارا ، أشعلها الله فى قلوب أوليائه ، حتى حرقت ما فيها من الخواطر والإرادات والعوارض والحاجات ، فلا يزال الله هو ملء القلب والقصد والغاية ، فاشتغل بذكر الله عما سواه ، وفاض بالشوق الذى غلب عليه ، فأغناه بحقائق الأنس وأخذه به عن وجده ؛ لذلك قالوا عنه : هيمان القلب عند ذكر المحبوب .

٣ - هذا الغنى القلبى بحب الله ، جعل ذا النون تنقطع رغائبه عن الدنيا ؛ فليس له حاجة فيها ؛ لأن الله حقق لقلبه ما يصبو إليه من لذة الشوق والحضور ، وهى الغاية التى يتمناها ، والأمل الذى أذاب عمره ، والسر الذى بينه وبين ربه ، فكان الحق هو الغاية والأمل والسر والسكن قال ذو النون[1] :

اطْلُبُوا لأَنْفُسِكُم مِثْلَ مَا وَجَدْتُ أَنَا
قَدْ وَجَدْتُ لِى سَكَنًا لَيْسَ فِى هَوَاه عَنَا
إِنْ بَعُدْتُ قَرَّبَنِى أَوْ قَرُبْتُ مِنْه دَنَا

٤ - فى هذا البيت يصور الشاعر حال المكاشفة والمشاهدة ، لأن حرارة الشوق التى اشتمل عليها قلبه ، لا يعلمها إلا الله ، فمهما حاول أن يكتمها ، أو يصبر على إظهارها فلا يستطيع؛ فيتبرم ببقائه شوقا إلى لقاء محبوبه ، قال ذو النون [2] :

حُبُّكَ قَدْ أَرَّقنى وَرَدَّ قَلْبى سَقَمَا

---

(١) صفة الصفوة : ابن الجوزى ٤ ,٢٨٧ ، ٢٨٣ .
(٢) المصدر السابق .

كَتَمْتُهُ فِى قَلْبى والأحْشَاءِ حتى انْكَتَما
لا تَهْتِكَ السِتْرَ الذى أَلْبَسْتَنِى تكَرُّمـــا
ضَيَّعْتُ نَفْسى سَيِّدى فَرُدَّها مُسَلَّمـــا

٥ - ضم بين جنبيه قلبا ، امتلأ به الشوق واتسع له ، حتى أصبح لا يدرك مداه ، فلا يقدر أن يبوح به ، حتى للمقربين إليه ، لتعذر الإحاطة بكنهه، ومدى اشتماله على القلب ، لأن هذا الشوق أعقبه فيض وأنس بالحق، ، فاجأه من الغيب على سبيل الوهلة ، فذهب كل شىء من القلب ما عدا الله سبحانه وتعالى ، الذى يستمسك به وحده ، لذلك فلا ينهض أن يفصح عن الأنس والفيض الربانى .

٦ - تولدت عن الإنس أسرار من الفيض الإلهى ؛ لتكون محل الحضور بالله والمشاهدة للحق سبحانه ، ويظل السر فى النفس ، يسمو عن الروح ، حتى يختفى عن النفس ذاتها ، ويستغلق دونه الإدراك ، مهما قاوم فى سبيل حقيقة الأسرار والفهم لها ، لكنها تنكشف واضحة أمام الله سبحانه ، فيعلم كنهه ، وقدره ومدى الإخلاص له ، لأن الله علام الغيوب لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

٧ - والشوق الذى ألهب قلبه ، والأنس الذى غمره فى نشوة الحق ، والأسرار التى اختفت وراء ذلك عن الصوفى وانكشفت لله ، يحتاج كل هذا إلى العون من الله ، فيرسل عليها نسيما يروح به عن نفسه ، وراحة ورحمة يلطف بها من حرارته ووجده ، الذى جفف عوده ، لشدة ما يعانى من المجاهدة ، وما يتحمل من الرعاية والمراقبة لله ، والاشتغال به عن غيره ، عند ذلك يسعد بالحياة الحقيقية ، ويستأنس القلب بمعرفة إحسان الله ولطفه .

٨ - هذا الحب الإلهى والشوق الربانى ، لم يكن من صنيع العبد ، ولا حيلة له فى كسبه ، بل موهبة أنعم الله بها على العارفين ، فمهما جاهد الصوفى نفسه ، وأعرض عن الرغائب ، فلن يصل إلى الحب بعمله وكسبه ، لكن الله هو الذى وهبه لعباده منحة لهم ، وكرامة اختصوا بها ، ليتبوأوا منزلة

عليا عنده ، جديرون بما حصل لهم من الحقائق ، التى مهما بلغت ، فهى نذر يسير من بحوره الواسعة العميقة ، التى فاضت عن حقائق وعلوم ، لا يعلمها إلا الله وحده ·

٩ - ونور الحقيقة التى توطنت فى قلوبهم إن هى إلا قبس من علم الله، وسر من أسراره ، تغمر قلب العارف ، فيشتغل بها عن أحوال الناس ، ويظل محبورا بها ، لا يغمض له جفن ، ولا يستريح له جسم، ولا يغفل قلبه عن ذكر الحق ، فتنكشف للروح لطائف الأسرار ، ومعالمها الحقيقية ، التى لا يستطيع أن يفصح عنها ، وإن تنعم بلذة الوقوف عليها ·

١٠ - لطائف الأسرار التى انكشفت للروح ، تجلت لها من المدركات والمعلومات ، مما جعل النفس تغيب عما حولها من مشاهد الحياة وحواضر الدنيا ، بسبب لذة التأمل أثناء الكشف بالله وحضور القلب بالحق سبحانه وتعالى ؛ وذلك عند الغيبة عن الخلق ·

١١ - ولا تظن أن الكشف تم عن طريق العين الباصرة ، فقد تطلعت العيون عن الرؤية ، وباتت القلوب ترى الله بأسرار روحية ، حين تنفرد بمراقبة ذى الجلال ، فتدرك اللطائف عن طريق البصيرة ، لا البصر ·

١٢ - الحضور الذى تحقق فى قلب المشتاق لله ، جعله متجردًا لربه عند الاشتغال بغيره ، فتستجيب له الأسرار ، لتتجاوب مع الكشف الربانى ، ويشهد بها العبد أفعال الله فى نفسه ورضاه عنه ، ويكشف الله بها لعبده طاعاته وأفعاله كذلك ، وهذا البيت مشتمل على معانى من الحديث القدسى ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه إلى آخره ، كما جمع البيت ثلاث مصطلحات صوفية هى : الهم والتفريق والجمع ·

١٣ - حين أطلع الحق سبحانه وتعالى العارفين على محبتهم الإلهية ، كان الله ولا يزال بلا شك ، هو الهادى لهم أثناء تحير قلوبهم ، وترددها بين

اليأس والطمع ، حتى حقق لهم الكشف ، وعصمهم من الحيرة أثناء التأمل والحضور بالحق سبحانه وتعالى ، وحينئذ ينقذ الله أولياءه ، الذين أحبوه من التيه والحيرة والتردى فى مهاوى الخواطر الدنيوية ، التى تقطع دوام الصلة بالله عز وجل .

١٤ - ومهما بلغ المشتاق متساميا فى مراحل الحضور والكشف ، فسيرى عجز قلبه عن دوام المواصلة أحيانا ، لذلك فهو محتاج إلى ربه لينقذه أثناء الحيرة ، وعليه حينئذ أمام عجزه البشرى أن يحدد تباعا حقائق الكشف عن طريق السماع والإطراق ، ويديم التأمل ملتزما الصمت ، مستغرقا فى حال المشاهدة والحضور .

١٥ - ودوام الإطراق والصمت يلبسه ثوبا من القبض ، لتعاف نفسه مظاهر الدنيا ونعيمها ، فيتمكن الحزن من القلب ، ويتجمع مخلصا لربه ، خشية أن يتفرق مع الناس ومقتضيــات الدنيا ، التى تذهب به فى غياهب الغفلة ، ليتجرع فى سبيل الشوق لربه مرارة التحمل ، وغصص الصبر إلى حد ما : يتقاطر الحزن من القلب قطرة بعد قطرة ، إظهارا لوجوده المكبوت .

١٦ - فإذا ما اشتد الحزن بالقلب وفاض عنه ، تتابع الوجد فى غزارة لكى يطفىء حرارة الشوق ، ويسكن من لوعة الحب الإلهى ، الذى تمكن من قلبه ، مأخوذا بمجامع أسراره ، التى هى موطن الكشف والحضور بالحق .

١٧ - وحين ينعم العارف بالحضور ، يكون قد بلغ الغاية فى المعرفة ، وحقق الأسرار من وراء الشوق ؛ ليسمو بعد ذلك إلى حال أعلى : وهو الأنس بالحق والصحو لله ، فلا يشعر بغيره جل وتعالى ، مهما تجمع حوله الزوار ، وشاركوه المجالسة ، والمناظرة ، فإن المشاركة لا تكدر صفوه ، ولن تقطع أنسه ، فهو مستأنس بالله ، مستوحش بما عداه .

١٨ - والأنس بالله هو غاية ما قبل الغايات فحينما يبلغ العارف درجة الأنس ، يغنى القلب بالله عن كل فائت من متروكات الدنيا ،ويرقى بعد الأنس إلى حال أعلى ،وهى الاطمئنان إلى الله والقرب بالله ، وهى غاية الغايات عند

العارف بالله ، وحينئذ يسيطر الأمن والأمان على قلبه ، وتسكن نفسه بالله هيبة له وتعظيما لجلاله ·

التجربة الصوفية فى القصيدة :

لكى تتضح معالم التجربة فى القصيدة كان من الضرورى أن نقف على عدة أمور ، تعين كثيرًا فى الكشف عنها ، وتجلى حقيقتها ؛ فالصوفى فى هذه القصيدة كان قطبًا من أقطاب التصوف الإسلامى ، ورائدًا من رواده الأوائل ، اشتهر بمنزلته الرائدة فى هذا الإتجاه الروحى ، لذلك تفجرت القصيدة على لسان العارف بالله ، وفى ظروف جعلت تجربتها قوية عميقة ، إذ أنشدها ذو النون المصرى وهو على موعد اللقاء بربه والشوق إلى وجهه الكريم، حين دخل عليه فتح بن شحرف ، فوجده يعانى من الوجد ، ويتلظى من حرارة الشوق إلى ربه ، فابتدره قائلا له كيف تجدك ؟ أى تجد نفسك أثناء هذه المعاناة الروحية ، التى كانت فى نفسه تمثل التجربة الحقيقية الصادقة فى قصيدته ، وهى حالة الكشف ، التى عاناها الشاعر من الفناء فى الله ، فذوى جسده على فراش الموت ، وخلصت روحه من العوالم المادية حوله ، لتكون تجربته فى فنائه هى الإجابة الشافية لكل سائل ؛ وردًا مقنعًا فى تصوير الحب الربانى، والشوق الإلهى تصويرًا صادقًا ، يبرز معالم الحب ومظاهر الشوق ·

لذلك كانت تجربته الصوفية قوية فى صدقها الفنى ، حيث توفرت لها مصادر الجودة والصدق معًا ؛ وهى الموقف المنفعل بالأصداء الخارجية والنفسية فى تجربة الفناء فى الله ، وهى من أصدق التجارب الإنسانية على الإطلاق ؛ والموضوع الذى عاناه الشاعر فى الحب الإلهى ؛ والعاطفة الدافقة التى تلهب الشوق حرارة ووجدا ، وأخيرًا الصدق الفنى بين التجربة الصوفية وبين القصيدة كلها ، بما حوت من وسائل التعبير والإفصاح البليغ : حيث انسابت مع الصور فى اطراد وسلامة وانسجام بين الألفاظ والتراكيب والصور والموسيقى ، وبين المعانى والعواطف والأخيلة ، وهذا التلاؤم بين التجربة والقصيدة والصدق الروحى فيهما إنما تحقق عن طريق الفناء فى الله ، حيث

أعقب فى النفس الصفاء الروحى ، والكشف الذى استولى على قلبه ، والصفاء والكشف قد أمد العقل والخيال معًا بهذا التصوير الأدبى الصادق فى القصيدة، كما سيتضح فيما بعد حديثنا عن ، عند التصوير الأدبى .

ولعلك لاحظت أن التجربة هنا صوفية خالصة لله على نقيض التجارب الشعرية الأخرى ، حيث يمتزج التأمل الروحى بالتأمل فى مظاهر الوجود وشواغل الدنيا إن كانت القصيدة قد مس صاحبَها نفحةٌ دينية ، أما إن خلا من التأمل الروحى خلصت النفس للتأمل فى غيره من مظاهر الكون ومقتضيات النفس وشهواتها ، وذلك مثل التجارب فى أغراض المدح والفخر والغزل وغيرها .

الوحدة الفنية فى القصيدة :

من أبرز الخصائص الفنية فى الأدب الصوفى أنه تفرد دون الشعر العربى القديم بالوحدة الفنية إلا نادرا وخاصة فى المقطوعات القصيرة التى لا تتأبى عليها؛ فنرى الوحدة فى القصيدة فى عدة أمور : وحدة الموضوع ، وقد ترتب فى نمو وتلاحم بين معانيه ، التى وردت عميقة ، ودقيقة ، تحقيقا لهدف معين وهو الشوق الإلهى ؛ مع التلاؤم التام بين التجربة الصوفية ووسائل التعبير فى القصيدة ، هذه الأمور هى أسس الوحدة الفنية الجامعة ، وقد تحققت كلها فى كل كلمة من أول القصيدة إلى آخر كلمة فيها ، فينتقل الشاعر من معنى إلى ما يليه ، فى ترتيب للمعانى ونمو فى الأفكار .

الوحدة الموضوعية فى القصيدة :

ابتدأها الشاعر وجسده يشف شيئا فشيئا على فراش الموت ، لكنه يحيا بالرى من محبة اللقاء بربه ، لتهدأ حرارة الشوق إليه ، وهذا هو المنى الذى سيجد فيه العبد الفقير الغنى كل الغنى ، ما دام اللقاء بربه هو الغاية والرجاء وموطن الأسرار فى قلب المشتاق ، التى لا يعلمها إلا عالم الأسرار علم اليقين، ومهما عانى المحب من الوجد فى الكتمان ، فإنه يرجو رحمة ربه ؛ لكى تروح عنه كبت الأشواق ، وتلطف حرارة الهيمان ، فتتحرك الأسرار فى

قلبه ، ويتمكن من الحضــــور بالله ، ومهما بلغت الأسرار التى يعلمها الله وحده ، لا تعدل قتيرا ولا قطميرًا من علمه سبحانه ، وفضله على عباده ، ومع ضآلتها فى النفس تنكشف لها بالبصيرة لا البصر لذة المدركات بالحق سبحانه وتعالى فى حالة الفناء والغيبة ، وحينئذ يرى العبد بالأسرار طاعاته لربه ورضاه عنه ، فتحل عليه محبة الله ؟ وكيف لا ؟ والله هو الذى منحه موهبة الكشف له والحضور بالحق ، وعصمه من الاشتغال الذى يقطع الصلة بين العارف وربه سبحانه وتعالى ، وهذه الموهبة التى لا حيلة للعارف فى تحقيقها تجعله مطرقا فى التأمل ، مستغرقا فى المشاهدة بالصمت ، متذرعا بالصمت أثناه صراع الشوق مع العبرات ، فإذا غلب الشوق فاضت العين بالدموع ، لتهدئ من حرارته ، وتستروح بالأنس بالله عن غيره ، وبذلك تنال الحظوة عنده ، والرضا والأمن والطمأنينة ، وهى أعلى مراتب الحب الإلهى ، وغاية التصوف الروحى ·

وعلى هذا فالشاعر قد رتب المعانى المتصلة بالموضوع فى نمو وتصاعد حسب انتقال الصوفى من حال إلى حال ؛ حتى وصل إلى غاية الشوق الإلهى وهو الأنس ، ثم إلى غاية الغايات وهى الاطمئنان ، وذلك كله فى عمق وشرف مقصد ، وجمال التنسيق ، وروعة التلاؤم الدقيق بين هذه المعانى والأفكار والأخيلة ، وبين الألفاظ والتراكيب والصور والموسيقى وهو ما يسمى بالوحدة الموضوعية ·

التصوير الأدبى :

جسم العارف بالله تجربته الصوفية تجسيمًا قويًّا ، وصور فناءه فى الله تصويرا دقيقا ، يفيض حرارة وصدقا ، وانتقى لها وسائل التعبير الصريحة فى الحب الإلهى ، وابتعد عن الألفاظ والصور الحسية من حقول الغزل والتشبيب والنسيب ونشوة الخمر وغير ذلك مما اصطلح عليه بأسلوب الحب الرمزى ، وقد كان للحب الإلهى الرمزى رواده من أدباء التصوف ، فاتخذه بعضهم فى التعبير عن حبهم مع وجود القرائن القوية التى تدفع عنهم كل شبهة تمت بأدنى

---

(١) روض الرياحين : اليافعى ٢٥٥ ·

صلة إلى الحب البشرى ، وتجعله خالصا للحب الإلهى ومن الغزل الرمزى على سبيل المثال قال شيبان المصاب لذى النون بعد ما أفاق من الوجد الإلهى : (١)

إِنَّ ذِكْرَ الحَبِيبِ هَيَّجَ شَوْقِى ثم حُب الحَبِيبِ أَذْهلَ عَقْلى

وقال أيضا :

تَرَى المُحِبِّينَ صَرْعَى فِى دِيَارِهم
كَفِتْيَة الكَهْفِ لا يَـدْرُونَ كَمْ لَبِثُوا
واللهِ لَوْ حَلِفَ العُشَّـــاقُ أَنَّهمُ
قَتْلَى منَ الحُبِّ يَوْمَ البيْنِ ما حَنَثُوا

وقال (أبو الحسن الحصرى ٣٧١ هـ) حينما سئل عن المحب هل يحتشم أو يفزع فقال : (الحب استهلاك لا يبقى معه صفة وأنشأ يقول : (١)

قالت : لقد سُؤْتَنا فى غيرِ مَنْفَعــةٍ
بِقَرْعِك البابَ والحُجَّابُ ما هَجَعُوا
ماذا يُرِيبُكَ فى الظَلْمَاءِ تَطْـــرُقُنا
قُلْتَ الصَّبَابَةُ هَاجَتْ ذَاك والطَّمعُ
قالتْ لَعْمرى لقد خاطرْتُ ذَا جَزِعٍ
حتى وصلتُ فهلا عَاقَك الجَزَع ؟
فقلت ما هو إلا القتلُ أو ظَفَـــرٌ
مما يزول به عن مُهْجَتِى الهَلَع

هذا من أسلوب الغزل الرمزى ، أما أسلوب السكر بالخمر الرمزى أيضا فى قول الشبلى : (٢)

(١) طبقات الصوفية : السلمى ٤٩٢ .
(٢) الحلية : أبو نعيم ١٠ / ٣٦٩ .

الْغَيْبُ رَطبٌ ينــــادى يا غافلين الصَّبــــوُح
فقلتُ أهــــلاً وسهلاً ما دَامَ فى الجِسْم روُح

وكتب يحيى بن معاذ إلى أبى يزيد : سكَرْت من كثرة ما شربت من كأس المحبة ؛ وكتب إليه أبو يزيد : غيرك شرب بحار السموات والأرض وما ورى بعد لسانه خارج على صدره وهو يصيح العطش العطش وأنشد فى ذلك :

عَجِبْتُ لِمَنْ يقـولْ ذكرتُ ربِّى وهل أنْسَى فَأذْكُـرُ ما نَسِيتُ
شَربتُ الحُبَّ كأسًا بْعدَ كَأسٍ فَمَا نَفَذَ الشَّرابُ وَمَا رَويتُ (١)

والمواقف فى الغزل الرمزى تدل على أنه فى الحب الإلهى فشيبان قال غزله بعد أن أفاق من الوجد الإلهى فى حوار بينه وبين ذى النون المصرى ، وأبو الحسن يقول الغزل ليوضح مفهوم الحب الإلهى عنده للسائل الذى سأله عنه ، والشبلى قطب من أقطاب التصوف يكتب إلى مثله بأسلوب الرمز فى الشراب والسكر بمحبه الله . وليس معها قسم ثالث وهو الأسلوب المحايد بين الرمز والتصريح كما ذكر ذلك بعض النقاد (٢) لأن الحيدة فى ذاتها ومعناها رمز، فهى تخالف التصريح وتقابله ، وما ذكره من أمثلة يؤكد معنى الرمز فى رأينا ، قال : « وممن يمثل ذلك النوع المحايد من الغزل بين شعراء الصوفية سمنون بن حمزة المتوفى سنة ٢٩٦ هـ . . . ويقول :

أنا رَاضٍ بِطُولِ صَـــدِّك عَنِّى ليس إلاَّ لأنَّ ذَاكَ هَــــواكا
فامْتَحِنْ بالجَفَــاء صَبْرِى عَلَى الودِّ ودَعْنِى معلقا برجاكا (٣)

فمن ذا الذى لا يحكم بأنه غزل رمزى فى الحب الإلهى ؛ لأنه غير صريح فى معناه ، للدلالة النصية عليه ، وهو ما يؤيد رأينا فى تقسيمه إلى قسمين حب صريح وحب رمزى .

---

(١) شطحات الصوفية : عبد الرحمن بدوى مكتبة النهضة ص ١٦٩ .
(٢،٣) الدكتور عبد الحكيم حسان فى كتابه التصوف فى الشعر العربى ٣١٤ ، ٣١٥ .

وقصيدة ذى النون من صور الحب الصريح ، ومن أسلوبه الواضح لا الرامز ، وانتقى فى تجربته الصوفية من وسائل التصوير ما يتناسب معها ، ويتلاءم مع الغرض من القصيدة ، فبرزت للتصوير خصائصه الفنية ٠

فأما الألفاظ فكشفت له عن وجده فى كلمات منتقاة ، تفيض بحرارة الحب ، وتتفجر بلوعة الشوق ، من حيث معناها ، ومن حيث مبناها ، كما فى قوله : (وما ماتت) ، فأما من حيث معنى اللفظ فهو بمعنى الحياة لكن الشاعر انتقى فى التعبير عنه النقيض للفظ الحياة منفيا ، ليكون ، أقوى فى الدلالة على تأكيد معنى الشوق الحى عن طريق النفى ، الذى دخل على فعل الموت، فيكون النفى كالدليل على نفى الموت ، وإثبات الحياة ، وهذا التأكيد لا يتأتى لو أتى بلفظ (يحيا) ، وأما من حيث المبنى ، فقد اختار الفعل الماضى، لئلا يتسلط النفى على الحال فقط ، أو الاستقبال فقط فى الفعل المضارع ، فيتطرق الاحتمال لنفى أحد الأمرين الحال أو الاستقبال ، وهذا الاحتمال يفقد قيمة التأكيد الذى نبع من دلالة الماضى صراحة على التحقيق فقط ، لذلك تسلط النفى عليه لدافع هذا الاحتمال الذى بين الحال والاستقبال ، وهو ما يدل عليه الفعل المضارع ٠

وكذلك الأمر فى كلمة (لا رويت) من حيث المعنى والمبنى ، فهى بمعنى ما اكتفيت ولا شبعت ، ثم مناسبة لفظ الصبابة للشوق الإلهى ، من حيث المعنى فتدل عليه ، بل أقوى فى الدلالة من الشوق ، لما فى الصب من العنف والقوة ، ومن حيث المبنى؛ فالأسمية فى المصدرية تدل على ثبات الشوق فى قلبه وتمكنه منه دائما ، فلا ينفك عنه على عكس ما يفيده من التغير من حال إلى حال ، وأثناء التغير يحدث فراغ ولو فى لحظة ، ثم اختار لفظ من التى تدل على البعضية، فمهما بلغ العارف من الحب ، فليس ذلك هو كل الحب، بل هو بعض منه ، ويتلاءم مع الحب لفظ الأوطار والمنى والغنى ، والغاية والرغبة والأمل والسر ، والقلب الذى بين الضلوع ومعاناة الشوق فى عدم الإظهار والنشر ، وكتمانه عن الأهل والجار ، والشوق سر لا يخفى على الله ، وعلى الرغم من أنه لا يبوح به ، فهو فى صراع دائم بين إسراره وإظهاره ، كما يدل عليه لفظ (التنادى) لأن صيغة التفاعل توحى بعنف المعركة النفسية للشوق ، الذى يتردد بين الكتمان والإظهار ٠

وترى فى (هب) الاستغاثة والدعاء ، وفى (النسيم) الرحمة واللطف والحياة والروح ثم اليسر، وترى نفى الأعشار، وألفاظ النور والهدى والمهتدين والعلم ، والكشف لمعاينة الغيب ، والمشاهدة فى لفظ الحضور ، والغياب عن اشتغال القلب بغير الله ، وكذلك القلوب والأوهام والحدة فى البصيرة ، ثم مصطلحات الصوفية فى الجمع والتفريق والهم ، والحيرة والعصمة والإطراق والصمت ، والذكر والتجرع والصبر ، ثم الانسجام بين الشوق وبين فيضان العين فى بحور من الدمع الغزيرة ؛ ليكشف بكل هذا عن الشوق المكبوت فيرويه ، ويخفف من حرارته بالأنس والطمأنينة فى قوله : (أفضت دموعا جمة مستهلة - أطفى بها حرا تضمن أسرارى - سؤل المحبين - أبحنى - الأنس - زوار - أو حدى جارى) .

انسجام تام بين الألفاظ فى معانيها ومبانيها واشتقاقاتها ، وبين ما يصوره ذو النون من الحب الإلهى المضنى ، والشوق الروحى الممض ، مع سلامة الكلمة وانسيابها ، واطراد المصطلحات الصوفية المألوفة عندهم التى لا تستغلق على الفهم ، ولم يلجأ إلى الألفاظ غير المشهورة ؛ لذلك خلت القصيدة من الغرابة والغموض ، إلا فى البيت الثانى عشر حيث اجتمع فيه ثلاث مصطلحات صوفية وهى الجمع والتفريق والهم ، ثم أخذت على الشاعر كلمة (عشر معشار) فإنها من ألفاظ الإحصاء والترقيم والعدد ، وليست من الكلمات الشعرية الروحية التى تتناسب مع الحب الإلهى ، وأما التكرار لبعض الألفاظ فى البيت الثانى مثل (المنى) فقد تكـــــرر أربع مـرات فى شـــطرة (والغنى) مرتين فى شطرة ، فهما مع تكرارهما لم يتركا غموضا ، ولم يحدثا قلقا فى التركيب ، بل اتضح المعنى من سيولة البيت ، وأشبه التكرار هنا مقام الذكر عند الصوفى إذ يردد أنواع التسابيح كالتحميد مئات المرات ، وهو يحس بحلاوة التكرار ، وعذوبة الترديد ، فالبيت بموسيقى التكرار صورة أدبية لمقام الذكر .

وأما الأسلوب والنظم فى القصيدة الذى انبنى من هذه الألفاظ بخصائصها الفنية السابقة ، فلا نجد قلقا فى العبارة ، ولا اضطرابا فى التركيب

ولا غموضا فى التنسيق ، إلا نادرا مما يقتضيه مقام التصوف من الغموض فى كثرة الضمائر ، والإبهام فيما تعود عليه كما فى قوله : (لما غابا عنها منه) حيث انبهم المعنى من جراء عود الضمير ، فالضمير فى عنها يعود على النفس، وفى (منه) يعود على لفظ الجلالة ، وكلا اللفظين لا وجود له فى البيت مما زاده غموضا ، ولكنهما مقدران من السياق ، والمعنى أن حالة الحضور تجعل النفس تغيب عن الاشتغال بالعوالم بسر من الله ، وبنور يهبه لعبده ، أو ما يقتضيه الغموض من كثرة تتابع المصطلحات فى البيت الثانى عشر كما سبق بالإضافة إلى وجود لفظى (القدر والمقدار) وهما من الغموض بمكان ، وفى البيت الرابع عشر ، حيث جمع الإطراق والصمت والذكر .

أما ما عدا ذلك فالوضوح فى التركيب ظاهر ، بل تجد الدقة فى النظم والقدرة العجيبة فى اختيار مواقع الكلمات من العبارة ، على الرغم من قلة ألوان البيان من تشبيه واستعارة وكناية ، لأن الشاعر هنا لا يرهق نظمه بكثرة ألوان البيان ، حتى لا يزاد الغموض بسببه ، بل اكتفى بغموض المصطلحات الصوفية ، التى لابد من الاستعانة بها ، فهى من أخص خصائص الأدب الصوفى ، على خلاف الحلاج فى شعره إذ كان يجمع بين ألوان البيان المتراكمة وبين غموض المصطلحات الصوفية ، مما جعل بعض شعره صعب المرام .

ومن ألوان البيان المتناثرة فى القصيدة كالاستعارة فى (وما ماتت إلى صبابتى ، ولا رويت من صدق حبك ، تضمن قلبى ، قديدا ، طال سرى ، وطال إظهارى ، والهم يجرى ، طرقتنى عبرة ، تجرعتها ، أفضيت دموعا ، أطفى بها حرًا ، تضمن أسرارى) ، وكالتشبيه فى قوله : كأنها حاضرة الدار، وغير ذلك مما سلكه الشاعر بمقدرته الفائقة فى نظم الأساليب ، مما يضفى عليها الجمال والجلال ، وعلى سبيل المثال فقط ، نقف قليلا لنتذوق السحر الحلال فى قوله : تضمن قلبى منك مالك قد بدا) فقد شخص الشاعر فى هذه الصورة الجزئية حرارة حب الله فى القلب الحاضر به ، فتكشفت المشاهدة للحق سبحانه ، فعبر بقوله تضمن حيث دل معناه على الضم ، وهو الإحاطة والشمول ، فحب الله أحاط بالقلب واشتمل على نواحيه ، وفى الضم معنى

آخر ، وهو العطف والرحمة واللطف ثم حرارة الحب ولهيب الشوق ، وكذلك يدل مبناه من حيث اشتقاق فعله الماضى ، لأن صيغته تدل على حدوث المحبة وتمكنها من القلب ، وثبوتها فيه حقيقة مقررة ،تحققت من زمن بعيد قطعه العارف فى الرياضة والمجاهدة ، حتى شرف القلب بهذه المنزلة :

والتضعيف يؤكد هذه الحقيقة الثابتة ، فزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، والفعل يستقيم معناه من غير تضعيف الميم ، وإسناد الفعل الماضى إلى القلب، يفيد معنى آخر وهو تجدد المحبة من وقت لآخر ، لأن فى القلب معنى التغير والتقلب من حال إلى حال مع تحقق أصل المحبة ، وأثناء التقلب لزيادة المحبة يحدث انفصال فيها ، مما يدل على انقطاع الكشف عند الصوفى ، إذ لا يدوم فى كل وقت ، بل يبرق فى القلب من حين لآخر ، للدلالة على البشرية التى تغفل أحيانا ، ودوام الحضور والمشاهدة لا يكون إلا من الله وحده وصدق الرسول الكريم فى تحديد هذه الغفلة البشرية المؤقتة عند المحسن فى إيمانه حين أجاب عن سؤال جبريل عليه السلام ما الإحسان ؟ فقال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، فالعبارة الأخيرة تدل على النقص البشرى فى انقطاع الرؤية حينًا من جانب العبد ،ودوامها فى جنب الله عز وجل :

هذا بالإضافة إلى جمال الاستعارة فى الفعل (تضمن) فقد استعار الضم لتمكن القلب من المحبة ، فجسم المعنى المجرد وهو التمكن ، وشخصه فى صورة محسة متحركة ، إذ الضم يرتبط بمحسات فى الواقع ، تجمع بين فاعل الضم والشيء المضموم ، وحركة الضم ذاتها ، وما يفيض من حرارة وقوة تشكل لون العاطفة ، وهذه المواد والحركات والألوان كلها من المحسوسات فى الواقع ، وهى تعطى للتصوير الأدبى سحرا وجمالا ، يشغل النفس، ويحرك المشاعر؛ فيترك فيها أثرًا بقدر اشتغال النفس وتحريك المشاعر . وهذا هو الأثر الجمالى فى الصورة الاستعارية .

وتأمل معى قوله : (منك) فحرف الجر يدل بإبهامه على التبعيض ؛ فالعارف مهما وصل من المحبة والحضور ، فإنه يجهل مقدارهما وحدودهما

لأن الله وحده هو الذى يعلم مقداره فى القلب ؛ ومعنى الابتداء فى حرف الجر يدل على أن المحبة منحة وهبة من الله ابتداء لا كسبا عن طريق العبادة والمجاهدة وحدهما ، وهو ما انتهى إليه علماء التصوف من أن الحب الإلهى هبة من الله ، وليس بالكسب وحده ، وإنما هو سبب فقط ، ويؤكد هذا الإبهام والغموض حرف (ما) ، وكذلك حذف المفعول به فى (قد بدا) والتقدير أمره أو حاله ، للدلالة على جهل العارف به ، وأن الله وحده هو الذى يدرك الحب الإلهى ، وقد اختفى عن صاحبه وهو بين جنبيه .

وقول الشاعر : (وبين ضلوعى منك ما لا أبثه) يدل على تصوير أدبى رائع يأخذ بالألباب ، ويستولى على العواطف ، حين صور حركة الشوق العنيفة فى سياج من الكبت والكتمان ، فانتقى لذلك أقوى الألفاظ لتأخذ مواقعها من الأسلوب فتغنى الصور بكل موقع منه ، فالتعبير بكلمة (بين) فى موقعها تدل على موطن الشوق ومكانه ، فليس هو فى الرأس ولا فى الفم وعلى اللسان ، بل يشمل الصدر كله ، وما احتوى من قلب وأحشاء ، هى قوام الشخص وحياته ، والإبهام فى البينية يدل على عدم التحديد ، فكأن الشوق اتخذ مساحة واسعة ؛ هى ما بين الضلوع من الأمام إلى الخلف ، ومن اليسار إلى اليمين . وهذا يقتضى لفظ الضلوع فى موقعه للدلالة على أن الشوق قد فاض عن القلب حتى ملأ الصدر كله ؛ وما بين الضلوع من العظم إلى العظم ، ولا يتأتى هذا المعنى الدقيق لو عبر بالقلب أو النفس أو السر مكان الضلوع ، ولا تنسى أن الجمع للضلع جاء عبثًا ، فهو يدل على عظام الصدر كلها فى كل ناحية .

وحددت الضلوع هنا الإبهام فى حرف الجر (منك) الذى يدل على التبعيض ، وكشفت عن إبهامها ، حتى ملأ الشوق الصدر كله ؛ وهو محدود فى الغالب ؛ وتأمل كيف تحدد الإبهام هنا فى (من) ؟ بينما لم يمكن تحديده فى العبارة السابقة ، وذلك يرجع إلى موهبة الشاعر فى انتقاء الكلمات ، واختيار مواقعها من التركيب ، ومع تحديد الشوق بامتلاء الصدر المحدود فى الظاهر ، فالعارف لا يعرف درجته ومقداره فى الداخل ، فلا يستطيع الإفصاح

عنه ، لأن الله وحده هو الذى يعلم مواطن الشوق فى داخل الصدر مع حدوده الظاهرة فى الخارج ، وهو ما أفادته كلمة (ما) بإبهامها فى جانب العبد ، واتساعها وشمولها فى جنب الله سبحانه وتعالى .

وما أروع الكناية فى العبارة هنا ؟ حين تُجَسِّم ما انطوى عليه الصدر من أحشاء وجوارح ، وتُجسم لازم المعنى وهو حرارة الوجد ولهيب الشوق ، ولازم المعنى هو المراد من الكناية ، وتظهر أسرار الجمال فى التصوير الكنائى هنا ، أولا : فى تجسيم المعنى المجرد وهو الشوق فى صورة محسة ، تتكون من الضلوع وما بينها من أحشاء ، والشىء المحس يكون عادة أقرب إلى النفس، وأقوى أثرا فيها من المعنى الذهنى المجرد ، وغالبا ما يكون غامضا ، وثانيا : تظهر أسرار الجمال فى إقامة الدليل على الشوق ، وتأكيده ببراهين محسة ظاهرة للعيان ، لا تنكرها العين ولا تغيب عن الإحساس والشعور . وثالثًا : تظهر فى عملية التأمل وطول النظر الناتج عن انتقال الذهن والشعور من المعنى الظاهر إلى لازمه ، مما يحتاج إلى وقت أكثر ، وما وطن فى النفس بعد طول تأمل يكون أشد تمكنا منها مما استقر فيها لأول وهلة ، حيث يمضى سريعا كما فاجأ النفس بسرعة .

وتأمل قوله : (أفضت دموعا جمة مستهلة) حيث صور الشاعر مغالبة الشوق المكبوت فى النفس لينطلق من عقاله ، فانتقى ألفاظا تقتضيها مواقعها من التصور ، فكلمة (أفضت) فى موقعها تدل بمعناها على الطوفان الناشىء عن امتلاء العين بالدموع ، ويدل مبناها على الزيادة فى الدموع لزيادة الهمزة عن أصل الفعل الماضى وهو (فاض) ولما تدل عليه الألف من التعدية ، وفيها معنى الزيادة والتجاور ثم إن الإيقاع الموسيقى فى الكلمة يدل على أن فيضان الدمع يتكرر على دفعات ، فالدفعة الأولى يمثلها المقطع الأول (أفض) ، الذى يحمل الدمع على التوقف ؛ والدفعة الثانية فى المقطع الثانى (تو) وامتداد حرف اللين بعد الحركة يجعل الدمع يستأنف الحركة من جديد ، وهكذا مما يجعل التكرار فى الإيقاع يدل على تتابع الدموع المرة بعد المرة ؛ واقتضاء الموقف صيغة الجمع فى (دموعا) يدل على غزارتها ؛ ثم التنكير يدل على

التعظيم ؛ وفى التعظيم كثرة وزاد من الكثرة أمران : أولهما التنوين وهو زيادة نون ساكنة وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى ؛ وزيادة فى الإيقاع الموسيقى ؛ الذى وقع من التنغيم فى التنوين ؛ وثانيهما : الوصف للدموع بقوله جمة مستهلة والجم الغفير الكثير ، والمستهل الظاهر للعيان : وفى الظهور كثرة وامتلاء ؛ وإضافة التنوين فيهما زيادة أخرى على المعنى فى الوصفين ·

وهكذا فى بقية الأساليب والصور ؛ إذا أردنا أن نقف مع كل أسلوب وكل صورة كما رأيت ؛ وإلا لطال المقام ؛ لأن التحليل النقدى فى الصور السابقة سينمى عند القارئ ملكة تعينه على تحليل بقية النصوص ونقدها ، وتذوق مصادر الجمال فيها على النحو السابق دفعا للإطالة إلا ما يقتضيه المقام ويتطلبه الحال ·

وأما الإيحاء فى التصوير الأدبى ؛ فقد أضفى على القصيدة جمالا وروعة حين توحى الكلمة (لا رويت) معناها المراد هنا ؛ وهو عدم الشبع من الحب الإلهى ، فتوحى بالحياة ، لأن فى الرى إحياء للنفس وحياة للروح ، وتوحى بالعذوبة التى هى من صفات الماء ، حيث لا يشبع منه الشارب ، بل يعاود الشرب المرة بعد المرة لحلاوته ، ويوحى بعدم النهاية للحب ، إذ محبة الله لا حد لها ، ولا تنتهى عند غاية ، فكلما أمعن الصوفى فى المحبة تباعدت نفسه عنها هيبة لله وتعظيما له ، ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ·

وتوحى كلمة (نسيما) بالراحة حيث يستريح الصوفى إلى محبة ربه ، وبالأنس ، فيأنس بالله ، وبالحياة فى محبته لأن الموت فى غضبه وعدم رضاه ، وفى النسيم جمال تستروح به النفس عما تئن به من متاعب ؛ ويوحى النسيم بالروح حيث يرد الحياة إلى من ينعم بالنسيم ؛ وتوحى بالطيب والريحان حيث يحمل نسيم الصباح نشر الورود وأنفاس الريحان وغير ذلك مما توحيه به هذه الكلمة · وتوحى كلمة (الروح) بالحياة والراحة والرحمة وإسداء اللطيف والسر والنسيم والريحان والطيب والنعيم والأنس وغيرها من المعانى التى تدور حول اللفظ لأدنى ملابسة وخاصة المصطلحات الصوفية ، وما توحى به من

معان سامية تواضعوا عليها ، فأكسبوها غزارة واتساعا وكذلك ما نشعر به فى وحى هذه الكلمات « صدق - أوطار - المنى - الغنى - سرائر - أبح - التنادى - أثرت - فباتوا - معاينة - حاضرة - أوهام - حديدات - جرف هار- عبرة - تجرعتها - عيل - تصبارى - أطفى - حرا - منتهى - أوحدى- جارى» ·

وأما الإيقاع الموسيقى فقد أسهم بدوره فى سحر التصوير الأدبى ، فاختار الشاعر من الوزن والقافية والإيقاع ما يتناسب مع معانى الحب الإلهى وحرارة الشوق الروحى فاختار من الوزن البحر الطويل :

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن   فعولن مفاعيلن فعوان مفاعيلن

أربع تفاعيل فى كل شطرة ، فهو من البحور الطويلة الممتدة ، التى تحتاج إلى نفس طويل ، وإلى معانى غزيره عميقة ؛ وإلى عاطفة تزداد اشتعالا واتساعا ، وهذا كله يتلاءم مع حرارة الوجد ولوعة الشوق ؛ فمحبة الله لا نهاية لها ، والشوق إليه لا ينقطع فى الدنيا والآخرة ، حتى لو تحقق للإنسان فى دنياه عن طريق حضور القلب بالله ، فإنه يزداد شغفا به ، أكثر ، كلما انكشف القلب له ؛ ولو هدأ الشوق بالرؤية فى الآخرة فإن المؤمنين لا يشبعون من رؤية الله ، بل دائمًا هم فى شوق يحتاجون إلى التنعم بها أكثر وأكثر ، لهذا اختار الشاعر البحر الطويل ·

والوزن العروضى لا يفرق فى الوقف بين حروف اللين (حروف العلة) وبين السكون ، فكلاهما سكون يقابل الحركة (الفتحة والضمة والكسرة) أيا كانت ، لكن الإيقاع يفرق بينهما ، إذ للسكون مغزى عنده يختلف عن مغزى حرف العلة ، فالحرارة فى الشوق الإلهى ، وتعاقب الدفقات فيه من حالة إلى حالة ، تحتاج إيقاعا فى دفقات متتابعة تنتقل من حال إلى حال ، ولا يتأتى التتابع والتنقل إلا مع مقاطع تشتمل على حروف فى امتداد ومقاطع أخرى تشتمل على السكون الذى يقف عنده النطق فجأة من غير امتداد ·

هكذا كان الإيقاع فى القصيدة جاء على دفقات مختلفة ، ما بين دفقات

ممتدة متراخية ، وما بين دفقات سريعة قصيرة النفس ، ليصور الإيقاع الموسيقى بهذا الاختلاف والتنقل من حال إلى حال الحرارة فى الشوق الإلهى حيث تتعاقب فى دفقات ، تنقل فيها من حالة إلى أخرى ولا يتأتى هذا التعاقب والتنقل المتباين إلا فى مقاطع ، تشتمل على حرف اللين ، ومقاطع تشتمل على السكون ، لتكون الإيقاعات مزيجًا من السرعة والبطء ، مما يتناسب مع تنوع حرارة الوجد ، واختلاف هبوب النسائم على لهيب الشوق ، فتنتقل الحرارة من حال إلى حال كالانتقال من مقاطع اللين إلى مقاطع السكون وهكذا فى بقية الإيقاعات للموسيقى الداخلية .

وعلى سبيل المثال فالإيقاع فى البيت الثانى يكون على هذا النحو :
منايل- منا كللل - منا أن - تليمنن - وأنتل - غنا كللل - غنا عن - د إقتارى
فعولن - مفاعيلن - فعولن - مفاعلن فعولن - مفاعيلن - فعولن - مفاعيلن .

فترى أن حرف اللين فى الوزن أحيانا تحول إلى سكون فى الموزون كما فى (مفاعيل = مناكلْلل) فالياء فى الوزن تقابل سكون اللام الأولى فى الموزون ، فالمقام فى التفعلية الثانية يقتضى السرعة فيحتاج إلى السكون ، لأن التفعلية الأولى التى قبلها طويلة لاشتمالها على حرف اللين فى الوزن والموزون معا (فعولن - منايل) ، لكى يتلاءم الاختلاف فى تعاقب التفاعيل واختلاف الإيقاعات مع الانتقال فى حرارة الوجد المتباينة من حال إلى حال من البطء إلى السرعة وبالعكس وهكذا حتى نهاية الإيقاعات فى الموسيقى الداخلية للبحر العروضى .

إذا كان الإيقاع على النحو السابق يصور الموسيقى الداخلية ، فالوزن العروضى مع القافية يتكون منهما الموسيقى الخارجية ، وتقدم الحديث عن الوزن أما القافية فقد تجانست فى التصوير الأدبى مع الحب الإلهى ، فجاءت ممتدة متراخية، يطول معها النفس، حتى ينقطع من شدة الإعياء ، كما يذيب لهيب الشوق البدن فيذوى شيئا فشيئا ، والقافية الحقيقية تضم حرف الروى وما قبله وما بعده كما عليه أكثر علماء العروض وعلى رأسهم الخليل بن أحمد واضع علم العروض حيث حددها فى المقطع الأخير الذى يتمثل فى الحركة

الأخيرة بين ساكنين يسبق الساكن الأول منهما حركة أخرى ، ولسنا مع الأخفش الذى جعل القافية فى حرف الروى وحده[1] .

وتأمل معى هذا التلاؤم بين القافية والحب الإلهى فى القصيدة كلها ؛ فترى الامتداد وطول النفس الناشىء عن الامتداد فى حروف اللين واختفى السكون هنا تماما ، ليتلاءم مع الحب الإلهى الذى لا ينقطع ، ولا حد لنهايته وانظر فى القافية تجد حرفى لين بينهما حرف متحرك (طارى - مارى - جارى - هارى - رارى - سارى الخ القصيدة) ، وتلك قدرة عجيبة التى أبدعت فى التصوير الموسيقى كما أبدعت فى تصوير الألفاظ والتراكيب والصور الجزئية أما القصيدة كلها بوحدتها الفنية على نحو ما سبق تعد صورة كلية تلاحمت فيها الألفاظ والتراكيب والصور الجزئية والموسيقى الخارجية والداخلية مع التجربة الصوفية والمعانى والأخيلة والعاطفة والمشاعر ، كل ذلك فى نسق تام ، وتدرج مطرد ؛ لتكوّن فى النهاية الصورة الكلية فى القصيدة .

وأما عناصر الصورة الأدبية فى القصيدة فقد برزت واضحة المعالم تفيض بالحيوية والحركة والظلال الألوان ، فقد رأيت من عناصرها الحركة فى حرارة الحب ولهيب الشوق ، وعنف الصراع النفسى بين الظهور والكتمان ، وحركة الركب والتيه فى الحيرة ، وغيرها كثير من الحركات المتجاوبة من أصداء التصوير ، أما اللون فهو مزيج من عاطفة الحب والشوق والأنس جميعا فالصفاء فى الماء والنقاء فى الروح والطهارة فى القلب واللطافة فى النسيم والبياض فى النور والعلم والمضاء فى البصر والبصيرة وغيرها من الألوان الزاهية الصافية التى تعبر عن صفاء الحب الإلهى ، وأما الرائحة والطعم أفلا تذوقت معى حلاوة الإيمان ؟ ، وطعام الحب ولذة الأنس وشراب الشوق ؟ ما أحلاه وألذه وأعذبه شرابا !! وألم تشم معى لفح الحب ؟ ونفحة الشوق ، ورائحة الجنة ، وريحان النسيم ، وروح الطيب الذى عبق جو الأنس بالله ، وغير ذلك من العناصر كالشكل فى الصورة ؛ فهو روحى بحت ، وربانى أصيل ، وكالحجم فيها ، الذى جمع بين الألفاظ والصورة والموسيقى التى تتناسب مـع مقام الحب الإلهى رحم الله ذا النون المصرى العارف بالله .

---

(١) العمدة : ابن رشيق ١ / ١٥١ ، ١٥٢ .

من النثر الأدبى الصوفى :

احتل النثر الصوفى مكانة أولى عند الصوفية ؛ لأن الشعر إن استقام للبعض فلا يستقيم للجميع ، لكن النثر لين يجرى سلسا على لسان القوى والضعيف ، فالجميع يغترف منه على قدر طلاقته وبلاغته ، واختلفت أغراضه الأدبية من حكمة ، ومقامات وعظية ، وتعريف لمصطلحات التصوف ، وحب إلهى ، ونصوص فى المشاهدة والحضور ، ونثر فى الفناء ، ونثر فى الحلول ، وفى الاتحاد ، وفى المدح النبوى ، وفى المناجاة والدعاء ، وفى الأوراد ، وفى الوصايا والنصائح ، وغيرها من الأغراض النثرية ، التى اتخذت لها قوالب من حيث الشكل العام : فمنها أولا ما اتخذ شكل التعريفات ووضع الرسوم والحدود لمعنى معين ، وغالبًا ما يكون هذا النوع فى المصطلحات الصوفية والمقامات والأحوال والحكم وغيرها، وثانيا : ما اتخذ شكل المقال الأدبى والقطعة النثرية الفنية ، وغالبًا ما يكون فى المقامات الوعظية ، وفى الأوراد والوصايا والنصائح والدعاء والمديح النبوى والحب الإلهى وسائر الآداب الصوفية ، وثالثا : ما اتخذ شكل الحكاية والأقصوصة التى تتسلسل من أحداث حقيقة واقعة وأبطالها حقيقيون فى الغالب ، وغالبًا ما تكون القصص فى الحب الإلهى والوعظ والتعليم والنصائح والولاية وغيرها مما يحتاج إلى طول نفس وتتابع حوار وسرد ، كقصص الرحلات والسياحات ، والدخول فى طريق التصوف .

وتلتقى الأشكال الفنية الثلاثة جميعها فى خصائص النثر الأدبى الصوفى التى سنوضحها بعد ذلك إلا فيما يتصل بالطول والقصر ، فإن السمات الفنية تختلف حسب ذلك ، وسنقف على مثل واحد فى شكل واحد وهو الأقصوصة التى قامت على دعائم الحب الإلهى وثمرته؛ لنرى الفرق الواضح بين هذا الغرض فى الشعر كما رأيناه فى قصيدة ذى النون المصرى ، وبينه فى النثر الأدبى الفنى الصوفى ، ودرجة التصوير الأدبى البارع فيهما .

حكى عثمان بن عمارة قال : حدثنى إبراهيم بن أدهم [1] عن رجل من أهل الإسكندرية ، يقال له أسلم بن يزيد الجهنى [2] قال : لقيته بالأسكندرية فقال لى : من أنت يا غلام ؟ قلت شاب من أهل خراسان . قال : ما حملك على الخروج من الدنيا ؟ فقلت زهدًا فيها ، ورجاء لثواب الله تعالى ، فقال : إن العبد لا يتم رجاؤه لثواب الله تعالى ، حتى يحمل نفسه على الصبر فقال رجل ممن كان معه : وأى شىء الصبر ؟ . فقال : إن أدنى منازل الصبر أن يروض العبد نفسه على احتمال مكاره الأنفس . قال : قلت : ثم مه ؟ قال : إذا كان محتملا للمكاره أورث الله قلبه نورًا . قلت : وما ذلك النور ؟ قال : سراج يكون فى قلبه يفرق بين الحق والباطل ، والناسخ والمتشابه . قلت :

---

(١) أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم بن منصور البلخى ، من كورة بلخ ، عده الصوفية شيخ الصوفيين ، وكان من أبناء الملوك فى خراسان وكان من المياسير ، خرج متصيدا فهتف به هاتف : يا إبراهيم ألهذا خلقت أم بهذا أمرت ؟ فنزل عن دابته ، وصادف راعيا لأبيه ، فأخذ جبة الراعى من صوف ولبسها وأعطاه فرسه وما معه ، ثم دخل البادية ، ثم دخل مكة وصحب بها سفيان الثورى والفضيل بن عياض ، ثم دخل الشام ومات بها عام ١٦٢ هـ ، وكان يأكل من عمل يده ، مثل : الحصاد وحفظ البساتين وغير ذلك متنقلا ما بين مدن الشام ما بين المنصورة وهى المصيصة وطرسوس ، وغزة وفى الجبال من جبل إلى جبل الرسالة القشيرية١ / ٦٣ ، ومن أقواله فى المحبة : إلهى إنك تعلم أن الجنة لا تزن عندى جناح بعوضة فى جنب ما أكرمتنى من محبتك وآنستنى بذكرك وفرغتنى للتفكر فى عظمتك ، الإحياء ٤ / ٣٤٩ ، روى شقيق البلخى أن أهل السوق فى البصرة سألوه على عدم استجابة الله لدعواتهم فقال : يا أهل البصرة ماتت قلوبكم فى عشرة أشياء : ١ - عرفتم الله ولم تؤدوا حقه ٢ - قرأتم كتاب الله ولم تعملوا به ٣ - ادعيتم حب رسول الله ﷺ وتركتم سننه ٤ - ادعيتم عداوة الشيطان ووافقتموه ٥ - قلتم نحب الجنة ولم تعملوا لها ٦ - قلتم نخاف النار ورهنتم أنفسكم بها ٧ - قلتم إن الموت حق ولم تستعدوا له ٨ - اشتغلتم بعيوب إخوانكم ونبذتم عيوبكم ٩ - أكلتم نعمة ربكم ولم تشكروها ١٠ - دفنتم موتاكم ولم تعتبروا انظر الطبقات الكبرى : الشعرانى ١ / ٦٩ ، روض الرياحين : اليافعى : ١٢٨ ، ١٥٠ ، ٢٤٥ ، ٢٦٢ ، ٣٣٣ ، ٤٠٥ ، والحلية لأبى نعيم وغيرها .

(٢) مصرى تابعى ثقة صوفى - تهذيب التهذيب : ١ / ٢٦٥ .

هذه صفة أولياء رب العالمين · قال : أستغفر الله ! صدق عيسى بن مريم عليه السلام حين قال : لا تضعوا الحكمة عند غير أهلها فتضيعوها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموها · فبصبصت إليه ، وطلبت إليه ، وطلب معى أصحابه إليه ، فقال عند ذلك : يا غلام ! إياك - إذا صحبت الأخيار أو حادثت الأبرار - أن تغضبهم عليك ، فإن الله يغضب لغضبهم ، ويرضى لرضاهم ، وذلك أن الحكماء هم العلماء ؛ وهم الراضون عن الله عز وجل ، وهم جلساء الله غدًا، بعد النبيين والصديقين ·

يا غلام ! احفظ عنى واعقل ، واحتمل ولا تعجل ، فإن التأنى معه الحلم والحياء ، وإن السفه معه الخرق والشؤم· قال : فسألت عيناى ، وقلت : والله ما حملنى على مفارقة أبواى ، والخروج من مالى ، إلا حب الأثرة لله، ومع ذلك الزهد فى الدنيا ، والرغبة فى جوار الله تعالى · فقال : إياك والبخل ؟ فقال : أما البخل - عند أهل الدنيا - هو أن يكون الرجل بخيلا بماله ، وأما الذى عند أهل الآخرة ، فهو الذى يبخل بنفسه عن الله تعالى ، ألا وإن العبد إذا جاد بنفسه لله ، أورث الله قلبه الهدى والتقى ؛ وأعطى له السكينة والوقار والعلم الراجح ، والعقل الكامل ، ومع ذلك تفتح له أبواب السماء ، فهو ينظر إلى أبوابها بقلبه كيف تفتح ، وإن كان فى طريق الدنيا مطروحًا ·

فقال له رجل من أصحابه : اضربه فأوجعه ، فإنا نراه غلامًا قد وفق لولاية الله تعالى · قال · فتعجب الشيخ من قول أصحابه : قد وفق لولاية الله تعالى ، فقال لى : يا غلام ! أما إنك ستصحب الأخيار ، فكن لهم أرضًا يطأون عليك وإن ضربوك وشتموك وطردوك ، وأسمعوك القبيح ، فإذا فعلوا بك ذلك ، ففكر فى نفسك : من أين أتيت ؟ · فإنك إذا فعلت ذلك ، يؤيدك الله بنصره ، ويقبل بقلوبهم عليك ، واعلم أن العبد إذا قلاه الأخيار ، واجتنب صحبته الورعون · وأبغضه الزاهدون ، فإن ذلك استعتاب من الله تعالى لكى يعتبه ، فإن أعتب الله عز وجل ، أقبل بقلوبهم عليه ، وإن تمرد على الله ، أورث قلبه الضلالة ، مع حرمان الرزق ، وجفاء من الأهل ،

ومقت من الملائكة ، وإعراض من الرسل بوجوههم ثم لم يبال الله فى أى واد يهلكه .

قال. قلت : إنى صحبت وأنا ماش بين الكوفة ومكة - رجلا فرأيته - إذ أمسى - يصلى ركعتين فيهما تجاوز ، ثم يتكلم بكلام خفى ، بينه وبين نفسه، فإذا جفنة من ثريد عن يمينه ، وكوز من ماء ، فكان يأكل ويطعمنى . قال : فبكى الشيخ عند ذلك وبكى من حوله ، ثم قال : يا بنى ! - أو يا أخى - ذاك أخى داود ، ومسكنه من وراء بلخ ، بقرية يقال لها : « الباردة الطيبة » ، وذلك أن البقاع تفاخرت بكينونة داود فيها : يا غلام ! ما قال لك ؟ وما علمك ؟ . قال علمنى (اسم الله الأعظم) فسأل الشيخ : ما هو ؟ فقلت: إنه يتعاظم على أن أنطق به ، فإنى سألت به مرة ، فإذا آخذ بحجزتى ، وقال : سل تعطه . فراعنى ؛ فقال : لا روع عليك ! أنا أخوك الخضر ، إن أخى داود علمك إياه فإياك أن تدعو به إلا فى بر قال : يا غلام ! . إن الزهاد فى الدنيا ، قد اتخذوا الرضا عن الله لباسا ، وحبه دثارًا ، والأثرة له شعارًا ، فتفضل الله تعالى عليهم ، ليس كتفضله على غيرهم . ثم ذهب عنى ، فتعجب الشيخ من قولى . ثم قال : إن الله سيبلغ ممن كان فى مثلك ، ومن تبعك من المهتدين

ثم قال : يا غلام : إنا قد أفدناك ومهدناك ، وعلمناك علما . ثم قال بعضهم : لا تطمع فى السهر مع الشبع ، ولا تطمع فى الحزن مع كثرة النوم ، ولا تطمع فى الخوف لله مع الرغبة فى الدنيا ، ولا تطمع فى الأنس بالله مع الأنس بالمخلوقين ، ولا تطمع فى إلهام الحكمة مع ترك التقوى ، ولا تطمع فى الصحة فى أمورك مع موافقة الظلمة ، ولا تطمع فى حب الله مع محبة المال والشرف ، ولا تطمع فى لين القلب مع الجفاء لليتيم والأرملة والمسكين ، ولا تطمع فى الرشد مع ترك مجالسة العلماء ، ولا تطمع فى الحب لله مع حب المدحة ، ولا تطمع فى الورع مع الحرص فى الدنيا ، ولا تطمع فى الرضا

والقناعة مع قلة الورع ، ثم قال بعضهم يا إلهنا ! أحجبه عنا ، وأحجبنا عنه . قال إبراهيم : فما أدرى أين ذهبوا [١] .

مصطلحات الصوفية فى النص الأدبى :

جمع هذا النص الصوفى حشدا كبيرا من المصطلحات الصوفية تناولنا بعضها بالشرح قبل ذلك كالزهد والأنس والحزن والبخل وغيرها ، وسنقف مع البقية لنجلى معناها عند الصوفية وهى كثيرة أهمها :

١ - **التوبة** : جاءت فى قوله : فإن أعتب الله عز وجل الخ ، وحقيقتها الرجوع عما هو مذموم إلى ما هو محمود ، وفى الشرع تقوم على شروط هى : الندم - ترك الزلة - رد المظالم - العزم على عدم العودة ، وعند الصوفية أن أول شروطها الانتباه واليقظة فى كل لفظة ولحظة وثانيها الإنابة ، وثالثها التفكير فى الحسنات ، ورابعها أن ينسى كل شىء ليرى ربه دائما ، والتوبة بهذا المعنى أمر شاق لا يقوى عليها إلا من وفقه الله لها ، ولذلك قسم أبو على الدقاق التوبة إلى ثلاثة أقسام : التوبة وهى صفة المؤمنين قال تعالى : وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون . وأفضل منها الإنابة وهى صفة الأولياء قال تعالى : وجاء بقلب منيب ﴾ وأسماهما الأوبة وهى صفة الأنبياء والمرسلين قال تعالى : نعم العبد إنه أواب ﴾ وقال ذو النون : توبة العوام من الذنوب وتوبة الخواص من الغفلة ؛ وقال النورى : التوبة : أن تتوب من كل شىء سوى الله تعالى ، وغير ذلك مما ورد فى هذا المصطلح [٢] .

٢ - **الورع** : وحقيقته عند عامة المؤمنين فى الابتعاد عن الشبهات وهى ما بين الحلال والحرام أو ما اعتراه شك ، قال الرسول الكريم : « ملاك دينكم

---

(١) طبقات الصوفية : السلمى تحقيق نور الدين شربية الناشر جماعة الأزهر للنشر والتأليف . ص٣١: ٣٥ الناسخ من النسخ وهو التغيير - تبصص: تملق. الخرق : جمع أخرق وهو الأحمق . الشؤم : ضد اليمن وهو منزوع الخير . حفنة من ثريد : إناء فيه طعام . بحجزتى : الوسط . دثارا : من دثر بمعنى اشتمل .

(١) عوارف المعارف : السهروردى . رسالة القشيرى : ١ / ٣١١. : ٣٢٥ ، اللمع : الطوسى ٦٨ . الإحياء : الغزالى ٤ / ٤٥ .

الورع » وورع الخاصة : وهو ما حاك فى القلب وإن كان حلالا ، قال النبى الكريم : الإثم ما حاك فى صدرك ، وورع خاصة الخاصة : وحقيقته ألا ينصرف القلب عن الله عز وجل طرفة عين ، قال الرسول الكريم : (أن تعبد الله كأنك تراه) ، قال الشبلى : الورع أن تتورع عن كل ما سوى الله تعالى[1].

٣ - **الخوف** : ولا تطمع فى الخوف لله مع الرغبة فى الدنيا ، وحقيقته: الخوف من مقام الله عز وجل قال تعالى ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان**﴾ وهو يختلف عن الخوف من عذاب الله فى الدنيا والآخرة فالعارف يخاف الله تعالى هيبة له وتعظيما وإجلالا ، قال الواسطى : الأكابر يخافون القطع والأصاغر يخافون العقوبة [2] وقسمه أبو على الدقاق إلى مراتب :

١ - الخوف من شرط الإيمان وقضيته ، قال تعالى : ﴿ **وخافون إن كنتم مؤمنين** ﴾ .

٢ - والخشية من شرط العلم قال تعالى: ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ .

٣ - والهيبة من شرط المعرفة ، قال تعالى : ﴿**ويحذركم الله نفسه**﴾ [3] .

٤ - الصبر : وجاء فى النص أدنى درجات الصبر ، وهى تحمل المكاره، وأعلاها أن تستعذب المكاره ، وأن تكون لها فى نفسه لذة لأنها من الله وفى الله وبالله ، وصدق الله العظيم : ﴿ **إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب**﴾ ، قال ذو النون : ليس بصادق فى حبه من لم يتلذذ بصبره وسماه الشبلى : الصبار : فذاك الذى صبره فى الله ولله وبالله ، فلو وقعت عليه البلايا لا يجزع ولا يتغير من جهة الوجوب والحقيقة، لا من جهة الرسم والخلقة وغير ذلك[4] .

٥ - **الرجاء** : فى قوله : ورجاء لثواب الله تعالى - والرغبة فى الله تعالى

---

(١) رسالة القشيرى ١ / ٣٥٤ : ٣٦٤ - اللمع : الطوسى ٧٠ ، ٨١ .

(٢،٣) اللمع : ٩٠ رسالة القشيرى ١ / ٣٨٦ .

(٤) الإحياء : الغزالى ٤ / ٦٠ : ٧٨ - اللمع : ٧٧ .

وحقيقته بصفة عامة : تعلق القلب بمحبوب سيحصل فى المستقبل، وعند الصوفية بمعنى الأمن بالله، والإدلال عليه، وحسن الظن به ، قال الرسول الكريم: يقول الله عز وجل(أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه ، إذا ذكرنى فى نفسه ، ذكرته فى نفسى ،وإن ذكرني فى ملأ ، ذكرته فى ملأ هو خير منه ، وإن اقترب إلى شبرا اقتربت إليه ذراعا ، وإن اقترب لى ذراعا اقتربت إليه باعا، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة) (رواه الشيخان) [١] .

٦ - **الرضا** : ليس الرضا عند الصوفية استواء العطايا والبلايا فى التأثير على النفس فحسب ، ولكنه أسمى من ذلك ، وهو أن يتذوق القلب حلاوة القضاء ، فما قدره الله فى الأزل للعارف قد رضى الله عنه لأنه أصلح له ، قال تعالى : رضى الله عنهم ورضوا عنه قال أبو سليمان الدارانى أرجو أن أكون عرفت طرفا من الرضا : لو أنه أدخلنى النار لكنت بذلك راضيا [٢] .

٧ - **الصحبة** : [٣] واتضحت حقيقتها من النص وأساسها عدم الغضب، لتجردها من النفع الدنيوى قال الرسول الكريم : (ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وافترقا عليه) وقال أيضا (وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله) ، وقال ذو النون : لا تصحب مع الله إلا بالموافقة ، ولا مع الخلق عند الخاصة إلا بالمناصحة ، ولا مع النفس إلا بالمخالفة ، ولا مع الشيطان إلا بالعداوة .

٨ - **المريد** : هو الذى يتجرد بنفسه عن أحوال الناس متفرغا للتوبة وأداء الفرض ، وإيقاظ القلب بتلاوة القرآن ، قال أبو سعيد الخراز وعلامة المريد : صدق إرادته وأن يكون فى الغالب عليه الرقة والشفقة والتلطف والبذل واحتمال المكاره ،ويكون للشيخ كالابن البار ، وللصبى كالأب الشفيق .

٩ - **حفظ قلوب المشايخ وعدم الاعتراض عليهم** : ألا يعترض المريد بقلبه على شيخه ، وألا ينكر عليه أمره ، وإذا فعل ذلك وجب عليه أن يستغفر ربه ويتوب إليه ، قال تعالى فى قصة موسى مع الخضر : (**هل اتبعك**

---

(١) رسالة القشيرى ١ / ٣٠٠ - اللمع : ٩١ .

(٢،٣) اللمع ٨٠ ، ٢٣٤ - رسالة القشيرى : ٢ / ٤٢١ .

على أن تعلمنى مما علمت رشدا » وقال الرسول الكريم : (ما أكرم شاب شيخا لسنه إلا قيض الله تعالى له من يكرمه عند سنه) [1] .

١٠ - **القبض والبسط** : فى قوله : فإن الله يغضب لغضبهم ؛ ويرضى لرضاهم ، ولا تطمع فى الإنس بالله مع الأنس بالمخلوقين ، وهما يتعاقبان على النفس والقلب، ويتقلبان للدلالة على البشرية، وأن الكمال لله وحده والبسط، يتحقق للعارف أثناء انكشاف القلب بالله ؛ فيمتلئ استبشارا وسرورًا بالله ، حتى إذا أخذت النفس حظها من السرور ، وأفرطت فى ذلك حدث القبض فيها وهو الحرمان من السرور والاستبشار ، وحينئذ يحجب القلب عن لذة التمتع بالمشاهدة ، ثم إذا ما عاد قلب العارف إلى حال المشاهدة ، حدثت حالة البسط، وهكذا يعيش ما بين بسط وقبض فى التمتع بمعرفة الله والحرمان منه[2] .

١١ - **السماع** : فى قوله : فسالت عيناى - فتعجب الشيخ من قول أصحابه - فتعجب الشيخ من قولى · وحقيقته : وارد سمعى يهز القلب ، يتمثل فى الصوت الحسن ، والنغم الجميل ، والكلام الموزون فى إيقاع رتيب، يحرك ما فى القلب من حب وشوق ، ويهيج ما فيه من وجد وقلق ، فتتزاحم فيه أنوار اللطائف ، وينبعث الفم بالصراخ ، وتنطلق الجوارح بالحركات والجسم بالاهتزاز ، فهو مهيج للقلوب ، مثير لما فيها من أشواق ومواجيد فيستريح بالشهقة والصرخة والحركة والصعقة ، ويرى الصوفية أن هذا الانزعاج لا يقع إلا من المبتدئ والمريد لضعف حاله عن تحمل السماع الوارد عليه ؛ أما الشيخ وأرباب النهايات ، فلا ينزعجون من الوارد لثباتهم واتساع أسرارهم · فهم ثابتون فى الظاهر متحركون فى الباطن ·

---

(١) اللمع : ٢٧٥ - رسالة القشيرى : ٢ / ٦٣٣ ، هذا معنى المريد ، فأما المراد فهو المأخوذ عن إرادته الذى جذبه طريق الصوفية ، والشيخ يطلق على مصطلحات هى القطب ، والأوتاد ، والأبدال ، والنقباء ، والنجباء ، والإمامان ولكل منها معنى عند الصوفية ·

(٢) رسالة القشيرى : ١ / ٢٣٩ ·

والمسموع عندهم أمران : أحدهم : النغم الصادر عن أدوات الطرب الجامدة كالطبلة والمزمار والعود وغيرها وهو محظور عندهم ، ثانيهما : النظم الدقيق والشعر الموزون ، وهو المستحب عندهم لأن الرسول الكريم وصحابته كانوا يستمعون إلى شعراء الإسلام ويهتزون لهم ويمدحونهم مثل شاعر الإسلام حسان بن ثابت الأنصارى ، قال تعالى : ﴿ **فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه**﴾ . (الزمر ١٨) . أما الضرب بالدفوف والعزف بالآلات فقد أباحه الرسول الكريم ترخصا فى الأعياد والعرس والأفراح . وقد قسم الصوفية السماع من حيث الحل والتحريم إلى ما هو حرام بالنسبة للشباب الذين تكدرت بواطنهم ، فاستحكمت بهم الشهوات وملكهم حب الدنيا ، وما هو مباح لمن لا يترك السماع فى نفسه إلا السرور والفرح عن طريق الاستمتاع بالصوت الحسن . وما هو مندوب فى نظر الصوفية ويكون ممن بلغ درجة التصوف والوقار ، وغلب على قلبه حب الله والشوق إليه ، فتتحرك الصفات المحمودة فيه ، قال ذو النون فى السماع : وارد حق يزعج القلوب إلى الحق ، فمن أصغى إليه بحق تحقق . ومن أصغى إليه بنفس تزندق ، وقال الشبلى : ظاهره فتنة وباطنه عبرة ، فمن عرف الإشارة حل له السماع ،وإلا فقد استدعى الفتنة وتعرض للبلية . وقال الجنيد : السماع فتنة لمن طلبه ، وترويح لمن صادفه(١) .

١٢ - كرامات الأولياء : مثل كرامة داود من الطعام والشراب وغيرها : الولى فعيل بمعنى فاعل مثل قدير بمعنى قادر ، وعلى ذلك فالطاعات تتوالى على يديه ، أو بمعنى مفعول مثل قتيل بمعنى مقتول والمعنى أن الله تعالى يرعاه بحفظه ويتولاه بصونه . والكرامة ظاهرة تناقض العادة وفوق طاقة الإنسان ، والفرق كبير بينها وبين المعجزة ، فالكرامة لا يدعيها الولى لنفسه ، ولا يطلبها حيث يريد لدحض الآخرين ، وليس من الضرورى أن تكون لكل ولى ، وألا

---

(١) حل الرموز ومفاتيح الكنوز : العز بن عبد السلام ٢٥ : ٣٨ ، رسالة القشيرى : ٢ / ٦٣٧ : ٦٦ ، اللمع : ٣٣٨ : ٣٧٥ ، روض الرياحين : اليافعى ٢٧٨ : ٢٨٠ - الإحياء : الغزالى ٢ / ٢٢٨ .

يتظاهر بها عند الناس ، بل هى من نفسه أمر لا يلقى لها بالا ، والمعجزة : يدعيها النبى لنفسه ويطلبها حيث أراد للرد على المعاندين ، ولكل نبى معجزة ، ويبلغها النبى لمن بعث إليهم ، ولا يجوز أن تقع منهم هنوات وزلات ، بينما تقع هذه من الولى ، سئل الجنيد عن العارف : هل يزنى ؟ (فأطرق مليا ثم رفع رأسه وقال : وكان أمر الله قدرا مقدورا) .

والأدلة على حصول الكرامة للأولياء كثيرة ، من العقل فالله قادر على أن يؤيد أولياءه الذين يسيرون فى طريق الله ورسوله ، وفى ذلك تأييد لدينه ولرسوله وحفظ لشريعته : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ . الحجر ٢٩ ، وليس ذلك عجيبا فالنائم عندما تغفل الحواس وتستولى الروح على النفس وحدها ، وتسمو بين العوالم الروحية ، تشاهد الغيبيات والرؤى الصادقة ،وهذا أولى بالنسبة للولى الذى سيطر على نفسه ، وأمات فيها الملذات ، وقمع الشهوات ، فتعطلت الحواس ، وضعفت قواها ، عند ذلك تسمو الروح وتصفو ، وتستحق من الله أن يمن عليها بما هو فوق العادة ؛ قال الرسول الكريم : (رب أشعث أغبر ذى طمرين (ثوبين قديمين) لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره) رواه البراء بن مالك وأخرجه الترمذى وأخبار كثيرة أخرى منها حديث جريج ، وصبى آخر .. إلخ) وحديث الثلاثة فى الغار انحطت عليهم صخرة من الجبل ، فسدت مدخل الغار ، فتشفع كل واحد منهم بعمله الصالح : الأول : بين والديه ، والثانى : أعرض عن الزنا خوفا من الله ، والثالث : استثمر أجرة الأجير ، إلخ الخبر ، وكذلك قصة سارية الجبل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه وغيرها من الحكايات والكرامات التى وقعت لبعض العارفين وجاءت فى روض الرياحين لليافعـــــى وفى روضة المحبين لابن القيم وغيرهما [1] .

ولا مجال لإنكار كرامة الأولياء ،على الرغم من ضعف معظم الأحاديث التى وردت فى هذا الباب ، ومن المبالغات الكثيرة التى جاءت فى مصادر جمه

(١) انظر : رسالة القشيرى ٢ / ٦٦٠ : ٧٣١ - اللمع : ٣٩٠ : ٤٠٨ . بين الشريعة والحقيقة : العز بن عبد السلام : ٣٩ : ٥٥ وغيرها .

لأعلام فى الأدب والعلم والتاريخ ، لأن الكرامة فى ذاتها أمر ممكن حدوثه من الله عز وجل تكريما لأوليائه - كما قلت وإعزازا لدينه وحفظا له ، بل إن العقل البشرى وهو قاصر وصل عن طريق العلم إلى عجائب الصناعات ، وغرائب المخترعات ، والله سبحانه هو الذى نظم أداة التمييز فيهم ، فكيف بعبده الذى سمت روحه فهو أولى بأن تجرى على يديه الكرامة ·

ولكن الذى أراه هو أن الولى لا يتحدث بحال عن كراماته ، ولا يعطى لها وقتا ينصرف فيه عن ذكر الله ، لأن قلبه قد امتلأ بحب ربه ، ولا مكان فيه للشواغل الأخرى ، بل الولى هو الذى يختفى عن الأنظار ، ويألف الخلوة والبعد عن الناس إمعانا فى الإخلاص والصفاء المجرد · ويغضب من الغير إذا تحدث عن كرامة وقعت له ، وأعتقد أن مصادر الكرامات فى التاريخ فيها الكثير من الخلق والخلط والاختراع ، وليس هذا غريبا ، فقد سرى سمومه فى كل العلوم والمعارف الإنسانية لمختلف الأمم فى كل جيل وعصر ·

النص فى الميزان :

أولا : الخصائص الفنية : هذا النص الأدبى يمثل فنا من فنون النثر الأدبى ، وهو الأقصوصة ولها خصائصها الفنية التى تتميز بها ، وهى :

(أ) المقدمة وتنبنى على رحلة إبراهيم بن أدهم ، حيث التقى فى سياحاته الصوفية بشيخ اشتهر بالتصوف والولاية فى الأسكندرية ، وهو أسلم ابن يزيد الجهنى ، وفيها ترى ما كان يبذله العارف بالله من الجهد والوقت فى الوصول إلى الطريق، والتلمذة على يد أستاذ الطريقة ضرورة ، وينبغى التأدب بشيخ فيها ، وإلا ضل المريد الطريق ، يقول أبو يزيد البسطامى : من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان ·

ويقول أبو على الدقاق : الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس فإنها تورق ، ولكن لا تثمر ، كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يأخذ منه طريقته نَفَسًا نَفَسًا فهو عابد هواه ، لا يجد نفاذا [1] .

---

(١) رسالة القشيرى : ٢, ٧٣٥ ·

(ب) **الحدث والحكاية** : توالت الأحداث حدثًا بعد حدث فى تتابع ونمو لتكشف عن الغرض من الأقصوصة ، وهى ثبوت الولاية لإبراهيم بن أدهم ، وظلت الأحداث تتصعد ، حتى أشرفت على هذا الغرض ، فأما الحدث الأول يدور الحوار فيه بين الشيخ وبين مريديه إبراهيم بن أدهم وأصحاب الشيخ الذين كانوا معه قبل وصوله،وفى هذا الحوار تعرف الشيخ على المريد الجديد ، وعلى البلد الذى نبت فيها ، وهى خراسان ، وعلى الغرض من الرحلة إليه ، والخروج منها ، فأفصح المريد عن سبب الخروج ، وهو الزهد فى الدنيا ، ورجاء لثواب الله تعالى ؛ لكن الشيخ يرشد تلميذه ، بأن مقام الرجاء لا يتم فى نفسه إلا بعد تمكن مقام الصبر منها ، وعلى ذلك فالصبر درجة أعلى من الزهد ، وأدنى من الرجاء ، ويشرح له معنى الصبر ودرجاته ، وأن أسمى درجات الصبر ، تسمو بالزاهد إلى مقام القرب ، ومراقبة الأحوال والحقائق ؛ فينكشف للقلب التمييز بين الحق والباطل ، والناسخ والمتشابه : وكأنى بالشيخ يرتب له المقامات الصوفية ترتيبًا تصاعديًا ، الأول فالأول كالزهد، ثم الصبر ، ثم القرب ، ثم المراقبة ثم الرجاء .

وأما الحدث الثانى ينمو من مقام المراقبة والكشف ، وهو الذى جعل المريد يصف شيخه بالولاية فاستغفر ربه على ما أذنب من وضع الحكمة فى غير موضعها ، حيث إنه تعجل فأودعها قلب إبراهيم ، الذى ألح على طلبها من الشيخ ، فأخذ يعلمه خطأه الذى أفسد آداب الصحة ، وهو أن يرضى شيخه ولا يغضبه ، وأن يستغفر الله عز وجل ، إذا أغضب المريد شيخه ، لأن سخطه من سخط الله عز وجل ، ورضاه من رضاه ، وكذلك أن يتصف بالتأنى ، الذى يجمع صفتى الحلم والحياء ، وينفى صفتى الخرق والشؤم ولما أحس إبراهيم بجرمه تفجرت عيناه بالدموع ، ليغتسل من الذنب الذى وقع منه لشيخه، ولكى يصفح عنه أشفع الدموع بمبررات أخرى ، هى أنه ترك أهله وماله حبا فى الله ، وإيثارًا له ، وزهدًا فى الدنيا ورغبة فى جوار الله تعالى ، وهو يريد بذلك جوار أهل الله تعالى ، ومنهم شيخه هذا ، الذى يلح على عفوه .

وأما الحدث الثالث ينبع متسلسلا من حديث المريد عن ترك ماله وأهله ، فيوضح الشيخ البخل والجواد من أول قوله : إياك والبخل . ويذكر لمريده أن الجود ليس بترك الأهل والمال ، وأن البخل ليس فى الحرص على المال وصحبة الولد فقط ، وإنما الجود الحقيقى أن يجود العارف بنفسه لله ، وأن البخل الحقيقى حين يبخل الإنسان بنفسه عن الله تعالى ، حينئذ يتصف المريد بصفات العارفين بالله من الهدى والتقى والسكينة والوقار ، والعلم الراجح والعقل الكامل ، وتتفتح له أبواب السماء، وتنكشف له الأسرار بحضور قلبه بالله ، فتحقق له صفة الولاية ، التى تعرف على ملامحها عند إبراهيم ، مما جعل الشيخ ، يتعجب من حكم أصحابه .

وأما الحدث الرابع يتصعد من الحديث عن الولاية إلى آداب الصحبة التى تنمو فى النفس ، وتتحقق صفتها للمريد ، من قوله : أما إنك ستصحب الأخيار . حيث وضح آداب الصحبة ، منها الملازمة والتواضع ، وحسن الاستماع والتواصل ، وألا ينسب إليهم خطأ ، وغيرها . وأما الحدث الخامس ينمو من صفات الولاية ، حينما يجدها إبراهيم أبن أدهم فى نفسه، ويحكى قصته مع داود الطائى ومع الخضر والإسم الأعظم ، حتى تعجب شيخه من أمره . وأما الحدث الأخير فقد نبع من عجب الشيخ وأصحابه الذى دعاهم إلى أن يضعوا القواعد والأصول فى علم التصوف ، ويحددوا معالم الطريق إلى حب الله ، وأنه المصدر الحقيقى للقرب إلى الله ، والجوهر الأصيل لمعرفته والحضور به ، حتى يبلغ الشيخ مع مريديه وأصحابه الغاية فى ذلك ، مما جعلهم يطلبون من الله أن يحجبهم عنه ؛ ليتخففوا قليلا من شدة ما عانوا من الوجد ، وما تلقوا من التعاليم الصوفية الشديدة على النفس .

(حـ) **الشخصيات** : دارت الأحداث حول شخصيات محدودة تتناسب مع حجم القصة القصيرة ، فأما البطل فيها فهو إبراهيم بن أدهم ، يتمثل فى شخصية « المريد » إذ كشف الموقف عن هذا الدور بدقة وإحكام ، فبرزت معالم المريد فى شخصية البطل بخصائصها ، التى اصطلح عليها الصوفية ، وهى الخروج من الدنيا والزهد فيها ، والخروج عن المال والجاه ، والصبر

والإنصات التام ، وترك السؤال والمعارضة ، والحلم والحياء ، وعدم المخالفة لشيخه وحسن الظن به ، وأن يحفظ سره، وألا يظهره لأحد غيره مثل حفظه لإسم الله الأعظم ، وألا يترك شيخه حتى يأذن له أو يحجب عنه ، وألا ينزعج عند السماع لوارد إلا بمقدار الغلبة فقط ؛ فلا يتمادى فى الحركة طويلا وعدم القدرة على دفع البكاء عنه حين سالت عينا إبراهيم بالدموع ، وعدم التحمل للتعاليم مرة واحدة لشدتها على نفسها ، وذلك حين قال الأصحاب : أحجبه عنا واحجبنا عنه ، وغيرها من الصفات التى بها تكتمل شخصية المريد كما هو واضح من خلال الأحداث فى الأقصوصة .

وأما الشخصية الثانية فى الدرجة فهى دور الشيخ ، حين أبرز الموقف شخصيته بصفاتها ، التى تواضع الصوفية عليها ، منها : أن تشد إليه الرحال ، وأن يتواجد عنده الأصحاب ، وأن يبتدأ بالسؤال، وأن يصدر التعاليم والنصائح ، وأن يضع تلاميذه فى مواطن الاختبار ، فإذا أخطأ لا يتجاوز عن زلاته ، بل يعاقبه ، وذلك يبدو فى عجلة إبراهيم ، فحكم لشيخه بالولاية ، مما جعله يستغفر ربه ، ويعاقبه على العجلة بأنه أغضب شيخه ، وينبغى عليه أن يرضيه، فيراجع نفسه التى أذنبت ، وكذلك حين اختبره ليعرف منه الاسم الأعظم ، فتعجب منه ، لأن إبراهيم حفظ سر شيخه ، وكتمه عن غيره ، ومن صفات الشيخ أيضا الوقار والثبات عند الإنزعاج لوارد أثناء السماع ، فلا يبكى أو يتحرك بل يقتصر على الإعجاب فقط ، وذلك حينما تعجب الشيخ من أصحابه، وتعجب من حكاية إبراهيم مع داود الطائى ، وشخصية الشيخ هنا كانت فى شخص أسلم بن يزيد الجهنى ، وداود الطائى ، وقد كشفت المواقف عن طبيعتها عند الصوفية (١) .

وأما الشخصية الثانوية فقد تمثلت فى أصحاب الشيخ ، حيث أدوا دورهم على قدر حجمهم فى الأقصوصة ، وهو دور المعين للبطل على أداء دوره ، فشجعوه على طلب التعليم من الشيخ بعد أن تعجل معه ، ثم طلبوا

---

(١) أنظر طبيعة المريد وطبيعة الشيخ فى اللمع : الطوس ٢٧٣ : ٢٨٠ ، رسالة القشيرى : ٢,٦٢٣ ، ٧٣١ : ٧٥٣ .

من شيخهم أن يزيده إرشادا وتوجيها ؛ لأنهم لمحوا فيه صفة الولاية ، ثم عدم التحمل لتلقى التعاليم الصوفية من شيخهم ، لشدتها حيث طلبوا من الله أن يحجبه عنهم .

(د) **وأما المكان**: فهو الأسكندرية التى ينزل فيها أسلم بن يزيد هو وأصحابه فى مكان محدد فيها، **وأما الزمان** فبقدر الجلسة التى ألقى الشيخ فيها تعاليمه ، ووضح لهم طريق التصوف ، وترى هنا أن الزمان والمكان محدودان على قدر الأحداث القصيرة التى تتناسب مع الأقصوصة ، على عكس القصة التى يتسع المكان فيها ، فيتسع للأسكندرية كلها ، بل القطر كله ، ويمتد الزمن أيامًا وشهورًا بل أعوامًا .

(هـ) **وأما العقدة فى الأقصوصة** : فقد تشابكت الأحداث فى نمو وتصاعد ، تسير قدما نحو الغاية المقصودة من القصة ، وهى إثبات الولاية لإبراهيم بن أدهم ، وتأزمت المواقف وخاصة بعد أن تعلم من شيخه داود اسم الله الأعظم، وازداد الموقف تأزما عندما سأل به مرة،وإذا برجل آخذ بوسطه ، فأخذه الروع ، لكنه يخفف من روعه ، ويعلمه حق الاسم الأعظم عليه فى نفسه ، ومواطن كشفه وإسراره ، وفى هذه المواطن كانت العقدة والأزمة فى القصة ؛ لذلك تعجب الشيخ من مريده ، الذى وصل إلى درجة الولاية .

(و) **الحل** : وكان موقعه عندما ظهرت ولاية إبراهيم ، فتعجب شيخه، وأخذ يلقى على سمعه وعلى أصحابه درسًا فى علم التصوف وقواعده وأصوله، ومعالم الحب فى الله التى تمثل دعائم الولاية ، وهى ذاتها ثمرة الحب الإلهى ونتيجة الإخلاص فيه .

(ز) **الأسلوب** : اعتمدت الأقصوصة فى أسلوبها على الحوار القصصى بين الشخصيات فيها ، وخاصة بين الشيخ والمريد ، وبينهما وبين أصحاب الشيخ ، وبين المريد والخضر عليه السلام ، ولم يكن الحوار سريعًا . فكانت الحركة بطيئة فيه ، لأنها تعتمد على الوعظ والتعليم ، وكلاهما يتناسب مع الأسلوب الخطابى ؛ ليطول الموقف الواحد ، وخاصة فى جانب الشيخ الذى يعظ المريد مثل الحدث الثالث فى مواعظ الأصحاب وفى الحدث الأخير .

ويمتاز الاسلوب أيضًا بقصر الفقرات ، واكتناز الجمل ، لتناسبه مع صدور التعاليم من الشيخ إلى مريده ، حيث يورد كلامه موقعًا فى مقاطع سريعة ؛ ليكون الإيقاع الموسيقى فى كل جملة أظهر وأشد · ويغلب على الأسلوب التعبير الحقيقى ، لا التعبير المجازى ، لذلك تقل ألوان البيان من تشبيه واستعارة وكناية ، لأن مقام التعليم يقتضى التحديد فى المعنى ، والتنصيص على المراد بالوسائل الدقيقة المحددة لا بالألفاظ الفضفاضة ، التى عمل الخيال على إبهامها وتوسيعها ، كما أنه لم يتكلف القول فى المحسنات البديعية إلا ما جاء عفو الخاطر كالطباق بين الحق والباطل ، وبين الناسخ والمتشابه وغيرها ، وكذلك نجد التلاؤم بين الأسلوب وبين الموقف والشخصية · فعندما يتحدث الشيخ يطول الحديث وتتشعب جوانبه ، ويأتى فيه على كل معنى : مستقصيًا كل ما يتصل به من معان ، وإذا ما تحدث إبراهيم أو أصحابه أوجزوا قولهم وألحوا فى سؤالهم ، تأدبا مع شيخهم ، وإظهارًا لقلة ما عندهم ، وتحقيقا لصفة المريد الذى يكون فى موقف المستمع المنصت ، ولم يطل موقف المريد إلا فى حالة واحدة ، وذلك حينما حكى إبراهيم قصة ولايته مع داود والخضر ، ومع ذلك فقد أوجز فيها إلي حد بعيد ، وكذلك الأصحاب فى الحدث الأخير ·

أما أسلوب تعاريف التصوف والمقامات والأحوال والحكمْ والأوراد والوصايا والنصائح والدعاء فيعتمد - لا على الإطناب والاستطراد - بل على الإيجاز والتركيز والإيحاء · وقصر الجمل والسجع وسائر المحسنات ، وغيرها من وسائل ضغط المعنى وإبرازه ، فى مقاطع سريعة ، لما يقصده الصوفية - فى أسلوبهم من الغموض والإبهام ، وإضفاء جو من الوحى والرمز ؛ ليبعثوا فى النفس نوعا من التطلع لما هو غامض ، ولكى تدوم الصلة بين المريد وشيخه ، وهو يأمل منه أن يوضح له الغموض يوما بعد يوم ، وذلك كله لإشاعة نوع من الهيبة والتأمل والإستغراق ، وتلك صفات الصوفى الحقيقية ، فالأسلوب عندهم على المثال السابق هو شخصهم ، ونموذج لطبيعة اتجاههم ومذهبهم ، فالمرء مخبوء تحت لسانه ·

ثانيا : الأقصوصة الصوفية بين الحقيقة والوضع : رحلات الصوفية وسياحات العارفين بالله فى الآفاق والكرامات عندهم ، جعلت للأقصوصة بين فنون النثر الأدبى مكانًا مرموقًا ، ومنزلة رفيعة بارزة ، فكثرت عندهم ولم يخل كتاب فى التصوف من قصصهم ، وخاصة فى كتاب « روض الرياحين » لليافعى ، وكتاب . « روضة المحبين » لابن القيم ، وكتاب « تلبيس إبليس » لابن الجوزى وغيرها ، وهذا ما يدعو أن أقف معها قليلا ، لنعرف مدى صدق هذا القصص ، وأثره فى التصوف الإسلامى، وفى تربية رواد الصوفية وفى أخلاقهم ، ولا شك أن جزءًا كبيرًا منه يصور حقائق تاريخية وقعت بالفعل لرجال التصوف فى كيفية الدخول إلى طريق التصوف ، كالقصة التى رواها إبراهيم بن بشار عن كيفية دخول إبراهيم ابن أدهم طريق التصوف ، والقصة التى رواها الغزالى عن نفسه فى كتابه المنقذ من الضلال ، وكيف اعتقد أن طريق التصوف هو الطريق ، وكذلك بعض القصص فى الســـاحات والرحلات الصوفية ، وهو قصص حقيقى أيضا فى أحداثه وأشخاصه ومكانه وزمانه .

ومن هذا القصص أيضًا ما اختلط فيه الوضع بالحقيقة ، فكانت بعض الأحداث والأشخاص موضوعة ، وبعضها الآخر حقيقى ،والأقصوصة التى معنا تمثل هذا النوع ، إذ كانت معظم الأشخاص لهم وجود تاريخى وقت وقوع الأحداث فيها ، ما عدا شخصية الخضر عليه السلام ، فلم تكن موجودة آنذاك، فقد انعقد الإجماع على وفاته فى عصره ولو كان حيا لظهر للرسول الكريم وآمن به وجاهد فى صفوف المسلمين ، وكيف يظهر للأولياء ؟ ولم يظهر لخاتم الأنبياء والمرسلين ﴿ **وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون** ﴾ وأن سلوك الصوفى هو الذى يرتقى به إلى مصاف الأولياء بغير واسطة الإسم الأعظم وبغير معاونة من الخضر عليه السلام ؛ وكذلك طريق التصوف فى طبيعته ينفى ذلك ؛ لأن الصوفى لا يشغل قلبه بغير الله ، فيفنى معه كل شيء ما عدا حضور القلب بالله ، فهو لا يقر بإنسان واسطة ، مهما كان ورعه ؛ لأنه لا يرى فى الوجود غير الله :

وبعض الأحداث فيها كانت موضوعة مثل حديث ابن أدهم عن ولاية نفسه ، وإثبات الكرامة ، وأن (داود الطائى ١٦٥ هـ) علمه اسم الله الأعظم، الذى به تقع الكرامات ، وذلك الحوار الذى وقع بينه وبين الخضر عليه السلام فهى أحداث مختلفة موضوعة ، والدليل على ذلك أن الولى يكره الحديث عن نفسه وعن صلاحها ، وعن ولايته وكراماته ، لأنه مشتغل بالله فى كل وقت ، وليس فى قلبه مكان لغير الله ؛ لذلك نجد أسلم بن يزيد يستغفر الله عند ما وصفه إبراهيم بولايته ، وأخذ يعلمه آداب المحادثة مع شيوخه ، وكذلك الأمر بالنسبة للإسم الأعظم ؛ فإنه لا يلقن من شخص آخر، لأن التعرف على الله عند الصوفية يتحقق فى القلب عن طريق جهاد النفس وترويضها بالعبادة الخالصة ، حتى ينعم بالحب الإلهى والحضور بالله : وأجمع الصوفية على أن الحب والحضور منحة من الله ولم تحصل عندهم عن طريق الاكتساب والعبادة فحسب ·

وعلى هذا فالتعرف على الله لا يتحقق فى القلب عن طريق التعليم والتلقن باسم الله الأعظم ، ولو كان كذلك لعلمه الله لنبيه محمد ﷺ وخصه به لأنه أشرف الخلق أجمعين ، ولكن الله سبحانه وتعالى أخفى عليه تشريعا هذا الاسم والصلاة الوسطى وساعة الإجابة يوم الجمعة وليلة القدر · ليحض العباد على مواصلة الذكر والعبادة ، كما إن اسم الله الأعظم ليس سحراً ولا طلمسات، يستخدمها العارف لاستحضار الأرواح أو لحدوث الكرامات، لأن ذلك يتنافى مع طريق الصوفية، بل يحرمون السحر والطلمسات، حيث ادعى البعض بأن اسم الله الأعظم من باب السحر (١) ·

ومن هذا القصص أيضا ما هو موضوع كله ، وخاصة بعض القصص الذى ورد فى الكتب السالفة الذكر ، مما يتصل بعفاف الصوفية وعلاقاتهم بالنساء والأحداث من الصبيان · وهى من القصص التعليمية التى ألفت لرياضة

---

(١) فى التصوف الإسلامى : نيكولسون ترجمة أبو العلا عفيفى - قال رجل للبسطامى يسأله عن الاسم الأعظم قال: ليس له حد محدود وإنما هو فراغ قلبك لوحدانيته ، فإذا كنت كذلك فارجع إلى أى اسم تسير به من المشرق إلى المغرب ·

النفس وإيثار العفاف [1] ، وأنكر الصوفية مصاحبة الأحداث دفعا لهذا القصص الموضوع يقول الواسطى : إذا أراد الله هوان عبد ألقاه إلى هؤلاء الجيف ، وقال فتح الموصلى : صحبت ثلاثين شخصًا كانوا يعدون من الأبدال ، كلهم أوصونى عند فراقى إياهم وقالوا لى : اتق معاشرة الأحداث ومخالطتهم [2] : ومن هذا القصص الموضوع قصدًا للتصون والعفاف عند الصوفية ما ملخصه : أن فاتنة تراهنت مع زوجها لفتنة الصوفى عبيد بن عمير ، فأتته مستفتية ، ثم أسفرت له عن وجهها كالقمر ، فأمرها بالتستر ، فأجابته بأنها قد فتنت به ، لكنه أخذ يعظها ويذكرها ، حتى لامت نفسها وزوجها ، وأقبلت على العبادة ، وقال زوجها : (ما لى ولعبيد بن عمير ، أفسد علىَّ امرأتى كانت فى ليلة عروسا فأصبحت راهبة)[3] .

والمقصود من الأقصوصة - على الرغم من الوضع فيها - هو العفاف الذى يتصف به الصوفى ، وقدرته على التأثير فى الغير مهما كان شيطانيا والترغيب فى طريق التصوف وغير ذلك من التربية الصوفية والتعاليم الأخلاقية، ودراسة الأدب لا تهتم بالحقيقى منه والموضوع أكثر من اهتمامه بالتعرف على القيم الأخلاقية فيه ، والخصائص الفنية فى الشكل والمضمون ، وأثر هذين النوعين فى تربية أذواق الصوفية ، وبث التعاليم والخلق بينهم عن طريق الرواية والقصة بما لها من سحر على النفس ، وتأثير قوى عليها ، بل القصص على أى حال من أقوى الفنون النثرية للتعليم والإرشاد ، حيث يتسلل إلى النفس فى حياء وخفر ، من غير ملل أو سأم ، وبدون تصريح بالإلزام والخطابية .

ومن أهم الأسباب التى دفعت إلى الوضع فى الأقصوصة هى أن الذى يحكيها غالبًا ما يكون مريدًا أو تلميذًا أو معجبًا ، وهم جميعًا يقصونها فى حالة انبهار وإعجاب بشيوخهم ، فيمطون فى الحكاية ، ويتزيدون فيها، فهم لم

---

(١) التصوف لإسلامى : د / زكى مبارك ٢ / ٢١٠ .

(٢) رسالة القشيرى : ٢ / ٧٤٥ .

(٣) روض المحبين : ابن القيم ٣٦٤ .

يصلوا بعد إلى مرحلة التصون والدقة مثل شيوخهم . ثم عدم استقرار الشيخ والمريدين جميعًا ، فينتقلوا من مكان لآخر فى سياحاتهم ورحلاتهم ، مما يشجع الحاكى على الوضع فى القصة ، لأنه قد آمن جانب المحكى عنه لاشتغاله بالله عن غيره ، وغيابه فى سياحاته الصوفية . ومنها أيضًا أن طبيعة التصوف تقبل المبالغات ؛ لأن العارف بالله يسير فى طريق التصوف فهو يرى ألا نهاية له . فالحب الإلهى يزداد من غير انقطاع وبلا نهاية ؛ لهذا كان منفذًا للغير ؛ لكى يبالغ فى القصة بالوضع والاختلاق . فترى بعضهم يلتزم الدقة ، والبعض يحيد عنها ، والآخرون يفسرون المواقف تفسيرًا قد يخالف الحقيقة ، وتلك هى طبيعة البشر .

ولهذه الأسباب قال الجنيد فى الحكايات المختلقة عن أبى يزيد البسطامى : والناقلون عنه فيما سمعوه مفترقون ، وذلك - والله أعلم - لاختلاف الأوقات الجارية عليه فيها ، ولاختلاف المواطن المتداولة بما خص منها . فكل يحكى عنه ما ضبط من قوله ، ويؤدى ما سمع من تفصيل مواطنه (١) .

ثالثًا : القيم الأخلاقية والتربية الصوفية :

(أ) جمعت الأقصوصة بين المقامات وبين الأحوال ، فأما المقامات الصوفية التى وردت فيها فهى التوبة ، والزهد ، والصبر ، والورع ، والخوف، والرجاء ، وهذه المقامات هى معالم الأدب الزاهد لا الصوفى ، وأما الأحوال فهى الحب . والقرب والمراقبة ، والمكاشفة ، والأنس ، والسماع ، والرضا ، والولاية؛وتلك هى أحوال الأدب الصوفى وجوهره الحقيقى ، واجتماع المقامات والأحوال يدل على أن الأقصوصة اختلط .فيها الزهد بالتصوف ، والتقت المرحلتان معا ، إذ كانت تصور مرحلة الانتقال من الأدب الزاهد إلى الأدب الصوفى،لأن عصر إبراهيم ابن أدهم كان مرآة صادقة لأسمى درجات الزهد،وهى فى الوقت نفسه بداية لنشأة التصوف والأدب الصوفى،الذى لا يخلو فى بدايته من خصائص الأدب الزاهد قبله كاشتماله على المقامات السابقة،مع وجود بعض المعالم الصوفية كالأحوال السالفة الذكر .

---

(١) اللمع : الطوسى ٤٥٨ .

(ب) صورت الأقصوصة طبيعة الشيخ من الابتداء بالسؤال ، وطريقته في الإلقاء، والتصدى لموقف التعليم والارشاد ، والرزانة والوقار ، وعدم التجاوز عن زلات المريد ، وعقابه على ذلك ؛ وأن يحفظ على المريد سره ويكتمه عن غيره ، والاقتصار على الإعجاب عند السماع دون الإنزعاج ، وسعة المعارف ، وإحاطته بكبار الشيوخ في طريق الصوفية وغيرها ·

(حـ) وصورت أيضا طبيعة المريد من الإنصات التام ، والتأدب مع شيخه، ثم الانزعاج عند السماع ، والبكاء ، وعدم التحمل لشدة التعاليم ، وغيرها مما سبق ذكره في آداب المريد ·

(د) المحافظة على الأسرار القلبية في الكشف والحضور بالله ، فلا يصح تلقينها للغير ، دفعًا له في أن يصل إليها برياضاته الروحية ومجاهداته النفسية ، حتى تتحقق الأسرار في قلبه ، فيشف عنها لإخلاصه في الله ، وحبه إياه ، وليستحق بعد ذلك شرف الولاية والقرب من الله ، وهذه هي ثمرة الحب الإلهي والشوق إلى لقائه ·

* * *

الفناء في الأدب الصوفي

يظل الصوفي يتقلب في أحوال التصوف ، متساميًا فيها من حال إلى حال ، حتى يصل إلى الغاية منه وهو اليقين الحق ، ومن أحواله الحب الإلهي في شوقه ووده وأنسه وقد سبق ، وهو أول أغراض الأدب الصوفي « ثم يتصعد العارف بالله نحو اليقين منتقلا من الحب الإلهي بألوانه إلى حال الفناء والبقاء ، وهو الغرض الثاني منه ، ومعناه : أن يغيب الفاني في عبادة الله فلا يشعر بما حوله من أحوال الدنيا والرغائب فيها ، حتى تفنى الصفات والأفعال المذمومة عند البشر ، وتحل محلها الصفات والأفعال الحميدة ، ثم يستغرق في التأمل ، حتى تختفي أيضا الصفات والأفعال الحميدة إمعانًا في الفناء فلا يبقى في قلبه إلا الحق سبحانه ، الذي لا يغيب عن ذكره ؛ وفي أثناء بقاء الحق سبحانه وتعالى بذكره ، يطلق على هذا الحال « البقاء » وهو لا يستمر إلا قليلا

يرجع بعدها الفانى إلى حال الفناء مرة ثانية ، وفى أثناء البقاء يحصل اليقين الحق بالله تعالى ، وهذا يسمى « بالكشف والمشاهدة » التى تمثل الغرض الأدبى الثالث ، وسيأتى بعد أدب الفناء .

والمقصود من الفناء فناء أخلاق البشر من أفعال وصفات ، لا فناء البشرية ، فهى ما زالت قائمة بالفانى ، حيث تتغير أفعاله وصفاته ، من خبيثة إلى حميدة ، ومن حميدة إلى اشتمال اليقين بالله على القلب ، فالفانى ما زال بشرًا ، يعتريه التغير من الفناء إلى البقاء ، ومن البقاء إلى الفناء ، وهكذا ما دام حيا ، وهذا دليل البشرية ؛ أما فناء البشرية فهو الإلحاد الذى ننكره ، وينكره المسلمون من الصوفية ، ومعناه فناء البشرية واستهلاكها ، حيث لا يكون إلا الحق سبحانه وتعالى ؛ وعند ذلك يكون المخلوق الفانى هو الخالق سبحانه ؛ والخالق هو المخلوق ، وهذا ما تأباه الأخلاق فى التصوف الإسلامى وما تصدى له رجالاته ، فأنكره (الطوسى ٣٧٨ هـ) وقال : (وقد غلطت جماعة من البغداديين فى قولهم : إنهم عند فنائهم عن أوصافهم ؛ دخلوا فى أوصاف الحق ، وقد أضافوا أنفسهم بجهلهم إلى معنى يؤديهم ذلك إلى الحلول؛ أو إلى مقالة النصارى فى المسيح عليه السلام) ثم وضح لهم حقيقة الفناء والبقاء فقال : وما دام فى العبد روح وهو حى ، لا يزول عنه الحس ، لأن الحس مقرون بالحياة والروح [١] وقال : فناء الجهل ببقاء العلم ، وفناء المعصية ببقاء الطاعة ، وفناء الغفلة ببقاء الذكر ، وفناء رؤيا حركات العبد لبقاء رؤيا عناية الله تعالى فى سابق العلم [٢] .

ويجعل (القشيرى ٤٦٥ هـ) الفناء والبقاء درجات : فالأول أفناه عن نفسه وصفاته ببقائه بصفات الحق .

٢ - ثم فناؤه عن صفات الحق بشهود الحق .

٣ - ثم فناؤه عن شهود فنائه باستهلاكه فى وجود الحق [٣] ، لكن (ابن تيمية ٦٦١ هـ) حين يقسمه إلى ثلاث ، يكشف عن الإلحاد والكفر فى الفناء فيقول : والمعنى الذى يسمونه الفناء ينقسم إلى ثلاثة أقسام .

(١، ٢) اللمع : ٥٥٢ ، ٥٥٣ .   (٣) رسالته : ١ / ٢٦٣ .

١ - فناء عن عبادة السوى ، وهو أن يفنى بعبادة الله عن عـــبادة ما سواه ... وهذا حقيقة التوحيد والإخلاص .

٢ - وفناء عن شهود السوى ، وهو أن يفنـــى عن شهود ما ســـوى الله ... وهذا فيه فضيلة من جهة إقبال القلب على الله ، وفيه نقص من جهة عدم شهوده للأمر على ما هو عليه .

٣ - وفناء عن وجود السوى ، وهو قول الملاحدة أهل الوحدة كصاحب الفصوص وأتباعه الذين يقولون : وجود الخالق هو وجود المخلوق ، وما ثم غيره ، ولا سوى فى نفس الأمر . فهؤلاء قولهم أعظم كفرًا من قول اليهود والنصارى وعباد الأصنام (١) .

ومن أهم الذين اشتهروا بأدب الفناء حتى نهاية القرن الرابع الهجرى ، الحلاج والبسطامى والشبلى والنورى ، وأبو على الروزبارى وأبو حمزة على عكس الحب الإلهى فقد جرى على لسانهم غالبًا شعرًا ونثرا ، قال أبو على الروزبارى فى الفناء :

تَأَمَّلَ مـــــن بعْد تَأْميله حُلولَ فَنائك صفوَ الوصال
مَوانِعَ عن احْتواء الوِصَال إليك عن الوَصْلِ فى كُلٍّ حَال
على أنْ يَرُدَّ عَلَيْكَ الصِّفَاتَ بنَعْت التَّمكُّنِ عنْدَ الكمَال
فاقْنَعْ بقَنْعَتِـــــه أنْ تَرَاهُ فَفَتَّ مدى لحظه فى النُّوال (٢)

يصور أبو على عودةَ الصوفى بسرعة بعد فنائه عن الفناء ، من صفاء المشاهدة بالحق سبحانه إلى حالة الفناء التى كان عليها الصوفى قبل ذلك ؛ وبشىء من التفصيل حينما يتلبث الفانى فى التأمل ، ويطيل التريث فى الاستغراق مع الله ، فيفنى عن غيره ليصفو القرب من الله ، ويتحقق الوصل به ، ولن تكتمل المشاهدة فى صفاء إلا بعد أن ينحى موانعها من الشعور بالفناء

---

(١) الصوفية والفقراء : ٤٧ : ٤٩ ، بتصرف .

(٢) اللمع : ٣٢٠ واسمه أحمد بن محمد بن القاسم من أهل بغداد ثم سكن مصر ومات عام ٣٢٢ هـ ، وصحب الجنيد والنورى وأبا حمزة الصوفى . انظر طبقات السلمى ٣٥٤ ، طبقات الشعرانى١/ ٢٥٦ صفة الصفوة ٢٥٦ ،ورسالة القشيرى١/ ١٨٥ .

فى نفسه ، فإذا ما فنى عن الفناء ، دام الاتصال بالحق فى كل حال ، واستولى عليه سلطان الحقيقة بالتمكين من مشاهدة الأسرار بالله ، حتى إذا ما تم ذلك فى لمحة ، غابت عيون القلب فى حال الفناء كما كانت .

فى : (تأمل : تلبث ، تأميله : ترثيه ، موانع : شواغل ، احتواء : وجود ، إليك : نح وابعد ، الكمال : تمام المشاهدة ، فَتَّ : ضعف وغاب ، لحظة : المشاهدة ، النوال فهى تحقق المشاهدة .

وأما المصطلحات الصوفية التى وردت هنا فهى ، الفناء ، وفناء الفناء فى قوله : حلول فنائك وهو ألا يشعر الصوفى بفناء فيفنى عن فنائه ، وكذلك صفو الوصال وهو المشاهدة وستأتى بعد ، والتمكين فى التمكن ومعناه أن صاحبه وصل واتصل بالحق ؛ فاستولى عليه سلطان الحقيقة . والتمكين هو الغاية من التلوين : الذى معناه أن صاحبه ينتقل من حال إلى حال ، فهو فى تغير بالزيادة حتى يصل إلى الحقيقة ، فإذا وصل تمكن [(١)] ومن عجيب قول الحلاج فى الفناء :

عَجِبْتُ منْـــكَ وَمِنِّى ... يَا مُنْيَـــــةَ الْمُتَمَنِّى
أَدْنَيْتَنِى منْـــكَ حَتَّى ... ظَنَنْتُ أَنَّـــــكَ أَنِّى
وَغِبْتُ فِى الوَجْدِ حَتَّى ... أَفْنَيْتَنِى بِـــــكَ عَنِّى
يَا نِعْمَتِى فى حَيَاتِى ... وَرَاحَتِى بعـــــدَ دَفْنِى
مالـــــى بِغَيْرِكَ أُنْسٌ ... إِذْ كُنْتَ خَوْفِى وَأَمْنِى
يا مَنْ رِياضُ معانيـ ... ـه قد حَوَتَ كُلَّ فَنٍّ
وإِنْ تَمَنَّيْتُ شَـــيْئًا ... فَأَنْتَ كلُّ التمنى [(٢)]

---

(١) انظر عوارف المعارف السهروردى فى الإحياء ٤٧٢,٤ ، ورسالة القشيرى ١/ ٢٨٦ .

(٢ ، ٣ ، ٤) ديوان الحلاج : ٥٥ ، ٥٦ ، ٤٧ ، ٥٣ تحقيق د . كامل الشيبى . النهضة بغداد ١٩٧٤

ويقول فى الفناء ، حين يفقد وجوده بركوب الوجود :

رُكوبُ الحَقيقَة للحقِّ حَقٌّ   وَمَعْنَى العبَارة فيـــــه يدقُّ
ركبتُ الوجودَ بِفَقْدِ الوجو   د وقَلْبِى على قَسْوَةٍ لا يَرِقُّ (٣)

وقال أيضا :

فَخُضْتُ فى لُجِّ بَحْرِ فكْرى   أَمَرُّ فيـــــه كمَرِّ سَهْمِ
وغابَ عَنِّى شُـــــهودُ ذَاتِى   بالقربِ حتى نَسِيتُ اسْمى (٤)

وتصوير حالة الفناء هنا على الرغم من غموضه ، تجد فيه عذوبة اللفظ وسلاسته ، فالكلام فى مبانيها حلوة سلسلة تنساب على اللسان خفة، وواضحة من حيث معانيها فى ذاتها المفردة ، لكن الغموض جاء عن طرق شتى منها التركيب حينا مثل ركوب الحقيقة للحق حق ، وركبت الوجود بفقد الوجود ولج بحر فكرى ، ومنها غموض ألوان البيان فى ركوب الحقيقة وركوب الوجود ، وفقد الوجود ؛ وغبت فى الوجد ، ورياض معانيه ، وفخضت فى لج بحر فكرى ، وغاب عنى شهود ذاتى ، فالاستعارة غامضة يرجع غموضها إلى تجسيم المصطلحات الصوفية ، وهى الحقيقة والوجود والوجد وشهود الذات ورياض المعانى ، ومن الصعوبة بمكان أن تقف على التقارب بين المشبه والمشبه به ، ومن الغموض أيضا كثرة المصطلحات الصوفية حيث تجد غير ما سبق الغيبة ومعناها غيبة القلب عن علم ما يجرى من أحوال الخلق، والوجد ومعناه ما يصادف القلب، ويرد عليه بلا تعمد ، وهو ثمرة الأوراد، والحلول فى(أنك أنى) وسيأتى فى مكانه،ومن الغموض تتابع حروف الجر المضافة للضمير مثل: منك ومنى؛ وبك عنى وغيرها مثل: أنك أنى .

والفناء عند الحلاج يختلف عما عند الروزيارى ، فالحلاج يتصاعد فى فنائه إلى المشاهدة ثم إلى ما يشبه الحلول من الوحدة فى الوجود عند البعض فى قوله : ظننت أنك أنى .

وفى التعبير بالظن هنا يدفع عنه تهمة الحلول ووحدة الوجود ، وإن أمعن فى الفناء ، متوغلا فى المشاهدة ، حين وقف فناء الروزبارى عندها ولم يتعدها إلى ما يشبه الحلول هنا ، وهو نفسه الذى عبر عنه بالوصول إلى

الوجود المطلق عن طريق فناء وجوده فى قوله : ركبت الوجود بفقد الوجود ، فعند ما فنيت ذاته وغاب عن شهودها حتى نسى اسمه ومحا رسمه استولى عليه وجود اللهّ المطلق ، فاصبح لا يرى نفسه وذاته ووجوده وإنما يرى وجود الحق فى كل شىء ، وهذا الفناء الذى ارتقى إلى مرحلة أبعد من الشهود والكشف هى مرحلة تحقيق الوجود المطلق لله، بحيث يشهد القلب الله فى كل شىء بجلال قدرته وفضله ، الذى ظهر فى الكائنات والخلق : (قد حوت كل فن) ، هذه المرحلة لا توصف بالحلول ولا باتحاد الوجود ، لأن هذا يتنافى مع الظن فى جانب الحلاج ، ومع التشبيه البليغ فى (أنك أنى) حيث يكون الفرق واضحا بين المشبه والمشبه به . فالأول دون الثانى فى كمال الصفة ، ثم المغايرة بين الفاعلية من الله سبحانه فى (أدنيتنى وأفنيتنى) وبين المفعولية فى وقوع الفعل على الحلاج ، ثم العجز البشرى ، عن الإتيان بعبارة دقيقة تصور استيلاء الوجود ، ثم قسوة قلبه أمامه ، ثم النسيان ، وكلها صفات بشرية تجعلنا أن نقول بنفى الحلول والاتحاد فى فناء الحلاج ، وإن كان له شعر فيما يشبه الحلول والاتحاد سيكون لنا موقف منه فى مكانه .

وتجربة الحلاج الصوفية فى فناء الفناء بلغت الغاية فى الجودة وفى الصدق الروحى والفنى معا ، فإذا كانت التجارب العامة فى الشعر العام يتحقق الصدق الفنى فيها عن انفعال الشاعر بفكرة امتزجت بمكنونات الشعور الانسانى لتظهر فى القصيدة تجربة إنسانية ، فإن تجربة الحلاج الصوفية أقوى وأصدق منها ، لأن انفصال الشاعر فى تجربته العامة عن العوالم من حوله غير خالصة لذاته ، حيث تشعبت فيها خيوط غيرية عن ذاته ؛ قد تكون مستمدة من الواقع أو من شخص آخر ، فهى خارجة عن ذاته وإن صبغها بلون من شعوره .

أما التجربة هنا فى مقطوعة الحلاج ، فهى الفناء المجرد عن كل الناس والواقع فى الحياة ، بل المجرد عن ذات الشاعر نفسه ، فقد فنيت ذاته ونفسه فلم ير منها شيئًا، بل فنى عن الفناء ذاته ، حيث اختفت نفسه ، واختفى الفناء فيها ، لتتجلى له الحقائق والأسرار ، ولذلك سميتها تجربة صوفية روحية ، لأن التجربة الصوفية ليست تجربة عامة بالمعنى السابق ،ولكنها هى نفس الفناء

بالله ، حيث لم يكن غير الله فى قلب الحلاج ، ولذلك تحقق الصدق الفنى ، فانتقى لها الصورة الأدبية المناسبة وهى : (حتى ظننت أنك أنى ، وأفنيتنى بك عنى ، ومالى بغيرك أنس ، ومعانيه حوت كل فن) ، مثل هذا التصوير ، وغيره لا تتسلل فى تجربته خيوط غيرية ولا ذاتية من ذات الحلاج ، ولذلك كله كانت التجارب الصوفية فى الفناء من أصدق التجارب الشعرية على الإطلاق ، للصدق الروحى ، والصدق الفنى ، والتجرد المطلق فيها جميعا؛ فلا يرى الفانى غير وجود الله ، وحينئذ يتخلق بأخلاق الله ، وكان خلق رسول الله القرآن، ومعنى ذلك التجمل بالأخلاق الحميدة الطيبة ، فالله طيب لا يقبل إلا طيبا، والتلاؤم بين عناصر المقطوعة يحقق الوحدة الفنية فيها على نحو ما سبق .

والتصوير الأدبى فى المقطوعة كان رائعا فى دقته ، إذ انتقى الحلاج لتجربة الفناء الألفاظ والصور المتلائمة كما سبق ، وكذلك المعانى فقد تناسبت مع الفناء مثل معنى الوجد والغيب والاحتواء ، والأنس والأمن والخوف والمنى، والمعانى التى تشبه الحلول وغياب النفس وغيرها ، وكذلك التلاؤم بين التصوير الموسيقى وبين الفناء ، فاختار البحر المجتث للمقطوعة الأولى وهو بحر قصير ، لأنه مجزوء دائما ، وفى القصر سرعة ، وهى تتناسب مع السرعة فى حالة البقاء بعد الفناء ، وفيها تتحقق مشاهدة الأسرار الإلهية لبرهة وجيزة يعود بعدها المتلقى المشاهد إلى حالة الفناء كما كان . واختار للمقطوعة الثانية المتقارب وللثالثة البسيط ، وهما أطول من البحر الأول ، لأن الشاعر ما زال يعانى من حال الفناء بالصبر والمجاهدة؛ لينتقل بعده إلى فناء الفناء ، ثم إلى البقاء حيث المشاهدة ، وهذا أمر يطول؛ فالحلاج فى الثانية ما زال يخوض فى بحار الفكر البشرى ، حتى نسى اسمه فقط ، وهو حال الفناء ، وفى الأولى ما زالت رغائب البشر ومتعلقاته تلازمه ، لأنه مشغول بانتقاء العبارة الدقيقة لتصوير الحقيقة ، ومشغول بقلبه القاسى الذى لم يرق ، وهذا الاشتغال قائم على المعاناة والمحاولات إلى الفناء ، وأمرها يطول .

أما الموسيقى الداخلية فترى السرعة فى المقاطع الداخلية للوزن حيث سيطر السكون عليها بدل حروف اللين غالبا فى المقطوعة الأولى ، لكن الثانية والثالثة قد شغل حرف اللين فيها معظم المقاطع بدل السكون وهذا يصور البطء

لا السرعة ، وأما عناصر التصوير الأدبى فى الأولى فترى اللون الزاهى والبريق اللامع ، فى المنى والراحة والنعمة والأنس والأمن والروض ، فألوان الكشف والمشاهدة بيضاء شفافة ناصعة ، وترى الحركة السريعة فى تتابع الكلمات على اللسان فى سرعة خاطفة لا يستريح معها النفس حتى آخر بيت فيها ، وترى فى طعم الرياضة لذة المشاهدة، وترى فى رائحة الروض والدنو والتمنى والراحة والأنس ريحان القرب من الحضور بالله ، وعناصر الصورة من اللون والحركة والطعم والرائحة فى الثانية والثالثة تختلف عن السابقة فاللون قاتم فى الخوض وفى البحر اللجى ، وفى غياب الذات وفى النسيان : وفى الحقيقة والحق والدقة والفقد والقسوة ، والحركة بطيئة إلى حد بعيد : فى التعثر الشديد من ظلمات البحر اللجى ، وفى شدة المعاناة أثناء رمى السهم حتى يصيب الهدف ، وفى طول التأمل للوصول إلى الحقيقة وإلى الدقة ، والمعاناة الشديدة فى الفقد وفى القسوة ، والطعم مرٌ فى النسيان ، وأمرُّ فى القسوة والحرمان .

ومن النثر الصوفى أيضا فى الفناء قول أبى يزيد البسطامى : أشرفت على ميدان الليسية ، ، فمازلت أطير فيه عشر سنين ، حتى صرت من ليس فى ليس بليس ، ثم أشرفت على التضييع ، وهو ميدان التوحيد ، فلم أزل أطير بليس فى التضييع ، حتى ضعت فى الضياع ضياعا ، وَضَعْتَ فَضِعتْ عن التضييع بليس فى ليس فى ضياعه التضييع ، ثم أشرفت على التوحيد فى غيبوبة الخلق عن العارف ، وغيبوبة العارف عن الخلق [1] .

وتكدست المصطلحات الصوفية هنا ، لتدل على هذا الغرض وهى : الفناء ، والفناء من الفناء ، والفناء عن الفناء ، والذهاب ، والذهاب عن الذهاب ، والضياع ، والضياع عن التضييع ، وليس ، وليس فى ليس بليس . وكلها تدل على نهاية النهاية فى الفناء ، وهى عدم إحساس الفانى بما حوله ثم عدم إحساسه بنفسه ، ثم عدم إحساسه بالفناء نفسه ، فيغيب الفناء عن الفناء

(١،٢) اللمع : الطوسى ٤٦٨ ، ٤٦٩ - والبسطامى هو أبو يزيد طيفور بن عيسى ٢٦١ هـ ، ذكر ابن عربى أنه كان القطب الغوث فى زمانه ، وتكلم فى الحب الإلهى والفناء والشهود والحلول وبالغ فى ذلك ، وحكى عنه أصحابه مبالغات . انظر القشيرى ١ / ١٠٠ ، وطبقات الشعرانى ١ / ٦٧ وطبقات السلمى ٦٧ وغيرها .

بتضييعه وذهابه وليسيته لتنكشف الأسرار ، وتتجلى الحقائق فيرى بالله ، ويسمع بالله ، ويتحرك بالله، وهكذا فى كل تصرفاته وأحواله أثناء حالة الفناء وهى متغيرة مع الفانى دائما بضرورات البشرية من القوت والنوم واليقظة وغيرها ، ومتغيرة فى الفناء ذاته حين ينتقل من حالة إلى حالة ، ومتغيرة فى الانتقال من الفناء إلى البقاء وبالعكس ، وهذا التغيير يناقض الحلول والاتحاد ، الذى يدعيه البعض فى حالة الفناء، وقد وضح الجنيد هذا الغموض فى قول البسطامى : قال : ومعنى قوله : أشرفت على ميدان الليسية ، حتى صرت من ليس فى ليس بليس · فذاك أول النزول فى حقيقة الفناء والذهاب عن كل ما يرى ولا يرى ، وفى أول وقوع الفناء انطماس آثارها · وقوله : ليس بليس أى ليس شيء يحس ولا يوجد » فقد طمس على الرسوم ، وقطعت الأسماء ، وغابت المحاضر ، وبلغت الأشياء عن المشاهدة ، فليس شيء يوجد ، ولا يحس بشيء يفقد ، ولا لشيء يعهد ، ذهب ذلك كله بكل الذهاب عنه ؛ وهو الذى يسميه قوم الفناء ، ثم غاب الفناء فى الفناء ، فضاع فى فنائه فهو التضييع الذى كان فى ليس به ، وبه فى ليس · ومعنى أشرفت على التوحيد فى غيبوبة الخلق الخ يقول الجنيد : عند إشرافى على التوحيد تحقق عندى غيبوبة الخلق كلهم عن الله تعالى ، وانفراد الله عز وجل بكبريائه عن خليقته (١) .

الحضور والكشف والشهود

ارتقى الصوفى بمجاهداته النفسية من الحب الإلهى إلى الفناء ، وفى الفناء تتجلى الحقائق فى حالة الحضور والكشف والشهود ، وهذا هو الغرض الثالث من الأدب الصوفى فهو نهاية الأحوال التى يتقلب فيها بل أسماها جميعا، وعن طريقها يصل الصوفى إلى الغاية من رياضاته ، والغاية هى حق اليقين بالله ، ومعنى الحضور بالحق هو الغياب عن الخلق فهو حاضر بقلبه بين يدى ربه تعالى ، لاستيلاء ذكر الحق على قلبه ، قال السهروردى : فما دام العبد موصوفا بالشهود والرعاية فهو حاضر ، فإذا فقد حال المشاهدة والمراقبة خرج من دائرة الحضور ، فهو غائب فيكون على هذا المعنى حاصل ذلك راجعا إلى مقام الفناء ·

والحضور والكشف والمراقبة والشهود مصادر كلها بمعنى واحد غالبا ،

وهو حضور القلب بالله حين يستولى ذكره سبحانه على قلبه ، أما المحاضرة والمكاشفة والمشاهدة فقد اختلفت معانيها عندهم عن المعنى السابق للمصدر منها، واختلفت فيما بينها ، فأما المحاضرة: فهى حضور القلب بالله عن طريق البراهين والأدلة التى تؤكد اليقين بالله ، لا حضوره عن طريق ذكر الله سبحانه، وهو معنى الحضور ، فهو أدنى من المحاضرة قال القشيرى : فالمحاضرة (حضور القلب ، وقد يكون بتواتر البرهان) وأما المكاشفة فأسمى من المحاضرة درجة ومعناها: حضور القلب ، بالله عن طريق التجلى من غير دليل أو برهان ، قال القشيرى : (وهو حضوره بنعت البيان غير مفتقر إلى تأمل دليل) ، وأما المشاهدة فهى أسماها جميعا ومعناها عنده أيضا هى : (حضور الحق من غير بقاء تهمة) قال الجنيد : وجود الحق مع فقدانك[٢] . وقال السهروردى مفرقا بينها : فالمحاضرة لأرباب التلوين ، والمشاهدة لأرباب التمكين ، والمكاشفة بينها إلى أن تستقر : [٣] .

وللقلب عيون تجلى المشاهدة بالمعرفة والدليل ، يقبصها الحق فى يديه قال الحلاج :

فيكَ مَعْنًى يَدْعو النفوسَ إليْكَا وَدليلٌ يَدُلُّ منْكَ عَلَيْكَــا
لِى قَلْبٌ لَهُ إليْــكَ عُيُــونٌ نَاظِراتٌ وكُلُّه فِى يَدَيْكا[٤]

لكنَ المُشَاهدَ بالقلب يَجِل عن الوصف يقول الشبلى .

أَجَلُّ مَا منْكَ يَبْــدُو لأَنَّه عَنْكَ جَــلاَّ
وَأَنْتَ يا أُنْسَ قَلْبِــى أَجَلُّ من أَنْ تُجَــلاَّ
أَفْنَيْتَنِى عَن جَمِيعِــى فكيفَ أَرْعَى المَحَلاَّ[٥]

والعجز عن تحديد المشاهدة بالقلب جود وإحسان ، قال الحلاج :

شىءٌ بَقلبى وفيه مِنْكَ أَسْمَــاء لا النورُ يُدْرَى به كَلاَّ ولاَ الظُّلَــمُ

(١،٢،٣) عوارف المعارف : هامش اللاحياء ٤ / ٤٧٩ ، ٤٧٠ - رسالة القشيرى ١ /٢٧٩ - اللمع : ٤٢٢ .

(٤) ديوان الحلاج ٦٤ .

(٥) طبقات السلمى : ١٦٨ .

ونُورُ وَجْهِكَ سِرٌّ حِينَ أَشْهَـدُهُ هَذَا هُو الجُودُ والإحْسَان والكَـرَمُ
فخُذْ حَدِيثَ حبٍّ أنت تَعْلَمـه لا اللَّوْحُ يَعْلَمهُ حَقًّا ولا القَلم (١)

وقال أبو حمزة البغدادى البزاز الصوفى ٢٨٩ هـ فى المشاهدة :

نَهانِى حَيَائِى مِنْكَ أَنْ أَكْتُمَ الهَوَى وأَغْنَيْتَنِى بالفهمِ عَنْكَ مِنَ الكَشْف
تلطَفتَ فى أَمْرِى فأبديتَ شَاهِدى إلى غَائِبى واللُّطْف يُدرِكُ باللُّطْفً
تَرَاءيْتَ لِى بالغيب حتى كأنما تبشِّرُ بالغيبْ أنك فْى الكَفٍّ
أَراكَ وَبى مَنْ هَيْبَتى لَكَ وَحْشَةٌ فَتُؤْنسَنِى بِاللطف منك وبالعطف
وَتُحْيِى مَحبًّا أنْتَ فى الحبِّ حَتْفُه وذا عجبِ كَونُ الحياةِ مَعَ الحَتْفِ(٢)

وقال أبو بكر دلف بن جحدر الشبلى ٣٣٤ هـ أيضًا :

ذَكَرْتُكَ لاَ أَنِّى نَسِيتُكَ لَمْحَةً وَأَيْسَرُ ما فِى الذِّكْرِ ذِكْرُ لِسَانى
وَكِدْتُ بِلاَ وَجْد أَمُوتُ مِنَ الهَوَىَ وَهَامَ عَلَىَّ القلبُ بالخفقَـــان
فلمَّا أرانى الوَجْدُ أَنَّكَ حَاضِرى شَهِدْتُك موجودًا بِكُلِّ مكان
فَخَاطَبْتُ مَوْجُودًا بِغَير تكلُّم وَلاحَظْتُ مَعْلُومًا بغَيْر عَيان (٣)

---

(١) ديوان الحلاج ٥٤ ، وتأمل السحر فى موقع (حقا) .

(٢)وهو غير أبى حمزة الخراسانى ٢٩٠ هـ - وكان عالما بالقراءات يستفتيه الإمام أحمد بن حنبل فى المسائل ويقول له : ما تقول فيها يا صوفى ، صحب الجنيد والسرى والحسن المسوحى وأب تراب النخشى وبشرا الحافى . انظر طبقات الشعرانى ١ / ٩٩ ورسالة القشيرى ١ / ١٧٣ وغيرهما .

(٣) خراسانى الأصل ولد بسامرا وعاش فى بغداد ، صحب الجنيد ومن عاصره من الصوفية ، وتفقه على يد الإمام مالك وأخذ عنه الحديث ، وكان عالما فقيها محدثا عارفا بالله ، وموفور الأدب الصوفى فى الحب الإلهى والفناء والمشاهدة : انظر القشيرى ١ / ١٨٢ ، وطبقات السلمى ٢٢٧ وطبقات الشعرانى ١ / ١٠٣ ، وتاريخ بغداد : ١٤/ ٣٩٠ .

وردت فى هذه النصوص مصطلحات صوفية ، مضى شرح الكثير منها وبقى بعضها مما يتصل بالمشاهدة وهى: القرب من الله بالعلم وهو صفة العامة ، وباللطف صفة المؤمنين ، وبالتأنيس صفة الأولياء ، ونقيضه البعد وهو التدنس بمخالفته والتجافى عن طاعته، وكذلك الاتصال ومعناه الوصول إلى صفو اليقين بطريق الذوق والوجدان حين يغيب فى شهوده عن وجوده، قال النورى : الاتصال مكاشفات القلوب ومشاهدات الأسرار [١] . ومنها الستر والتجلى ، ولابد من تعاقبهما رحمة بالصوفى ، فالستر هو حجب القلب عن المشاهدة حتى لا يتلاشى من انبهار سلطان الحقيقة إذا طال الموقف ، فهو رحمة للخواص وعقاب للعوام ، وفيه معنى الاستغفار : فالغفر هو الستر والتجلى انبهار القلب بسلطان الحقيقة أثناء المشاهدة فى سرعة خاطفة ، لأنهم إذا تجلى لهم الحق طاشوا ، وإذا ستر عليهم ردوا إلى الحظ فعاشوا .

ومنها اليقين : وهو العلم الذى لا يتطرق إليه شك عرفا ، وعلم اليقين هو ما كان بشرط البرهان ويتحقق لأرباب العقول ، وعين اليقين : هو ما كان بحكم البيان ، ويتحقق لأصحاب العلوم ، وحق اليقين ما كان بنعت العيان ، ويتحقق لأصحاب المعارف ، ومنها الخاطر إن كان من الله فهو إلهام ، ومن النفس فهو هاجس ، ومن الشيطان فهو وسواس .

ومنها الوارد : وهو ما يرد على القلب من الخواطر كوارد سرور أو حزن أو قبض أو بسط أو وجد . ومنها الشاهد : وهو ما يكون حاضر قلب العارف فكأنه يراه ويبصر ، فهو شاهد الوجد أو الذكر أو الحق . ومنها الوجد : وهو ما يرد على القلب من غير تعمد ومنها الوجود : وهو يعقب الوجد ، ومعناه وجود الحق بعد خمود البشرية ، ليستولى على القلب سلطان الحقيقة [٢] .

التجربة الصوفية : والتجربتان من أجود التجارب الصوفية فى باب المشاهدة ، فأما الأولى فقد تحقق فيها الصدق الفنى للمشاهدة ، لأن المشاهدة بالحق اسرار لطيفة تستعصى على الفهم ، وتنكشف للقلب مع أنها من الغيب،

---

(١) عوارف المعارف ٤ / ٤٢٧ .

(٢) انظر عوارف المعارف ٤ / ٤٦٦ ، رسالة القشيرى ١ / ٢٩٨ : ٣٠٤ .

لتبهره بسلطان الحقيقة ، ومن هيبتها تتركه فى وحشة ، يرجو لطف الحق سبحانه ليحيى حبيبه ، وفى حياة المحب موت له فأبو حمزة يشاهد الحق ليموت من حب الله سبحانه ، ويحيا بالحب ليلقى حتفه فى المشاهدة مرة أخرى، ويا للعجب كيف تكون الحياة مع الموت ؟ وهذا الذى دعاه إلى أن يكتم هواه حياء من الله سبحانه وتعالى . وهذه هى معالم الصدق الفنى فى المشاهدة .

وأما تجربة الشبلى فقد تحقق فيها الصدق الفنى كذلك ، فالمشاهدة تقتضى الذكر الدائم لله، ويقتصر الذكر على اللسان أثناء الحجب والستر لا بالقلب ، وهو كذلك يموت ويحيا من لطف الأسرار، وانبهار الحقيقة فى المشاهدة ، فيرى الله حاضرا بقلبه ، موجودا فى كل مكان . يخاطبه من غير كلام ، ويراه بدون حدود ولا وصف ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، كل هذه المعانى المترابطة جاءت محكمة فى تلاحم تام، وتلاؤم بينها وبين الألفاظ والصور والتراكيب والموسيقى مما حقق الوحدة الفنية فى كل مقطوعة.

أما التصوير الأدبى فترى الحلاوة والعذوبة فى اللفظ ، والسلاسة والسيولة فى النظم ، وهى صفات تتناسب مع حلاوة المكاشفة ولذة المشاهدة . وترى الدقة فى اختيار الألفاظ المناسبة للمشاهدة مثل الحياء والغنى والكشف واللطف والشاهد والغائب ،والبشرى والرؤية والهيبة والوحشة ، والحب والحياة ، فى المقطوعة الأولى .

والذكر واليسر ، والوجد والهوى والهيام ، والحضور ، والشهود والوجود ، فى المقطوعة الثانية ، وترى الوضوح فى التركيب والسهولة فى النظم ، لأن ما تصوره من المشاهدة يحتاج إلى الوضوح والظهور ، لا ما يقتضيه الفناء من الغموض ، ولذلك اختفى الغموض هنا فكانت العبارة سهلة لا معقدة ، واختفى الإيهام الذى يجيء من تتابع حروف الجر المتصلة بالضمائر كالشأن فى الأغراض السابقة ، ووضحت الصور البيانية مع كثرة التشبيهات والاستعارات فيهما ، وأسفرت المصطلحات الصوفية عن مضامينها بدون معاناة ومن غير تعسر فى الفهم ، ومن ألوان البيان :

(أموت من الهوى - هام القلب - أرانى الوجد - أنك حاضرى - نهانى حيائى - أبديت شاهدى - كأنما تبشرنى - تؤنسنى باللطف) .

وتلك المحسنات البديعية التى جسمت المعانى بموسيقاها الداخلية فترى الطباق فى ذكرتك ولا نسيتك ، وشاهدى وغائبى ، والوحشة والأنس ، والحياة والحتف ، وتجد الجناس فى اللطف والعطف ، والذكر فى القلب وذكر اللسان ، ثم الاحتراس والتذييل فى بيت الشبلى الأخير ، ثم الترادف والمزاوجة وغيرها من المحسنات التى جاءت عفو الخاطر .

وأما الموسيقى الخارجية فى الوزن والقافية فالمقطوعتان من البحر الطويل. الذى كثرت أوزانه ، وامتدت تفاعيله ، والطويل هنا يتلاءم مع الغرض من المشاهدة على الرغم من وجازتها ، لأن المشاهدة تتم فى لمحة عند العارف، ليستتر بعدها خوفا من الطيش ، لكن ما يراه العارف من الحقائق لا يستطيع أن يعبر عنه ، وما ينكشف له من الأسرار واللطائف فى هذه اللمحة لا يستوفيه بحال، وفى الكثرة المتزاحمة من الحقائق والأسرار ما يتناسب مع أطول البحور وأكثرها وزنا ، وهو البحر الطويل ، وأما القافية فترى العذوبة والسهولة فى الروى كالفاء فى الأولى والنون فى الثانية ، واعتمدت القافية فى الأولى على ثلاث سكونات بينها حركة ، لأن المشاهدة عند أبى حمزة مقيدة بالحياء ، وفى الحياء قطع ، وجزم وهو ما يتناسب معه السكون ، لكن القافية عند الشبلى تختلف كثيرا حيث اشتملت على حرفى لين يمتد معهما النفس ويطول فى ذلك، لأن المشاهدة هنا قائمة على الذكر بصفة عامة، فقد يكون بالقلب وهو الموطن الحقيقى للمشاهدة ، وقد يكون باللسان وفيه معنى الشهود، لاشتغاله بذكر الشهادتين وبذكر الله ، وعلى ذلك فالمشاهدة عنده تظل قائمة فى القلب، ثم اللسان وهكذا،والدوام هنا يتلاءم مع الامتداد فى حرفى اللين لقافية الشبلى.

وأما الموسيقى الداخلية فتراها تتحقق من كثرة حروف اللين المنتشرة فى معظم كلمات المقطوعتين، والامتداد هنا يتلاءم مع غزارة الأسرار ، ولا نهائية الحقائق ، وتراها أيضا فى المحسنات البديعية ؛حيث تضطر القارئ إلى الوقوف

عندها طويلا؛ ليعرف معنى الطباق أو الجناس أو المزاوجة فى العبارة ، وطول التأمل يتناسب مع عدم الإحاطة بالأسرار والحقائق ، ويتناسب مع التأمل فى جلال الله وعظمته أثناء المشاهدة، فما أروع الأدب الصوفى ؟ إنه أدب الوجدان الصادق والروح الصافية والقلب المشاهد فى صدق ودقة ولطف ، تكاملت فيه الخصائص الفنية ليضرب أروع الأمثلة فى الأدب العربى، الذى ما زال فقيرا إلى هذه النماذج الأدبية الصوفية الرائعة، وما برح خالى الوفاض منها .

* * *

الحلول والاتحاد فى الأدب الصوفى :

الفناء فى الحب الإلهى يأخذ بمجامع القلب ، وتسيطر عليه حقائق الوجود ؛ فيغرق فى بحور الإلهامات ، ويسكر بالمذاقات ، وتنكشف له التجليات والمشاهدات ، ويتخلى صاحبه عن كل رغيبة، تستهوى عبيد الدنيا وأسارى الشهوة والهوى ، ويفنى عن هذا كله ، ليمتلأ القلب بالوجود المطلق أثناء المشاهدة ، وتتجاوب الروح اللطيفة مع أصداء لطائف الأسرار أثناء المكاشفة ، ليكون الحق سبحانه سمعه وبصره وقلبه ويديه ورجليه ، لأن المشاهدة تخلق بأخلاق الله من الصفات الحميدة ، وخلع عنه الصفات الذميمة، كما يقول الجرجانى : الفناء فناءان : أحدهما ذوقى ، والآخر خلقى، فالذوقى هو عدم الإحساس بعالم الملك والملكوت بالاستغراق فى عظمة البارى ومشاهدة الحق ، والخلقى هو سقوط أوصافه المذمومة ، واستبدالها بالأوصاف المحمودة ، واستيلاء وجود الحق على القلب أمسك عنده المحققون (١) من الصوفية وسموه صحوا ، لأن الفانى لا يرى غير الحق سبحانه حتى نفسه الذى بين جنبيه ، بل لا يشعر بالفناء ذاته ،وأطلقوا عليه أيضا (جمع الجمع) ويظل القلب موصول التوحيد على سبيل التحقيق ، من

---

(١) مثل الغزالى فى الإحياء ٤ / ٢٩٩ ، والجنيد والطوسى فى اللمع : ٤٥٩ ، ٥٤١ ، والقشيرى فى رسالته والشعرانى فى طبقاته وابن تيمية فى الصوفية والفقراء فى الرد على فصوص الحكم لابن عربى .

غير حاجة إلى سكر أو غيبة، ولا يتفرق الوصل إلا بمقدار ما يدرك وجود الحق وتوحيده فى الخلق والكائنات ، وهذه الصفة هى التى تثبت الغيرية بين العارف وربه، وتنفى الشطح من الاتحاد والحلول ، وعلى رأس المحققين سيد الطائفة هو أبو القاسم الجنيد بن محمد الخزاز ٢٩٧ هـ [١] الذى لم يتكلم بهما ، وأمسك فى ذلك ، واكتفى هو مع غيره بأن أطلقوا عليها (جمع الجمع أو صحو الجمع أو الفرق الثانى) ومعنى ذلك ذكره الجرجانى فى التعريفات بقوله: (لابد للعبد منهما فإن من لا تفرقة له لا عبودية له ،ومن لا جمع له لا معرفة له)،وفسره البعض بقوله (أنها حالة صوفية يشعر الإنسان فيها بالاتحاد، وهذه حالة فيها جمع من وجه وتفرقة من وجه) [٢]وسماها البعض وحدة الشهود ونسبها للجنيد[٣] .

قال الجنيد فى ذلك معتدلا حيث يشمل الجمع والتفريق :

وَتَحَقَّقْتُكَ فِى السرِّ فَنَاجَاكَ لِسَانِى
فاجْتمعنا لمعَانٍ وافْتَرقْنا لِمَعَانِي
إنْ يكُنْ غَيَّبَكَ التَعْظِيمُ عن لَحْظِ عيَانِى
فلقدْ صَيَّرَكَ الوَجْدُ بَيْن الأحْشَاءِ دَانِى[٤]

ومن المحققين فى هذا القول الطوسى ٣٨٧ هـ حيث يقول :

بلغنى أن جماعة من الحلولية زعموا أن الحق تعالى ذكره، اصطفى

---

(١) عاش فى العراق ، صحب السرى ، والحارث المحاسبى ، ومحمد القصاب ، وكان فقيها محدثا من أئمة القوم فى وضع علم التصوف ومن سادتهم ، ذائع الشهرة ، مقبولا على الألسنة ، له بصر بإدراك الرموز الصوفية وإشاراتها ، انظر طبقات السلمى ١٥٥ ، ورسالة القشيرى جـ ١ ص ١٣٢ وطبقات الشعرانى .

(٢) الدكتور عبد الحكيم حسان فى التصوف فى الشعر العربى ٢٣٤ .

(٣) الحلاج : د. محمد جلال شرف ١١٣ - ١٩٧٠ .

(٤) رسالة القشيرى ١ ص ٢٤٩ .

أجساما حل فيها بمعانى الربوبية ، وأزال عنها معانى البشرية ، فإن صح عن أحد أنه قال هذه المقالة؛ فقد غلط فى ذلك ، وذهب أن الشيء فى الشيء مجانس للشيء الذى حل فيه ، والله تعالى بائن عن الأشياء ، والأشياء بائنة عنه بصفاتها ، والذى أظهر فى الأشياء ، فذلك آثار صنعته ودليل ربوبيته ، لأن المصنوع يدل على صانعه ، والمؤلف يدل على مؤلفه ... والذى غلط لأنه لم يحسن أن يميز بين أوصاف الحق وبين أوصاف الخلق ؛ لأن الله تعالى لا يحل بالقلوب ، وإنما يحل فى القلوب الإيمان به ، والتصديق له ، والتوحيد والمعرفة، وهذه أوصاف مصنوعاته ، من جهة صنع الله بهم ،لا هو بذاته أو بصفاته يحل بهم (١) .

ومنهم جماعة أسرفوا فى المشاهدة وقالوا : بما يشبه الحلول والاتحاد على تفاوت بينهم وهم النورى والخراز والشبلى والبسطامى والحلاج ، وقد اشتهر الأخير بالقول فيه وأطلقوا عليها الشطح ، وهى عبارات حلولية واتحادية جريئة ، مثل قول البسطامى : سبحانى سبحانى ما أعظم شأنى - أنا ربى الأعلى - وقول الحلاج : أنا الحق - ما فى الجبة إلا الله - أنا من أهوى ومن أهوى أنا - وغيرها من الشطحات الصوفية ، التى تفيد الحلول ، بمعنى أن الخالق هو المخلوق ، حيث يكون الخالق سبحانه فى قلب الفانى وتفيد الاتحاد، بمعنى أن المخلوق هو الخالق تعالى الله عما يصفون ، يقول أبو يزيد البسطامى:

بُعْـــــدُكَ مِنِّى هُو قُرْبَاكَ   أَخَذْتَنِى عَنْكَ بِمعنَـــــاك
لا تُفَرِّقُ لأَوْصَافِ مَا بَيْنَنَا   إِنْ قِيلَ لِى : يا كُنْتُ إِيَّاك (٢)

---

(١) اللمع : ٥٤١ ٢٥٢ هو أبو نصر عبد الله بن على السراج الطوسى طاووس الفقراء صاحب كتاب اللمع ، أول من جمع أصول التصوف ، وصار به علما له مكانته بين العلوم . اقفى أثره من بعده القشيرى فى رسالته والسلمى فى طبقاته انظر شذرات الذهب ابن العماد جـ ٣ ، ومقدمة كناية اللمع : تحقيق د. عبد الحليم محمود ، وطه عبد الباقى سرور .

(٢) شطحات الصوفية : عبد الرحمن بدوى ١٣١ .

عبارة : (يا كنت إياك) شطح لأن فيها معنى الاتحاد ، وقد أنكره الجنيد والطوسى وغيرهم من المحدثين ورأوا فيه اتحاداً بين المحب والمحبوب [1] ولكنى أرى غير ذلك حيث إن البسطامى خاطب بتلك الصورة الأدبية الخاصة من الصوفيةوأهل العلم لا العامة من الناس والخاصة هم الذين يفهمون رموز اللغة وأسرارها . ومن تبطن قول البسطامى ووقف على أسرار النظم فى الصورة لما وجد فيها حلولا ولا اتحادا فى مجموعها لا بالنظر إلى جزء من الصورة ،مثل عبارة (يا كنت إياك) فهى مرتبطة بها ، لأن المقصود من الإحسان فى الإيمان أن يتجمل المؤمن بأجمل الصفات وطيب الأخلاق ، وهى الصفات التى تقربه من ربه ، والمنظار القلبى الوحيد هو الذى يرى ربه على حد قول الرسول الكريم (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) ، وبهذه الصفات المحدودة يقترب العبد من ربه الذى تعالت صفاته عز وجل لكمالها ، ومع هذه الرؤية عن قرب ، فقد فرقت كلمة (منى) الاتحاد فى الصفات بين المحب والمحبوب ، ولو أراد اتحاداً تاما لحذفها وقال بعدك قرباك ، فيكون البعد فى الصفات هو القرب ذاته مع بقاء معنى التشبيه ثم التعبير بكلمة (عنك) التى تفيد المجاوزة والبعد وشتان بين صفات المحسن فى إيمانه وبين صفات الحق سبحانه ، ثم تسليط النفى على الفعل المضارع فى : (لا نفرق فرق) فهو من نفى السلب ليصير إيجابا ، ويفيد حينئذ إثبات بعض الصفات المشتركة بين المحب والمحبوب التى اكتملت عند المحب فى الحال والمستقبل ، أما بقية الصفات التى تحققت فى الماضى منذ الأزل فينفرد بها المحبوب وحده وهو الله سبحانه وتعالى، وعلى ذلك فالفرق واضح، لأن المشاركة تمت فى جزء اتصل بالحال والاستقبال وهما مضمون المضارع دون ما وقع منذ الأزل، ولا يعلمه إلا الله وحده ، وهذا الفرق يدفع شبهة الاتحاد .

وأخيراً عبارة الشطح : (كنت إياك) لا أجد فيها اتحاداً ولا حلولا ، لأن المغايرة موجودة شكلا ومضونًا . فأما شكلا فهو الفرق الواضح بين الضميرين : فالتاء ضمير رفع متصل وإياك ضمير نصب منفصل وأما الفرق فى

(١) التصوف فى الشعر العربى : د. عبد الحكيم حسان ٣٣٣ .

المضمون فالتاء ضمير البسطامى وهو بشر ، وإياك كناية عن لفظ الجلالة وهو الخالق وفرق بين الخالق والمخلوق ، حتى لو قلت : كنت زيدا ، فليس فيها اتحادا ؛ لأن زيدا وإن التقيت معه فى كل الصفات فلن تلتقى معه فى اتحاد الذات ، ولا فى النسبة إلى والديه ، وكذلك الأمر فى عبارة الشطح بل أولى · إذًا فليس فى هذه الصورة الأدبية فى مجموعها حلول ولا اتحاد ، كما لا يصح أن يعبر عنها بوحدة الشهود · فماذا تكون وعلام تعبر ؟ إنها هى الرؤية بالقلب عن قرب ، وهو ما ينبغى أن نفهمه من الإحسان فى الإيمان كما عبر عنه سيد الخلق ، والرؤية عن قرب للتقارب فى الصفات الربانية ما أراه بديلا عن ألفاظ توهم الكفر والضلال مثل الاتحاد أو الحلول أو وحدة الشهود وغيرها وهذا أجدر وأولى فى الصورة البسطامية السابقة ·

ويقول أبو مغيث الحسين بن منصور الحلاج ٣٠٩ هـ :

مُزِجَتْ رُوحُـــك فِى رُوحِى كَما تُمْزَجُ الخمرةُ بالماءِ الزُّلال

فإِذا مَسَّك شـــىءٌ مَسَّنِـــى فإذا أنت أنَا فى كلِّ حَال (١)

ومن تأمل هذه الصورة لا يجد فيها اتحاد ولا حلولا ، لأن حواجز الرغائب فى الدنيا تطمس الروح فى دكنة الجسد الترابى ، فإذا ما انتصرت النفس على الرغائب الجسدية الدنيوية، اتصلت الروح ببارئها ،وتعرفت على خالقها ؛ لأنها اتصفت بصفات نورانية جميلة لا ترابية ، وحينئذ يصح اتصال هذه الصفات الروحية للبشر، وتلاقيها مع ما تسمو إليه من صفات الحق سبحانه ، وإذا أمكن التلاحم بين الصفات لاتفاقها من بعض الوجوه، فلا

---

(١) ديوان الحلاج : ٥ ، وهو من أهل فارس نشأ بواسط فى العراق ، وصحب الجنيد والنورى وابن عثمان المكى وغيرهم ، واتهم بالزندقة والكفر ، ومات مصلوبا : واختلف فى أمره رجال التصوف؛ فمنهم من أبعده عن التصوف؛ لأنه حاد عن الطريق كالجنيد ، ومنهم من عده من أهل التصوف ولكنه أسرف وبالغ ، كالشبلى ، ومنهم من أثنى عليه وقال بأنه عالم ربانى كابن خفيف والنصراباذى ، انظر طبقات الشعرانى ١ / ١٠٧ ·

يمكن بحال التحام الروح بالروح ، لأن الإنسان لا يدرك كنه روحه، وإنما يدرك آثارها ومظاهرها الخارجية ، وما الآثار والمظاهر إلا صفات للروح ، والصفات لا تختلط وتمزج ؛ولكن تتساوى وتتشابه وفى التساوى مقابلة لا حلول ، وفى التشابة اتفاق من بعض الوجوه ومغايرة فى بعضها الآخر لا اتحادًا ، وهذا ما أكده المشبه به فى قوله : (كما تمزج الخمرة بالماء الزلال) ، فإن مزجهما يعطى سائلا آخر يخالف الخمرة ويخالف الماء ، فالممزوج لا خمر ولا ماء ، بل هو شىء آخر ، وحاش لله أن يكون شيئًا آخر بعد التعرف عليه ، فالله سبحانه وتعالى هو الله فى ذاته قبل كل شىء وبعد كل شىء ، وإنما التغير فى صفات العارف بعد تعرفه على الله حيث تكون فى نفسه شيئًا آخر بعد المشاهدة بالله ، وهذه الصفات الإلهية التى أبصرها فى نفسه أثناء الكشف هى بعض صفات الله التى يسمو إليها المحسن فى إيمانه ، ومن أنكرها فيه من الناس فقد أنكر صفات الله فى المؤمن من باب أولى فى كل حال ، لأن هذه الصفات هى بعض صفات الله سبحانه وتعالى التى أرادها الله لعبده ، وصدق الرسول الكريم حين يقول إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا وقوله : إن الله جميل يحب الجمال والحديث القدسى السابق فى حب الله وليس هذا حلولا ولا اتحادا ، وإنما هى الرؤية لصفات الله عن قرب ومشاهدة فى هذه الصور الأدبية ·

وأما قول الحلاج : (فإذا أنت أنا فى كل حال) فلولا أنه جزء من الصورة الأدبية فى البيتين ، ومرتبط بأجزائها ، لأفادت شبه الحلول وشبه الاتحاد ، بمعنى الاتفاق فى بعض الصفات المحموده بين المحب والمحبوب على سبيل التجوز ، وهو أسلوب جار فى اللغة العربية فقد قالت العرب :

القمران والوالدان والأسودان غيرها ، وليس بين الشمس والقمر اتفاق تام فى جميع الوجوه ، ولكن بينهما شبه اتحاد فى بعض الصفات، وكذلك الأمر فى الباقى · هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية أن الحلول والاتحاد من جميع الوجوه فى الذات والصفات مستحيل بداهة ، حتى لو لم توجد كلمات تنفى الاتفاق التام كما فى الصورتين السابقتين للبسطامى والحلاج ، لأن هناك

فرقا بين الخالق والمخلوق فى الذات والصفات ، فإنه سبحانه وتعالى هو الموجود لا أول لوجوده ولا آخر ، وهو الذى أوجد المخلوقات إلى أجل معين، وهذا فرق كبير ، يرد كلام من قال : الاتحاد والحلول مطلقا ، لا بالشبه فيهما ، لأن اتحاد الذات بالذات مستحيل فى جانب المخلوقات ، فليست ذات إبراهيم هى ذات سمير ، بل يختلفان فى روحهما ، وإن كانا يأتلفان مثل قول الرسول(الأرواح جنوده مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف) ، وليس فى الائتلاف اتحاد تام ، وإلا لما كان اختلاف فى الأرواح المتنافرة وأصحابها من البشر كذلك ، وبالأولى لا تتحد روح العبد مع ربه تعالى الله عما يصفون، لأن روحه مهما حلقت وصفت فهى مخلوقة ومسببة عن الخالق.

وكذلك اتحاد الصفات بالصفات ، فالأخلاق عند أخوين شقيقين إن اتفقت من جميع الوجوه فى نظرنا ، فإنها تختلف عندهما من حيث المصدر ، والدرجة والحجم والزمان والمكان ، والنسبة والتفسير وهذا أولى فى جانب الله سبحانه ، فمهما بلغ الفانى فى الله من صفات الجمال التى يريدها الله لعبده ، فلن يبلغ فيها الغاية وما خفى كان أعظم ؛ لأن الكمال المطلق لله وحده . ولهذا لا يجوز أن يقال : هو حلول مطلق واتحاد مطلق فى الروح والذات ، ويصح أن يقال : شبه حلول وشبه اتحاد فى بعض الصفات فقط ، ويكون فى الكلام من الألفاظ ما يدل على شـبه الحلول الاتحاد كما كان فى الأمثلة السابقة ، بل الأولى أن يترك مصطلح شبه الحلول والاتحاد كذلك ، من باب سد الذرائع، حتى لا تقع الفتنة من عامة الناس ، لأن الأدب الصوفى لا يقرؤه الخاصة فقط ، بل تحت أيدى غيرهم ، وهذا ما دعا الخليفة المقتدر بالله أن يوافق على قتل الحلاج بإيعاز من وزيره حامد بن العباس ، الذى استصدر حكما بذلك من القاضى الفقيه الظاهرى محمد بن داود ، حيث اتهمه بالألوهية والشعوذة ، فحكم بقتله على الملأ فى بغداد [١] ، وقد وقع شبيه بهذا لسيف الله المسلول خالد بن الوليد ، حينما خشى الخليفة العادل عمر بن الخطاب ﷺ أن يفتتن المسلمون به لانتصاراته المتتابعة ، فعزله عن القيادة قتلا للفتنة :

(١) تاريخ بغداد : الخطيب : ٨ / ١٣٢ : ١٣٦ .

والذى جلب على الحلاج التهمة أنه عبر عن شبه الحلول والاتحاد فى بعض الصفات فى شعر يسير بين الناس جميعا ، ظنا منه بأنهم مثله فى المعرفة والصلة القوية بالله ، دون تقدير منه أن شعره سيقرؤه العامة ، وبعض الخاصة، الذين لم تكتمل عندهم درجة المعرفة ، ولم يصلوا إلي درجة الإحسان فى هذا الإيمان،لذا كان بعض شعره فى هذا الجانب (١)مدعاة للفتنة فى العصور،التى تموج بالإلحاد والوجودية والشعوذة،ومن هذا الشعر قول الحلاج .

أنَا مَنْ أَهْوَى وَمَنْ أَهوَى أَنَا ... نَحنُ رُوحَان حَلَلْنَا بَدَنا
تخْن مذكُنَّا عَلى عَهْد الهَوَى ... نَضرِبُ الأَمْثَال للنَّاسِ بنا
فَإذَا أَبْصَرتَنِي أَبْصَرْتَهُ ... وَإذَا أَبْصَرْتَهُ أَبصرْتَنَا
أَيُّها السَّائِلُ عَنْ قصتَّنَا ... لَو تَرَانَا لَمْ تُفرِّقْ بَيْنَنَا
رُوحُه رُوحِي وَرُوحِي رُوحُه ... منْ رَأَى رُوحَيْنِ حَلَّتْ بَدَنا (٢)

وقال أيضًا :

أَنَا أَنْتَ بِلا شَكّ ... فَسُبحَانَك سُبْحَاني
وَتَوْحِيدُكَ تَوْحِيدى ... وَعصيَانُكَ عصيَاني
وَإسْخَاطُكَ إسْخَاطِي ... وَغُفْرَانُك غُفْرَاني
وَلِمْ أُجلَدْ يَا رَبِّي ؟ ... إِذَا قِيلَ : هُوَ الزَّاني (٣)

فهذا الشعر عندما يقطع عن قائله الذى لا يعلم القارئ شيئا عن حياته ومعرفته وطريقه الصوفى ، يكون ظاهر شعره دالا على شبه الحلول وشبه الاتحاد ، بل يدل على الحلول والاتحاد عند عامة الناس وأوساطهم ، وخاصة أثناء هبوب الموجات الإلحادية وسط المسلمين ، أو أثناء صراعات الأديان والعقائد والمذاهب المختلفة ، وهذا هو الذى جعله مسرفا عند المحققين من الصوفية ، ومشعلا لفتنة فلسفية بين صفوف المسلمين ، والحلاج لم يقم هنا

---

(١) ديوان الحلاج : فى الصفات : ١٩ ، ٢٠ ، ٢٦ ، ٣٠ ، ٤٤ ، ٤٨ ، ٤٩، ٥٢ ، ٥٧ .

(٢،٣) الديوان : ٥٥ ، ٨٥ .

لفظا واحدًا ولا صورة واحدة تنفى الإسراف، وترد الفتنة كما كان الحال فى النص السابق ، ولم يمض على سنن الإسلام عندما يتعرض لمثل هذه الأمور ، حيث عبر الرسول الكريم عن المعية : بالقرب فقال : (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد) ، وقوله أيضًا فيما يدل على تمكن الإيمان من القلب ورؤيته وقربه من الله سبحانه : (ما وسعنى أرضى ولا سمائى ، ووسعنى قلب عبدى المؤمن النقى التقى الوادع اللين) والأوصاف الكثيرة : المؤمن وما بعدها تنفى الحلول ، وكذلك معنى لفظ (وسع) الذى يدل على زيادة الإيمان بمعنى زاد ، أو يدل على العطاء الواسع لله من العبادة والإخلاص ، أو يدل على عدم الضيق بمعنى الرضا عن الله والطاعة له ، وهذه كلها من معانى اللفظ التى تنفى الحلول ، وكذلك ما جاء فى صحيح مسلم أن الرسول الكريم قال : يقول الله تعالى : عبدى مرضت فلم تعدنى ، فيقول : رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ فيقول : أما علمت أن عبدى فلانا مرض ؟ فلو عدته لوجدتنى عنده . عبدى جعت فلم تطعمنى . فيقول : رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين ، فيقول أما علمت أن عبدى فلانا جاع ؟ فلو أطعمته لوجدت ذلك عندى . . .).

فالتعبير بلفظ (عندى) ينفى شبه الحلول وشبه الاتحاد ، فإن العندية ليست اتحادًا ولا حلولا ، وتمييز بين العبد وربه . قال ابن تيمية ففى هذا الحديث ذكر المعنيين الحقين ؛ ونفى المعنيين الباطلين ، وفسرهما فقوله : (جعت . . . ومرضت) لفظ اتحاد يثبت الحق . وقوله : (لوجدتنى عنده . . . ووجدت ذلك عندى) نفى للاتحاد العينى بنفى الباطل وإثبات لتمييز الرب عن العبد [1] .

هذه هى أشهر أغراض الأدب الصوفى فى هذه المرحلة ، اتسع لها النثر الأدبى والشعر الصوفى عدا غرضين آخرين ، وهما وحدة الأديان والنور المحمدى ، فأما وحدة الأديان فقد قال فيها الحلاج أبياتا قليلة ما بين البيت

---

(١) الصوفية والفقراء شيخ الإسلام ابن تيمية ٥٨ تحقيق : محمد عبد الله السمان .

الواحد والثلاث فقط [١] وقليلا من النثر الصوفى له [٢] وللغير ، وكذلك النور المحمدى ، فقد قيلت أبيات وبعض من النثر الأدبى نكتفى بالإشارة فقط [٣] .

خصائص الأدب الصوفى عامة

خصائص الموضوع وأطواره : مر الموضوع فى مضمون الأدب الصوفى فى هذه الفترة بمرحلتين ، فأما الأولى فقد ابتدأت فى نهاية القرن الثانى الهجرى تقريباً ، وكان من روادها إبراهيم بن أدهم (وداود الطائى ١٦٥ هـ)، (ورابعه العدوية ١٨٠ أو ١٨٥ هـ) ، (والفضيل بن عيـاض ١٨٧ هـ) ، (وشقيق البلخى ١٩٤ هـ) ، (وبشر الحافى ٢٢٧ هـ) ، والحارث المحاسبى ٢٤٣ هـ وذو النون المصرى ، (والسرى السقطى ٢٥١) ، (٢٥٧ هـ) وليس معنى ذلك أن مرحلة الزهد لم يظهر فيها صوفى . فالحسن البصرى كان رائدا للتصوف فى عصر الزهد؛ لأن الحكم على المجموع لا على الجميع ، وقد امتاز الموضوع فى هذه المرحلة بخصائص منها : أنه جمع بين المقامات وهى من خصائص الأدب الزاهد ، وبين الأحوال الصوفية ، وهى من خصائص الأدب الصوفى ، وكذلك فقد غلب على الموضوع الحب المطلق لله ، القائم على السلوك والعمل فقط . فهو أدب السلوك والرياضة الروحية ، لا التأمل المجرد ولا المعرفة النظرية، ولا تناقض بين السلوك والحب القائم على المعرفة ، لأن استيلاء الحب على قلوبهم كان عن طريق الإلهام ، بعد أن هذب السلوك القلب وهيأه لاستقباله وتحمله ، ثم تنوعت الأغراض الصوفية ما عدا الفناء ووحدة الأديان والنور المحمدى ، وظهرت فى الشعر ، والنثر الأدبى بأنواعه التى سبقت الشعر ، فقد خلفت تراثا صوفيا عظيما أكثر منه ، الذى اقتصر على مقطوعات أو أبيات متناثرة إلا ما ندر من القصائد القصيرة ، مثل قصيدة ذى النون المصرى ، وكانت دون العشرين .

---

(١) ديوان الحلاج : بيت واحد ص ٢٨ ، ثلاثة ٥٣ ، بيتان ص ٦٠ .

(٢) الطواسين : الحلاج .

(٣) ديوان الحلاج : ثلاثة أبيات ٣١ ، وطواسين الحلاج فى النثر الأدبى .

وأما المرحلة الثانية فكان من أشهر أعلامها : (يحيى بن معاذ ٢٥٨ هـ) وأبو يزيد البسطامى ، (وأبو حفض الحداد ٢٦٧ هـ) ، (وأبو سعيد الخراز ٢٧٧ أو ٢٧٩ هـ) ،(وأبو حمزة البغدادى) ، (وأبو محمد سهل عبد الله التسترى ٢٨٣ أو ٢٩٣ هـ) ، (وأبو الحسين أحمد النورى ٢٩٥ هـ) (وأبو القاسم الجنيد ، وأبو مغيث الحلاج ، (وأبو بكر الشبلى) ، (وأبو عبد الله الروزبارى ٣٦٩ هـ) ، (وأبو الحسن على بن إبراهيم الحصرى ٣٧١ هـ) وأبو نصر الطوسى وغيرهم ممن عاصروهم ، وتميز الموضوع فى هذه المرحلة بخصائص من أهمها : سيطرة الأحوال الصوفية على الموضوع غالبا . وكذلك كان الحب الإلهى فى الأدب ثمرة للسلوك العملى وللتأمل المجرد والمعرفة النظرية جميعا ، فهو نتاج الاثنين معا السلوك والمعرفة . ثم تنوع الأغراض فى الشعر والنثر وظهور أغراض جديدة وهى الفناء والنور المحمدى ووحدة الأديان وشبه الحلول والاتحاد وما زال النثر الأدبى مسيطراً ، لكن الشعر قد كثر قليلا ، حتى شكل شعر الحلاج ديوانا زادت بعض القصائد فيه على العشرين ، إلا أن المقطوعات الشعرية كانت أكثر من القصائد ، وأخيرا تم تأسيس علم التصوف على يد إمامه الجنيد ، وتدوينه كعلم من العلوم على يد الطوسى رائده الأول .

٢ - **الوحدة الفنية** : انفرد الأدب الصوفى مبكرا بالوحدة الفنية دون الأدب العام ، إذ كانت الفكرة الواحدة تسيطر على النص الأدبى . بينما القصيدة فى الأدب العام ما زالت متعددة الأغراض إلا القليل من القصائد ، التى بنيت على فكرة واحدة ، وخاصة عند أبى تمام والبحترى وابن الرومى وأبى العلاء المعرى ؛ وفوق هذا تجد التلاؤم بين الفكرة فى النص الصوفى وبين لفظه وتراكيبه وصوره وخيالاته وموسيقاه الداخلية والخارجية ، ثم ما يوحيه النص من إيحاءات تزيد الفكرة دقة وعمقا وإتساعا وشرف مقصد ونبل غرض، وأخيرا التسلسل الدقيق بين جزئيات الفكرة حيث ينبع المعنى من المعنى تبعا لانتقال الصوفى من حال أدنى إلى الحال الذى يليه ،وهكذا حتى يصل إلى الغاية من أحوال التصوف .

٣ - **التجربة الصوفية** : اذا كانت التجارب الأدبية العامة يعتمد العقل

والخيال فيها على الإلهام الشعرى ، فإن التجربة الصوفية تختلف عنها ، حيث يتكىء العقل والخيال فيها على موهبة أخرى فى نفس الصوفى ، وهى الكشف الربانى ، الذى تمكن منها ، عن طريق ما صارت إليه من حالتى الفناء فى الله والبقاء لله · فالفناء هو التجرد النفسى المطلق ، حين تتعطل منافذ الإدراك المألوفة من عقل وفكر وشعور وحس ووجدان وعاطفة ، فلا تدرك ما حولها من مظاهر الحياة ، وتتجرد النفس فى صفاء للتأمل فى جلال الله وعظمته ، فتنكشف لها فى لذة التأمل مدركات وحقائق ومعلومات ، لا يمكن بحال أن تدركها النفس فى الأحوال العادية المجردة من الفناء الصوفى ، ومرتبة الفناء الصوفى هى أعلى مراتب امتداد الخيال والوجدان ، وفيها لا يتمثل الفانى أنه مشرف على العمل أو مشترك فى جزئيات التجربة ، فينسى وجوده ، بل يغيب عن فنائه ، ليسيطر الصفاء النفسى للشاعر عن طريق الكشف الإلهى والمشاهدة بالله فى التجربة الصوفية ، وهو ما يقابل الإلهام الشعرى فى التجارب الأدبية الأخرى ، وبه يتحقق الصفاء النفسى للشاعر عن طريق إشراق الذهن ويقظة الانتباه [١] فينظم الفكر ، ويخصب الخيال ؛ فالإلهام مرحلة سابقة على العقل والشعور والخيال فى التجربة العامة ، كالكشف الناتج عن الفناء الصوفى فهو مرحلة سابقة عليها جميعا قبل التصوير الأدبى فى القصيدة ·

وهذا هو الفرق الجوهرى بين الإلهام والكشف فى التجربة ، وهناك فروق أخرى من حيث فلسفتها بين الفناء والإلهام [٢] ، وتبعا لهذا الاختلاف ترى الأدب الصوفى، ينفرد حسب تجاربه الأدبية المتميزة بمصطلحات صوفية ، وبطريقة فى التعبير والتصوير ، وفى الموضوعات والأغراض ، وفى وحدتها الفنية والتجربة الروحية ، يختلف تماما فى كل ذلك عنها فى التجارب الأدبية الأخرى ، وظهر ذلك فى دراستنا للنصوص الصوفية واضحا أثناء التحليل والنقد ·

---

(١) الأسس الفنية للإبداع الفنى فى الشعر : د / مصطفى سويف ١٨٦ ·

(٢) التصوف فى الشعر العربى : د · عبد الحكيم حسان ٧٢ ·

٤ - خصائص الأسلوب والتصوير الأدبى :

نأى اللفظ فيه عن الوحشية والغرابة والثقل والضخامة ، والجلبة والخطأ اللغوى ، والنحوى ، وذاب سهولة وعذوبة ، وخفة ورقة ، وقربا ووضوحا، فأخذ موقعه مع إخوته فى تركيب محكم ونظم دقيق ، وأسلوب يتسم بالسلاسة والسيولة والانسياب ، والرصانة والاطراد والتلاؤم بين الألفاظ بعضها مع بعض ، وبينها وبين المعانى ، ثم قلة الصور البيانية وعدم تزاحمها ، حتى تفسح المجال لما اختص به الأدب الصوفى من مصطلحات لابد من وجودها فى القصيدة أو القطعة النثرية ، ولها أثر كبير فى ثراء المعنى وغزارته ومضمونه الصوفى ، ثم قلة المحسنات البديعة إلا ما جاء عفو الخاطر ، مستجيبا للمعنى والغرض ، وخاصة فى النثر الأدبى الذى يقتضى فى بنائه الفنى توقيعات محددة ، وإيقاعات موسيقية رتيبة ، تتجسد فى قصر الجمل ، وفى استخدام السجع والمقابلة والطباق والمزاوجة وغيرها، مما يشيع جواً من الهيبة والرهبة ، ثم ذلك التلاؤم بين المعنى والموسيقى الخارجية بقسميها الوزن والقافية ، وبين المعنى والموسيقى الداخلية، حيث تنوعت حسب المواقف والمعانى فى الأنغام والمقاطع الصوتية داخل الصورة والعبارة والبيت الواحد ، وأخيراً العناصر فى الصورة الأدبية ، وما أشاعته فيها من أضواء وظلال ، وألوان وأشكال ، وطعوم وروائح ، كل ذلك أعان على توضيح المعنى ، وصبغة بالصبغة الروحية ، وتلوينه بالاتجاه الصوفى ، ليفيض محبة ، ويسيل نضارة، ويتفجر قوة ، ويشرق نوراً ، ويمتد أصالة ، ويعبق الدنيا بروحه وريحانه ·

محتويات الكتاب

الصفحة

الفصل الثانى

حركة الزهد فى الأدب العربى

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

رقم الايداع بدار الكتب : ٩٦/١٣٨١٧

الترقيم الدولى : 977-5165-66-0